

مرُوجُ الذهبِ

وَمَعَادِنُ الْجَوْهَرِ

تَصْنِيفُ

أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَسْعُودِيِّ

المتوفى ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م

اعتنى به وراجعه

كمال حسن مرعي

الجزء الرابع



المكتبة العصرية
مكتبة بركات

جميع الحقوق محفوظة للناسِر

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - 2005م

ISBN 9953-34-321-7



9 789953 343211

ISBN 9953-34-317-9

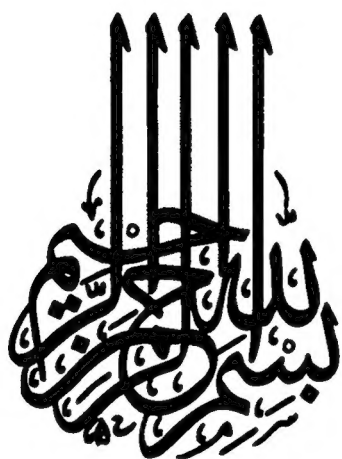
شركة لبناء شريف للإنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية

الدار النشوء الحديثة
المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - ١١ - تليفون ٦٥٥-١٥ ٩٦١١
صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليفون ٧٢٠-٣١٧ ٩٦١٧

E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb



ذكر خلافة المأمون

موجز

وبويع المأمونُ عبدُ الله بن هارونَ الرشيد، وكُنِيته أبو جعفر، وأمه باذغيسية، واسمها مراجل، وقيل: إن كُنِيته أبو العباس، وهو ابن ثمان وعشرين سنةً وشهرين، وتوفي بالبديدون على عين القشيرة، وهي عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون، وقيل: إن اسمها بالرومية أيضاً رقة، وحُمِلَ إلى طوسوس، فدفن بها على يسار المسجد، سنة ثمانٍ عَشْرَةَ ومائتين، وهو ابن تسع وأربعين سنةً، فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة، منها أربعة عشر شهراً كان يحارب أخاه محمد ابن زُبَيْدَةَ على ما ذكرنا، وقيل: سستان وخمسة أشهر، وكان أهل خُرَاسان في تلك الحروب يُسَلِّمُونَ عليه بالخلافة، وَيُدْعَى له على المنابر في الأمصار والحرمين والكور والسهل والجبل مما حَوَاه طاهر وَغَلَبَ عليه، وَيُسَلِّمُ على محمدٍ بالخلافة مَنْ كان ببغداد خاصة لا غيرها.

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

المأمون والفضل بن سهل

وغلب على المأمون الفضل بن سهل، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها، فقتله،
وادعى قوم أن المأمون دس عليه من قتله، ثم سلم عليه الوزراء بعد ذلك: منهم
أحمد بن خالد الأحول، وعمرو بن مسعدة، وأبو عباد، وكل هؤلاء سلم عليهم برسم
الوزارة.

عمرو بن مسعدة

ومات عمرو بن مسعدة سنة سبع عشرة ومائتين، فعرض لماله، ولم يعرض لمال
وزير غيره.

وغلب على المأمون آخر الفضل بن مروان، ومحمد بن يزداذ.

علي بن موسى الرضا

وفي خلافته قبض علي بن [موسى] الرضا مسموماً بطوس، ودُفن هنالك [وهو
يومئذ ابن تسع وأربعين سنة وستة أشهر، وقيل غير ذلك].

المأمون وعمه إبراهيم

وهجا المأمون إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة عمه، وكان المأمون يظهر
التشيع، وابن شكلة التسنن، فقال المأمون:

إِذَا الْمُرْجِيُّ سَرَّكَ أَنْ تَرَاهُ يَمُوتُ لَحِينَهُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ
فَجَدُّ عِنْدَهُ ذَكَرِي عَالِي وَصَلَّ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِ بَيْتِهِ

فأجابه إبراهيم راداً عليه:

إِذَا الشَّيْعِيُّ جَمَجَمَ فِي مَقَال فَسَرَّكَ أَنْ يَبُوحَ بِذَاتِ نَفْسِهِ

فَصَلَّ عَلَى النَّبِيِّ وَصَاحِبَيْهِ وَزَيْرِيهِ وَجَارِيهِ بِرُمْسِيهِ
ولإبراهيم بن المهدي مع المأمون أخبار حسان، هي موجودة في كتاب الأخبار
لإبراهيم بن المهدي.

المأمون وأبو دلف

ودخل أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي على المأمون، فقال له: يا قاسم، ما
أحسن أبياتك في صفة الحرب، ولذاذك بها، وزهدك في المغنيات! قال: يا أمير
المؤمنين، أي أبيات هي؟ قال: قولك:

لَسَلُ السِّيفِ وَشَقُّ الصَّفُوفِ وَنَفْضُ التُّرَابِ وَضَرْبُ الْقُلُلِ
قال: ثم ماذا يا قاسم؟ قال:

ولبس العجاجة والخافقات تُرِكَ المَنَايا بروس الأسَلِ
وقد كَشَفْتُ عَنْ شَبَابِهَا [عروس المنية بين الشعَلِ]
[وجاءت تَهَادَى وَأَبْنَاوَهَا] كَأَنَّ عَلَيْهِمْ شُرُوقَ الطُّفْلِ
خَرُوسَ نَطُوقِ إِذَا اسْتَنْطَقَتْ جَهُولَ يَطْيِيشِ عَلَى مَنْ جَهْلِ
إِذَا خَطَبْتَ أَخَذْتَ مَهْرَهَا رُؤُوساً تَسَاقُطُ بَيْنَ الْقُلُلِ
أَلَذَّ وَأَشْهَى مِنَ الْمَسْمَعَاتِ وَشَرِبَ الْمَدَامَةَ فِي يَوْمِ طَلِ
أَنَا ابْنُ الْحَسَامِ، وَتَرْبُ الصَّفَاحِ وَرَيْبُ الْمَنُونِ، وَقَرَبُ الْأَجْلِ

ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذه لذتي مع أعدائك، وقوتي مع أوليائك، ويدي
معك، ولئن استلذت مستلذ شيئاً من المعاقرة ملئت إلى المصادمة والمحاربة، قال: يا
قاسم، إذا كان هذا النمط من الأشعار شأنك واللذة لذتك فماذا تركت للوسنان مما
خلفت، وأظهرت له من قليل ما سترت؟ قال: يا أمير المؤمنين، وأي أشعاري؟ قال:
حيث تقول:

أَيُّهَا الرَّاقِدُ الْمُؤَرَّقُ عَيْنِي نَمْ، هَنِيئاً لَكَ الرِّقَادُ اللَّذِيذُ
عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ قَلْبِي مَمَّا قَدْ جَنَّتْ مُقْلَتَاكَ فِيهِ وَقَيْدُ

قال: يا أمير المؤمنين، سهوة بعد سهرة غلبت، وذلك [قسم] متقدم، وهذا ظن
متأخر، قال: يا قاسم، ما أحسن ما قال صاحب هذين البيتين:

أَدُمُ لَكَ الْأَيَّامَ فِي ذَاتِ بَيْنِنَا وَمَا لِلْيَالِي فِي الَّذِي بَيْنَنَا عُذْرُ

إذا لم يكن بين المحبين زَوْرَة سوى ذكر شيء قد مضى دَرَسَ الفكر

قال أبو دلف: ما أحسن ما قال يا أمير المؤمنين!! هذا السيد الهاشمي والملك العباسي، قال: وكيف أدُنَّكَ الفطنة، ولم تداخلك الظُّنَّة، حتى تحقَّقت أني صاحبهما، ولم يداخلك الشك فيهما، قال: يا أمير المؤمنين، إنما الشعر بساط صوف، فعن خَلَط الشعر بنقي الصوف ظهر رونقه عند التصنيف، ونار ضوؤه عند التأليف.

من كلمات المأمون

وكان المأمون يقول: يغتفر كل شيء إلا القَذْح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وقال المأمون: أخر الحرب ما استطعت، فإن لم تجد منها بداً فاجعلها في آخر النهار.

وذكر أنه من كلام أنوشروان.

وكان المأمون يقول: أَعْيَتِ الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يُذبر، وإذا أدبر أن يُقبل.

ولما تأتى الملك للمأمون [وخلص] قال: هذا جسيم لولا أنه عديم، وهذا ملك لولا أنه بعده هُلْكَ، وهذا سرور لولا أنه غرور، وهذا يوم لو كان يوثق بما بعده.

وكان المأمون يقول: البشر مَنْظَرٌ مُونِقٌ، وَخَلَقَ مشرق، وزارع للقلوب، ومحلٌّ مألوف، وفضل منتشر، وثناء بسيط، وتُخَفُّ للأحرار، وَدَزَعٌ رحيب، وأول الحسنات، وذريعة إلى الجاه، وأحمد للشَّيْم، وباب لرضا العامة، ومفتاح لمحبة القلوب.

وكان المأمون يقول: سادة الناس في الدنيا الأسُخِيَاء، وفي الآخرة الأنبياء وإن الرزق الواسع لمن لا يستمتع به بمنزلة طعام على ميزاب البخل، لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان قميصاً ما لبسته.

وحضر المأمون إفلاكاً لبعض أهل بيته، فسأله بعض مَنْ حضر أن يخطب، فقال: الحمد لله، الم محمود الله، و[الصلاة على] المصطفى رسول الله، وَخَيْرٌ ما عُمِلَ به كتابُ الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِيهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] ولو لم يكن في المناكحة آية محكمة ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله في ذلك من تأليف البعيد والقريب لَسَارَعَ إليه الموفق المصيب، وبادر إليه العاقل النجيب، وفلان من قد عرفتموه في نسب لم تجهلوه، خَطَبَ إليكم

فئاتكم فلانة، وبذل [لها] من الصداق كذا وكذا، فشَقُّعُوا شافعنا، وأنكحوا خاطبنا، وقلوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

بين ثمامة ويحيى بن أكثم عند المأمون

وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنا يوماً عند المأمون، فدخل يحيى بن أكثم - وكان قد ثقل عليه موضعي منه - فتذاكرنا شيئاً من الفقه، فقال يحيى في مسألة دارت: هذا قول عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عمر وجابر، قلت: أخطأوا كلهم، وأغفلوا وجه الدلالة، فاستعظم [مني] ذلك [يحيى] وأكبره، وقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يخطئ أصحاب رسول الله ﷺ كلهم، فقال المأمون: سبحان الله!! أكذا يا ثمامة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يبالي ما قال ولا ما شئع به، ثم أقبلت عليه فقلت: أأستزعم أن الحق في واحد عند الله عز وجل؟ قال: نعم، قلت: فزعمت أن تسعة أخطأوا وأصاب العاشر، وقلت أنا: أخطأ العاشر، فما أنكرت؟ قال: فنظر المأمون إلي وتبسم، وقال: لم يعلم أبو محمد أنك تجيب هذا الجواب، قال يحيى: وكيف ذلك؟ قلت: أأستقول: إن الحق في واحد؟ قال: بلى، قلت: فهل يخلي الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قلت: أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق؟ قال: نعم، قلت: فقد دخلت فيما عبت، وقلت بما أنكرت وبه شنت، وأنا أوضح دلالة منك، لأنني خطأتهم في الظاهر، وكل مصيب عند الله الحق، وإنما خطأتهم عند الخلاف، وأدّيتي الدلالة إلى قول بعضهم، فخطأت من خالفني، وأنت خطأت من خالفك في الظاهر وعند الله عز وجل.

وفد الكوفة والمأمون

وقدم وفد الكوفة إلى بغداد، فوقفوا للمأمون، فأعرض عنهم، فقال شيخ منهم: يا أمير المؤمنين، يذك أحق يد بتقيل؛ لعلوها في المكارم، وبعدها من المآثم، وأنت يوسف العفو في قلة التريب، من أرادك بسوء جعله الله حصيد سيفك، وطريد خوفك، وذليل دولتك، فقال: يا عمرو، نغم الخطيب خطيبهم، اقض حوائجهم [فقضيت].

المأمون والزنادقة ومعهم طفيلي

وذكر ثمامة بن أشرس قال: بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول ماني، ويقول بالنور والظلمة، من أهل البصرة، فأمر بحملهم إليه بعد أن سُموا

واحدًا واحدًا، فلما جُمِعُوا نظر إليهم طِفْلِي فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فدخل في وَسْطَهُمْ، ومضى معهم، و[هو] لا يعلم بشأنهم، حتى صار بهم الموكلون إلى السفينة، فقال الطفيلي: نزهة لا شك فيها، فدخل معهم السفينة، فما كان بأسرع من أن جيء بالقيود، فقيد القوم والطفيلي معهم، فقال الطفيلي: بلغ أمر تطفيلي إلى القيود، ثم أقبل على الشيوخ فقال: قَدَيْتُكُمْ أَيْشْ أَنْتُمْ؟ قالوا: بل أيش أنت؟ ومن أنت من إخواننا؟ قال: والله ما أدري غير أنني [والله] رجل طفيلي خرجت من هذا اليوم من منزلي فلقيتكم فرأيت منظرًا جميلًا وَعَوَارِضَ حسنة [وبزة] ونعمة فقلت: شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة، فدخلت في وسطكم، وجاذبت بعضكم كأنني في جملة أحدكم، فصرتم إلى هذا الزورق، فرأيتَه قد فُرِشَ بهذا الفرش ومهد ورأيت سفرًا مملوءة وجُربًا وسلالًا، فقلت: نزهة يمضون إليها إلى بعض القصور والبساتين، إن هذا اليوم مبارك، فابتهجت سرورًا، إذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدني معكم، فورد عليّ ما قد أزال عقلي، فأخبروني ما الخبر، فضحكوا منه وتبسموا وفرحوا به وسُرُّوا، ثم قالوا: الآن قد حصلت في الإحصاء، وأوثقت في الحديد، وأما نحن فمانية غُمِرَ بنا إلى المأمون، وسندخل إليه، ويسألنا عن أحوالنا، ويستكشفنا عن مذهبنا، ويدعوننا إلى التوبة والرجوع عنه بامتحاننا بضروب من المحن: منها إظهار صورة ماني لنا، ويأمرنا أن نَتَّقَلَ عليها، ونَتَّبِرَ منها، ويأمرنا بذبح طائر ماء، وهو الدَّرَّاج، فمن أجابه إلى ذلك نجا، ومن تخلف عنه قتل، فإذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤدِّيك الدلالة إلى القول به، وأنت زعمت أنك طفيلي، والطفيلي يكون معه مُدَاخِلَات وأخبار، فاقطع سَفَرَنَا هذا إلى مدينة بغداد بشيء من الحديث وأيام الناس، فلما وصلوا إلى بغداد وأدخلوا على المأمون جعل يدعو بأسمائهم رجالًا رجالًا فيسأله عن مذهبه، فيخبره بالإسلام، فيمتحنه ويدعوه إلى البراءة من ماني ويظهر له صورته، ويأمره أن يَتَّقَلَ عليها والبراءة منها، وغير ذلك، فيأبون، فيمرهم على السيف، حتى بلغ إلى الطفيلي بعد فراغه من العشرة، وقد استوعبوا عدة القوم، فقال المأمون للموكلين: مَنْ هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أننا وجدناه مع القوم فجئنا به، فقال له المأمون: ما خبرك؟ قال: يا أمير المؤمنين، امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئًا، وإنما أنا رجل طفيلي، وقَصَّ عليه خبره من أوله إلى آخره، فضحك المأمون، ثم أظهر له الصورة، فلعنها وتبرأ منها، وقال: أعطونيها حتى أسلِّحَ عليها، والله ما أدري ما ماني: أيهوديًا كان أم مُسْلِمًا، فقال المأمون: يؤدَّب على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه.

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً بين يدي المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هَبْ لي ذنبه وأحدثك بحديث عجب في التطفيل عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم.

إبراهيم بن المهدي يتطفل

قال: يا أمير المؤمنين، خرجت يوماً فمررت في سِكَك بغداد متطرفاً، حتى انتهيت إلى موضع، فشممت رائحة أباذير من جناح [في] دار عالية، وقدور قد فاح قنارها، فتأقت نفسي إليها، فوقفت على حَيَّاط فقلت: لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجار من البزازين، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، فرفعت طرفي إلى الجناح، فإذا فيه شباك، فنظرت إلى كف قد خرجت من الشباك وَمِعْصَم ما رأيت أَحْسَنَ منهما قط، فشغلني يا أمير المؤمنين حُسْنُ الكف والمعصم عن رائحة القدور، فبقيت باهتاً وقد دُهِلَ عقلي، ثم قلت للخياط: هو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأحسب أن عنده اليوم دعوة، ولا ينادم إلا تجاراً مثله [مستورين] فأنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال لي الخياط: هذان منادماه، قلت: ما اسماهما؟ وما كُنَاهُما؟ فقال: فلان وفلان، فحركت دابتي حتى دخلت بينهما، وقلت: جعلت فداكما، قد استبطأكما أبو فلان أعزّه الله، وسأيرتكما حتى انتهينا إلى الباب، فَقَدَّمَانِي، فدخلت وَدَخَلَا، فلما رأني صاحب المنزل لم يَشْكُ إلا أنني منهما بسبيل، فَرُحِبَ وأجلسني في أَجَلٍ موضع، فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأتينا بتلك الألوان؛ فكان طعمها أطيب من رائحتها، فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها، وبقي الكف والمعصم، ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة، فإذا هو أَتْبَلُ مجلس وَأَجَلُّ فرش، وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويقبل عليّ بالحديث، والرجلان لا يشكان أنه مني بسبيل، وإنما كان ذلك الفعل منه بي لِمَا ظَنُّ أَنِّي منهما بسبيل، حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا جارية تتثنى كأنها غُضُنُ بَانٍ، فسَلَمْتُ غير خَجَلَةٍ، وهيئت لها وسادة، وأتي بَعُودٍ فوضع في حجرها، فجَسَّتُهُ فتبينت الحذق في جسها، ثم اندفعت تغني:

تَوَهَّمَهَا طَرْفِي فَالَمَ حَدَّهَا فصار مكان الوهم من نظري أثرُ
وَصَافَحَهَا كَفِّي فَالَمَ كَفَّهَا فمن لَمَسِ كفي في أناملها عَقْرُ
وَمَرَّتْ بِقَلْبِي خَاطِراً فَجَرَحَتْهَا ولم أر شيئاً قط يَجْرُحُهُ الفكرُ

فهيجت والله يا أمير المؤمنين عليّ بلابلي، وطربت لحسن غنائها وحذقها، ثم اندفعت تغني:

أَشْرُتُ إِلَيْهَا: هل علمت مودتي فردَّتْ بطرف العين: إني على العهد

فحدثت عن الإظهار عمداً لسرها وحادثت عن الإظهار أيضاً على عمد
فصحت: السلامة، وجاءني من الطرب ما لا أملك [معه] النفس ولا الصبر،
واندفعت تغني:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمني وإياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أغني تشكو الهوى بجفونها وترجع أحشاء على النار تضرم
إشارة أفواه، وعَمَزُ حواجب وتكسير أجفان، وكفّ يسلم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على جذقها، ومعرفتها بالغناء، وإصابتها معنى
الشعر، وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأته، فقلت: بقي عليك يا جارية شيء، فغضبت
وضربت بعودها الأرض، ثم قالت: متى كنتم تُخَضِرُونَ مجالسكم البُعْضَاء؟ فندمت على
ما كان مني، ورأيت القوم قد تغيروا [إليّ]، فقلت: أليس ثمَّ عودٌ؟ قالوا: بلى يا سيدنا،
فأتيت بعود، فأصلحت من شأنه ما أردت، واندفعت أغني:

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حزيناً؟ أصممن أم بَعْدَ المَدَى فبلينا؟
رَأَحُوا العشيَّةَ روحة مذكورة إن متن متن، وإن حين حيننا

فما استتمته جيداً حتى خرجت الجارية فأكَبْتُ على رجلي تقبلها، وهي تقول:
المعذرة والله لك يا سيدي، فما سمعت من يغني هذا الصوت مثلك، وقام مولاها وكل
من كان عنده فصنعوا كصنعها، وطرب القوم، واستحثوا الشرب فشربوا بالطاسة ثم
اندفعت أغني:

أبالله هل تُمَسِّينَ لا تذكريني وقد سَجَمْتُ عينا من ذكرك الدما
إلى الله أشكو بُخْلَهَا وَسَمَاحَتِي لها غسل مني وتبذل علقما
فرْدِي مُصَاب القلب أنت قتلتها ولا تتركه ذاهل العقل مغرما
إلى الله أشكو أنها أجنبية وأئي لها بالود ما عشت مكرما

فجاء من طرب القوم [يا أمير المؤمنين] ما خشيت أن يخرجوا من عقولهم،
فأمسكت ساعة، حتى إذا هدا القوم اندفعت أغني الثالثة:

هذا محبك مَطْوِيٌّ على كمده صَبٌّ، مدامعه تجري على جَسَدِهِ
له يَدٌ تسأل الرحمن راحته مما به، ويَدٌ أخرى على كبده
يا من رأى كَلِيفاً مستهتراً أسفاً كانت منيته في عينه ويده

فجعلت الجارية يا أمير المؤمنين تصيح: السلامة، هذا والله الغناء يا مولاي، وسكر القوم، وخرجوا من عقولهم، وكان صاحب المنزل جيد الشراب ونديماه دونه، فأمر غلمانهم مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم إلى منازلهم، وخلوت معه فشربنا أقداحاً، ثم قال: يا سيدي، ذهب والله ما خلا من أيامي باطلاً، إذ كنت لا أعرفك، فمن أنت يا مولاي؟ فلم يزل يلح عليّ حتى أخبرته [فقام] فقبل رأسي، وقال: يا سيدي، وإني أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك، وإذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا أعلم، وسألني عن قصتي وكيف حملت نفسي على ما فعلته، فأخبرته خبر الطعام والكف والمعصم، فقال: يا فلانة، لجارية له، قولي لفلانة تنزل، فجعل ينزل إليّ جواريه واحدة واحدة، فأنظر إلى كفها وأقول: ليست هي، حتى قال: والله ما بقي غير أُمي وأختي، ولأنزلتهما إليك، فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت له: جعلت فداك، ابدأ بالأخت قبل الأم، فعسى أن تكون صاحبتني، فقال: صدقت، ففعل، فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هي هي، جعلت فداك، فأمر غلمانهم من قُورِه فصاروا إلى عشرة مشايخ من جَلّة جيرانهم فأحضروا، وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، ثم قال: هذه أختي فلانة، وأنا أشهدكم أنني قد زوجتها من سيدي إبراهيم بن المهدي، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقبلتُ النكاح، ودفعت إليها البدرة الواحدة، وفرت الأخرى على المشايخ، وقلت لهم: اعدروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت، فقبضوها وانصرفوا، ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض البيوت تنام مع أهلك، فأخسمني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت من كرمه وسعة صدره، فقلت: بل أحضر عمارية وأحملها إلى منزلي، فقال: افعَل ما شئت، فأحضرت عمارية وحملتها إلى منزلي، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل إلي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري.

فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل، وأطلق الطفيلي، وأجازه بجائزة حسنة وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل؛ فصار بعدُ من خواص المأمون وأهل مودته، ولم يزل معه على أفضل الأحوال السارة في المنادمة وغيرها.

إسحاق الموصلي وكلثوم العتّابي عند المأمون

وذكر المبرد وثعلب قالا: كان كلثوم العتّابي واقفاً بباب المأمون، فجاء يحيى بن أكنم، فقال له العتّابي: إن رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكاني، قال: لست بحاجة، قال: [قد] علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل مغوّان، قال: سلكت بي غير طريقي، قال: إن الله قد ألحقك بجاه ونعمة منه، فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، وبالتقير

إن كفرت، وأنا لك اليوم خَيْرُ منك لنفسك، أدعوك لما فيه زيادة نعمتك وأنت تأبى ذلك، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه بذُّله للمستعين، فدخل يحيى فأخبر المأمون الخبر، فأدخل إليه العتابي، وفي المجلس إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فأمره بالجلوس، وأقبل يسأله عن أحواله وشأنه، فيجيبه بلسان ناطق، فاستظرفه المأمون، وأخذ في مداعبته، فظن الشيخ أنه قد استخفَّ به، فقال: يا أمير المؤمنين، الإيناس قبل الإيساس، فاشتبه عليه قوله، فنظر إلى إسحاق [فغمزه بعينه] ثم قال: ألف دينار، فأتى بها فوضعت بين يدي العتابي، ثم دعا إلى المفاوضة، وأغرى المأمونُ إسحاقاً بالعبث به، فأقبل إسحاق بعارضه في كل باب يذكره ويزيد عليه، فعجب منه، وهو لا يعلم أنه إسحاق، ثم قال: أياذن أمير المؤمنين في مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه؟ فقال: افعل، فقال له العتابي: من أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس واسمي كل بصل! فقال له العتابي: أما النسبة فقد عرفت، وأما الاسم فمكرر، وما كل بصل من الأسماء؟ فقال له إسحاق: ما أقلُّ إنصافك، وما كلثوم؟ والبصل أطيب من الثوم، قال العتابي: قاتلك الله! ما أملحك!! ما رأيت كالرجل حلاوة، أفيأذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني به فقد والله غلبني؟ فقال له المأمون: بل ذلك مؤقرٌ عليك ونأمر له بمثله، فانصرف إسحاق إلى منزله، ونادمه بقية يومه.

العتابي

وكان العتابي من أرض جند قنسرين والعواصم، وسكن الرقة من ديار مُضَرَ، وكان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية المجالسة وبراعة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن كثير من الناس في عصره.

وذكر أنه قال: كاتبُ الرجل لسانه، وحاجبه وجهه، وجليسه كله، ونظم في ذلك شعراً، فقال:

لِسَانُ الْفَتَى كَاتِبُهُ وَوَجْهُ الْفَتَى حَاجِبُهُ
وَتَدْمَانُهُ كُلُّهُ وَكُلُّ لَهُ وَاجِبُهُ

وذكر عنه أنه قال: إذا وليت عملاً فانظر مَنْ كاتبك، فإنما يعرف مقداركَ مَنْ بعد عنك بكاتبك، واستعقل حاجبك، فإنما يقضي عليك الوفود قبل الوصول إليك بحاجبك، واستكرم واستظرف جليستك ونديمك، فإنما يُورِثُ الرجل بمن معه.

بين كاتب ونديم

وقد فاخر كاتب نديماً فقال الكاتب: أنا معونة وأنت مؤونة، وأنا للجد وأنت للهزل، وأنا للشدة وأنت للذة، وأنا للحرب وأنت للسلم، فقال النديم: أنا للنعمة وأنت للنقمة، وأنا للخطوة وأنت للمهنة، وتقوم وأجلس، وتحتشم وأنا مؤنس، تدأب لحاجتي، وتَشَقَّى بما فيه سعادتي، وأنا شريك وأنت معين، وأنا قرين وأنت تابع، وإنما سميت نديماً للندم على مفارقتي.

وللعتابي أخبار حسان، وتصنيفات ملاح، في ذكرها خروج عما إليه قصدنا، ونحوه يَمُنَّا، وإنما ذكرنا عنه هذه الفصول لتغلغل الكلام بنا إليها وتشعبه نحوها.

رجل يرفع قصة للمأمون

وحكى الجوهري عن العتبي، عن عباس الديري، قال: رفع رجل قصة إلى المأمون، وسأله أن يأذن له في الدخول عليه، والاستماع منه، فأذن له، فدخل فسلم، فقال له المأمون: تكلم بحاجتك، قال: أخبر أمير المؤمنين أن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام [ومحن الزمان] قصدتني فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني، فلم تبقى لي ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندقر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبداً ولا لبداً، وعليّ دين كثير، ولي عيال وأطفال وصبية صغار، وأنا شيخ كبير، قد قعدت بي المطالب، وكبرت عني المكاسب، وبني حاجة إلى نظر أمير المؤمنين وعطفه، قال: فبينما هو في الكلام إذ ضرط، فقال: وهذا يا أمير المؤمنين من عجائب الدهر ومحنته، ولا والله ما ظهر مني قط إلا في موضعه؛ فقال المأمون لجلسائه: ما رأيت قط أقوى قلباً ولا أربط جأشاً ولا أشد نفساً من هذا الرجل، ثم أمر له بخمسين ألف درهم [مُعجَلة].

المأمون وأبو العتاهية

قال أبو العتاهية: وَجَّهَ إِلَيَّ المأمون [يوماً] فصرْتُ إليه، فألفيته مُطَرِّقاً متفكراً مغموماً، فأحجمت [عن الدنو إليه وهو على تلك الحال، فرفع رأسه وأشار بيده: أن اذنْ، فدنوت]، فأطَرَقَ ملياً ثم رفع رأسه فقال: يا إسماعيل، شأن النفس الملل، وحُبُّ الاستطراف، والأنس بالوحدة، كما نأنس بالألفة، قلت: أجل يا أمير المؤمنين، ولي في هذا بيت شعر، قال: وما هو؟ قلت:

لا يُصلِح النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُصَرِّفَةً إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

قال: أحسنت زدنِي، فقلت: لا أقدر على ذلك، وآتسته بقية يومه، وأمر لي بمال، فانصرفت.

المأمون ورجل عامي

ويحكى أن المأمون أمر بعض خواصه من خدَمِه أن يخرج فلا يرى أحداً في الطريق إلا أتى به كائناً مَنْ كان من رفيع أو خسيس، فأتاه برجل من العامة، فدخل وعنده المعتصم أخوه ويحيى بن أكتم ومحمد بن عمرو الرومي، وقد طبخ كل واحد منهم قِدرًا، فقال محمد بن إبراهيم الطاهري [للرجل العامي]: هؤلاء من خواص أمير المؤمنين فأجبهم عما يسألون، فقال المأمون: إلى أين خرجت في هذا الوقت وقد بقي عليك من الليل ثلاث ساعات؟ فقال: غرني القمر، وسمعت تكبيراً فلم أشك أنه أذان، فقال له المأمون: اجلس، فجلس، فقال له المأمون: قد طبخ كل واحد منا قِدرًا هو ذا يقدمُ إليك من كل واحد منها قِدرًا [فدق ذلك] فأخبر عن فضائلها وما ترى من طيبها، فقال: هاتوا، فقدمت في طبق كبير كلها موضوعة عليه لا تمييز بينها، ولكل واحدة ممن طبخها علامة، فبدأ فذاق قِدرًا طبخها المأمون فقال: زه، وأكل منها ثلاث لقمات، وقال: أما هذه فكانها مسكة وطباخها حكيم نظيف ظريف مليح، ثم ذاق قدر المعتصم، فقال: هذه والله فكانها والأولى من يد واحدة خرجتًا، وبحكمة [متساوية] طبختا، ثم ذاق قدر محمد بن عمرو الرومي فقال: وهذه قِدرُ طبّاخ بن طبّاخ أجاد، ما أحكمه، ثم ذاق قدر يحيى بن أكتم [القاضي] فأعرض بوجهه، وقال: شه، هذه والله جعل طبّاخها فيها مكان بصلها خرا، فضحك القوم وذهب بهم الضحك [كلّ مذهب]، وقعد يحادثهم ويطايهم ويتلّهى معهم، وطابوا معه، فلما برق الفجر قال له المأمون: لا يخرجنّ منك ما كنا فيه، وعلم أنه علم بهم، فوصله بأربعة آلاف دينار، وقسّط له على أصحاب القدر [كل واحد منهم على قدر مرتبته]، وقال: إياك أن تعود إلى الخروج في مثل هذا الوقت مرة أخرى، فقال: لا أعدمكم الله الطيبخ ولا أعدمني الخروج؛ فسألوه عن تجارته، وعرفوا منزله، وجعل [يعدّ] في خدمة المأمون وخدمة الجميع، وصار في جملةهم.

عي المأمون عن جواب ثلاثة

وحدث أبو عباد الكاتب - وكان خاصًا بالمأمون - قال: قال لي المأمون: ما أعياني إلا جواب ثلاثة أنفس: صرت إلى أم ذي الرياستين أعزبها عنه فقلت: لا تأسي عليه ولا تخزني لفقده، فإن الله قد أخلف عليك مني ولدًا يقوم لك مقامه، فمهما كنت تنسطين إليه فلا تنقبضين عني منه، فبكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين، وكيف لا

أحزن على ولد أكسبني ولدًا مثلك؟ وأتيت برجل قد تنبأ فقلت له: مَنْ أنت؟ قال: موسى بن عمران عليه السلام، فقلت: ويحك!! إن موسى بن عمران عليه السلام كانت له آيات ودلائل بآن بها أمره، منها أنه ألقى عصاه فابتلعت كَيْدَ السُّحرة، ومنها إخراج يده من جيبه وهي بيضاء، وجعلت أعدد عليه ما أتى به موسى بن عمران عليه السلام من دلائل النبوة، وقلت له: لو أتيتني بشيء واحد من علاماته أو آية من آياته كنت أول من آمن بك، وإلا قتلتك، فقال: صدقت، إلا أنني أتيت بهذه العلامات لما قال فرعون أنا ربكم الأعلى، فإن قلت أنت كذلك أتيتك من العلامات بمثل ما أتيت به، والثالثة أن أهل الكوفة اجتمعوا يَشْكُونُ عاملاً كنت أحمد مذهبه وأرتضي سيرته، فوجَّهت إليهم إني أعلم سيرة الرجل، وأنا عازم على القعود لكم في غداة غد، فاختاروا رجلاً يتولى المناظرة عنكم، فأنا أعلم بكثرة كلامكم، فقالوا: ما فينا من نرتضيه لمناظرة أمير المؤمنين، إلا رجل أطروش، فإن صبر أمير المؤمنين عليه تفضل بذلك، فوعدتهم الصبر عليه، وحضروا من الغد، فأمرت بالرجال فدخلوا والأطروش، فلما مثل بين يديَّ أمرتهم بالجلوس، ثم قلت له: ما تشكو من عاملكم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هو شر عامل في الأرض، أما في أول سنة ولينا فإننا بعنا أثاثاتنا وعَقَارَنَا، وفي السنة الثانية بعنا ضياعنا وذخائرنا، وفي السنة الثالثة خرجنا عن بلدنا فاستغنينا بأمر أمير المؤمنين ليرحم شكوانا ويتطوَّلَ علينا بالأمر بصَرْفِه عنا، فقلت له: كذبت لا أمان لك، بل هو رجل أخذتُ سيرته ومذهبه، وارترضيت دينه وطريقته، واخترتك لكم لمعرفتي بكثرة سخطكم على عمالكم، قال: يا أمير المؤمنين، صدقت وكذبتُ أنا! ولكن هذا العامل الذي ارتضيت دينه وأمانته [وعفته] وعدله وإنصافه، كيف خصصتنا به هذه السنين دون البلاد [التي قد ألزمتك الله عز وجل من العناية بأموالها مثل ما ألزمتك من العناية بأمرنا؟ فاستعمله على هذه البلاد] حتى يشملهم من إنصافه وعدله مثل الذي شملنا، فقلت له: قم في غير حفظ الله، فقد عزلته عنكم.

مناظرة المأمون للفقهاء

وكان يحيى بن أكرم يقول: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجَدُّوا الوضوء، ومن خُفَّه ضيق فليترعه، ومن ثقلت عليه فَلْيُسَوِّته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظروهم أحسن مناظرة، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول

الشمس، ثم تُنصَّب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون، قال: فإنه يوماً لجالسٍ إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة، ويطلب الدخول للمناظرة، فقلت: إنه بعض الصوفية، فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له، فبدأ المأمون فقال: ائذن له، فدخل رجل عليه ثيابٌ قد شمرها ونعله في يده، فوقف على طرف البساط فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: وعليك السلام، فقال: أتأذن [لي] في الدنو منك؟ قال: ائذن، فدنا، ثم قال: اجلس، فجلس، ثم قال: أتأذن في كلامك؟ فقال: تكلم بما تعلم أن الله فيه رضا، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته بأجتماع من المسلمين عليك، ورضاً منك، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك؟ قال: لم أجلسه بأجتماع منهم ولا بمغالبة لهم، إنما كان يتولَّى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمده المسلمون إما على رضا وإما على كره، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق مَنْ حضره من المسلمين، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاجِّ البَيْعَةِ لي ولآخر معي فأعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذا السبيل التي مضى عليها، فلما صار [الأمر] إليّ علمت أنني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا، ثم نظرت فرأيت أنني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام [ومرج عهدهم]، وانتقضت أطرافه، وغلب الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى، ولم يحجَّ أحد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السبل، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، فقمت بهذا الأمر حيابة للمسلمين، ومجاهداً لعدوهم، وضابطاً لسبلهم، وأخذاً على أيديهم، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به فأسلم الأمر إليه، وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل رسولي إلى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورَضُوا به خرجت إليه من هذا الأمر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقام، فأمر المأمون علي بن صالح [الحاجب] بأن ينفذ في طلبه مَنْ يعرف مقصده، ففعل ذلك، ثم رجع وقال: وَجَّهت يا أمير المؤمنين [من اتبع الرجل فمضى] إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً [في هيئته وزيه] فقالوا له: لقيت الرجل؟ فقال: نعم! قالوا: فما قال لك؟ قال: ما قال لي إلا خيراً، ذكر أنه ضَبَطَ أمور المسلمين إلى أن تأمن سُبُلهم، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا يعطل الأحكام، فإذا رضي المسلمون برجل سلم الأمر إليه وخرج إليه منه، قالوا: ما نرى بهذا بأساً، واftرقوا، فأقبل المأمون على يحيى، فقال: كفيتم مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب، فقلت: الحمد لله الذي ألهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول [والفعل].

يحيى بن أكثم قاضي البصرة

قال المسعودي: وكان يحيى [بن أكثم] وقد ولي قضاء البصرة قبل تأكد الحال بينه وبين المأمون، فرفع إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه، فقال المأمون: لو طعنوا عليه في أحكامه قبل ذلك منهم، قالوا: يا أمير المؤمنين، قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر، واستفاض ذلك عنه، وهو القاتل يا أمير المؤمنين في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم في أوصافهم [قوله المشهور] فقال المأمون: وما الذي قال؟ فدفعت إليه القصة فيها جُمِلَ مما رمي به وحكي عنه في هذا المعنى، وهو قوله:

أربعة تَفْتِنُ الحَظَّاهِمَ فعين من يَغْشَقُهُم سَاهِرَه
فواحد دنياه في وجهه منافق ليست له آخِرَه
وآخر دنياه مفتوحة من خَلْفِهِ آخِرَه وافِرَه
وثالث قد حاز كلتيهما قد جمع الدنيا مع الآخِرَه
ورابع قد ضاع ما بينهما ليست له دنيا ولا آخِرَه

فأنكر المأمون ذلك في الوقت واستعظمه، وقال: أيكم سمع هذا منه؟ قالوا: هذا مستفاض من قوله فينا يا أمير المؤمنين، فأمر بإخراجهم عنه، وعَزَلَ يحيى عنهم. وفي يحيى وما كان عليه بالبصرة يقول ابن أبي نعيم:

يا ليت يحيى لم يلدَه أَكْثَمُهُ ولم تَطَأْ أَرْضَ العِراقِ قَدَمُهُ
أَلُوْطُ قاضٍ في العِراقِ نَعْلَمُهُ أي دَوَاةٌ لَمْ يَلْفِها قَلَمُهُ
وأي شِعْبٍ لَمْ يَلِجْهُ أَرْقَمُهُ

وضرب الدهر ضربانه فاتصل يحيى بالمأمون ونادمه، ورخص له في أمور كثيرة، فقال له يوماً: يا أبا محمد، من الذي يقول:

قاضٍ يرى الحَدَّ في الزَّناء، ولا يرى على من يَلُوْطُ من باس

قال: ذلك ابن أبي نعيم يا أمير المؤمنين، وهو القاتل:

أَمِيرُنا يَرْتَشِي، وحاكِمُنا يَلُوْطُ، والرَّأسُ شَرُّ ما راس
قاضٍ يرى الحَدَّ في الزَّناء، ولا يرى على مَن يَلُوْطُ من باس
ما أَحْسَبُ الجورَ يَنْقُضِي وعلى الـ أَمَّةٌ وَالِ مَنْ آلَ عِباس

فأطرق المأمون خجلاً ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يُتَقَى ابن أبي نعيم إلى السند.

وكان يحيى إذا ركب مع المأمون في سفر ركب معه بمنطقة وقباء وسيف بمعالق وساسية، وإذا كان الشتاء ركب في أقيّة الخز وقلانس السّمور والسروج المكشوفة، وبلغ من إذاعته ومجاهرته باللواط أن المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضاً يركبون بركوبه ويتصرفون في أموره، ففرض أربعمئة غلام مُزداً اختارهم حسان الوجوه، فافتضح بهم، وقال في ذلك راشد بن إسحاق يذكر ما كان من أمر يحيى في الفرض:

خليلي انظرا متعجبين	لأظرف منظر مقلته عيني
لفرض ليس يقبل فيه إلا	أسيل الخدّ حلّو المقلتين
والا كلّ أشقر أكتمي	قليل نبات شعر العارضين
يقدّم دُونَ موقفٍ صاحبيه	بقدر جماله وبقبح ذين
يقودهم إلى الهيجاء قاض	شديد الطعن بالرمح الرديني
إذا شهد الوعى منهم شجاع	تجدل للجبين ولليدين
يقودهم على علمٍ وجلّم	ليوم سلامة لا يوم حين
وصار الشيخ منحنياً عليه	بمدمجه يجور الركبتين
يغادرهم إلى الأذقان صرعى	وكلهم جريح الخصبتين

وفيه يقول راشد أيضاً:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً
متى تَصْلُح الدنيا ويصلح أهلها
فأعقبنا بعد الرجاء قُشوط
وقاضي قضاة المسلمين يلوط؟

وكان يحيى بن أكثم بن عمرو بن أبي رباح من أهل خراسان من مدينة مَرُو، وكان رجلاً من بني تميم، وسخط عليه المأمون في سنة خمس عشرة ومائتين وذلك بمصر، وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه، وكان قد كتب الحديث وتفقه للبصريين كعثمان البتي وغيره وله مصنفات في الفقه وفي فروعه وأصوله، وكتاب أفرده سماه بكتاب «التنبيه» يرد فيه على العراقيين وبينه وبين أبي سليمان أحمد بن أبي دُواد بن علي مناظرات كثيرة.

وفاة الإمام الشافعي

وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الشافعي، في رجب ليلة الجمعة، وذلك سنة أربع ومائتين، ودفن صبيحة الليلة، وهو ابن أربع وخمسين سنة، وصلى عليه السري بن الحكم أمير مصر يومئذ،

كذلك ذكر عكرمة بن محمد بن بشر عن الربيع بن سليمان المؤذن، وذكر أيضاً محمد بن سفيان بن سعيد المؤذن وغيرهما عن الربيع بن سليمان مثل ذلك، ودفن الشافعي بمصر بحوسة قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم، وبين قبورهم وعند رأسه عمود من الحجر كبير، وكذلك عند رجليه، وعلى العالي الذي عند رأسه حفر قد كتب فيه في ذلك الحجر «هذا قبر محمد بن إدريس الشافعي أمين الله» وما ذكرنا فمشهور بمصر، والشافعي يتفق نسبه مع بني هاشم وبني أمية في عبد مناف؛ لأنه من ولد المطلب بن عبد مناف، وقد قال النبي ﷺ: «نحن وبنو المطلب كهاتين» وأشار بأصبعيه مضمومتين، وقد كانت قریش حاصرت بني المطلب مع بني هاشم في الشَّعْبِ.

وحدثني فقير بن مسكين عن المزني بهذا، وكان فقير يحدث عن المزني، وكان سماعنا من فقير بن مسكين بمدينة أسوان بصعيد مصر، قال: قال المزني: دخلت على الشافعي غداة وفاته، فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدنيا راجلاً، ولإخواني مفارقاً، وبكأس المنية شارباً، ولا أدري إلى الجنة تصير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيها، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جَعَلْتُ الرجا مني لعفوك سُلماً
تَعَاظَمَنِي ذنبي، فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

وفاة أبي داود الطيالسي وابن الكلبي

وفي هذه السنة التي مات فيها الشافعي - وهي سنة أربع ومائتين - مات أبو داود سليمان بن داود الطيالسي، وهو ابن إحدى وتسعين سنة، وفيها مات هشام بن محمد [بن السائب] الكلبي.

المأمون ورجل يدعي النبوة

وادَّعى رجل النبوة بالبصرة أيام المأمون، فحمل إليه مُوثِقاً بالحديد، فمثل بين يديه، فقال له: أنت نبي مرسل؟ قال: أما الساعة فأنا مُوثِق، قال: وملك!! مَنْ غرك؟ قال: أبهذا تُخَاطَبُ الأنبياء؟ أما والله لولا أنني مُوثِقٌ لأمرت جبريل أن يُدْمِمَها عليكم؛ قال له المأمون: والمُوثِقُ لا تجاب له دعوة؟ قال: الأنبياء خاصة إذا قُيِّدَتْ لا يرتفع دعاؤها، فضحك المأمون، وقال: من قيدك؟ قال: هذا الذي بين يديك، قال: فنحن نطلقك وتأمّر جبريل أن يدممها، فإن أطاعك آمناً بك وصدقناك، فقال: صدق الله إذ

يقول: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وإن شئت فافعل، فأمر بإطلاقه، فلما وجد راحة العافية قال: يا جبريل، ومدّ بها صوته، ابعثوا من شتمت فليس بيني وبينكم الآن عمل، غيري يملك الأموال وأنا لا شيء معي، ما يذهب لكم في حاجة إلا كسخان فأمر بإطلاقه والإحسان إليه.

المأمون ورجل يدعي أنه إبراهيم الخليل

وحدث ثُمّامة بن أشرس قال: شهدت مجلساً للمأمون وقد أتى برجل ادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: ما سمعت بأجراً على الله من هذا، قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في كلامه، قال: شأنك وإياه، قلت: يا هذا إن إبراهيم عليه السلام كانت له براهين، قال: وما براهينه؟ قلت: أضرمّت له النار وألقي فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، فنحن نُضرمُ لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك بزدأ وسلاماً كما كانت عليه آمناً بك وصدقناك، قال: هات [ما هو] أليّن عليّ من هذا، قلت: فبراهين موسى عليه السلام، قال: وما هي؟ قلت: ألقى العصا فإذا هي حية تسعى تَلَقَّفُ ما يأفكون، وضرب بها البحر فانفلق، وبياض يده من غير سوء، قال: هذا أصعب، ولكن هات ما هو أليّن [عليّ] من هذا قلت: فبراهين عيسى عليه السلام، قال: وما براهينه؟ قلت: إحياء الموتى، فقطع الكلام في براهين عيسى وقال: جئت بالطامة الكبرى، دعني من براهين هذا، قلت: فلا بد من براهين، قال: ما معي من هذا شيء، [وقد] قلت لجبريل إنكم توجهونني إلى شياطين فأعطوني حجة أذهب بها وإلا لم أذهب، فغضب جبريل عليه السلام عليّ، وقال: جئت بالشر من ساعة، اذهب أولاً فانظر ما يقول لك القوم، فضحك المأمون وقال: هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة.

وفي سنة ثمان وتسعين ومائة خلّع المأمون أخاه القاسم بن الرشيد من ولاية العهد.

خروج أبي السرايا وابن طباطبا وقوم من العلويين

وفي سنة تسع وتسعين ومائة خرج أبو السرايا السري بن منصور الشيباني بالعراق، واشتد أمره، ومعه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل [بن إبراهيم] بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو ابن طباطبا، ووثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي رحمهم الله، ووثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن [محمد بن] علي بن [الحسن بن علي] عليه السلام، وزيد بن موسى بن جعفر [بن محمد بن علي بن الحسين بن علي]، فغلبوا على البصرة.

وفي هذه السنة مات ابن طباطبا الذي كان يدعو إليه أبو السَّريَّا ، وأقام أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي .
 وظهر في هذه السنة باليمن - وهي سنة تسع وتسعين ومائة - إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد [بن علي بن الحسن بن علي] ، وظهر في أيام المأمون بمكة ونواحي الحجاز محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمهم الله ، وذلك في سنة مائتين ، ودعا لنفسه ، وإليه دعت السبئية من فرق الشيعة وقالت بإمامته ، وقد افترقوا فرقا : فمنهم مَنْ غَلَا ، ومنهم من قصر ، وسلك طريق الإمامية ، وقد ذكرنا في كتاب «المقالات في أصول الديانات» وفي كتاب «أخبار الزمان» من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة ، في الفن الثلاثين من أخبار خلفاء بني العباس ومن ظهر في أيامهم من الطالبين ، وقيل : إن محمد بن جعفر هذا دعا في بدء أمره وعنفوان شبابه إلى محمد بن إبراهيم بن طَبَّاطْبَا صاحب أبي السرايا ، فلما مات ابن طَبَّاطْبَا - وهو محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن دعا لنفسه ، وَتَسَمَّى بأُمير المؤمنين ، [وليس في آل محمد ممن ظهر لإقامة الحق ممن سلف وخَلَفَ قبله وبعده مَنْ تَسَمَّى بأُمير المؤمنين] غير محمد بن جعفر هذا ، وكان يسمى بالدباجة ؛ لحسنه وبهائه ، وما كان عليه من البهاء والكمال ، وكان له بمكة ونواحيها قصص حمل فيها إلى المأمون بخراسان ، والمأمون يومئذ يَمْزُو ، فأمنه المأمون ، وحمله معه إلى جرجان [فلما صار المأمون] مات محمد بن جعفر ، فدفن بها ، وقد أتينا على كيفية وفاته وما كان من أمره وغيره من آل أبي طالب ومقاتلهم ببقاع الأرض في كتابنا «حداثك الأذهان» في أخبار آل أبي طالب ومقاتلهم في بقاء الأرض .

ظهور ابن الأَفْطَس

وظهر في أيام المأمون أيضاً بالمدينة الحسين بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين بن علي ، وهو المعروف بابن الأَفْطَس ، وقيل : إنه دعا في بدء أمره إلى ابن طَبَّاطْبَا ، فلما مات ابن طَبَّاطْبَا دعا إلى نفسه والقول بإمامته وسار إلى مكة فأتى الناس وهم بِمَنَى ، وعلى الحاج داود بن عيسى بن موسى الهاشمي ، فهرب داود ، ومضى الناس إلى عرفة ، ودفَعُوا إلى مُزْدَلِفَةِ بغير إنسان عليهم من ولد العباس ، وقد كان ابن الأَفْطَس وَافِيَ الموقف بالليل ، ثم صار إلى المزدلفة والناس بغير إمام ، فصلى بالناس ، ثم مضى إلى مَنَى ، فَتَحَرَ ودخل مكة ، وَجَرَّدَ البيت مما عليه من الكسوة إلا القَبَاطِي البيض فقط .

الظفر بأبي السرايا

وفي سنة مائتين ظفر حماد المعروف بالكندغوش بأبي السرايا ، فأتى به الحسن بن

سهل، فقتله وصلبه على الجسر ببغداد، وقد أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» على خبر أبي السرايا وخروجه وما كان منه في خروجه وقلته عبدوس بن [محمد بن] أبي خالد ومن كان معه من قواد الأبناء واستباحته عسكره.

قال المسعودي: وفي سنة مائتين بعث المأمون برَجَاء بن أبي الضحاك وياسر الخادم إلى علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الرضا لإشخاصه، فحمل إليه مكرماً، وفيها أمر المأمون بإحصاء ولد العباس من رجالهم ونسائهم وصغيرهم وكبيرهم، فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً.

المأمون وعلي بن موسى الرضا

ووصل إلى المأمون [أبو الحسن] علي بن موسى الرضا، وهو بمدينة مَرَوْ، فأنزله المأمون أحسن إنزال، وأمر المأمون بجميع خواص الأولياء، وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم، فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي بن موسى الرضا، فبايع له بولاية العهد، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم، وزوج محمد بن علي بن موسى الرضا بابنته أم الفضل، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام [وأظهر بدلاً من ذلك الخضرة في اللباس والأعلام وغير ذلك] ونمى ذلك إلى مَنْ بالعراق من ولد العباس، فأعظموه إذ علموا أن في ذلك خروج الأمر عنهم، وَحَجَّ بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرضا بأمر المأمون، واجتمع مَنْ بمدينة السلام من ولد العباس [ومواليهم وشيعتهم] على خلع المأمون ومبايعه إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شِكَلَّة، فبوع له يوم الخميس لخمس ليالٍ خَلَوْنَ من المحرم سنة اثنتين ومائتين، وقيل: إن ذلك في سنة ثلاث ومائتين.

مقتل الفضل بن سهل

وفي سنة اثنتين ومائتين قتل الفضل بن سهل ذو الرياستين في حمام غِيلَّة، وذلك بمدينة سرخس من بلاد خُرَّاسان، وذلك في دار المأمون في مسيره إلى العراق [فاستعظم المأمون ذلك وقتل قَتَلْتَهُ، وسار المأمون إلى العراق].

موت علي بن موسى الرضا

وَقُبِضَ علي بن موسى الرضا بطوس لعنب أكله وأكثر منه، وقيل: إنه كان مسموماً، وذلك في صفر سنة ثلاث ومائتين، وصلى عليه المأمون، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وقيل: سبع وأربعين سنة وستة أشهر. وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث

وخمسين ومائة للهجرة، وكان المأمون رَوَّجَ ابنته أم حبيبة لعلي بن موسى الرضا، فكانت إحدى الأختين تحت محمد بن علي بن موسى، والأخرى تحت أبيه علي بن موسى.

إبراهيم بن المهدي يخرج على المأمون

واضطربت بغداد في أيام إبراهيم بن المهدي، وثارت الرويضة، وسموا أنفسهم المطوعة، وهم رؤساء العامة والتوابع، ولما قرب المأمون من مدينة السلام صلى إبراهيم بن المهدي بالناس في يوم النحر، واختفى في يوم الثاني من النحر، وذلك في سنة ثلاث ومائتين، فخلعه أهل بغداد، وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين، ولباسه الخضرة، ثم غير ذلك، وعاد إلى لباس السواد، وذلك حين قدم طاهر بن الحسين من الرقة إليه.

خروج بابك الخرمي

وفي سنة أربع ومائتين كان القحط العظيم ببلاد المشرق والوباء بخراسان وغيرها، وفيها كان خروج بابك الخرمي ببلاد البدين في أصحاب جاويزان بن شهرک، وقد قَدَّما ذكرنا بلاد بابك، وهي البدين من أرض أذربيجان والران والبيلقان فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل القبيخ والباب والأبواب ونهر الراس وجريانه نحو بلاد البدين.

الظفر بإبراهيم

وَبَيْتُ المأمون عيونه في طلب إبراهيم بن المهدي، وقد علم باختفائه فيها، فظفر به ليلة الأحد ثلاث عشرة ليلة خَلَّتْ من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين في زِيَّ امرأة، ومعه امرأتان، أخذه حارس بن أسود في الدرب المعروف بالطويل ببغداد، فأدخل إلى المأمون فقال: هيه يا إبراهيم، فقال: يا أمير المؤمنين، وليُّ الثَّارِ مُحَكِّمٌ في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مُدُّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذي ذنب دوني، فإن تُعَاقِبَ فبحقك، وإن تَغْفُ فبفضلك، قال: بل العفو يا إبراهيم، فكَبَّرَ ثم خَرَّ ساجداً، فأمر المأمون فصيرت [المقنعة] التي كانت عليه على صدره ليرى الناس الحال التي أخذ عليها، ثم أمر به فصير في دار الحرس أياماً ينظر الناس إليه، ثم حول إلى أحمد بن [أبي] خالد، ثم رضي عنه من بعد أن كان وكَّلَ به، فقال إبراهيم في ذلك من كلمة له:

إن الذي قَسَمَ المكارم حازَهَا من صُلِبَ آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامعُ أهلها وَحَوَى ودادك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يقوم بحمله وَسُغِ النفوس من الفعال البارع
وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لم يكن عن مثله عفو، ولم يشفع إليك بشافع

زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل

وانحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومائتين، وأُمِّلَكَ بخديجة ابنة الحسن بن سهل التي تسمى بوران، ونثر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقُوَّاد والكتاب والوُجوه بَنَادِقَ مسكٍ فيها رِقَاعٌ بأسماءٍ ضِيَاعٍ وأسماء جَوَارٍ وصفات دوابٍ وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك، فيقول له: ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طَسُوج كذا من رُسْتاق كذا، وجارية يقال لها فلانة الفلانية، ودابة صفتها كذا، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم وَنَوَافِجَ المسك وَبَيْضَ العنبر، وأنفق على المأمون وقُوَّاده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده حتى المكارين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم، فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة منصرفاً إلى مدينة السلام قال للحسن: حَوَائِجُكَ يا أبا محمد، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ عَلَيَّ مكاني من قلبك، فإنه لا يتهيا لي حفظه إلا بك، فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور الأهواز إليه سنة، فقالت في ذلك الشعراء فأكثر، وأطنبت الخطباء في ذلك وتكلمت، فمما استظرف مما قيل في ذلك من الشعر قول [محمد] بن حازم الباهلي:

بارك الله لِلْحَسَنِ وَلِبُورَانَ فِي الْخَتَنِ
يا ابن هارون قد ظَفِرَتْ ولكن ببنت من

فلما نَمَى هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً.

أهل المأمون يحملونه على قتل إبراهيم بن المهدي

ودخل إبراهيم بن المهدي يوماً على المأمون بعد مدة من الظفر به، فقال: إن

هذين يحملاني على قتلك - يعني المعتصم أخاه والعباس بن المأمون - فقال: ما أشارا عليك إلا بما يُشار به على مثلك، ولكن تَدْعُ ما تخاف لما نرجو، وأنشد:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتُ دَمِي
فَبُذِرْتُ مِنْهَا وَمَا كَافَيْتَهَا بِيَدٍ هُمَا الْحَيَاتَانِ مِنْ مَوْتٍ وَمِنْ عَدَمٍ
الْبِرُّ وَطَأْ مَنْكَ الْعَذْرُ عِنْدَكَ لِي فِيمَا أَتَيْتَ، وَلَمْ تَعْذِلْ، وَلَمْ تَلَمْ
وَقَامَ عُذْرُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهِمٍ

ولإبراهيم أخبار حسان، وأشعار ملاح، وما كان من أمره في حال اختفائه في سوقة غالب ببغداد، وتنقله من موضع إلى موضع بها، وخبره في الليلة التي قبض عليه فيها، قد أتينا على جميعها فيما سميناه من كتبنا التي كُتِبَتْ هذا نال لها [ومنبه عليها].

وقد صَنَّفَ يوسف بن إبراهيم الكاتب صاحب إبراهيم بن المهدي كتاباً منها كتابه في أخبار المتطهين مع الملوك في المآكل والمشارب والملابس، وغير ذلك، وكتاب المعروف بكتاب إبراهيم بن المهدي في أنواع الأخبار، وغير ذلك من كتبه.

من أخبار إبراهيم بن المهدي

ومن أحسن ما اختير من أخبار إبراهيم بن المهدي في حال تنقله ببغداد خبره مع المزين، وهو أن المأمون لما دخل بغداد على ما ذكرناه فيما سلف من هذا الباب من بثِّه العيون طالباً لإبراهيم بن المهدي، وجعل لمن دَلَّ عليه جُعلاً خطيراً من المال، قال إبراهيم: فخرجت في يوم صائف في وقت الظهر لا أدري أين أَتَوَجَّهُ، فصرت إلى رُفَاقٍ ولا مَتَقَدِّ له، فرأيت أسودَّ على باب دارٍ، فصرت إليه وقلت له: أعنذك موضع أقيم فيه ساعة من نهار؟ فقال: نعم، وفتح بابه، فدخلت إلى بيت فيه حصير نظيف ووسادة جلد نظيفة، ثم تركني وأغلق الباب في وجهي وَمَضَى، فتوهمته قد سمع الجعالة فيَّ، وأنه خرج ليدلَّ عَلَيَّ، فبينما أنا كذلك إذ أقبل ومعه طبق عليه كل ما يحتاج إليه من خبز ولحم، وقدر جديد وآلتها، وَجَرَّةٌ نظيفة، وكيزان نظاف، كل ذلك جديد، وقال لي: جعلني الله فداك، إني حَجَّامٌ، وإني أعلم أنك تَتَقَدَّرُ ما أَتَوَلَّاهُ، فشأنك بما لم تقع عليه يدي، وكانت بي حاجة شديدة إلى الطعام، فقممت فطبخت لنفسي قدرًا ما أذكر أنني أكلت أَطْيَبَ منها، ثم قال لي بعد ذلك: هل لك في النيذ؟ فقلت: ما أكره ذلك، ففعل مثل فعله في الطعام، وأتاني بكل شيء نظيف لم يَمَسَّ شيئاً منه بيده، ثم قال لي بعد ذلك: أتأذن لي جعلني الله فداك أن أقعد ناحية منك، فأتي بنيذ فأشرب منه سروراً بك؟ قال: فقلت: أفعل ذلك، فلما شرب ثلاثاً دخل خزانة له وأخرج منها عُوداً وقال: يا سيدي،

ليس من قَدَرِي أن أسألك أن تغني، ولكن قد وجبت عليك حرمتي، فإن رأيت أن نشرف عبدك بأن تغنيه، قال: فقلت: وكيف توهمت عليّ أني أحسن الغناء؟ فقال متعجباً: يا سبحان الله!! أنت أشهر من أن لا أعرفك، أنت إبراهيم بن المهدي الذي جعل المأمون لمن دَلَّ عليك مائة ألف درهم، قال: فلما قال لي ذلك تناولتُ العود، فلما هممت بالغناء قال: يا سيدي أتجعل ما تغنيه ما أقترحه عليك؟ قلت: هات، فاقترح ثلاثة أصوات أتقدمُ فيها كلَّ مَنْ عَتَى، قلت: هَبْكَ عرفتني، هذه الأصوات من أين لك بمعرفتها؟ قال: أنا أخدم إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكثيراً ما كنت أسمعه يذكر المحسنين وما يُجيدُونهُ، ولم أتوهم أني أسمع ذلك منك في منزلي، فغنيته، وأنست به، واستظرفته. فلما كان الليلُ خرجت من عنده، وقد كنت حملت معي خريطة فيها دنانير، فقلت له: خذها فاصرفها في بعض مؤنّتك، ولك عندنا مزيد إن شاء الله تعالى. فقال: ما أعجب هذا!! والله عزمت على أن أعرض عليك جملة ما عندي، وأسألك أن تتفضل بقبولها، ثم أجللتك عن ذلك، وامتنع من قبول شيء، ومضى حتى دَلّني على الموضع الذي احتجت إليه، وانصرف، وكان آخر العهد به.

يزيد بن هارون

وفي سنة ست ومائتين - وذلك في خلافة المأمون - مات يزيد بن هارون بن زاذان الواسطي، وله تسع وثمانون سنة، وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة وهو مولى لبني سُليم، وكان أبوه يخدم في مطبخ زياد ابن أبيه وعبيد الله بن زياد ومصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف، ويزيد هذا عند أهل الحديث من عليّتهم، وعظيم من عظمائهم، وكانت وفاته بواسط العراق.

موت جماعة من أهل العلم

وفيها مات جرير بن خزيمة بن حازم، وشيبة بن سَوَّار المدني، والحجاج بن محمد الأعرور الفقيه، وعبد الله بن نافع الصائغ المدني مولى لبني مخزوم، ووهب بن جرير، ومؤمل بن إسماعيل، وروح بن عبادة، وفيها مات الهيثم بن عدي وكان يغمز عليه نسبه، وفيه يقول القائل:

إذا نَسَبْتَ عَدِيًّا في بني ثَعْلَ فَقَدِمِ الدال قبل العين في النسب

قصة وفاء وإيثار

وفي سنة تسع ومائتين مات الواقدي، وهو محمد بن عمرو بن واقد مولى لبني

هاشم، وهو صاحب السير والمغازي، وقد ضعف في الحديث، وذكر ابن أبي الأزره قال: حدثني أبو سهل الرازي، عمن حدثه، عن الواقدي قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، فالتفتي ضيقة شديدة، وحضر العيد، فقالت امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قَطَعُوا قلبي رحمة لهم؛ لأنهم يَرَوْنَ صبيان الجيران قد تَزَيَّوْا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحال من الثياب الرثة، فلو اُخْتُلَتْ بشيء تصرفه في كسوتهم، قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ لما حضر، فوجه إليّ كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم، فما استقر قراره حتى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي، فوجهت إليه الكيس بحاله، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحياً من امرأتي، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنني عليه، فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيته، فقال لي: اضدّفتي عما فعلته فيما وجهت إليك، فعرفته الخبر على جهته، فقال: إنك وجهت إليّ وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجه بكيسي بخاتمي، قال: فتواسينا الألف ثلاثاً بعد أن أخرجنا إلى المرأة قبل ذلك مائة درهم، ونمى الخبر إلى المأمون، فدعاني، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار: لكل واحد ألفاً دينار، وللمرأة ألف دينار، وقُبِضَ الواقدي وهو ابن سبع وسبعين سنة.

وفيهما كانت وفاة يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين [بن علي] ببغداد، وصلى عليه المأمون، وقد أتينا على خبره فيما سلف من كتبنا.

بين أزره وأبي جعفر المنصور

وفيهما مات أزره السمان، وكان صديقاً لأبي جعفر المنصور في أيام بني أمية وكان قد سافرا جميعاً وسمعا الحديث، وكان المنصور يألفه، ويأنس إليه، ويكبر عنده، فلما أفضت الخلافة إليه أشخص إليه من البصرة، فسأله المنصور عن زوجته وبناته، وكان يعرفهن بأسمائهن، وأظهر بره وإكرامه، ووصله بأربعة آلاف درهم، وأمره أن لا يقدم إليه مستميحاً، فلما كان بعد حَوْلٍ صار إليه، فقال له: ألم آمرك أن لا تسير إليّ مستميحاً، فقال له: ما صرت إليك إلا مسلماً ومجدداً بك عهداً، قال: ما أرى الأمر كما ذكرت، فأمر له بأربعة آلاف درهم، وأمره أن لا يصير إليه مسلماً ولا مستميحاً، فلما كان بعد سنة صار إليه، فقال: إني لم أقدم عليك للأميرين اللذين نهيتني عنهما، وإنما بلغني أن علة عرضت لأمر المؤمنين فأتيته عائداً، فقال: ما أظنك أتيت إلا مستوصلاً، فأمر له بأربعة

آلاف درهم، فلما كان بعد الحول ألح عليه بنائه وزوجته، وقلن له: أمير المؤمنين صديقك فارجع إليه، فقال: ويحك!! ماذا أقول له وقد قلت له أتيتك مستميحاً ومسلماً وعائداً؟ ماذا أقول في هذه المرة؟ وبم أحتج؟ فأبوا على الشيخ إلا الإلحاح، فخرج فأتى المنصور وقال: لم آتك مسترفداً، ولا زائراً، ولا عائداً، وإنما جئت لسماع حديث كنا سمعناه جميعاً في بلد كذا من فلان عن النبي ﷺ فيه اسم من أسماء الله تعالى من سأل الله به لم يرده ولم يخيب دعوته، فقال له المنصور: لا تُرذه فإني قد جرّبتُه فليس هو بمستجاب، وذلك أني مذ جئتني أسأل الله به أن لا يرذك إلي، وها أنت ترجع لا تنفك من قولك مسلماً أو عائداً أو زائراً، ووصله بأربعة آلاف درهم، وقال له: قد أعيتني فيك الحيلة فصر إلي متى شئت.

مقتل ابن عائشة

وفي سنة تسع ومائتين ركب المأمون إلى المطبق بالليل حتى قتل ابن عائشة، وهو رجل من ولد العباس بن عبد المطلب، واسمه إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام أخي أبي العباس والمنصور، وقتل معه محمد بن إبراهيم الإفريقي وغيره، وابن عائشة هذا أول عباسي ضلّب في الإسلام، وتمثل المأمون حين قتله بقول الشاعر:

إذا النار في أحجارها مُسْتَكِنَةٌ متى ما يُهْجَهَا قَادِحٌ تَتَضَرَّمُ

وكان رجل من ولد العباس بن علي بن أبي طالب ذو مال وثروة وعز ومنعة وفهم وبلاغة، وهو العباس بن العباس العلوي، بمدينة السلام، وكان المعتصم يشنؤه لحال كانت بينهما، فمكن في نفس المأمون أنه شانيء [له و] لدولته، ماقت لأيامه، فلما كان في تلك الليلة لحق العباس بالمأمون على الجسر فقال له المأمون: ما زلت تنتظرها حتى وقعت، فقال: أعيدك بالله يا أمير المؤمنين، ولكنني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] فحسن موقع ذلك منه، ولم يزل يسايره حتى بلغ المطبق، فلما قتل ابن عائشة قال: يأذن أمير المؤمنين في الكلام؟ قال: تكلم، قال: الله الله في الدماء، فإن الملك إذا ضري بها لم يصبر عنها، ولم يتيق على أحد، قال: لو سمعت هذا الكلام منك قبل أن أركب ما ركبت ولا سفكت دماً، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم.

وقد أتينا على خبر ابن عائشة هذا، وما أراد من الإيقاع بالمأمون، وما كان من أمره في كتابنا في «أخبار الزمان».

موت أبي عبيدة معمر بن المثنى

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين مات أبو عبيدة معمر بن المثنى بالبصرة، وكان يرى رأي الخوارج، وبلغ نحواً من مائة سنة، ولم يحضر جنازته أحد من الناس، حتى اكرى لها من يحملها، ولم يكن يسلم عليه شريف ولا وضيع إلا تكلم فيه، وله مصنفات حسنة في أيام العرب وغيرها: منها كتاب المثالب، ويذكر فيه [أنساب] العرب وفسادها، ويرميهم بما يُسيء الناس ذكره، ولا يحسن وصفه، وكان أبو نؤاس الحسن بن هانئ كثير العبث به، وكان أبو عبيدة يقعد في مسجد البصرة إلى سارية من سواريه، فكتب أبو نؤاس عليها في غيبته [عنها بهذين البيتين يُعرّض به]:

صَلَّى إِلَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشِيعَتِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِينَا
[وأنت عندي بلا شك بقيتُهُمْ مذ احتملت، وقد جاوزت تسعيناً]

فلما جاء أبو عبيدة ليجلس في مجلسه ويستند على تلك السارية رأى ذلك، فقال: هذا فعلُ الماجنِ اللواطِ أبي نؤاس، حُكِّوه وإن كان فيه صلاة على نبي.

موت أبي العتاهية وشيء من أخباره

وفي هذه السنة - وهي سنة إحدى عشرة ومائتين - مات أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم، الشاعر، متنسكاً لابساً للصفوف، وكان له مع الرشيد أخبار حسان: من ذلك ما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب، ومنها أن الرشيد أمر ذات يوم بحمله إليه، وأمر أن لا يكلم في طريقه، ولا يعلم ما يراد منه، فلما صار في بعض الطريق كتب له بعض من معه في الطريق: إنما يراد قتلك، فقال أبو العتاهية من فوره:

ولعل ما تخشاه ليس بكائن ولعل ما ترجوه سوف يكون
ولعل ما هَوَّئْتَ ليس بهين ولعل ما شَدَّدْتَ سوف يهون

وحج في بعض الحجج مع الرشيد، فنزل الرشيد يوماً عن راحلته، ومشى ساعة، ثم أعيأ، فقال: هل لك يا أبا العتاهية أن تستند إلى هذا الميل؟ فلما قعد الرشيد [أقبل على أبي العتاهية و] قال له: يا أبا العتاهية، حركنا، فقال:

[هَبِ الدُّنْيَا تُؤَاتِيكَ أليس الموت يأتيك؟]
ألا يا طالبَ الدُّنْيَا دع الدُّنْيَا لِشَانِيكَ
وما تصنع بالدُّنْيَا وظل الميل يكفيك

ولأبي العتاهية أخبار وأشعار كثيرة حسان، قد قدمنا فيما سلف من كتبنا جملاً مما اختير من شعره وما انتخب من قوافيه، وكذلك قدمنا من ذلك لمعاً فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار خلفاء بني العباس، ومما استحسّن من ذلك قوله:

أَحْمَدُ قَالَ لِي وَلَمْ يَذَرِ مَا بِي : أَتَحِبُّ الْغَدَاةَ عَتَبَةً حَقًّا؟
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ حُبًّا لِيَتَنِي مُتُّ فَاسْتَرْحْتُ ؛ فَإِنِّي لَا أُرَانِي أَبْقَى ، وَمَنْ يَلُوقُ مَا لَا فَاحْتَسِبُ صَحْبَتِي ، وَقُلْ : رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَا عَبْدٌ لَهَا وَإِنْ كُنْتُ لَا أُرَ وَمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شِعْرِهِ أَيضاً قَوْلُهُ :

يَا عُثْبَ مَا لِي وَلَكَ مَلَكْتَنِي فَانْتَهَكِي
يَا لِيَتَنِي لَمْ أَرَكَ مَا شِئْتُ أَنْ تَنْتَهَكِي
أَبَيْتُ لَيْلِي سَاهِراً أَرَعَى نَجُومَ الْفَلَكَ
مَفْتَرِشاً جَمْرَ الْغَضَى مَلْتَحِفاً بِالْحَسَبِ

ومن قوافيه الغريبة وأشعاره المستحسنة قوله:

أَخْلَايَ بِي شَجْوٌ ، وَلَيْسَ بِكُمْ شَجْوُ رَأَيْتُ الْهَوَى جَمْرَ الْغَضَى ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذَابَ الْهَوَى جَسْمِي وَعَظْمِي وَقُوتِي
وَمَا مِنْ حَبِيبٍ نَالَ مِنْ يَحِبُّهُ وَإِنِّي لِنَائِي الطَّرْفِ مِنْ غَيْرِ خُلَّتِي
لَهَا دُونَ إِخْوَانِي وَأَهْلَ مَوَدَّتِي وَكُلِّ امْرِئٍ مِنْ شَجْوٍ صَاحِبِهِ خِلْوُ
عَلَى حَرِّهِ فِي صَدْرِ صَاحِبِهِ خِلْوُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ وَالْبَدَنُ النُّضْوُ
هَوَى صَادِقاً إِلَّا يَدَاخِلُهُ زَهْوُ وَمَا لِي سِوَاهَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا لَهْوُ
مِنْ الْوَدِّ مَنِي فَضْلَةً ، وَلَهَا الْعَفْوُ

ومما انتخب من شعره واستحسّنه الناس من قوله قوله:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الَّذِي اجْتَنَبْتُ تَبَارَكَ اللَّهُ بِئْسَ مَا صَنَعْتُ
أَتَيْتُهَا زَائِراً فَمَا انْتَجَزْتُ كَمْ مِنْ دِيُونٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُهَا
مَا وَهَبْتُ لِي مِنْ فَضْلِهَا عِدَّةً بِأَيِّ جُرْمٍ تَرَوْنَهَا عَتَبْتُ
بِي فِي هَوَاهَا ، وَبِئْسَ مَا ارْتَكَبْتُ وَعَدِيدِي إِذْ جِئْتُهَا وَمَا احْتَسَبْتُ
لَنَا عَلَيْهَا لَمْ تُقْضَ إِذْ وَجِبْتُ إِلَّا اسْتَرَدْتُ جَمِيعَ مَا وَهَبْتُ

فَأَيُّ خَيْرٍ وَأَيُّ مَنُفَعَةٍ لِيَذَاتِ دَلٍّ تَرِيقٍ مَا حَلَبْتُ؟
 اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ ظَالِمَتِي طَلَبْتُ مِنْهَا وَصَالَهَا فَأَبْتُ
 مَاذَا عَلَيْهَا لَوْ أَنَّهَا بَعَثَتْ مِنْهَا رَسُولًا إِلَيَّ أَوْ كَتَبَتْ
 رَغِبْتُ فِي وَصْلِهَا وَقَدْ زَهَدْتُ عَتَبَةً فِي وَصْلِنَا وَمَا رَغِبْتُ

وكان أبو العتاهية قبيح الوجه، مليح الحركات، حلو الإنشاد، شديد الطرب، ومن مليح شعره أيضاً قوله:

مَنْ لَمْ يَذُقْ لَصَبَابَةِ طَعْمَا فَلَقَدْ أَحْطَتْ بِطَعْمِهَا عِلْمَا
 إِنِّي مَنَحْتُ مَوَدَّتِي سَكْنًا فَرَأَيْتُهُ قَدْ عَدَّهَا جُرْمًا
 يَا عُتْبَ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَسَدِي لِحِمَاءٍ، وَلَا أَبْقَيْتَ لِي عَظْمَا
 يَا عَتَبَ مَا أَنَا مِنْ صَنِيعِكَ بِي أَعْمَى، وَلَكِنَّ الْهُوَى أَعْمَى
 إِنْ الَّذِي لَمْ يَدْرِ مَا كَلَّفَنِي لِيَرَى عَلَى وَجْهِهِ بِهِ وَسْمَا

وله أشعار خرج فيها عن العروض مثل قوله:

هَمْ الْقَاضِي بَيْتٌ يَطْرِبُ قَالَ الْقَاضِي لِمَا عَوْتَبُ
 مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَذْنِبُ هَذَا عَذْرُ الْقَاضِي وَاقْلَبُ

وزنه فَعْلُنْ فعِلن أربع مرات، وقد قال قوم: إن العرب لم تقل على وزن هذا شعراً، ولا ذَكَرَهُ الخليل ولا غيره من العروضيين.

الزيادة في العروض على الخليل

قال المسعودي: وقد زاد جماعة من الشعراء على الخليل بن أحمد في العروض: من ذلك المديد، وهو ثلاثة أعاريض وستة ضروب عند الخليل، وفيه عروض رابع وضربان مُحدثان؛ فالضرب الأول من العروض الرابعة المحدثه قول الشاعر:

مَنْ لَعِينٍ لَا تَنَامُ دَمْعُهَا سَخَّ سَجَامُ

والضرب الثاني من العروض الرابعة المحدثه قول الشاعر:

يَا بُكَرَ لَا تَنْوَا لَيْسَ ذَا حِينٍ وَنَا

وغير ذلك مما قد تكلموا فيه، وذكره في هذا المعنى من الزيادات مما قد أتينا على وصفه وقدمنا من ذكره في كتابنا في «أخبار الزمان».

أبو العباس الناشيء

وقد صنف أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء الكاتب الأنباري [على الخليل بن أحمد في ذلك كتاباً ذكر فيه أنواعاً من هذا المعنى مما خرج فيه] الخليل بن أحمد عن تقليد العرب إلى باب التعسف والنظر ونصب العلل عن أوضاع الجدل، كان ذلك له لازماً، ولما أورده كاسراً، وللناشء أشعار كثيرة حسان: منها قصيدة واحدة نحو من أربعة آلاف بيت قافية واحدة نونية منصوبة يذكر فيها أهل الآراء والنحل والمذاهب والملل، وأشعار كثيرة ومصنفات واسعة في أنواع من العلوم، فمما جود فيه قوله حين سار من العراق إلى مصر، وبها كانت وفاته، وذلك في سنة ثلاث وتسعين ومائتين على حسب ما قدمنا ذكره:

يا ديار الأحباب هل من مُجيبٍ	عنك يشفي غليل نائي المزارِ؟
ما أجابت، ولكن الصمتُ منها	فيه للسائلين طول اعتبار
إن تكن أوحشتُ فبعد أنيسٍ	أو خَلْتُ منهم فبعد قرار
قد لهونا بها زماناً وحيناً	ووصلنا الأسحار بالأسحار
واغتبقنا على صُبُوحٍ ولهوٍ	وحنين النيات والأوتار
بين وُرْدٍ و نرجسٍ وخزامى	وبنفس وسوسن وبَهَارٍ
وأقاح وكل صنف من النُّو	ر الشهيِّ الجَنَى والجُلَّتَار
فرمتنا الأيامُ أحسن ما كـ	نا على حين غَفْلة واغترار
فافترقنا من بعد طول اجتماع	ونأينا بعد اقتراب الديار

نداء المأمون في أمر معاوية وسببه

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين نادى منادي المأمون: برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ: وتكلم في أشياء من التلاوة أنها مخلوقة، وغير ذلك، وتنازع الناس في السبب الذي من أجله أمر بالنداء في أمر معاوية؛ فقليل في ذلك أقاويل: منها أن بعض سُمّاره حَدَّثَ بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي، وقد ذكر هذا الخبر الزبير بن بكار في كتابه في الأخبار المعروفة بالموقفات التي صنفها للموفق، وهو ابن الزبير، قال: سمعت المدائني يقول: قال مطرف بن المغيرة بن شعبة: وَفَدْتُ مع أبي المغيرة إلى معاوية، فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه، إذ جاء

ذات ليلة فأمسك عن العشاء، فرأيتُه مغتماً، فانتظرتُه ساعة، وظننتُ أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ قال: يا بني، إني جئت من عند أَخْبَثِ الناس، قلت له: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عذلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إختوك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، فقال لي: هيهات هيهات!! مَلِكٌ أخو تَيْمٍ فعدل وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عَدِيٍّ، فاجتهد وشَمَّرَ عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل [وعمل به] فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وذكر ما فعل به، وإن أخا هاشم يُضْرَخُ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأبي عمل يبقى مع هذا؟ لا أم لك؛ والله ألا دفنا دفنا، وإن المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا، وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعنه على المنابر، فأعظَمَ الناس ذلك وأكبروه، واضطربت العامة [منه] فأشير عليه بترك ذلك، فأعرض عما كان همَّ به.

وفاة أبي عاصم النبيل وجماعة من أهل العلم

وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عاصم النبيل، وهو الضحاك بن مخلد بن سنان الشيباني، وذلك في سنة اثنتي عشرة ومائتين، وفيها مات محمد بن يوسف الفارابي.

وفي سنة خمس عشرة ومائتين - وذلك في خلافة المأمون - مات هودبة بن خليفة بن عبد الله بن أبي بكر، ويكنى بأبي الأشهب، ببغداد، وهو ابن سبعين سنة، ودفن بباب بردان، في الجانب الشرقي، وفيها مات محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري، وفيها مات إسحاق بن الطباع، بأدنة من الثغر الشامي، ومعاوية بن عمرو، ويكنى بأبي عمرو، وقبيصة بن عقبة، ويكنى بأبي عامر، من بني عامر بن صغصعة.

غزو الروم

وفي سنة سبع عشرة ومائتين دخل المأمون مصر، وقتل بها عبدوس، وكان قد تغلب عليها.

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم، وقد كان شرع في بناء

الطوانة، مدينة من مدنها على قم الدرب، مما يلي طرسوس، وعمد إلى سائر حصون الروم، ودعاهم إلى الإسلام، وخيرهم بين الإسلام والجزية والسيوف، وذلّل النصرانية، فأجابه خلق من الروم إلى الجزية.

قال المسعودي: وأخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زيد الدمشقي بدمشق، قال: لما توجه المأمون غازياً، ونزل البديدون، جاءه رسول ملك الروم فقال له: إن الملك يخيرك بين أن يرُدّ عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويردّه كما كان، وترجع عن غزائك، فقام المأمون ودخل خيمة، فصلى ركعتين، واستخار الله عز وجل وخرج، فقال للرسول: قل له، أما قولك ترُدّ علي نفقتي، فإني سمعت الله تعالى يقول في كتابه، حاكياً عن بلقيس: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتِمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَآ آتَيْنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] وأما قولك: إنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم، فما في يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وإما رجل يطلب الدنيا، فلا فك الله أسرته، وأما قولك: إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم، فلو أنني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها، فقالت: وا محمداه وا محمداه، عُدّ إلى صاحبك، فليس بيني وبينه إلا السيف، يا غلام اضرب الطبل، فرحل، فلم يثن عن غزائه، حتى فتح خمسة عشر حصناً، وانصرف من غزاته.

علة المأمون وموته

نزل على عَيْن البديدون، المعروفة بالقشيرة على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب، فأقام هنالك حتى ترجع رُسُلُه من الحصون، فوقف على العين ومنع الماء، فأعجبه برُدّ مائها وصفاءه وبياضه وطيب [حسن] الموضع وكثرة الخضرة، فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر، وجلس تحت الكنيسة التي قد عقدت له والماء تحته، وطرح في الماء درهم صحيح فقرا كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء، ولم يقدر أحد يدخل يده في الماء من شدة برّده، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يخرجها سبّاقاً، فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد، فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذي

عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر، فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه، ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب، فقال المأمون: تُفَلِّي الساعة، ثم أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر يتحرك من مكانه، فغطى باللحف والدواويج، وهو يرتعد كالسعة، ويصيح: البرد البرد، ثم حول إلى المضرب ودثر وأوقدت النيران حوله، وهو يصيح: البرد البرد، ثم أتى بالسمة وقد فرغ من قلبها فلم يقدر على الذوق منها، وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها، ولما اشتد به الأمر سأل المعتصم ببختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت، وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره؟ وهل يمكن برؤه وشفائه؟ فتقدم ابن ماسويه، فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأخرى، وأخذا المجسة من كلتا يديه، فوجدا نبضة خارجاً عن الاعتدال، مُنْذِرًا بالفناء والانحلال، والترقت أيديهما ببشرته لِعَرَقٍ كان يظهر منه من سائر جسده، كالزيت، أو كلعاب بعض الأفاعي، فأخبر المعتصم بذلك، فسألها عن ذلك، فأنكر معرفته، وأنهما لم يجدا في شيء من الكتب، وأنه دال على انحلال الجسد، وأفاق المأمون من غشيته، وفتح عينيه من رقدته، فأمر بإحضار أناس من الروم، فسألهم عن اسم الموضع والعين، فأحضر له عدة من الأسارى والأدلة، وقيل لهم: فسروا هذا الاسم القشيرة، فقيل له: تفسيره مُدَّ رجلِك، فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتَطَيَّرَ به، وقال: سَلَوْهم ما اسم الموضع بالعربية، فقالوا: الرقة، وكان فيما عمل من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة، وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فَرَقًا من الموت، فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وَعَدَ فيه فيما تقدم من مولده، وأن فيه وفاته، وقيل: إن اسم البديدون تفسيره مُدَّ رجلِك، والله أعلم بكيفية ذلك، فأحضر المأمون الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه، فلما ثقل قال: أخرجوني أُشْرِفُ على عسكري، وأنظر إلى رجالي، وأتبعين ملكي، وذلك في الليل، فأخرج فأشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، ثم رُدَّ إلى مرقدته وأَجْلَسَ المعتصم رَجُلًا يشهده لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها، فقال له ابن ماسويه: لا تَصِحْ فوالله ما يفرق بين ربه وبين ما بي في هذا الوقت، ففتح [المأمون] عينيه من ساعته، وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم يَرِ مثله قط، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته، فعجز عن ذلك، فرمى بطرفه نحو السماء، وقد امتلأت عيناه دموعاً، فانطلق لسانه من ساعته، وقال: يا مَنْ لا يموت

أرحم من يموت، وقضى من ساعته، وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان مائة ومائتين، وحمل إلى طرسوس، فدفن بها، على حسب ما قدمنا في أول [أخباره من] هذا الكتاب.

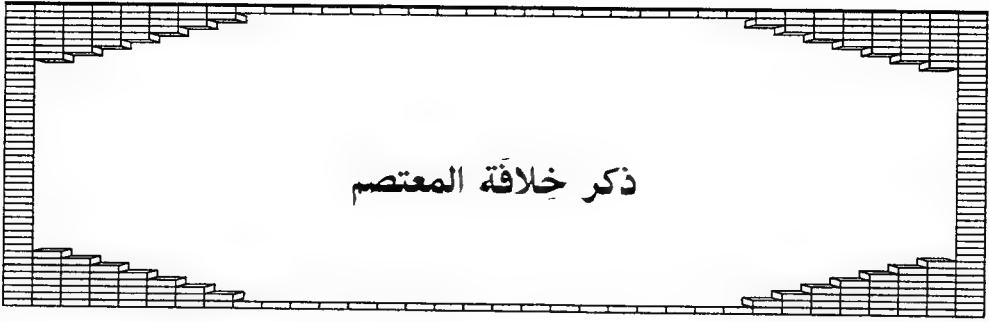
قال المسعودي: وللمأمون أخبار حسان ومعانٍ وسير ومجالسات وأشعار وأخلاق جميلة، قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا، فأغني ذلك عن ذكرها.

وفي المأمون يقول أبو سعيد المخزومي:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون شيئاً ومُلِكِه المأمون
خَلَقُوهُ بعِصْتي طرسوسِ مِثْلَ ما خَلَقُوا أباهِ بِطُوسِ

وكان المأمون كثيراً ما ينشد هذه الأبيات:

وَمَنْ لَا يَزِلْ غَرَضاً لِمَنْو نَ يَتَرُكُّهُ ذاتِ يومِ عَمِيداً
فَإِنْ هُنَّ أَخْطَأْنَهُ مَرَّةً فَيُوشِكُ مَخْطِئُهَا أَنْ يَعُوداً
فَبَيْنَا يَحِيدُ وَتَخْطِينَهُ قَصْدُنْ فَأَعْجَلْنَهُ أَنْ يَحِيداً



موجز

وبويع المعتصم في اليوم الذي كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون، وهو يوم الخميس لثلاث عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، واسمه محمد بن هارون، ويكنى أبا إسحاق، وكان بينه وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم انقاد العباسُ إلى بيعته، والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين، وأمه يقال لها ماردة بنت شبيب، وقيل: إنه بويع سنة تسع عشرة ومائتين، وتوفي بَسْرًا من رأى سنة سبع وعشرين، وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة أشهر، فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر، وقبره بالجَوْسَقِ [بَسْرًا من رأى] على ما ذكرنا.

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

ابن الزيات وزير المعتصم وأحمد بن أبي دؤاد

وَأَسْتَوَزَرَ الْمُعْتَصِمُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِهِ، وَغَلِبَ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادَ، وَلَمْ يَزَلْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَصِمِ وَالْوَاتِقِ إِلَى أَنْ وَلِيَ الْمُتَوَكِّلُ، وَكَانَ فِي نَفْسِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَقَتَلَهُ، وَسَنَدَكَرَ لِمَعَا مِنْ [خَبَرٍ] مَقْتَلِهِ فِيمَا يَرِدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي أَخْبَارِ الْمُتَوَكِّلِ، وَإِنْ كُنَّا قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذَلِكَ مُلْخَصاً فِي الْكِتَابِ الْأَوْسَطِ.

حب المعتصم للعمارة

وكان المعتصم يحب العمارة، ويقول: إن فيها أموراً محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه.

بأس المعتصم وقوته

وكان المعتصم ذا بأس وشدة [في جسمه، وشجاعة] في قلبه، فذكر أحمد بن أبي دؤاد - وكان به آتساً - قال: لما أنكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوماً وعنده ابن ماسويه، فقام المعتصم فقال لي: لا تبرح حتى أخرج إليه، فقلت ليحيى بن ماسويه: وَيْحَكَ!! إني أرى أمير المؤمنين قد حال لونه، ونقصت قوته، وذهبت سُوْرَتُهُ، فكيف تراه أنت؟ قال: هو والله زبرة من زُبْرِ الْحَدِيدِ، إِلَّا أَنْ فِي يَدَيْهِ فَأَسْأَ يَضْرِبُ بِهَا تِلْكَ الزَّبْرَةَ، فَقُلْتُ: وكيف ذاك؟ قال: كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل [والجوز] فأكله بذلك الصباغ، يدفع أذى السمك وأضراره بالعصب، وإذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها، وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي، فصار اليوم إذا أنكرت عليه

شيئاً خالفني، وقال: أكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه [فما أقدر أن أصنع]، قال: وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه، فقلت: ويلك يا أبا يحيى!! أدخل أصبعك في عينيه، قال: جعلت فداك، ما أقدرُ أرُده ولا أجترىء عليه في خلاف، فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم، فقال لي: ما الذي كنت فيه مع ابن ماسويه؟ قلت: ناظرته يا أمير المؤمنين في لونك الذي أراه حائلاً، وفي قلة طعمك الذي قد هدَّ جوارحي وأنحلَّ جسمي، قال: فما قال لك؟ قلت: شكا أنك كنت تقبل منه ما يشير به [عليك] وكنت ترى في ذلك على ما يحب، وأنت الآن تخالفه، قال: فما قلت له أنت؟ قال: فجعلت أصرف الكلام، قال: فضحك وقال: هذا بعد ما دخل في عيني أو قبل ذلك؟ قال: فَاَرَفَضْتُ عَرَقاً، وعلمت أنه قد سمع ما كنا فيه، ورأى ما قد داخلني، فقال: يغفر الله لك يا أحمد، لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك إذ سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والأنس.

المعتصم وعلي بن الجنيد

وكان المعتصم يأنس بعلي بن الجنيد الإسكافي، وكان عجيب الصورة عجيب الحديث، فيه سلامة أهل السواد، فقال المعتصم يوماً لمحمد بن حماد: اذهب بالغداة إلى [علي] بن الجنيد، فقل له يتهاى حتى يزاملني، فأتاه، فقال: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تُزامله، فتهاى لشروط مزاملة الخلفاء [ومعادلتهم] فقال علي بن الجنيد: وكيف أتهاى؟ أهوىء لي رأساً غير رأسي؟ أأشتري لحية غير لحيتي!! أأزيد في قامتي! أنا متهاىء وفضلة، قال: لست تدري بعد ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم! فقال علي بن الجنيد: وما هي؟ هات يا من تذرني، قال له ابن حماد، وكان أديباً ظريفاً، وكان يرسم الحجاب: شرط المعادلة الإمتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة، وأن لا يبزق، ولا يسعل، ولا يتنحنج، ولا يمخط، وألا يتقدم الرئيس في الركوب إشفاقاً عليه من الميل، وأن يتقدمه في النزول، فمتى لم يفعل المعادل هذا كان [هو] والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سَوَاءً، وليس له أن ينام وإن نام الرئيس، بل يأخذ نفسه بالتيقظ، ومراعاة حال مَنْ هو معه وما هو راكبه؛ لأنهما إذا ناما جميعاً فمال جانب لا يشعر بميله كان في ذلك ما لا خفاء به، وعلي بن الجنيد ينظر إليه، فلما أكثر عليه في هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السواد: آه حرها، اذهب له فقل له: ما يُزاملُك إلا مَنْ أمه زانية وهو كشخان، فرجع ابن حماد، فقال للمعتصم ما قال، فضحك المعتصم وقال: جئني به، فجاءه، فقال: يا علي، أبعث إليك تزاملني فلا تفعل؟ فقال: إن رسولك هذا الجاهل الأزعر جاءني بشروط حَسَن الشاشي وخالويه المحاكي فقال: لا

تبزق، ولا تفعل كذا، وافعل كذا، وجعل يَمْطُطُ في كلامه، ويفرق في صاداته، ويشير بيديه، ولا تسعل، ولا تعطس، وهذا لا يقوم لي، ولا أقدر عليه، فإن رَضِيتَ أن أزاملك فإن جاءني الفُساءُ فَسَوْتُ عليك وَضَرَطْتُ، وإذا جاءك أنت فأدْه فافْسُ واضرط، وإلا فليس بيني وبينك عمل، فضحك المعتصم حتى فحَصَ برجليه، وذهب به الضحك كل مذهب، وقال: نعم زاملني على هذه الشريطة، قال: نعم وكرامةً، فزاملَهُ في قبة على بغل، فسارا ساعة، وتوسَّطا البر، فقال علي: يا أمير المؤمنين حَضَرَ ذلك المتاعُ فما ترى؟ قال: ذلك إليك إذا شِئْتَ، قال: تحضر ابن حماد، فأمر المعتصم بإحضاره، فقال له علي: تعال حتى أسأركَ، فلما دنا منه فسأ، وناولَه كمة، وقال: أجدُ ديب شيء في كُمِّي فانظر ما هو، فأدخل رأسه، فشم رائحة الكنيف، فقال: ما أرى شيئاً، ولكني لم أعلم أن في جوف ثيابك كنيفاً، والمعتصم قد غَطَى فمه بكمة، وقد ذهب به الضحك كل مذهب، ثم جعل يفسو فسَاء متصلاً، ثم قال لابن حماد: قلت لي لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط، فلم أفعل ولكني أخرى عليك، قال: فاتصل فساؤهُ والمعتصم يخرج رأسه من العمارية، ثم قال المعتصم: قد نفضجت القدر، وأريد أخرى، فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه: وَيْلَكَ! يا غلام الأرض، الساعة أموت.

ودخل علي بن الجنيد الإسكافي يوماً على المعتصم فقال له بعد أن ضاحكه وهازله: يا علي، ما لي لا أراك ويلك؟! أنسيت الصبحة وما حَفِظْتَ المودة؟ فقال له حينئذٍ: بالغ الكلام الذي أريد أن أقوله قلته أنت، ما أنت إلا إبليس، فضحك، ثم قال: لم لا تجيئني؟ قال: آه، كم أجيء فلا أصل إليك، أنت اليوم نبيل، فكأنك من بني مارية وبَنُو مَارية أناس من أهل السواد يَضْرِبُ بهم أهلُ السواد الأمثال لكبرهم في نفوسهم، فقال له المعتصم: هذا سندان التركي، وأشار إلى غلام على رأسه يديه مَدْبَّةً، وقال له: يا سندان، إذا حضر علي فأعلمني وإن أعطاك رقعة فأوصلها إلي، وإن حَمَلَك رسالة فأخبرني بها، قال: نعم يا سيدي، وانصرف [علي] فأقام أياماً ثم جاء يطلب سندان فقالوا: هو نائم، فانصرف ثم عاد، فقالوا: هو داخل، ولا تصل إليه، فانصرف وعاد، فقالوا: هو عند أمير المؤمنين، فاحتال حتى دخل عند المعتصم من جهة أخرى، فضاحكه ساعة وعاتبه، وقال له: يا علي، ألك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن رأيت سندان التركي فأقره مني السلام، فضحك وقال: ما حاله؟ قال: حاله أنك جعلت بيني وبينك إنساناً رأيتك قبل أن أراه، وقد اشتقتُ إليه فأسألك أن تبلغه مني السلام، فغلب المعتصم الضحك، وجمع بينه وبين سندان [ثانية] وأكد عليه في مراعاة أمره، فكان لا يمنع منه.

المعتصم وشيخ زلق حماره في الطين

وَعَبَّرَ المعتصم من سُرٍّ مَنْ رَأَى من الجانب الغربي - وذلك في يوم مَطِيرٍ، وقد تبع ذلك ليلة مطيرة - وانفردَ من أصحابه، وإذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك، وهو الشوك الذي توقد به التناير بالعراق، وصاحبه شيخٌ ضعيف واقف ينتظر إنساناً يمر فيعينه على حمله، فوقف عليه، وقال: ما لك يا شيخ؟ قال: فديتك! حماري وقع عنه هذا الحمل، وقد بقيت أنتظر إنساناً يعينني على حمله، فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين، فقال الشيخ: جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيبك الذي أشمه من أجل حماري هذا؟ قال: لا عليك، فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين، فبهت الشيخ وجعل ينظر إليه ويتعجب منه، ويترك الشغل بحماره ثم شَدَّ عنان فرسه في وسطه وأهوى إلى الشوك وهو حُزْمَتَانِ فحملهما فوضعهما على الحمار، ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه؛ فقال الشيخ السوادي: رضي الله عنك، وقال بالنبطية: أشقل غرمي تاحوتكا، وتفسير ذلك: فديتك يا شاب، وأقبلت الخيول، فقال لبعض خاصته: أعط هذا الشيخ أربعة آلاف درهم، وكن معه حتى تجاوز به أصحاب المسالح، وتبلغ به قرينه.

وفاة جماعة من العلماء

وفي سنة تسع عشرة ومائتين كانت وفاة أبي نُعَيْم الفضل بن دُكَيْنٍ مولى آل طلحة بن عبيد الله بالكوفة، وبسر بن غياث المريسي، وعبد الله بن رجاء العُدَّاني. وفيها ضَرَبَ المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطاً ليقول بخلق القرآن.

محمد بن علي بن موسى بن جعفر

وفي هذه السنة - وهي سنة تسع عشرة ومائتين - قبض محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وذلك لخمس خلون من ذي الحجة، ودفن ببغداد في الجانب الغربي بمقابر قريش مع جده موسى بن جعفر، وصَلَّى عليه الواثق، وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقبض أبوه علي بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك، وقيل: إن أم الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم سَمَّتْهُ، وإنما ذكرنا من أمره ما وصفنا لأن أهل الإمامة اختلفوا في مقدار سنه عند وفاة أبيه، وقد أتينا على ما قيل في ذلك في رسالة «البيان، في أسماء الأئمة» وما قالت في ذلك الشيعة من القطعية.

محمد بن القاسم، العلوي

وفي هذه السنة - وهي سنة تسع عشرة ومائتين - أخاف المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله، وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع في نهاية الوصف، فلما خاف على نفسه هرب فصار إلى خراسان، فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطارقان ونسا، فكانت له هناك حروب وكوائن، وانقاد إليه وإلى إمامته خلق كثير من الناس، ثم حملة عبد الله بن طاهر إلى المعتصم، فحبسه في أزج اتخذه في بستان بسر من رأى، وقد تنوزع في محمد بن القاسم، فمن قائل يقول: إنه قتل بالسم، ومنهم من يقول: إن ناساً من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتأثروا للخدمة فيه من غرس وزراعة، واتخذوا سلالم من الحبال واللبود والطارقانية ونقبوا الأزج وأخرجوه فذهبوا به، فلم يعرف له خبر إلى هذه الغاية، وقد انقاد إلى إمامته خلق كثير من الزيدية إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمداً لم يميت، وأنه حي يرزق، وأنه يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه مهدي هذه الأمة، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان، وقول هؤلاء في محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمد ابن الحنفية، ونحو من قول الواقفية في موسى [بن موسى] بن جعفر، وهم الممطورة، بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة، وقد أتينا على وصف قولهم [في كتابنا] في «المقالات في أصول الديانات» ووصف قول غلاتهم من المعنوية وغيرهم من المحمدية وسائر فرق أهل الباطل ممن قال بتنقل الأرواح في أنواع الأشخاص من بهائم الحيوان وغيره في كتابنا المترجم بكتاب سر الحياة.

جمع المعتصم للأتراك

وكان المعتصم يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، فألبسهم أنواع الدباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده، وقد كان اصطنع قوماً من خوف مصر ومن خوف اليمن وخوف قيس، فسماهم المغاربة، واستعد رجال خراسان من الفراغة وغيرهم من الأشروسية، فكثرت جيشه، وكانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة منهم، وأن ينزل في فضاء من الأرض، فنزل البراذان على أربعة فراسخ من بغداد، فلم يستطع هواءها، ولا اتسع له

هواؤها، فلم يزل يتنقل ويتقرى المواضع والأماكن إلى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى
الموضع المعروف بالقاطول، فاستطاب الموضع، وكان هناك قرية يسكنها خلق من
الجرامقة وناس من التبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة، فبنى هناك قصراً
وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام، وخلت من السكان إلا اليسير، وكان فيما قاله
بعض العيارين في ذلك معيراً للمعتصم بانتقاله عنهم:

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة تركت ببغداد الكباش البطارقة

ونالت من مع المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة أرضه، وتأذوا بالبناء؛
ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش:

قالوا لنا إن بالقاطول مشتنا فنحن نأمل صنع الله مولانا

الناس يأترون الرأي بينهم والله في كل يوم محدث شانا

تخطيط سامرا

ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع، فأنتهى إلى
موضع سامرا، وكان هناك للنصارى دبر عادي، فسأل بعض أهل الدير عن اسم
الموضع، فقال: يعرف بسامرا، قال له المعتصم: وما معنى سامرا؟ قال: نجدها في
الكتب السالفة والأمم الماضية أنها مدينة سام بن نوح، قال له المعتصم: ومن أي بلاد
هي؟ وإلام تضاف؟ قال: من بلاد طبرهان، وإليها تضاف، فنظر المعتصم إلى قضاء
واسع تسافر فيه الأبصار، وهواء طيب، وأرض صحيحة، فاستمرأها واستطاب هواءها،
وأقام هنالك ثلاثاً يتصيد في كل يوم، فوجد نفسه تنوُّق إلى الغذاء، وتطلب الزيادة على
العادة الجارية، فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة [والماء]، فلما استطاب الموضع دعا
بأهل الدَّير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار، وارتاد لبناء قصره موضعاً فيها،
فأسس بنيانه، وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسراً من رأى، وإليها يضاف التين
الوزيري، وهو أعذب الأتيان وأرقها قشراً، وأصغرها حباً، لا يبلغه تين الشام، ولا
يلحقه تين أرجان وحلوان، فارتفع البنيان، وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من
سائر الأمصار، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغُروس والأشجار، فجعل للأتراك
قطائع متحيزة، وجاورهم بالفراغة والأشروسية وغيرهم من مدن خراسان على قدر
قربهم منهم في بلادهم، وأقطع أشناس التركي وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف
بكرخ سامرا، ومن الفراغة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمرى والجسر، واختطت
الخطط، واقتطعت القطائع والشوارع والدروب، وأفرَد أهل كل صنعة بسوق، وكذلك

التجار، فبنى الناس، وارتفع البناء، وشيدت الدور والقصور، وكثرت العمارة، واستنبطت المياه، وجرت من دجلة وغيرها، وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت، فقصدها وأجهزوا إليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان، وكثر العيش، واتسع الرزق، وشملهم الإحسان، وعمهم العدل [فاتسع الخطب، وأقبلت الأرض] وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة إحدى وعشرين ومائتين.

خروج بابك الخرمي

واشتد أمر بابك [الخرمي ببلاد الران والبيلقان، وكثرت غثرته في تلك البلاد] وسار عساكره نحو تلك الأمصار، ففرق الجيوش، وهزم العساكر، وقتل الولاء، وأفنى الناس، فسير إليه المعتصم الجيوش وعليها الأفشين، وكثرت حروبه واتصلت، وضاق بابك في بلاده حتى انفض جمع، وقتل رجاله، وامتنع بالجبل المعروف بالبدین من أرض الران، وهي بلاد بابك، وبه يعرف هذا الموضع إلى هذا الوقت، فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه، وزال عن مكانه، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه، وقد تزياً بزي السفر وأهل التجارة والقوافل، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية [من أعمال سهل بن سنباط من بطارقة أرمينية] على بعض المياه، وبالقرب منهم راعي غنم، فابتاعوا منه شاة، وساموا شراء شيء من الزاد لهم، فمضى من قوره إلى سهل بن سنباط الأرميني، فأخبره الخبر، وقال: هو بابك لا شك فيه، وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعه أو يتحصن ببعض القلاع، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف إليه قلال عسكره، فيرجع إلى ما كان من أمره، فأخذ الطريق، وكتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وضمن في ذلك الرغائب، فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به سار من قوره فيمن حصره من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذي فيه بابك، فترجل له، ودنا منه، وسلم عليه بالملك، وقال له: أيها الملك، قم إلى قصرك الذي فيه وليك وموضع يمنحك الله فيه من عدوك، فسار معه إلى أن أتى قلعته، وأجلسه على سريره، ورفع منزلته، ووطأ له منزله ومن معه، وقدمت المائدة، وقعد سهل يأكل معه، فقال له بابك - بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه: أمثلك يأكل معي؟! فقام سهل عن المائدة، وقال: أخطأت أيها الملك، وأنت أحق من احتمل عبده؛ إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك، وجاءه بحداد، وقال له: مَدَّ رجلك أيها الملك، وأوثقه بالحديد، فقال له بابك: أغدراً يا سهل؟! قال: يا ابن الخبيثة إنما أنت راعي غنم وبقر، ما أنت والتدبير

للملك ونظم السياسات وتدبير الجيوش؟! وقيد مَنْ كان معه، وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر، وأن الرجل عنده، فسَرَّحَ إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد، وعليهم خليفة يقال له بوماده، فتسلموا بابك ومن معه، وأتى به إلى الأفشين ومعه سهل بن سنباط، فرفع الأفشين منزلة سهل، وخلع عليه، وجملته، وتَوَجَّه، وقاد بين يديه، وأسقط عنه الخراج، فأطلقه، وأطلقت الطيور إلى المعتصم، وكتب إليه بالفتح، فلما وصل إليه ذلك ضَجَّ الناس بالتكبير، وعَمَّهم الفرح، وأظهروا السرور، وكتبت الكتب إلى الأمصار بالفتح، وقد كان أفنى عساكر السلطان، فسار الأفشين ببابك، وتنقل بالعاكر، حتى أتى سُرَّ مَنْ رأى، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتلقى الأفشين هارونُ بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا، وبعث إليه بالفيل الأشهب، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون، وكان فيلا عظيماً قد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون، ومعه ناقة عظيمة بُحْتِيَّة قد جللت بما وصفنا، وحمل إلى الأفشين دُرَاعَة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب قد رُصِّع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر، ودراعة دونها، وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة، وقد نظم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر، وألبس بابك الدراعة [الجليلة]، وألبس أخوه الأخرى، وجعلت القلنسوة على رأس بابك، وعلى رأس أخيه نحوها، وقُدِّمَ إليه الفيل، وإلى أخيه الناقة، فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال: ما هذه الدابة العظيمة؟ واستحسن الدراعة، وقال: هذه كرامة ملك عظيم جليل، إلى أسير فقد العز ذليل، أخطأته الأقدار، وزالت عنه الجدود، وتَوَرَّطته المحن، إنها لفرحة تقتضي ترحه، وضرب له المصاف صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود، من القاطول إلى سامراً، مدد واحد متصل غير منفصل، وبابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة، والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك ينظر إلى ذات اليمين وذات الشمال، ويميز الرجال والعُدَد، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم، وذلك يوم الخميس ليلتين خَلَّتَا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ولم ير الناس مثل ذلك اليوم، ولا مثل تلك الزينة، ودخل الأفشين على المعتصم فرفع منزلته، وأعلى مكانه، وأتى ببابك فَطَوَّفَ به بين يديه، فقال له المعتصم: أنت بابك؟ فلم يجب، وكررها عليه مراراً، وبابك ساكت، فمال إليه الأفشين وقال: الويل لك! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟ فقال: نعم أنا بابك، فسجد المعتصم عند ذلك، وأمر بقطع يديه ورجليه.

قال المسعودي: ورأيت في كتاب أخبار بغداد أنه لما وقف بابك بين يديه لم يكلمه مَلِيًّا، ثم قال له: أنت بابك؟ قال: نعم، أنا عبدك وغلارك، وكان اسم بابك الحسن، واسم أخيه عبد الله، قال: جَرِّدُوهُ، فَسَلَبَهُ الخَدَّاءُ ما عليه من الزينة، وقطعت يمينه، وضرب بها وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره، وثلبت برجليه، وهو يتمرغ في النطع في دمه، وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله، فلم يلتفت إلى قوله، وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه، وأمر السيف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه، ففعل، ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده [فصلب] ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام، ونصب على الجسر، وحمل إلى خراسان بعد ذلك، يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره، وعظم شأنه، وكثرة جنوده، وإشرافه على إزالة مُلْكٍ وقلب ملة وتبديلها، وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام، ففعل به إسحاق بن إبراهيم أميرها ما فعل بأخيه بابك بسامرا، وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامرا، وموضعه مشهور إلى هذه الغاية يعرف بخشبة بابك، وإن كانت سامرا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنها، وبَانَ عنها قاطنُها، إلا يسيراً من الناس في بعض المواضع بها.

ولما قتل بابك وأخوه وكان من أمره ما تقدم ذكره قام في مجلس المعتصم الخطباء فتكلموا، وقالت الشعراء: فمن قام في ذلك اليوم إبراهيم بن المهدي فقال شعراً بدلاً من الخطبة، وهو:

يا أميين الله، إن الـ	حمد الله كثيرًا
هكذا النصر فلا زلـ	ل لك الله نصيرًا
وعلى الأعداء أعطيـ	ت من الله ظهيرًا
وهنيئاً هَيَّا الدـ	ه لك الفتح الخطيرا
فَهُوَ فَتَحَ لِم ير النـ	اس له فتحاً نظيرا
وَجَزَى الْأَقْشِينَ عبدا	لله خيراً وَخُبُورًا
فلقد لَأَقَى به بـا	بَكْ يَوْمًا قُمْطِيرًا
ذاك مـولـاك الـذي أُلـ	فَيْتَهُ جَلْدًا صَبُورًا
لك حَتَّى ضَرَجَ السَّيْـ	ف له خدًا نُضِيرًا
ضَرْبَةً أَلْقَتْ عَلَى الدُّهـ	ر له في الوُجْهِ نُورًا

وتوج الأفشين بتاج من الذهب مرصع بالجواهر، وإكليل ليس فيه من الجواهر إلا

الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب، وألبس وشاحين، وزوج المعتصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس، وزفت إليه، وأقيم لها عرسٌ يجاوز المقدار في البهاء والجمال، وكانت توصف بالجمال والكمال، ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواصُّ الناس وكثيراً من عوامهم، قال المعتصم أحياناً يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما، وهي:

زفت عَرُوسٌ إلى عَرُوسٍ بنت رئيس إلى رئيس
أيهما كان ليت شعري أجل في الصدر والنفوس
أصاحب المُرَقَفِ المحلى أم ذو الوشاحين والشُّمُوس

غزو الروم زبطرة

وفي هذه السنة - وهي سنة ثلاث وعشرين ومائتين - خرج توفيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر والصقالبة، وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم، حتى نزل على مدينة زِبْطَرَة من الثغر الخزري، فافتتحها بالسيف، وقتل الصغير والكبير [وسبى] وأغار على بلاد ملطية، فضج الناس في الأمصار، واستغاثوا في المساجد والديار، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم، فأنشده [قائماً] قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا [ويحضه على الانتصار] ويحثه على الجهاد، فمنها:

يا غارة الله قد عاينت فانتهكي هتك النساء وما منهن يرتكب^(١)
هَبِ الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

وإبراهيم بن المهدي أول من قال في شعره «يَا غَارَةَ الله».

هزيمة الروم

فخرج المعتصم من قَوْرَه نافراً عليه دُرَاعَةٌ من الصوف بيضاء، وقد تعمم بعمامة الغُرَاة، فعسكر في غربي دجلة، وذلك يوم الاثنين، لليلتين خَلَّتَا من جمادى الأولى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونصبت الأعلام على الجسر، ونودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين، فسارت إليه العساكر والمطوعة من سائر الإسلام، وجعل على مقدمته أشناس التركي، ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته إيتاخ التركي، وعلى ميسرته جعفر بن دينار الخياط وعلى سَاقَتِهِ بُعَا الكبير [ويتلوه دينار بن عبد الله] وعلى القلب عجيف، وسار المعتصم من الثغور الشامية، ودخل من درب السلامة، ودخل الأفشين من درب الحدث، ودخل الناس من سائر الدروب، فلم يكن يحصي الناس

العدد، ولا يضبطون كثرة، فمن مكثر ومقلل؛ فالمكثر يقول: خمسمائة ألف، والمقلل يقول: مائتي ألف. ولقي ملك الروم الأفشين، فحاربه فهزمه الأفشين، وقتل أكثر بطارقه وأصحابه، وحمّاه رجل من المتنصرة يقال له نصير في خلق من أصحابه، وقد كان الأفشين قصر عن أخذ الملك في ذلك اليوم حين ولّى، وقال: هو ملك، والملوك تُبقي بعضها على بعض، وفتح المعتصم حصوناً كثيرة، ونزل على مدينة عمورية، ففتحها الله على يديه، وخرج إليه لاوي البطريق منها، وسَلَّمَهَا إليه، وأسر البطريق الكبير منها، وهو باطس، وقتل منها ثلاثين ألفاً، وأقام المعتصم عليها أربعة أيام يهدم ويحرق، وأراد المسير إلى القسطنطينية، والتزول على خليجها، والحيلة في فتحها بَرّاً وبحراً، فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه من أمر العباس بن المأمون، وأن ناساً قد بايعوه، وأنه كاتب طاغية الروم، فأعجل المعتصم في مسيره وحبس العباس وشيعته.

وفي هذه السنة مات العباس بن المأمون.

خروج المازيار صاحب طبرستان وموته

وفي سنة خمس وعشرين ومائتين أدخل المازيار بن قارن بن بندارهرمس صاحب جبال طبرستان إلى سامرا [وقد كان اصطنعه المأمون، فعصى في أيام المعتصم، وكثرت عساكره، واتسعت جيوشه، وكتب المعتصم إليه يأمره بالحضور، فأبى، فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بحربه، فسير إليه من نيسابور عمه الحسن بن الحسين بن مصعب، فنزل مدينة السارية من بلاد طبرستان، بعد حروب كثيرة كانت له مع المازيار، وأتت الحسن بن الحسين عيونه بركوب محمد بن قارن - وهو المازيار - إلى الصيد في نفر يسير، فبادره الحسن وناوشه الحرب، فأسر وحمل إلى سامرا] فأقر على الأفشين: أنه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس، وقبض على الأفشين قبل قدوم المازيار [بسامرا] بيوم، وأقر عليه كاتب له يقال له: سابور، فضرب المازيار بسوط حتى مات، بعد أن شهر وصلب إلى جانب بابك، وقد كان المازيار رَغِبَ المعتصم في أموال كثيرة يحملها [إليه] إن هو مَنَّ عليه بالبقاء، فأبى قبول ذلك، وتمثل:

إنَّ الأسود أسود الغيل همتها يرم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك، فتدانت أجسامهما، وقد كان صلب في ذلك الموضع باطس بطريق عمورية، وقد انحنى نحوهما خشبته، ففي ذلك يقول أبو تمام حبيب بن أوس من كلمة له:

ولقد شَفَى الأحشاء من بُرَحَائِهَا إذ صار بَابُكَ جَارَ مَازِيَارِ
ثانيه في كِبِدِ السماء، ولم يكن لاثْنَيْنِ ثَانٍ إذ هُمَا في الغارِ
فكَأَنَّمَا انْحَنَى لَكِيْمًا يَطْوِيَا عن باطس خبراً من الأخبارِ

ومات الأفسنين في الحبس بعد أن جمع بينه وبين مازيار، فأقر عليه، وأخرج الأفسنين ميتاً، فصلب بباب العامة، وأحضرت أصنام زعموا أنها كانت حملت إليه، فألقيت عليه، وأضرمت النار، فأثت على الجميع.

موت أبي دلف العجلي

وفي سنة ست وعشرين ومائتين مات أبو دُلف القاسم بن عيسى العجلي، وكان سيد أهله، ورئيس عشيرته، من عجل وغيرها من ربيعة، وكان شاعراً مجيداً، وشجاعاً بطلاً، مغنياً مصيباً، وهو القائل:

يوماً تراني على طِوَرٍ ترهبني الأَجْبُلُ الرواسي
ويوم لهو أحثُّ كاساً وخلف أذني قضيب آس

وذكر أن أبا دُلف طعن فارساً، فنفذت الطعنة إلى أن وصل السنان إلى فارس آخر كان من خلفه فقتلها؛ ففي ذلك يقول بكر بن النطاح من كلمة له:

قالوا: وينظم فارسَيْنِ بطعنة يوم الهياج ولا نراه كليلاً
لا تعجبوا فلو أن طول قناته ميل إذا نَظَمَ الفوارس ميلاً

وذكر عيسى بن أبي دُلف أن أخاه دُلف - وبه كان يكنى أبوه أبا دُلف - كان ينتقص علي بن أبي طالب، ويضع منه ومن شيعته، وينسبهم إلى الجهل، وأنه قال يوماً - وهو في مجلس أبيه، ولم يكن أبوه حاضراً - : إنهم يزعمون أن لا ينتقص علياً أحد إلا كان لغير رشدة، وأنتم تعلمون غيرة الأمير، يعني أباه، وأنه لا يتهياً الطعن على أحد من حرمه، وأنا أبغض علياً، قال: فما كان بأوشك من أن خرج أبو دُلف، فلما رأيناه قُمنَّا له، فقال: قد سمعت ما قاله دُلف، والحديث لا يكذب، والخبر الوارد في هذا المعنى لا يختلف، هو وَاللهُ لَزْنِيَّةٌ وَحَيْضَةٌ، وذلك أني كنت عليلاً فبعثت إليّ أختي جارية لها، كنت بها معجباً، فلم أتمالك أن وقعت عليها وكانت حائضاً فعلقت به، فلما ظهر حَمْلُها وهبتها لي.

عداوة أبي دلف وابنه

فبلغ من عداوة دُلف هذا لأبيه ونصبه ومخالفته له لأن الغالب على أبيه التشيع والميل إلى علي أن شنع عليه بعد وفاته، وهو ما حدث به [محمد بن علي] القُوهِسْتَانِي قال: حدثنا دُلفُ بن أبي دلف، قال: رأيت في المَنَام آتياً أتاني بعد موت أبي، فقال لي: أَجِبْ الأمير، فقممت معه، فأدخلني داراً وَحْشَةً وَغَرَّةً، وأصعدني على درج منها، ثم أدخلني غرفة في حيطانها أثر النار، وفي أرضها أثر الرماد، وإذا به عُرْيَان واضح رأسه بين ركبتيه، فقال كالمستفهم: دُلف؟ قلت: دُلف، فأنشأ يقول:

فلو أنا إذا مُتْنَا تَرَكْنَا لكان الموت راحة كل حي
ولكنّا إذا مُتْنَا بُعِثْنَا ونُسأل بعده عن كل شي

ثم قال: أفهمت؟ قلت: نعم، وانتبهت.

موت جماعة من العلماء

وفي خلافة المعتصم - وذلك في سنة أربع وعشرين ومائتين - مات جماعة من نَقَلَةِ الأخبار وَعِلْيَةِ أصحاب الحديث: منهم عمرو بن مرزوق الباهلي البصري، وأبو النعمان حازم بن محمد بن الفضل السدوسي، وأبو أيوب سليمان بن حرب الواشجي البصري من الأزد، وسعيد بن الحكم بن أبي مريم البصري، وأحمد بن عبد الله العُدَاني، وسليمان الشاذكوني، وعلي المدني.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين مات بِشْرُ الحَافِي ببغداد، وكان من بلاد مَرْوَ، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي بالبصرة، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، وعبد الله بن عبد الوهاب الجمحي، وإبراهيم بن يسار الرَّمَادِي، وقيل: إن فيها كانت وفاة محمد بن كثير العبدِي، والصحيح أن وفاته كانت في سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

قال المسعودي: وفي سنة سبع وعشرين ومائتين كانت وفاة المعتصم، على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني، يوم الخميس لثماني عشرة ليلة بَقِيَتْ من شهر ربيع الأول، وقيل: لساعتين من ليلة الخميس، وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وقيل: ست وأربعين سنة، على ما قَدَّمنا في صدر هذا الباب، وكان مولده بالخلد ببغداد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن من السنة، وهو ثامن الخلفاء، والثامن من ولد العباس، ومات عن ثمانية بنين، وثمان بنات.

وللمعتصم أخبار حسان، وما كان من أمره في فتح عَمُورِيَّةَ، وما كان من حُرُوبه قبل الخلافة في السفارة نحو الشام ومصر، وغير ذلك، وما كان منه بعد الخلافة، وما حَكَى عنه من حُسْن السيرة واستقامة الطريقة أحمدُ بن أبي دُوَادٍ القاضي، ويعقوب بن إسحاق الكندي، في لمع أَوْرَدَهَا في رسالته المترجمة بسبيل الفضائل، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في «أخبار الزمان» والكتاب الأوسط، وقد ذكرنا في هذا لمعاً مُنْبَهَةً على ما سلف، وباعثة على دَرَسِ ما تقدم.

ذكر خلافة الواثق بالله

موجز

وبويع هارونُ بنُ محمد بن هارونَ الواثقُ [بالله]، ويكنى بأبي جعفر، وأمه أمُّ ولد رومية، وتسمى قَرَاطِيسَ، وذلك في اليوم الذي كانت فيه وفاة المعتصم، وهو يوم الخميس لثمانية عشرة ليلة خَلَّتْ من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وبُويِع وهو ابن إحدى وثلاثين سنة وتسعة أشهر [وتوفي بسامراً وهو ابن سبع وثلاثين سنة وستة أشهر]، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وقيل: إنه توفي في يوم الأربعاء لست بَقِيْنَ من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، ووزيره محمد بن عبد الملك، على حسب ما قَدَّما في أيام المعتصم من هذا الكتاب، والتواريخ متباينة في مقادير أعمارهم وأيامهم في الزيادة والنقصان.

ذكر لمع من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

صفات الواثق

كان الواثق كثير الأكل والشرب، واسع المعروف، متعظفاً على أهل بيته، متفقداً لرعيته، وسلك في المذهب مذهب أبيه وعمه من القول بالعدل.

غلب عليه اثنان

وغلب عليه أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، فكان لا يَصْدُرُ إلا عن رأيهما، ولا يعتب عليهما فيما رآياه، وقلدهما الأمر وفَوْضَ إليهما ملكه.

أعرابي يصف الواثق وأعوانه

وذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي، نسبة إلى جاسم - وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بالجلولان، ويعرف بجاسم على أميال من العجابية وبلاد نوى، وهي من مراعي أيوب عليه السلام - قال: خرجت في [أول] أيام الواثق إلى سُرٍّ من رأى، فلما قربت منها لقيني أعرابي، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه، فقلت: يا أعرابي، ممن أنت؟ قال: من بني عامر، قلت: وكيف علمك بعسكر أمير المؤمنين قال: قَتَلَ أرضاً عالمها، قلت: ما تقول في أمير المؤمنين؟ قال: وَثَقَ بالله فكفاه، أشجى العاصية، وَقَصَمَ العادية، وعدل في الرعية، ورغب عن كل ذي جنائية، قلت: فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد^(٢)؟ قال: هَضَبَ لا تُرام، وجبل لا يضام، تشخذ له المدى، وتنصب له الجبال، حتى إذا قيل قد هلك وثب وثْبَةُ الذئب، وَخَتَلَ خَتْلَهُ الضب، قلت: فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات؟ قال: وسع الداني شره، ووصل إلى البعيد ضره، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر نابٍ ولا مِخْلَبٍ، قلت: فما تقول في عمرو بن فرج؟ قال: ضخم نهم، استعذب الدم، ينصبه القوم نُزْساً للوغى، قلت: فما تقول في الفضل بن مروان؟ قال: رجل بُشِّرَ بعد ما قبر، ليس تعدُّ له حياة في الأحياء، وعليه حَفَّةُ الموتى، قلت: فما تقول في أبي الوزير؟ قال: تخاله كبش

الزنادقة، أما تراه إذا أحمله الخليفة سَمِنَ وَرَتَعَ، وإذا هزه أمطر فأَمْرَعُ، قلت: فما تقول في أحمد بن الخصيب؟ قال: ذاك أكل أكلة نهم، فزرق زرقه بشم، قلت: فما تقول في إبراهيم أخيه؟ قال: أموات غير أحياء وما يشعرون أَيَّانَ يبعثون، قلت: فما تقول في أحمد بن إبراهيم؟ قال: لله دره! أي فاعل هو؟ وأي صابر هو؟ اتخذ الصبر دثاراً، والجود شعاراً، [وأهون عليه بهم]، قلت: فما تقول في المَعْلَى بن أيوب؟ قال: ذاك رجل خير، نصيح السلطان، عفيف اللسان، سلم من القوم وسلموا منه، قلت: فما تقول في إبراهيم بن رَبَاح؟ قال: ذاك رجل أوثقه كرمه، وأسلمه فضله، وله دعاء لا يسلمه، ورب لا يخذله، وفوقه خليفة لا يظلمه، قلت: فما تقول في الحسن ابنه؟ قال: ذاك عود نُضَار، غُرس في منابت الكرم، [حتى إذا اهتزَّ حصدوه]، قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: لله دره!! أي طالب وتر، ومدرك ثار؟ يلتهب كأنه شعلة نار، له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعماً، وتُحِلُّ نقماً، قلت: يا أعرابي، أين منزلك حتى آتيك؟ قال: اللهم غُفراً ما لي منزل، أنا أَشتمل النهار، وألتحف الليل، فحيثما أدركني الرقاد رَقَدْتُ، قلت: فكيف رضاك عن أهل العسكر؟ قال: لا أخلق وجهي بمسألتهم، إن أعطوني لم أحمدهم، وإن منعوني لم أذمهم، وإني كما قال هذا الغلام الطائي:

وما أَبالي وَخَيْرُ القول أَصْدَقُهُ حَقَّقْتُ لي ماء وجهي أو حَقَّنت دمي

قلت: فأنا قائل هذا الشعر، قال: أئنك أنت الطائي؟ قلت: نعم، قال: لله أبوك، وأنت القائل:

ما جُودُ كَفْكَ إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي وقد أخلقته عَوْضُ

قلت: نعم، قال: أنت أشعر أهل زمانك.

[وفي رواية أخرى ليست في الكتاب: قلت: أنشدني شيئاً من شعرك، فأنشدني:

أقول وجنح الدجا مُلَبَّدُ وَلَيْلٍ في كلِّ فَسَجٍّ يَدُ
ونحن ضجيعان في مُجَسَّد فَلِلَّهِ ما ضُمِّنَ المَجَسَّدُ
فيا عَدُوَّ إن كُنْتَ بي مُحْسِناً فلا تَدُنْ من ليلتي يا عَدُوَّ
ويا ليلة الوصل لا تنفدي كما ليلة الهجر لا تنفدُ

فقلت: لله أبوك!!] ورددته معي حتى لقيت ابن أبي دُوَادٍ وحدثته بخبره، فأوصله إلى الواثق، فأمر له بألف دينار، وأخذ له من سائر الكُتَّاب وأهل الدولة ما أغناه به، وأغنى عقبه بعده.

وهذا الخبر فمخرجه عن أبي تمام، فإن كان صادقاً فيما قال، ولا أراه، فقد أحسن الأعرابي في الوصف، وإن كان أبو تمام هو الذي صنعه وعَزَّاه إلى هذا الأعرابي فقد قَصُر في نظمه، إذ كانت منزلته أكبر من هذا.

أبو تمام الطائي

وكانت وفاة أبي تمام بالموصل سنة ثمان وعشرين ومائتين، وكان خليعاً ماجناً [في بعض أحواله]، وربما أذاه ذلك إلى ترك موجبات فرضه، تماجناً لا اعتقاداً.

وحدث محمد بن يزيد المبرد، عن الحسن بن رجاء، قال: صار إليَّ أبو تمام وأنا بفارس، فأقام عندي مقاماً طويلاً، ونمى إليَّ من غير وجه أنه لا يصلي، فوكلت به مَنْ يراعيه، ويتفقدّه في أوقات الصلاة، فوجدت الأمر على ما اتصل بي عنه، فعاتبته على فعله ذلك، فكان من جوابه أن قال: أتراني أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام وأتجشم هذه الطرقات الشاقة، وأكسل عن ركعات لا مؤونة عليَّ فيها، لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً أو على مَنْ تركها عقاباً، قال: فهممت والله بقتله، ثم تخوّفتُ أن يصرف الأمر إلى غير جهته، وهو القائل:

وَأَحَقُّ الْأَتَامِ أَنْ يَقْضِيَ الدِّينَ أَمْرُؤُ كَانَ لِلْإِلَهِ غَرِيماً

وهذا قول مبين لهذا الفعل، والناس في أبي تمام في طرفي نقيض: متعصب له يعطيه أكثر من حقه، ويتجاوز به في الوصف قدره، ويرى أن شعره فوق كل شعر، أو منحرف له معاند، فهو ينفي عنه حسنه، ويعيب مختاره، ويستقبح المعاني الظريفة التي سَبَقَ إليها وتفرد بها.

وذكر عبد الله بن الحسن بن سعد، أن المبرد قال: كنت في مجلس القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق، وحضر جماعة سَمَّاهم منهم الحارثي الذي قال فيه علي بن الجهم الشامي:

لَمْ يَطْلُعَا إِلَّا لِأَبْدَةِ الْحَارِثِيِّ وَكَوْكَبِ الذَّنْبِ

فجرى ذلك الشعر وإن كان الكلام تسلسل إلى ذكر أبي تمام وشعره، وأن الحارثي أنشد لأبي تمام معاتبه أحسن فيها، وأن المبرد استحيا أن يستعيد الحارثي الشعر، أو يكتبه منه لأجل القاضي، قال ابن سعد^(١): فأعلمت المبرد أنني أحفظ الشعر، فأنشدته إياه، فاستحسنه واستعاده مني مراراً حتى حفظه مني، وهو:

جعلت فداك! عبدُ الله عندي بعقب النأي عنه والبعاد

له لُمة من الفتيان بيض قَضَوْا حق الصداقة والوداد
دعوتَهُمْ عليك وَكُنْتُ ممن أَنَادِيهِ على التُّوبِ الشَّداد

قال: وسألته عن أبي تمام والبحري أيهما أشعر؟ قال: لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعانٍ ظريفة، وجيده أجود من شعر البحري، ومن [شعر مَنْ] تَقَدَّمه من المحدثين، وشعر البحري أحسن استواء من شعر أبي تمام؛ لأن البحري يقول القصيدة كلها، فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب، وأبو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف، وما أشبهه إلا بغائص البحر يخرج الدرة وَالْمَخْشَلَةَ فيجعلهما في نظام واحد، وإنما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل بأشعارهم، وإلا فلو أسقط من شعره على كثرة عدده ما أنكر منه لكان أشعر نظرائه، فدعائي هذا القول منه إلى أن قرأت عليه شعر أبي تمام، وأسقطت خواطئه وكل ما دُم من شعره، وأفردت جيده، فوجدت ما يتمثل به ويجري على السنة العامة وكثير من الخاصة مائة وخمسين بيتاً، ولا أعرف شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً يتمثل له بهذا المقدار من الشعر، ثم قال المبرد: وبالبحري يُخْتَمُ الشعر، وأنشدني له بيتين زعم المبرد أنهما لو أضيفا إلى شعر زهير لجازا فيه، وهما:

وما سَفَهَ السفِيه وإن تَعَدَّى بأنْجَعَ فيك من حلم الحليم
متى أَحْفَظْتَ ذا كرم تَخْطَى إليك ببعض أفعال اللئيم

قال: وكان مما ذكرناه من شعر البحري في هذا المجلس وَقَدَّمه محمد بن يزيد على نظرائه قوله في ابني صاعد بن مخلد:

وإذا رأيت مخايل ابْنِي صَاعِدٍ أَدَّتْ إليك مخايل ابني مَخْلَدٍ
كالفرقدين إذا تأمل ناظر لم يَعْلُ موضع فرقَد من فرقَد

وقوله:

مَنْ شَاكِرٌ عني الْخَلِيفَةُ لِلَّذِي أُولَاهُ مِنْ بَرٍّ وَمِنْ إِحْسَانٍ؟
حتى لقد أَفْضَلْتُ مِنْ إِفْضَالِهِ وَأَرَيْتُ نهج الجود حيث أراني
أَغْنَتْ يدها يدي، وَشَرَّدَ جوده بخلي، فأفقرني كما أغناني
ووثقت بالخلق الجميل معجلاً منه، وأعطيت الذي أعطاني

وقوله:

وددتُ بياضَ السيفِ يوم لقينني مكان بياض الشيب كان بمفرقي

وقوله:

دنوتَ تواضعاً وعلوتَ قدراً فَشَأْنُكَ انحِدَارُ وارتِفَاعُ
كذلك الشمس تبعدُ أن تُسَامَى ويدنو الضوء منها والشعاعُ

وقوله في الفتح بن خاقان، وقد نزل إلى أسد فقتله:

حملت عليه السيف، لا عَزْمُكَ انثنى ولا يَدُكَ ارتدَّتْ، ولا حَدُّهُ نَبَا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وصَمَّمْ لما لم يجد منك مهرباً
وكنت متى تجمع يمينك والعلَا لدى ضَيْعَمٍ لم تبق للسيف مضرباً
وقوله:

ما زال صرف الدهر يؤيس صَفْقَتِي حتى رَهْنْتُ على المشيب شَبَابِي
وقوله في المنتصر:

وإن عليّاً لأولى بكم وأزكى بدأً عندكم من عمر
وكلُّ له فَضْلُهُ، والحجو لُ بوم البراذين دون الغُرُرِ
وقوله:

تعب الغانيات عليّ شيبني ومن لي أن أمتّع بالمشيب
ثم ذكر انتفاض الصلح بين عشيرته فقال:

إذا ما الجرح زَمَّ على فساد تبَيَّنَ فيه تفريطُ الطبيبِ
وقوله:

وللسَّهْمُ الشريد أخفُّ عبئاً على الرامي من السهم المصيب
وقوله:

وما منع المُثُخُ بن خاقان نيْلَهُ ولكنها الأيام تُعْطِي وتحرم
سحاب خَطَّاني جوده وهو مُسْبِل وبحر عَدَّاني فيضه وهو مُفْعَمُ
[وبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً ومَوْضِعُ رجلي منه أسود مظلم]
أشكو نداءً بعد أن وَسِعَ الوري ومن ذا يذم الغيث إلا مذمم؟

وذكر محمد بن أبي الأزهر قال: كان إبراهيم بن المدبر - مع محلّه في العلم والأدب والمعرفة - يُسيء الرأي في أبي تمام، ويحلف أنه لا يحسن شيئاً قط، فقلت له يوماً: ما تقول في قول مَنْ يقول:

غدا الشيب مختطاً بفؤديّ خطة
هو الزور يجفو، والمعاشر يجتوي
له منظر في العين أبيض ناصع
ونحن نرجّيه على الكره والرضا
سبيل الردى منها إلى النفس مهيع
وذو الإلف يُقلى، والجديد يرقع
ولكنه في القلب أسود أسفّع
وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

وفيمن يقول:

فإن ترم عن عمرو تداعى به المدى
فما كنت إلا السيف لأقى ضريبة
فخائنك حتى لم تجد فيه مترعا
فقطّعها ثم انثنى فتقطعا

وفيمن يقول:

شرف على أول الزمان وإنما الـ
شرف المناسب ما يكون كريما

وفيمن يقول:

إذا أحسن الأقوام أن يتطاولوا
بلا نعمة أحسنت أن تتطاولا

وفيمن يقول:

ممطر لي الحياة والمال لا ألـ
وإذا ما أردت كنت رشاء
مماك إلا مستوهباً أو وهوباً
وإذا ما أردت كنت قليباً

وفي القائل:

خشعوا لصولتك التي عوذتهم
فالمشي همس، والنداء إشارة
أيامنا معقودة أطرافها
تندى عُفَاتك للعُفَاة، ويغتدي
كالموت يأتي ليس فيه عثار
خوف انتقامك والحديث سراز
بك، والليالي كُلُّها أسحار
رفقاً إلى زوارك الزوار

وفيمن يقول:

إذا أوهدت أرضاً كان فيها
رضاك فلا نحن إلى ربّاهـ

قال ابن أبي الأزهر: فوالله لكأني أغريت ابن المدبر بأبي تمام، حتى سبه ولعنه، فقلت: إذا فعلت ذلك لقد حدثني المعروف بأبي عمرو بن الحسن الطوسي الراوية أن أباه وجه به إلى ابن الأعرابي يقرأ عليه أشعار هذيل، قال: فمرت بنا أراجيز، فأنشدته أرجوزة لأبي تمام، لم أنسبها إليه، وهي:

وعاذل عذلت في عذله فظن أني جاهل من جهله
 ما غبن المغبون مثل عقله مَنْ لكَ يوماً بأخيك كله
 لبست رِيْعَانِي فدعني أبله وَمَلِكٌ في كِبَرِهِ ونبله
 وسوقه في قوله وفعله بذلت مدحي فيه باغي بذله
 فجز حبل أُملي من وصله من بعد ما استعبدني بمطّله
 ثم اغتدى معتذراً بجهله ذا عَنَقٍ في الجهل لم يخله
 تلحظني في جده وهزله [يعجب من تعجبي من بخله]
 لحظ الأسير حلقات كبّله حتى كأنني جئته بعذله
 يا واحداً منفرداً بعذله أكسبْتُك المال فلا تملّه
 ما يصنع الغمْدُ بغير نصله والمدح إن لم يك عند أهله

فقال لابنه: اكتبها، فكتبها على ظهر كتاب من كتبه، فقال له: جعلت فداك! إنها لأبي تمام، فقال: خرق خرق.

وهذا من ابن المدبر قبيح مع علمه، لأن الواجب أن لا يُدْفَعَ إحسان محسن عدواً كان أو صديقاً، وأن تؤخذ الفائدة من الوضع والرفيع، فقد روي عن أمير المؤمنين علي أنه قال: الحكمة ضالة المؤمن؛ فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك. وقد ذكر عن بزرجمهر بن البختكان - وكان من حكماء الفرس، وقد قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار ملوك ساسان وهم الفرس الثانية - أنه قال: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من الكلب والهرة والخنزير والغراب، قيل له: ما أخذت من الكلب؟ قال: إلفه لأهله، وذبه عن صاحبه، قيل: فما أخذت من الغراب؟ قال: شدة حذره، قيل: فمن الخنزير؟ قال: بكوره في حوائجه، قيل: فمن الهرة؟ قال: حسن نغمتها وتملقها لأهلها عند المسألة.

ومن عاب مثل هذه الأشعار التي ترتاح لها القلوب، وتحرّك بها النفوس، وتصغي إليها الأسماع، وتشحذ بها الأذهان، ويعلم كل من له قريحة وفضل ومعرفة أن قائلها قد بلغ في الإجابة أبعد غاية وأقصى نهاية، فإنما غصّ من نفسه، وطعن على معرفته واختياره.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: الهوى إله معبود، واحتج بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [البجائية: ٢٣].

ولأبي تمام أشعار حسان، ومعانٍ لطاف، واستخراجات بديعة.

وحكي عن بعض العلماء بالشعر أنه سئل عن أبي تمام، فقال: كأنه جمع شعر العالم، فانتخب جوهره، وقد كان أبو تمام ألف كتاباً وسماه: «الحماسة» وفي الناس من يسميه «كتاب الخيبة» انتخب فيه شعر الناس، ظهر بعد وفاته.

وقد صنف أبو بكر الصولي كتاباً جمع فيه أخبار أبي تمام وشعره وتصرفه في أنواع علومه ومذاهبه، واستدل الصولي على ما وصف عن أبي تمام بما يوجد من شعره، من ذلك قوله في صفة الخمر:

جَهْمِيَةِ الْأَوْصَافِ، إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرِ الْأَشْيَاءِ

وقد رثته الشعراء بعد وفاته، والأدباء من إخوانه: منهم الحسن بن وهب الكاتب، وكان شاعراً ظريفاً له حظ في المثنور والمنظوم، فقال:

سَقَى بِالْمَوْصِلِ الْجَدَثَ الْغَرِيبَا إِذَا أَطْلَلْنَاهُ أَطْلَلْنَاهُ فِيهِ
شَعِيبَ الْمَزْنِ يَتَّبِعُهَا شَعِيبَا وَلَطَمْتَ الْبُرُوقُ لَهُ خَدُودَا
وَشَقَّقْتَ الرُّعُودُ لَهُ جُيُوبَا فَإِنَّ تَرَابَ ذَاكَ الْقَبْرِ يَحْوِي
حَبِيبَا كَانَ يَدْعَى لِي حَبِيبَا لَبِيباً شَاعِراً فَطَنَّا أَدِيباً
أَصِيلَ الرَّأْيِ فِي الْجُلَى أَرْبَابَا إِذَا شَاهَدْتَهُ رَوَاكُ فِيمَا
يَسْرُكُ رَقَّةً مِنْهُ وَطَيْبَا أَبَا تَمَامِ الطَّائِي، إِنَّا
لَقِينَا بَعْدَكَ الْعَجَبَ الْعَجِيبَا فَقَدْ نَا مِنْكَ عَلَقاً لَا تَرَانَا
نَصِيبُ لَهُ مَدَى الدُّنْيَا ضَرِيبَا وَكُنْتَ أَخَا لَنَا أَبْدَى إِلَيْنَا
ضَمِيرَ الْوُدِّ وَالنَّسَبِ الْقَرِيبَا فَلَمَّا بُنْتُ كَدَرَتِ اللَّيَالِي
قَرِيبَ الدَّارِ وَالْأَقْصَى الْغَرِيبَا وَأَبْدَى الدَّهْرَ أَقْبَحَ صَفْحَتِيهِ
وَوَجْهًا كَالْحَا جَهْمَا قَطُوبَا فَأُخْرِ بِأَنْ يَطِيبَ الْمَوْتَ فِيهِ
وَأَحْرَ بَعِيشْنَا أَنْ لَا يَطِيبَا

وللحسن أشعار حسان ومعانٍ جياذ، منها قوله:

أَبَتْ مَقْلَتَاكَ لِفَرْطِ الْحَزَنِ أَعْلَيْكَ الرُّقَادَ وَبَرْدَ الْوَسَنِ
وَحَقَّ لِعَيْنِيكَ أَنْ لَا تَنَامَا وَقَلْبُكَ مَخْتَلَسَ مَرْتَهَنَ
وَبَيْنَ الْجَوَانِحِ دَاءُ دَفِينٍ لِعَمْرِكَ مَسْتَتِرٌ قَدْ كَمَنَ
[نَجِيَّ الْهَمُومِ، وَقَرْنَ الْكَلُومِ وَوَهَى الْحُلُومِ، وَبَعْدَ الْوَطَنِ]
[شَدِيدَ النِّفَارِ، كَثِيرَ الْعَثَارِ، خَلِيعَ الْعِذَارِ، يَجْرُ الرُّسْنُ]

أفي كل يوم تُطِيلُ الوقوف
وتستخبر الدار عن أهلها
كأنك لم ترفيما مضى
عذرتك أيام شَرَحَ الشباب
فأما وقد زال ظل الشُّبَّابِ
وألْبَسَكَ الشَّيْبَ بعد الشُّبَّابِ
وصرت قَدَى في عيون الحسا
وَيَضِدْفَنَ عنك إذا رمتهنَّ
فما لك عُذْرٍ وأنت امرؤ
تناجي الديار وتبكي الدَّمَنَ؟
وَتُذْذِرِي الدموع على من ظَعَنَ
من الدهر ذا صَبُوءَ مَفْتَتِنَ
وفرعك فرع نضير الغُصْنِ
بِ عَنْكَ وَوَلَّى كَأَنَّ لم يكن
قناع بياض كلون القُطُنِ
نَ يَخُنُّكَ عهداً وإن لم تَخُنْ
وَكُنْتَ لهن زَمَاناً سَكنَ
بما فيه رشذك طَبَّ فطن

علي بن الجعد

وفي خلافة الواثق مات علي بن الجعد مولى بني مخزوم، وكان من عليّة أصحاب الحديث وأهل النقل، وذلك في سنة ثلاثين ومائتين.

قتيل في المحنة

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين قَتَلَ الواثقُ أحمد بن نصر الخزاعي في المحنة على القرآن.

نديم

قال المسعودي: وكان يحضر مجلس الواثق فتى برسم الندماء [وكان] يقوم قائماً لصغر سنه، ولم يكن لذلك يُلْحَقُ في الجلوس بمراتب ذوي الأسنان وكان ذكياً مأذوناً له في الإفاضة مع الجلساء في كل ما يعرض لهم الكلام فيه، والتكلم بما يسنح ويختلج في صدره: من مثل سائر، وبيت نادر، وحديث ممتع، وجواب مُسْرِع، قال: وكان الواثق من شدة الشهوة للطعام والنهمة فيه على الحالة المشهورة المتعالمّة، فقال لهم الواثق يوماً: ما تختارون من الثَّقَلِ؟ فبعض قال: نبات السكر، وبعض قال: رمان، وبعض قال: تفاح، وبعض قال: قصب السكر ينضح بماء الورد، وبعض أخرجته الفلسفة إلى النقيض، فقال: ملح يغلي، وبعض قال: صبر يمحي بمذاب النيذ، ويجلي على سَوْرَةِ الشراب ومرارة النقل، قال: ما صنعتُم شيئاً، ولكن ما تقول أنت يا غلام؟ قال: خشكناج مسير، فوافق ذلك مراد الواثق [وقرّع به ما في نفسه]، وقال: أصبت وأحسنّت بارك الله لك، وكان ذلك أول جلوسه.

محمد بن علي بن موسى

وقيل: إن أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليهم الرضوان توفي في خلافة الواثق، وقد بلغ من السن ما قَدَّمناه في خلافة المعتصم من هذا الكتاب، وقيل: إنه كتب إلى الواثق: يا أمير المؤمنين! ليس من أحد وإن ساعدته المقادير بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروهه، وَمَنْ ترك معاجلة الدرك انتظار مؤاجلة الأشياء سلبته الأيام فرصته، فإن شرط الزمان الآفات، وحكم الدهر السلب.

عبد الله بن طاهر

وفي سنة ثلاثين ومائتين - وذلك في خلافة الواثق - توفي [أبو العباس] عبد الله بن طاهر [بن الحسين] في ربيع الأول من هذه السنة، وفيه يقول الشاعر، وَقَتَّ كون عبد الله بن طاهر بمصر:

يقول أناس: إنَّ مصر بعيدة وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال تَرَاهُمْ بحضرتنا معروفُهُمْ غير حاضر
عن الخير مَوْتَى، ما تبالي أزرتهم على طمع أم زرت أهل المقابر

مجلس للواثق في الفلسفة والطب

وكان الواثق [بالله] محباً للنظر، مكرماً لأهله، مبغضاً للتقليد وأهله، محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة [وغيرهم من الشرعيين، فحضرهم ذات يوم جماعة من الفلاسفة] والمتطبيين، فجرى بحضرته أنواع من علومهم في الطبيعيات وما بعد ذلك من الإلهيات، فقال لهم الواثق: قد أحببت أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطب ومأخذ أصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة؟ أم يدرك بأوائل العقل؟ أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع، كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعة؟ وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر، وقيل: إن حنين بن إسحاق وسلمويه فيمن حضر في هذا المجلس [أيضاً].

فقال منهم قائل: زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذي يدرك به الطب هو التجربة فقط، وحَدَّوه بأنه علم يتكرر الحس على محسوس واحد في أحوال متغايرة، فيوجد بالحس في آخر الأحوال كما يوجد في أولها، والحافظ لذلك هو المجرب، وزعموا أن التجربة ترجع إلى مَبَادٍ أربعة هن لها أوائل ومقدمات، وبها علمت وصحت، وإليها تنقسم التجربة، فصارت بذلك أجزاء لها، فزعموا أن قسماً من تلك

الأقسام طبيعى، وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض: من الرعاف، والعرق، والإسهال، والقيء التي تُعَقَّبُ في المشاهدة منفعة أو ضرراً. [وقسماً عرضياً، وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل، وذلك كما يعرض للإنسان أن يجرح أو يسقط فيخرج منه دم قليل أو كثير، أو يشرب في مرضه أو صحته ماء بارداً أو شراباً، فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً]، وقسماً إرادياً، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة، وذلك كمثّل منام يراه الإنسان، وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة مشاهدة معقولة بشيء من الأشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه، أو يخطر مثل ذلك بباله في حال فكره، فيتردد ويعطب ظنه بعطبه فيجربه بأن يفعله كما يرى في منامه، فيجده كما يرى أو يخالف ذلك، ويفعله مراراً، فيجده كذلك. وقسماً هو نقل، وهو على ثلاثة أقسام: إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض إلى مرض يشبهه، وذلك كالنقلة من ورم الحمرة إلى الورم المعروف بالثُمَّلة، وإما من عضو إلى عضو يشبهه، وذلك كالنقلة من [العضد إلى الفخذ، وإما من دواء إلى دواء يشبهه، كالنقلة من] السفرجل إلى الزعرور في علاج انطلاق البطن، وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة.

وذهبت طائفة أخرى منهم إلى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن تُرَدَّ أشخاص من العلل ومُؤَلَّدَاتِها إلى الأصول الحاضرة الجامعة لها، إذ كان لا غاية لتولدها، وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت، دون الأسباب المؤثرة الفاعلة التي عدت، ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات، ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها، والرصد والتحفظ لكل ما يكون في كل علة وجدت أو لم توجد، وَبَرَهْنُوا بأن زعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال، وأن وجود أحدهما ينفي وجود الآخر في الحال لا محالة، قالوا: وليس هذا كشيء ظاهر يستدل به على كل شيء خفي، والشيء الظاهر يحتمل الوجود، فيختلف في الاستدلال؛ فيكون القطع على ما يوجهه غير بين، وهذا قول جماعة من حذاق المتطبيين وأهل التقدم في اليونانيين مثل نامونيس وساساليس وغيرهما، وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الجبلي.

قال الواثق لهم جميعاً: فأخبروني عن جمهورهم الأعظم إلام يذهبون في ذلك؟ فقالوا: إلى القياس، قال: وكيف ذلك؟ قالوا جميعاً: زعمت هذه الطائفة أن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مُقَدِّمَاتٍ أَوَّلِيَّةٍ، فمنها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وأفعالها، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض، ومعرفة الأهوية واختلافها، والأعمال والصنائع، والعادات والأطعمة والأشربة والأسفار^(١)، ومعرفة قُوَى

الأمراض، وقالوا: ثبت في الشاهد أن الحيوان يختلف في صورته وطباعه، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طباعها وصُورها، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه والأعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والهم، قالوا: والغرض بالطب في تدبير الأجسام حفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح، واجتلابها للعليل، فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة، فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التي قد صحت إذا أراد علاج المريض النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ليستدل بجميع ذلك، وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقرات وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم، قالوا: وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية، مع اتفاقهم على ما وصفنا، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال؛ فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية بطعمه أو ريحه أو لونه أو قوامه أو فعله أو تأثيره في الجسد، وزعموا أن الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء إذا كانت الألوان والأرايح وسائر ما ذكرنا من أفعال الطبائع الأربع، كما أن الإسخان والتبريد والتلين فعل لها، وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء بما أخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة، وما سوى ذلك، فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير لا يقطع به، ولا يعول [في الحكم] على طبيعة الدواء المفرد والمركب.

قال الواثق لحنين من بين الجماعة: ما أول آلات الغذاء من الإنسان؟ قال: أول آلات الغذاء [من الإنسان] الفم، وفيه الأسنان، والأسنان اثنتان وثلاثون سنًا، منها في اللّخي الأعلى ستة عشر سنًا، وفي اللّخي الأسفل كذلك، ومن ذلك أربعة في كل واحد من اللّحين عِراضٌ محددة الأطراف تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة اللينة، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين، وهي الثنايا والرّباعيّات، وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللّحين سِنَانٌ رؤوسهما حادّة وأصولهما عريضة، وهي الأنياب، وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل، وعن جَنَبَيِ النّابين في كل واحد من اللّخَيْنِ خمس أسنان آخر عوارض خشن، وهي الأضراس، ويسمها اليونانيون الطواحن؛ لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل، وكل واحد من الثنايا والرّباعيّات والأنياب له أصل واحد، وأما الأضراس فما كان منها في اللّخي الأعلى فله ثلاثة أصول، خلا الضرسين الأقصيين، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة، وما كان من الأضراس في اللّخي الأسفل فلكل واحد منها

أصلان، حلا الضررين الأَقْصَيْنِ؛ فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة، وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان لشدة قوة العمل بها، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى القم.

قال الواثق: أحسنت فيما ذكرت من هذه الآلات، فصنف لي كتاباً تذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته من ذلك، فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد.

الواثق وحنين بن إسحاق أيضاً

وقد ذكر أن الواثق سأل حُنيئاً في هذا المجلس وفي غيره عن مسائل كثيرة، وأن حُنيئاً أجاب عن ذلك، وصنف في كل ذلك كتاباً ترجمه بكتاب «المسائل الطبيعية» يذكر فيه أنواعاً من العلوم، فكان مما سأل الواثق حُنيئاً من المسائل، وقيل: بل أخضَرَ له [الواثق] نديماً من ندمائه فكان يسأله بحضرته والواثق يسمع ويتعجب مما يورده السائل [والمجيب]، إلى أن قال: فما الأشياء المغيرة للهواء؟ قال حُنيئٌ: خمس، وهي أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها، والرياح، والبلدان، والبحار.

أوقات السنة

قال السائل: فكم هي أوقات السنة؟ قال [حُنيئٌ]: أربع: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء؛ فمزاج الربيع معتدل في الحرارة والرطوبة، ومزاج الصيف حار يابس، ومزاج الخريف بارد يابس، ومزاج الشتاء بارد رطب.

الكواكب

قال السائل: أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء، قال حنين: إن الشمس متى قربت منها أو قربت هي من الشمس كان الهواء أزيد سُخُونَةً، وخاصة كلما كانت أعظم، ومتى بعدت الشمس أو بعدت هي من الشمس كان الهواء أزيد برداً.

الرياح

قال [السائل]: أخبرني عن كيفية أعداد الرياح، قال [حنين]: أربع: الشَّمَال، والجنوب، والصَّبَا، والدَّبُور؛ فأما قوة الشَّمَال فباردة يابسة، وأما الجنوب فحارة رطبة، وأما الصَّبَا والدَّبُور فمعتدلان، غير أن الصَّبَا أَمِيلُ إلى الحرارة واليبس، والدَّبُور أَمِيلُ إلى البرودة والرطوبة من الصبا.

البلدان

قال: فأخبرني عن أحوال البلدان في ذلك، قال: هي أربع؛ الأول: الارتفاع، والثاني: الانخفاض، والثالث: مجاورة الجبال والبحار، والرابع: طبيعة تربة الأرض، والنواحي أربع، وهي: الجنوب، والشمال، والمشرق، والمغرب؛ فناحية الجنوب أَسْخَنُ، وناحية الشمال أبرد، وأما ناحيتا المشرق والمغرب فمعتدلتان، واختلاف البلدان بارتفاعها [وانخفاضها؛ لأن ارتفاعها] يجعلها أبرد، وانخفاضها يجعلها أسخن، والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها؛ لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب جعل ذلك البلد أزيد برداً لأنه يستره من الرياح الجنوبية، وإنما تهبُّ فيه الرياح الشمالية فقط، ومتى كان الجبل من البلد في ناحية الشمال جعل ذلك البلد أسخن.

تأثير البحار في البلدان

قال: فأخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار كيف اختلفت؟ قال حنين: إن كان البحر من البلد في ناحية الجنوب، فإن ذلك البلد يسخن ويرطب، وإن كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد.

قال السائل: فأخبرني عن البلدان كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها، قال: إن كانت أرضها حَجَرِيَّةً جعلت ذلك البلد أبرد وأخف [وإن كانت تربة البلد حصبانية جعلت ذلك البلد أخف وأسخن] وإن كانت طيناً جعلته أبرد وأرطب.

قال: فَلِمَ اختلف الهواء من قبل البحار؟ قال: إذا جاورت نقائع ماء أو جيفاً أو بُقُولاً عَفِئَةً أو غير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها.

فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب أضجَرَ ذلك الواثق، فقطع ذلك، وأجاز كل واحد ممن حضر، ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم عما حضره في الزهد في هذا العالم الذي هو عالم الدُّثُورِ والفناء [والغُرُور] فذكر كل واحد منهم ما سَنَحَ له من الأخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين كسقراط وديوجانس.

نطق الحكماء على جدث الإسكندر

قال الواثق: قد أكثرتم فيما وصفتم، وقد أحسستم الحكاية فيما ذكرتم، فليخبرني كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الإسكندر، وقد جعل في التابوت الأحمر.

فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين، كل ما ذكروه حَسَنٌ، وأَحْسَنُ ما نطق به مَنْ حضر

ذلك المشهد من الحكماء ديوجانس، وقد قيل: إنه لبعض حكماء الهند، فقال: إن الإسكندر أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.

و[قد] أخذ هذا المعنى من قول الحكيم أبو العتاهية حيث قال:

كَفَى حَزْناً بَدْفَنَكَ ثُمَّ إِنِّي نَفَضْتُ تَرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّ
وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

فاشتد بكاء الواثق، وعلا نحيبه، وبكى معه كل من حضر من الناس، ثم قام من

قوره ذلك وهو يقول:

وَصُرُوفُ الدَّهْرِ فِي تَقْدِيرِهِ خُلِقْتُ فِيهَا انْخِفَاضٌ وَانْجِدَارٌ
بَيْنَمَا الْمَرْءُ عَلَى إِعْلَانِهَا إِذْ هَوَى فِي هُوَّةٍ مِنْهَا فَحَارٌ
إِنَّمَا مُتَعَةٌ قَوْمٍ سَاعَةٌ وَحَيَاةُ الْمَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعَارٌ

قال المسعودي: وللواثق أخبار حسنة مما كان في أيامه من الأحداث وما كان يجري من المباحثة في مجلسه الذي عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع والأصول، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب في باب خلافة القاهرة بالله بن المعتض بالله جملًا من الأخبار في أخلاق الخلفاء من بني العباس لمعنى أوجب إيرادها في باب خلافة القاهرة.

واعتل الواثق فصلّى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دؤاد، وكان قاضي القضاة، فدعا في خطبته للواثق، فقال: اللهم اشفه مما ابتليته، وقد قدّمنا ذكر وقت وفاته فيما سلف من أخباره في هذا الباب، فأغني ذلك عن إعادته.

ذكر خلافة المتوكل على الله

موجز

وبويع جعفر بن محمد بن هارون، ولقب المنتصر بالله، فلما كان في اليوم الثاني لقبه أحمد بن أبي دؤاد «المتوكل على الله» وذلك في اليوم الذي مات فيه الواثق أخوه، وهو يوم الأربعاء لست بقيت من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، ويكنى بأبي الفضل، وبويع له وهو ابن سبع وعشرين سنة وأشهر، وقُتل وهو ابن إحدى وأربعين سنة [فكانت خلافته أربع عشرة سنة] وتسعة أشهر وتسع ليالٍ، وأمّه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع، وقُتل ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين.

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه

أمره بترك الجدل وإظهار السنة

ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدل، والتزك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق [والمأمون] وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة، وأظهر لباس ثياب الملحمة، وفضل ذلك على سائر الثياب، وَاتَّبَعَهُ مَنْ فِي دَارِهِ عَلَى لِبْسِ ذَلِكَ، وشمل الناس لبسه، وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعمله واصطنع الجيد منها؛ لمبالغة الناس فيها، وميل الراعي والرعية إليها، فالباقى في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية، وهي نوع من ثياب الملحمة نهاية في الحسن والصنع وجودة الصنع.

أحدث اللعب والمضاحك

وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وَأَنْصَرَهَا، من استقامة الملك، وشمول الناس بالأمن والعدل، ولم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه وبذله بالجود، ولا بتركه وإمساكه بالبخل، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل؛ فإنه السابق إلى ذلك وَالْمُخْدِتُ لَهُ، وأخذت أشياء من نوع ما ذكرنا [فاتبه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته، فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده مَنْ يوصف بجود ولا إفضال، أو يتعالى عن مجون وطرب].

علب عليه الفتاح بن خاقان

وكان الفتاح بن خاقان التركي مولاه أَغْلَبَ الناس عليه، وأقربهم منه، وأكثرهم تقدماً عنده، ولم يكن الفتاح - مع هذه المنزلة من الخلافة - ممن يُرْجَى فضله ويخاف شره، وكان له نصيب من العلم، ومنزلة من الأدب، وألف كتاباً في [أنواع من] الأدب ترجمه بكتاب «البستان».

أحدث البناء الحيري

وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحيري والكمين والأروقة، وذلك أن بعض سُمّاره حَدَّثَه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نَضْر أحدث بنياناً في دار قراره، وهي الحيرة، على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميله نحوها لثلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر، والكمين ميمنة وميسرة، ويكون في البتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق، فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين، إضافة إلى الحيرة، وتابع الناس المتوكل في ذلك انتماماً بفعله، واشتهر إلى هذه الغاية.

أخذه البيعة لأولاده الثلاثة

وبايع [المتوكل] لبنيه الثلاثة: محمد المنتصر بالله، وأبي عبد الله المعتر بالله، والمستعين بالله، وفي ذلك يقول ابن المدبر في ذكره لهذه البيعة:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة فيها لكل الخلائق الخيرة
أُكْدَهَا جعفر وصيرها إلى بنيه الثلاثة البررة

وفي ذلك يقول علي بن الجهم:

قل للخليفة جعفر: يا ذا الندى وابن الخلائف والأئمة والهدى
لما أردت صلاح دين محمد ولّيت عهد المسلمين محمداً
وثنيت بالمعتر بعد محمد وجعلت ثلثهم أعز مؤيدا

وكان استخلاف المتوكل على الله بعد أن استخلف أبو العباس السفاح بمائة سنة، وبعد موت العباس بن عبد المطلب بمائتي سنة، وقد قيل غير ذلك، والله أعلم، على تفاوت التواريخ في كمية أوقاتهم وعدد سنيهم والزيادة في الأيام والشهور ونقصانها من مدة ملكهم.

سخطة على ابن الزيات

وقد كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته بأشهر، فقبض أمواله وجميع ما كان له، وقلد مكانه أبا الوزير، وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم ثوراً من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل قائمة مثل

رؤوس المسال في أيام وزارته للمعتصم والواثق، فكان يعذب الناس فيه، فأمر المتوكل بإدخاله في ذلك التنور، فقال محمد بن عبد الملك الزيات للمتوكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها ما يريد، فاستأذن المتوكل في ذلك، فأذن له، فكتب:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تُرِيكَ العين في النوم
لا تجزعَنَّ رويداً إنها دُول دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال: وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تَصِلِ الرقعة إليه، فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجده ميتاً، وكان حَبْسُهُ في ذلك التنور إلى أن مات أربعين يوماً، وكان كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، وهو القائل في تحريض المأمون على إبراهيم بن المهدي [عمه] حين خرج عليه:

ألم تر أن الشيء للشيء علة تكون له كالنار تقدح بالزُند
كذلك جَرَبْنَا الأمور، وإنما يدُلُّكَ ما قد كان قبل على البعد
وظَّنِّي بإبراهيم أن فكأكه سيبعث يوماً مثل أيامه النكد
تذكرُ أمير المؤمنين قيامه وأيامه في الهزل منه وفي الجد
إذا هَزَّ أعواد المنابر باسمه تغنَّى بليلي أو بميمَّة أو هند

في شعر طويل جداً.

ومن شعره قوله في مراثية للمعتصم بالله:

وظل له سيف النبي كأنما مدامعه من شدة الحزن تَذْرِفُ
حمائله والبُرْدُ تشهد أنه هو الطيب الأولى الذي كان يعرف
أقول ومن حق الذي قلت إنني أقول وأئنني بعد ذاك وأحلف
لما هاب أهل الظلم مثلك سائساً ولا أنصَفَ المظلوم مثلك منصف

وقد أتينا على أخباره وما استحسَن من أشعاره في الكتاب الأوسط.

وزراؤه

فكانت أيام أبي الوزير في الوزارة يسيرة، وقد كان اتخذ للوزارة محمد بن الفضل الجرجاني، ثم صرفه فاستكتب عبيد الله بن يحيى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين إلى أن قتل، وقد أتينا في الكتاب الأوسط على أخباره واتصاله بالمتوكل وأخبار الفتح بن خاقان.

المبرد ومجنون بدير هرقل

وذكر محمد بن يزيد المبرد قال: ذكرت للمتوكل لمنازعة جرت بينه وبين الفتح بن خاقان في تأويل آية وتنازع الناس في قراءتها، فبعث إلى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي، وكانت إليه البصرة، فحملني إليه مكرماً، فلما اجتزت بناحية النعمان بين واسط وبغداد ذكر لي أن بدير هرقل جماعة من المجانين يُعالجون، فلما حاذيته دعيتي نفسي إلى دخوله، فدخلته ومعني شاب ممن يرجع إلى دين وأدب، فإذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا إلي، فقلت: ما يقعدك بينهم وأنت بائن عنهم؟ فكسر جفنه ورفع عقيرته، وأنشأ يقول:

إن وصفوني فَنَاجِلُ الْجَسَدِ أو فَتَشُونِي فَأَبْيَضَ الْكَبِدِ
أَضْعَفَ وَجْدِي وَزَادَ فِي سَقَمِي أن لست أشكو الهوى إلى أحد
وَضَعْتُ كَفِّي عَلَى فَوَادِيٍّ مِنْ حَرِّ الْأَسَى وَانْطَوَيْتُ فَوْقَ يَدِي
آهَ مِنَ الْحَبِّ آهَ مِنْ كَبْدِي إن لم أمت في غد فبعد غد
كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا ذَكَرْتَهُمْ فَرِيْسَةٌ بَيْنَ سَاعِدَيَّ أَسَدِ
فقلت: أحسنت لله درك! زدني، فأنشأ يقول:

مَا أَقْتَلَ الْبَيْنَ لِلنَّفُوسِ!! وَمَا أَوْجَعَ فَقَدَ الْحَبِيبِ لِلْكَبِدِ!!
عَرَّضْتُ نَفْسِي مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا أسرف في مهجتي وفي جِلْدِي
يَا حَسْرَتِي أَنْ أَمُوتَ مَعْتَقَلًا بين اعتلاج الهموم والكمَدِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تَفِيضٍ مَعُولَةٍ عيني لعضو يموت في جسدي

فقلت: أحسنت [الله درك! و] لا فض فوك! زدني، فأنشأ يقول:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي كَمِيدُ لَا أَسْتَطِيعُ أَبْتُ مَا أَجِدُ
نَفْسَانِ لِي نَفْسٌ تَضْمَنُهَا بلد، وأخرى حازها بلد
وَأَرَى الْمَقِيمَةَ لَيْسَ يَنْفَعُهَا صبر، وليس يُعِينُهَا جَلْدُ
وَأَظُنُّ غَائِبَتِي كَشَاهِدَتِي بمكانها تجد الذي أجِدُ

فقلت: والله أحسنت، فاستزده، فقال: أراك كلما أنشدتك استزدتني، وما ذاك إلا لفرط أدب أو فراق شجن، فأئشِدْني أنت أيضاً، فقلت للذي معي: أنشده، فأنشأ يقول:

عَذْلٌ وَبَيْنٌ وَتَوَدِيعٌ وَمَرْتَحِلُ أي العيون على ذا ليس تَنْهَمِلُ؟

تالله ما جلدي من بعدهم جلد ولا اختزان دموعي عنهم بخل
 بلى، وحرمة ما القين من خبل قلبي إليهن مشتاق وقد رحلوا
 وددت أن البحار السبع لي مدد وأن جسمي دموع كلها همل
 وأن لي بدلاً من كل جانحة في كل جارحة يوم النوى مقل
 لا در در النوى لو صادفت جبلا لانهد منها وشيكا ذلك الجبل
 الهجر والبين والواشون والإبل طلائع يتراءى أنها الأجل

فقال المجنون: أحسنت، وقد حضرني في معنى ما أنشدت إليّ شعر أفأنشده؟
 قلت: هات، فأنشأ يقول:

ترحلوا ثم نيطت دونهم سُجف لو كنت أملكهم يوماً لما رحلوا
 يا حادي العيس مهلاً كي نودعها رفقا قليلاً ففي توديعها الأجل
 ما راعني اليوم شيء غير فقدهم لما استقلت وسارت بالدمى الإبل
 إني على العهد لم أنقض مودتهم فليت شعري وطال الدهر ما فعلوا

قال المبرد: فقال الفتى الذي معي: ماتوا، فقال المجنون: آه آه، إن ماتوا فسوف
 أموت، وسقط ميتاً، فما برخت حتى غسل وكفن وصليت عليه ودفنته.

البحثري ينشد المتوكل

ووردت سر من رأى، فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب فسألت عن
 بعض ما وردت له، فأجبت، وبين يدي المتوكل البحثري الشاعر، فابتدأ ينشده قصيدة
 يمدح بها المتوكل، وفي المجلس أبو العنيس الصيمري، فأنشد البحثري قصيدته التي
 أولها:

عن أي ثغر تبتسم؟ وبأي طرف تحتركم؟
 حسن يضيء بحسنه والحسن أشبه بالكرم
 قل للخليفة جعفر الم توكل ابن المعتصم
 المرتضى ابن المجتبي والمنعم ابن المنتقم
 أما الرعية فلهي من أمّات عدلك في حرم
 يا باني المجد الذي قد كان قوض فانهدم
 أسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم
 نلنا الهدى بعد العمى بك، والغنى بعد العدم

فلما انتهى [إلى ذلك] مشى القهقري للانصراف، فوثب أبو العنيس فقال: يا أمير المؤمنين، تأمر برده، فقد والله عارضته في قصيدته هذه، فأمر برده، فأخذ أبو العنيس ينشد شيئاً لولا أن في تركه بئراً للخبر لما ذكرناه، وهو:

من أي سَلَح تَلْتَقِم وبأي كَف تَلْتَطِم
أدخلت رأس البَحْثَر يُّ أبي عُبَادَة فِي الرِّجَمِ

ووصل ذلك بما أشبهه من الشُّثْم، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، وفحص برجله اليسرى، وقال: يُدْفَعُ إلى أبي العنيس عشرة آلاف درهم، فقال الفتح: يا سيدي البحتري الذي هجا وأسمع المكروه ينصرف خائباً؟ قال: ويدفع للبحتري عشرة آلاف درهم، قال: يا سيدي، وهذا البصريُّ الذي أشخصناه من بلده، لا يشركهم فيما حصلوه؟ قال: ويدفع إليه عشرة آلاف درهم، فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل، ولم ينفع البحتريُّ جده واجتهاده وحزمه.

حمار أبي العنيس

ثم قال المتوكل لأبي العنيس: أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا التي أريتها، قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان أعقل من القضاة، ولم يكن له جريرة ولا زلة، فاعتلَّ [علة] على غفلة، فمات منها، فرأيتُه فيما يرى النائم، فقلت له: يا حماري، ألم أبرد لك الماء، وأنق لك الشعير، وأحسن إليك جَهْدِي؟ فلم تُثَّ على غفلة؟ وما خبرك؟ قال: نعم، لما كان في اليوم الذي وَقَفْتُ على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا مرت بي أتان حسناء، فرأيتها فأخذت بمجامع قلبي، فعشقتها واشتد وجدي بها، فمُتُّ كمدأ متأسفاً، فقلت له: يا حماري، فهل قلت في ذلك شعراً؟ قال: نعم، وأنشدني:

هَامَ قَلْبِي بِأَتَان عِنْد بَابِ الصَّيْدَلَانِي
تِيَمْتَنِي يَوْمَ رُحْنَا بِثَنَائِهَا الْحَسَانِ
وَبَخْدَيْنِ أَسِيلِي نِ كَلَوْنَ الشَّنْقَرَانِي
فَبِهَامُتْ وَلَوْ عَشَ تِ إِذَا طَالَ هَوَانِي

قال: قلت: يا حماري، فما الشنقراني؟ فقال: هذا من غريب الحمير، فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح في ذلك اليوم فرحاً شديداً، وسرَّ سروراً لم يُرْ مثله، وزاد في تكرمة أبي العنيس وجائزته.

المتوكل وعلي بن محمد العلوي

وحدث أبو عبد الله محمد بن عرفة النحوي قال: حدثنا محمد بن يزيد المبرد قال: قال المتوكل لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب؟ قال: وما يقول ولد أبي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه وافترض طاعته على بنيه؟ فأمر له بمائة ألف درهم، وإنما أراد أبو الحسن طاعة الله على بنيه، فعرض.

وقد كان سعى بأبي الحسن علي بن محمد إلى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعة، فوجه إليه ليلاً من الأتراك وغيرهم من هجم عليه في منزله على غفلة ممن في داره، فوجده في بيت وحده مغلق عليه وعليه مِذْرَعَةٌ من شَعَرٍ، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفَةٌ من الصوف متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، فأخذ على ما وجد عليه، وحمل إلى المتوكل في جَوْفِ الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس، فلما رآه أغْظَمَهُ وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه، ولا حالة يتعلل عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قط، فأغفني منه، فعافاه، وقال: أنشدني [شعراً أستحسنه، فقال: إني لقليل الرواية للأشعار، فقال: لا بد أن تنشدني] فأنشده:

باتوا على قُلُلِ الْأَجْبَالِ تحرسهم	غُلِبَ الرجال فما أغنتهم القُلُلُ
واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم	فأودعوا حُفَرًا، يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا	أين الأسرة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت مُنْعَمَةً	من دونها تضرب الأستار والكِلَلُ؟
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلُوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادَّخروا	فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحى مَنَازِلُهُمْ قَفراً مُعْطَلَةً	وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

قال: فأشفق كل من حضر على عليّ، وظن أن بادرة تدير منه إليه، قال: والله لقد بكى المتوكل بكاءً طويلاً حتى بلت دموعه لحيته، وبكى من حضره، ثم أمر برفع

الشراب، ثم قال له: يا أبا الحسن، أعليك دِينَ؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار، فأمر بدفعها إليه، وردّه إلى منزله من ساعته مكرماً.

وفاة ابن سماعة القاضي الحنفي

قال: وكانت وفاة محمد بن سماعة القاضي صاحب محمد بن الحسن وصاحب أبي حنيفة في خلافة المتوكل، وذلك في سنة [ثلاث و] ثلاثين ومائتين، وهو ابن مائة سنة، صحيح الجسم والعقل والحواس، يفتض الأبرار، ويركب الخيل التي تقطف وتعنق، لم ينكر من نفسه شيئاً.

وحكى ابنه سماعة بن محمد قال: قال لي أبي محمد بن سماعة: وجدت في حياة سَوَّار بن عبد الله قاضي المنصور كتاباً له بخطه أراه من شعره أو أبيات استحسناها، وهي:

سَلَبَتْ عَظَامِي لِحَمَاهَا فَتَرَكْتُهَا عَوَارِي فِي أَجْلَادِهَا تَتَكَسَّرُ
وَأُخْلِيَتْ مِنْهَا مُخَيَّأً فَكَأَنَّهَا قَوَارِيرُ فِي أَجْوَاهَا الرِّيحُ تَضْفِرُ
[إذا سمعت ذكر الفراق ترعّدت فرائصها من خوف ما تتحذر]
خذي بيدي، ثم ارفعي الثوب وانظري ضَلَى جَسَدِي لَكِنِّي لَكِنِّي أُتَسْتَرُ

ولمحمد بن سماعة تصنيفات حسان في الفقه، وروايات عن محمد بن الحسن وغيره، منها كتاب نواذر المسائل عن محمد بن الحسن في ألوف أوراق.

موت يحيى بن معين وجماعة من الأنباة

وفي هذه السنة - وهي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين - مات يحيى بن معين، وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين مات أبو بكر بن أبي شيبة والقواريري، وكانا من عِلِيَّة أصحاب الحديث وحُفَظَهم، وفيها مات إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وكان على بغداد، وولي [ابنه] مكانه، وله أخبار حسان قد أتينا على غررها في كتابنا «أخبار الزمان».

قصة سجين

ومن ظريف أخباره والمستحسن مما كان في أيامه وسيره ببغداد ما حدث به عنه موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي أنه رأى في منامه كأن النبي ﷺ يقول له: أطلق القاتل، فارتاع لذلك رَوْعاً عظيماً، ونظر في الكتب الواردة لأصحاب الجبوس فلم يجد فيها ذكر قاتل، فأمر بإحضار السندي وعباس، فسألهما: هل رفع إليهما أحد ادعى

عليه بالقتل؟ فقال له العباس: نعم، وقد كتبنا بخبره، فأعاد النظر، فوجد الكتاب في أضعاف القراطيس، وإذا الرجل قد شهد عليه بالقتل وأقرَّ به، فأمر إسحاق بإحضاره، فلما دخل عليه ورأى ما به من الارتياح قال له: إن صدقتني أطلقتك، فابتدأ يخبره بخبره، وذكر أنه كان هو وعدة من أصحابه يرتكبون كل عزيمة، ويستحلون كل محرم، وأنه كان اجتماعهم في منزل بمدينة أبي جعفر المنصور يعتكفون فيه على كل بلية، فلما كان في هذا اليوم جاءتهم عجوز كانت تختلف إليهم للفساد، ومعها جارية بارعة الجمال، فلما توسطت الجارية الدار صرخت صرخة، فبادرت إليها من بين أصحابي، فأدخلتها بيتاً وسكنت روعتها، وسألتها عن قصتها، فقالت: الله الله فيّ، فإن هذه العجوز خدعتني وأعلمتني أن في خزانتي حُقاً لم يُر مثله، فشوقتني إلى النظر إلى ما فيه، فخرجت معها واثقة بقولها، فهجمت بي عليكم، وجدي رسول الله ﷺ، وأمي فاطمة، وأبي الحسن بن علي، فاحفظوهم فيّ، قال الرجل: فضمنت خلاصها، وخرجت إلى أصحابي فعرفتهم [بذلك] فكأنني أغريتهم بها، وقالوا: لما قضيت حاجتك منها أردت صرفنا عنها، وبادروا إليها، وقمت دونها أمنع عنها، فتفاهم الأمر بيننا إلى أن نالتني جراح، فعمدت إلى أشدهم كان في أمرها وأكلهم على هتكها فقتلته، ولم أزل أمنع عنها إلى أن خلصتها سالمة، وتخلصت الجارية آمنة مما خافته على نفسها، فأخرجتها من الدار، فسمعتها تقول: سترك الله كما سترتني، وكان لك كما كنت لي، وسمع الجيران الضجة فتبادروا إلينا والسكين في يدي والرجل يتشحط في دمه، فرفعت على هذه الحالة، فقال له إسحاق: قد عرفت لك ما كان من حفظك للمرأة، ووهبتك لله ورسوله، قال: فوحق من وهبتني له لا عاودت معصية ولا دخلت في ريبة حتى ألقى الله، فأخبره إسحاق بالرؤيا التي رآها، وأن الله لم يضيع له ذلك، وعرض عليه براً واسعاً، فأبى قبول شيء من ذلك.

رضاه عن يحيى بن أكثم

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين رضي المتوكل عن أبي محمد يحيى بن أكثم الصيفي، فأشخص إلى سر من رأى، وولي قضاء القضاة، وسخط على أحمد بن أبي دؤاد وولده أبي الوليد محمد بن أحمد، وكان على القضاء، وأخذ من أبي الوليد مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وجوهرأ بأربعين ألف دينار، وأحضر إلى بغداد، وقد كان أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فليح بعد موت عدوه ابن الزيات بسبعة وأربعين يوماً، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وفاة ابن أبي دؤاد

وفي سنة أربعين ومائتين كانت وفاة أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد بعد وفاة [ولده] أبي الوليد محمد بن أحمد بعشرين يوماً، وكان ممن أجرى الله الخير على يديه على ما اشتهر من أمره، وسَهَّلَ الله سبيله إليه، وَحَبَّبَ إليه المعروف وفعله.

منزلة ابن أبي دؤاد عند المعتصم

وذكر أن المعتصم كان بالجوسق يوماً مع نَدَمَائِهِ - وقد عزم على الاصطباح، وأمر كل واحد منهم أن يطبخ قِذْراً - إذ بصر بسلامة غلام ابن أبي دؤاد، فقال: هذا غلام ابن أبي دؤاد يتعرف خبرنا، والساعة يأتي فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الأنصاري، وفلان العربي، فيعطلنا بحوائجه عما عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أنني لا أقضي اليوم له حاجة، فلم يكن بين قوله وبين استئذان الأتباع لأبي عبد الله إلا هنيهة، فقال لجلسائه: كيف ترون قلبي؟ قالوا: فلا تأذن له، قال: سوءاً لكم، حُصِيَ سنة أَهْوَنُ عليّ من ذلك، ودخل، فما هو إلا أن سلم وجلس وتكلم حتى أسْفَرَ وجه المعتصم وضحكت إليه جوارحه، ثم قال له: يا أبا عبد الله قد طبخ كل واحد من هؤلاء قِذْراً، وقد جعلناك حَكْماً في طبخها، قال: فلتحضر ثم أكل ثم أحكم [بحكم] بعلم، فحملت إليه القُدُورُ ووضعت بين يديه، فجعل يأكل من أول قدر أكلًا تاماً، فقال له المعتصم: هذا ظلم، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنني أراك قد أمعنت في هذا اللون، وستحكم لصاحبه، قال: يا أمير المؤمنين عليّ أن أكل من هذه القدور كلها كما أكلت من هذا القدر، فتبسم له المعتصم وقال له: شأنك إذا، فأكل كما قال، ثم قال: أما هذه فقد أحسنَ طبخها إذ أكثر فلفلها وأقل كمونها، وأما هذه فقد أجاد طبخها إذ أكثر خَلْها وأقل زَيْنَها، وأما هذه فقد طيها طبخها باعتدال توابلها، وأما هذه فقد حذق مَنْ عملها بقلّة مائها وكثرة مرقها، حتى وصف القدور [كلها] بصفاتٍ سُرَّ أهلها بها، ثم أكل مع القوم كما أكلوا أَنْظَفَ أَكْلٍ وأحسنه، مرة يحدثهم بأخبار الأكلَةِ في صدر الإسلام: معاوية بن أبي سفيان، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وسليمان بن عبد الملك؛ ومرة يحدثهم عن أكلَةِ دهره مثل ميسرة التَّمَّار، ودورق القصاب، وحاتم الكيال، وإسحاق الحمامي، فلما رفعت الموائد قال له المعتصم: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اذكرها فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا، قال: نعم يا أمير المؤمنين رجل من أهلك وَطْئه الدهر فغَيَّرَ حاله وخشن معيشته، قال: وَمَنْ هو؟ قال: سليمان بن عبد الله النوفلي، قال: قدر له ما يصلحه، قال: خمسين ألف درهم، قال: أنفذت ذلك له،

قال: وحاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ضياع إبراهيم بن المعتمر تردّها له، قال: قد فعلت، قال: وحاجة أخرى، قال: قد فعلت، قال: فوالله ما خرج حتى سأل ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها، حتى قام خطيباً فقال [في خطبته]: يا أمير المؤمنين، عمرك الله طويلاً، فبعمرك تُخَصَّب جنات رعيّتك، ويلين عيشهم، وتثمر أموالهم، ولا زلت ممتعاً بالسلامة، مَحْبُوباً بالكرامة، مرفوعاً عنك حوادث الأيام وَغَيْرُهَا، ثم انصرف؛ فقال المعتصم: هذا والله يتزين بمثله، ويتبهج بقربه، ويعدل ألوفاً من جنسه، أما رأيتم كيف دخل؟ وكيف سلم؟ وكيف تكلم؟ وكيف أكل؟ وكيف وصف القدر ثم انبسط في الحديث؟ وكيف طاب به أكلنا؟ ما يرده هذا عن حاجة إلا لثيم الأصل خبيث الفرع، والله لو سألتني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم ما ردّذته عنها، وأنا أعلم أنه يكسبني بها في الدنيا حمداً وفي الآخرة ثواباً.

وفي أحمد بن أبي دؤاد يقول الطائي:

لَقَدْ أَتَسْتُ مَسَاوِي كُلِّ دَهْرٍ مَحَاسِنُ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ
فَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا وَمَنْ جَدَّوَاهِ رَاحِلَتِي وَزَادِي
مَقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي وَإِنْ قَلِقْتُ رَكَابِي فِي الْبِلَادِ

المتوكل يشتهي قدراً طبخها ملاحون

وحكي عن الفتح بن خاقان قال: كنت عند المتوكل وقد عزم على الصُّبُوح بالجعفري، وقد وَجَّه خلف الندماء والمغنين، قال: فجعلنا نطوف وهو متكئ علي وأنا أحادثه، حتى وصلنا إلى موضع يشرف منه على الخليج، فدعا بكرسي فقعده عليه، وأقبل يحادثني، إذ بصر بسفينة مشدودة بالقرب من شاطئ الخليج، ومَلَّاح بين يديه قدر كبيرة يطبخ فيها سكباج من لحم بقر، وقد فاحت روائحها، فقال: يا فتاح رائحة قدر سكباج والله، ويحك، أما ترى ما أطيّب رائحتها، عليّ بها على حالها، فبادر الفراشون فانتزعوها من بين يدي الملاحين، فلما عاين الملاحون أصحاب السفينة ما فعل بهم ذهبت نفوسهم فَرَقاً وخوفاً، وجاؤوا المتوكل بالقدر تفور كهيتها، فوضعت بين أيدينا، فاستطاب ريحها واستحسن لونها، ودعا برغيف فكسر منه كسرة ودفعها إليّ، وأخذ هو منه مثلها، وأكل كل واحد منا ثلاث لُقَم، وأقبل الندماء والمغنون، فجعل يلقم كل واحد منهم لقمة من القدر، وأقبل الطعام ووضعت الموائد، فلما فرغ من أكله أمر بتلك القدر ففرغت وغسلت بين يديه، وأمر أن تملأ دراهم، فجيء ببذرة ففرغت فيها، فَفَضَّلَ من الدراهم مقدار ألفي درهم، فقال لخدام كان بين يديه: خذ هذه القدر فامض بها حتى تدفعها [لأصحاب السفينة، وقل لهم: هذا ثمن ما أكلنا من قدركم، وادفع] إلى مَنْ

طبخها ما فضل من هذه البَذرة من الدراهم هبةً له على تجويده طبخها، قال الفتح: فكان المتوكل كثيراً ما يقول إذا ذكر قدر الملاح: ما أكلت أحسن من سكباج أصحاب السفينة في ذلك اليوم.

الجاحظ يصحب محمد بن إبراهيم في حرقته

وأخبرنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه بجهينة، وكان من حديثه الموصّل، قال: حدثنا أبو الحسن الصالحي، قال: قال الجاحظ: ذكرتُ لأُمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رأيَ استبشعَ مَنْظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصَرَفَني، وخرجت من عنده، فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض علي الخروج معه والانحدار في حَرّاقته، فركبنا فيها، فلما أتينا فم نهر القاطول وخرجنا من سامرا نصب ستارته وأمر بالغناء، فاندفعت عَوادة فغنت:

كلّ يوم قطيعةٌ وعتاب ينقضي دهرنا ونحن غَضاب
ليت شعري أنا خُصِصْتُ بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب؟
وسكتت، فأمر الطنبورية فغنت:

وارحمتا للعاشقيننا ما إن أرى لهم مُعِينا
كم يُهَجَرُونَ ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا؟

قال: فقالت لها العَوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: هكذا يصنعون، وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها وبرَزَتْ كأنها فُلقة قمر فزَجَتْ بنفسها إلى الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يضاهاها في الجمال وبيده مِدْبَة، فلما رأى ما صنعت ألقى المِدْبَة من يده وأتى الموضع ونظر إليها وهي تمر بين الماء فأنشأ يقول:

وأنا الذي غرقتني بعد القضاء لو تعلمينا

فرج بنفسه في أثرها، فأدار الملاح الحراقة فإذا هما معتقتان، ثم غاصا فلم يُرَيَا، فهال ذلك محمداً واستعظمه، وقال: يا عمرو لتحدثني حديثاً يسليني عن فقد هذين وإلا ألحقتك بهما، قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص، فمرت به قصة فيها: إن رأي أمير المؤمنين أعزه الله أن يخرج جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل، فاعتاظ يريد، وأمر من يخرج إليه ويأتيه برأسه، ثم أمر بأن يتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يُدْخَلَ إليه الرجل، فلما وقف بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحلمك والانتكال على عفوك، فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودُها، فقال لها الفتى: غني:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

فغنته، فقال له يزيد: قل، قال: غني:

تألق البرقُ بحدياً، فقلت له: يا أيها البرق إنني عنك مشغول

يكفيك عني عدو ثائر حنق في كفه صارم كالملح مسلول

فغنته، فقال: قل، قال: تأمر لي برطل خمر، فما استتم شرابه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى بنفسه على دماغه، فمات، فقال يزيد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، أترأه الأحمق الجاهل ظن أنني أخرج إليه جاريته وأردها إلى مالي، يا غلمان، خذوا بيدها واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فيبيعوها وتصدقوا بشمنها عنه، فانطلقوا بها إلى أهله، فلما توسطت الدار نظرت إلى حفرة في دار يزيد قد أعدت للمطر، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشأت تقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت

فزجّت بنفسها على دماغها فماتت، فسرى عن محمد وأحسن صلتني، وقيل: إن هذا الخبر إنما كان مع سليمان بن عبد الملك [وليس هذا عن يزيد بن عبد الملك] قال: فذكرت هذا الحديث لأبي عبد الله محمد بن جعفر الأنباري بالبصرة فقال: أنا أخبرك بنحو من هذا الحديث الذي حدثني به، حدثني فائق الخادم، وكان مولى لمحمد بن حُمَيد الطوسي، أن محمد بن حُمَيد كان جالساً مع ندمائه يوماً، فغنت جارية من وراء الستارة:

يا قَمَرَ القصر متى تطلع أشقى وغيري بك يستمتع؟

إن كان رَبِّي قد قضى ما رأى منك على رأسي فما أصنع

وعلى رأس محمد غلام بيده قَدَحٌ يسقيه، فرمى بالقَدَح عن يده وقال: تصنعين هكذا، ورمى بنفسه من الدار إلى دجلة، فهتكت الجارية الستارة، ثم رَمَتْ بنفسها على إثره، فنزلت الغلطة خلفهما، فلم يجدوا أحداً منهما، فقطع محمد الشراب، وقام عن مجلسه.

سخط المتوكل على الرخجي

قال المسعودي: وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين سخط المتوكل على عمر بن الفرج الرخجي، وكان من عِلْيَةِ الكتاب، وأخذ منه مالاً وجوهرأ نحو مائة ألف وعشرين ألف دينار، وأخذ من أخيه نحواً من مائة ألف وخمسين ألف دينار، ثم صولح محمد على أحد وعشرين ألف ألف درهم على أن يرد إليه ضياعه، ثم غضب عليه غصبة ثانية، وأمر أن يُضَفَّعَ في كل يوم، فأحصى ما صفع فكان ستة آلاف صفعة، وألبسه جبة صوف، ثم رضي عنه، وسخط عليه ثالثة، وأحدر إلى بغداد؛ وأقام بها حتى مات.

وأهدى الموبذان إلى المتوكل قارورة دهن، وكتب إليه: إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فلطفت ودقت كان أبهى لها وأحسن، وإن كانت من الكبير إلى الصغير فعظمت كان أرفع لها وأنفع.

وفاة الإمام أحمد بن حنبل

قال المسعودي: وكانت وفاة أحمد بن حنبل في خلافة المتوكل بمدينة السلام، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين، ودُفِنَ بباب حَرْبٍ في الجانب الغربي، وصلى عليه محمد بن طاهر، وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع في جنازة مَنْ سلف قبله، وكان للعامه فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور: منها أن رجلاً منهم كان ينادي: اَلْعُنُوةُ الواقف عند الشبهات، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة ﷺ في ذلك، وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفاً بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته:

وأظلمت الدنيا لفقد محمد وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل، كظلمتها عند موت الرسول ﷺ.

انقضاء الكواكب

وفي هذه السنة انْقَضَتِ الكواكب الانقضاء الذي لم ير مثله قط، وذلك في ليلة الخميس لست خَلَوْنَ من جمادى الآخرة، وقد كان في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة انقضاء لكوكب عظيم هائل، وهي الليلة التي وقعت فيها القرامطة بحاج العراق من طريق الكوفة، وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

وفاة جماعة من أهل العلم

وفي السنة التي مات فيها ابن حنبل كانت وفاة محمد بن عبد الله بن محمد الإسكافي، وكان من أهل النظر والبحث ومن عِلْيَةِ أهل العدل، وكانت وفاة جعفر بن المبشر سنة أربع وثلاثين ومائتين، وكان من كبار أهل العَدْلِيَّة وأهل الديانة من البغداديين، ومات جعفر بن حرب سنة ست وثلاثين ومائتين، وهو رجل من هَمْدَانَ وَوُجُوهُ قحطان، وإلى أبيه يضاف شارع باب حرب في الجانب الغربي من مدينة السلام، وهو شيخ البغداديين من المتكلمين [ومات عيسى بن طنج سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان من حُذَاقهم وأهل الديانات منهم].

بين هشام وأبي الهذيل

وذكر أبو الحسن الخياط أن أبا الهذيل محمد بن الهذيل كانت وفاته سنة سبع وعشرين ومائتين، ثم تنازع أصحابه في مولده؛ فقال قوم: سنة إحدى وثلاثين ومائة وقال قوم: سنة أربع وثلاثين ومائة، وقد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام بن الحكم الكوفي الحرار، وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ممن وافقه على مذهبه، وكان أبو الهذيل يذهب إلى نفي التجسيم ورفع التشبيه، وإلى ضد قول هشام في التوحيد والإمامة، فقال هشام لأبي الهذيل: إذا زعمت أن الحركة ترى فَلِمَ لا زعمت أنها تلمس؟ قال: لأنها ليست بجسم فيلمس؛ لأن اللمس إنما يقع على الأجسام، فقال له هشام: فقل أيضاً إنها لا ترى؛ لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام، فرجع أبو الهذيل سائلاً فقال له: من أين قلت إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره؟ قال هشام: من قبل أنه يستحيل أن يكون فعلي أنا ويستحيل أن يكون غيري؛ لأن التغير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها، فلما لم يكن فعلي قائماً بنفسه، ولم يجز أن يكون فعلي أنا وجب أنه لا أنا ولا غيري، وعلة أخرى أنت قائل بها: زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة؛ لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماساة ولا المباينة، فلذلك قلت أنا: إن الصفة ليست أنا ولا غيري، وعلتي في أنها ليست أنا ولا غيري علتك في أنها لا تماس ولا تباين، فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً.

وفاة جماعة من المعتزلة

وكانت وفاة أبي موسى الفراء سنة ست وعشرين ومائتين، وكان من شيوخ العَدْلِيَّة

وكبار المتكلمين من البغداديين، ومات واصل بن عطاء - ويكنى بأبي حذيفة - في سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو شيخ المعتزلة وقديمها، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولا كافر، وبه سميت المعتزلة، وهو الاعتزال، وقد قَدَّمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار بني أمية قول المعتزلة في الأصول الخمسة، فأغني ذلك عن إعادته، وكذلك فيما سلف من كتبنا على الشرح والإيضاح، وقد بينا فيما سلف من هذا الكتاب خبر عمرو بن عُيَيْد ووفاته، وكان شيخ المعتزلة والمقدَّم فيها، وأن وفاته كانت سنة أربع وأربعين ومائة.

بين هشام وعمرو بن عبيد

وقد كان عمرو بن عُيَيْد اجتمع مع هشام بن الحكم، وهشام يذهب إلى القول بأن الإمامة نصٌّ من الله ورسوله على عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعلى مَنْ يلي عصره من ولده الطاهرين كالحسن والحسين، ومن يلي أيامهم، وعمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في سائر الأعصار فقال هشام لعمرو بن عبيد: لم خلق الله لك عينين؟ قال: لأنظر بهما إلى ما خلق الله من السموات والأرض وغير ذلك فيكون ذلك دليلاً لي عليه، فقال هشام: فلم خلق الله لك سمعاً؟ قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي، فقال له هشام: لم خلق الله لك لساناً؟ فقال عمرو: لأعبر به عما في قلبي وأخاطب به من افترض عليّ أمره ونهيه، قال هشام: فلم خلق الله لك قلباً؟ قال عمرو: لتكون هذه الحواسُّ مؤدية إليه فيكون مميزاً بين منافعها ومضارها، قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواسُّ إليه؟ قال عمرو: لا، فقال هشام: ولم؟ قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح له، فلو لم يخلق الله فيها انبعاثاً من نفسها استحال أن لا يخلق لها باعثاً يبعثها على ما خلقت له إلا بخلق القلب، فيكون هو الباعث لها على ما تفعله، والمميز لها بين مضارها ومنافعها، ويكون الإمام من الخلق بمنزلة القلب من سائر الحواس إذ كانت الحواس راجعة إلى القلب لا إلى غيره، ويكون سائر الخلق راجعين إلى الإمام لا إلى غيره، فلم يأت عمرو بفرق يعرف.

وهذا الذي حكيناه ذكره أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ببغداد في كتابه المعروف بكتاب المجالس، وكانت وفاة أبي عيسى [ببغداد في الجانب الغربي في الموضع المعروف] بالرملة سنة سبع وأربعين ومائتين، وله تصنيفات حسان كثيرة منها كتابه في المقالات في الإمامة وغيرها من النظر.

ابن الراوندي

وكانت وفاة أبي الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي برجة مالك بن طوق، وقيل: ببغداد سنة خمس ومائتين، وله نحو من أربعين سنة، وله كتب مصنفة مائة كتاب وأربعة عشر كتاباً.

وقد ذكرنا في كتابنا في «أخبار الزمان» وفاة أرباب المقالات وأهل المذاهب والجدل والآراء والنحل، وأخبارهم ومناظراتهم وتباينهم في مذاهبهم وكذلك في الكتاب الأوسط، إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وإنما يسنح لنا ذكر بعضهم في هذا الكتاب فنذكر لهم لمعاً، وكذلك غيرهم من الفقهاء وأصحاب الحديث.

وفاة الصولي الكاتب

وفيها مات إبراهيم بن العباس الصولي، الكاتب، وكان كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه، وكان يكتسب في حديثه بشعره، ورحل إلى الملوك والأمراء ومدحهم طلباً لجوداهم.

وذكر رجل من الكتّاب أن إسحاق بن إبراهيم أخا زيد بن إبراهيم حدثه أنه كان يتقلد الصيمرة والسيروان، وأن إبراهيم بن العباس اجتاز به يريد خراسان، والمأمون بها، وقد بايع بالعهد لعلي بن موسى الرضا، وقد امتدحه بشعر يذكر فيه فضل آل علي وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم، قال: فاستحسن القصيدة وسأله أن ينسخها لي، ففعل، ووهبت له ألف درهم، وحملته على دابة، وضرب الدهر من ضربه إلى أن ولي ديوان الضياع مكان موسى بن عبد الملك، وكنت أحد عمال موسى، وكان يحب أن يكشف أسباب موسى، فعزلني، وأمر أن تعمل مؤامرة فعملت، وكثر علي فيها، وحضرت للمناظرة عنها، فجعلت أحتج بما لا يدفع، فلا يقيله، ويحكم لي الكتّاب فلا يلتفت إلى حكمهم، ويسمعني في خلال ذلك قذعاً من الكلام إلى أن أوجب عليّ الكتّاب اليمين على باب من الأبواب فحلفت عليه فقال: ليست يمين السلطان عندك يميناً لأنك رافضي، فقلت له: تأذن لي في الدنو منك؟ فأذن لي، فقلت له: ليس مع تعريضك بمهجتي للقتل صبر، وها هو المتوكل إن كتبت إليه بما أسمع منك لم آمنه على نفسي، وقد احتملت كل شيء إلا الرفض، والرافضي: من زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من العباس، وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة، قال: ومن قال ذلك؟ قلت: أنت وخطك عندي به، وأخبرته بالشعر، فوالله ما هو إلا أن قلت ذلك له حتى سقط في يده، ثم قال: أحضر الدفتر الذي بخطي، فقلت له: هيهات!! لا والله أو توثق لي بما أسكن

إليه أنك لا تطالبني بشيء مما جرى على يدي، وتخرق هذه المؤامرة، ولا تنظر لي في حساب، فحلف لي على ذلك بما سكنتُ إليه، وخرق العمل المعمول، وأحضرتة الدفتر، فوضعه في خفه، وانصرفت وقد زالت عني المطالبة.

ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت، وفصول حسان من كلامه قد جمعت، وقد أتينا على كثير منها في الكتاب الأوسط، فمما استحسنت من فصوله وإن كانت كلها في نهاية الجودة وانتخبناه من كلامه: وقديماً عَدَّتْ المعصبة أبناءها فحلبت عليهم من دَرَّهَا مرضعة، وبسطت لهم من أمانيتها مطمعة، وركبت فيهم مخاطرها مُوضِعة، حتى إذا رَتَعُوا فأمَنُوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رَضَاعُ وَأَن فِطَامُ، سَقَتْهُمْ سُمًّا، ففجرت مجاري ألبانها منها دماً، وأعقبتهم من غذائها مَرًّا، وَحَطَّتْ بهم من معقل إلى عقال، ومن عز إلى حسرة، قتلاً وأسرًا، وإباحة وقسرًا، وَقَلَّ من أَوْضَع في الفتنة مرهجاً في لهيها ومقتحماً عند ضلالها إلا استقحمته آخذة بِمُخْتَقِهِ، وموهنةً بالحق كيده، حتى تجعله لعاجله جزراً، ولأجله خطباً، وللحق موعظة، وللباطل حجة، ذلك لهم جزاء في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [نصت: ٤٦].

وله أشعار حسان، فمما استحسنت من شعره الذي لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله:

لَنَا إِبْلٌ كَوْمٌ يَضِيقُ بِهَا الْقَضَا وَيُنْفَتِرُ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا
فَمَنْ دُونَهَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا وَمَنْ دُونَنَا أَنْ يَسْتَدِمَ دِمَاؤُهَا
جَمَى وَقِرَى فَاَلْمَوْتَ دُونَ مَرَامِهَا وَأَهْوَنَ خُطْبٍ فِي الْحَقِّوقِ فَنَاؤُهَا

وقوله:

وَلَكِنَّ الْجَوَادَ أَبَا هِشَامٍ وَفِي الْغَيْبِ مَأْمُونُ الْمَغِيبِ
[غَنِي عَنْكَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ وَطَّلَاعَ عَلَيْكَ مَعَ الْخُطُوبِ]

وقوله:

هَبِ الزَّمَانَ رِمَانِي انْشَأَنَّ فِي الْخِلَانِ
فِي مَنْ رَمَانِي لَمَّا رَأَى الزَّمَانَ رَمَانِي
وَمَنْ دَخَرْتُ زَمَانِي شِنَاءُ فِي الْخِلَانِ
وَمَنْ ذَخَرْتُ لِنَفْسِي فَعَادَ دُخَرَ الزَّمَانِ
لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا مِنْ أَعْظَمِ الْحَدَثَانِ
لَمَّا أَخَذْتُ أَمَانًا إِلَّا مِنَ الْإِخْسَانِ

وقوله:

وَإِذَا جَزَىٰ اللَّهُ امْرَأً بِفِعَالِهِ فَجَزَىٰ أَخَاكَ مَا جَدًّا سَمَحًا
نَبِهَتْهُ مِنْ كَذِبِهِ فَكَأَنَّمَا نَبِهَتْ إِذْ نَبِهَتْهُ ضُبْحًا

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله:

تَزِيدُهُ الْأَيَّامُ إِنْ أَقْبَلَتْ حَزْمًا وَعِلْمًا بِتَصَارِيفِهَا
كَأَنَّهَا فِي وَقْتٍ إِسْعَافِهَا تَسْمَعُهُ صَوْتَ تَخَارِيفِهَا

ومما أحسن فيه وَبَرَزَ عَنْ نَظَائِرِهِ قوله:

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامٍ لَنَا سَلَمَتْ بَكَيْتَ مِنْهَا فَصَرْتُ الْيَوْمَ أَبْكِيهَا
كَذَلِكَ أَيَّامُنَا لَا شَكَّ نَنْدِبُهَا إِذَا تَقَضَّتْ وَنَحْنُ الْيَوْمَ نَشْكُوهَا

وقوله:

أُولَى الْبَرِيَّةِ طَرًّا أَنْ تَوَاسِيَهُ عِنْدَ السَّرُورِ لِمَنْ وَاسَاكَ فِي الْحُزَنِ
إِنْ الْكِرَامِ إِذَا مَا [أَيَسُرُوا] ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

وقوله:

لَا تَلُمْنِي فَإِنَّ هَمَّكَ أَنْ تُثْ بَرِي وَهَمِّي مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
كَيْفَ يَسْتَطِيعُ حِفْظُ مَا جَمَعْتَ كَ نَفَاهُ مَنْ ذَاقَ لَذَّةَ الْإِنْفَاقِ

وقوله:

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا هَجَّجْتَهُ وَأَبٌّ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْلَمُ الْأَقْصَى إِذَا أَثَرَى، وَلَا يَعْلَمُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

وكان إبراهيم بن العباس يقول: مثل أصحاب السلطان مثل قوم علّوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف بعدهم من الارتقاء، وكان إبراهيم يدعى خؤولة العباس بن الأحنف الشاعر.

العباس بن الأحنف

وحكى أبو العباس أحمد بن جعفر بن حمدان القاضي، عن سليمان بن الحسن بن مخلد، عن أبيه الحسن، قال: أنشد إبراهيم بن العباس قول العباس بن الأحنف:
إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِنْ سِيلَ لَمْ يَبْذُلْ، وَإِنْ عَوْتُ لَمْ يُعْتَبِ

صَبُّ بهجراني، ولو قال لي: «لا تشرب البارد» لم أشرب

فقال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، القليل النظير، ما سمعت كلاماً أجزل منه في رقة، ولا أسهل في صعوبة، ولا أبلغ في إنصاف، من هذا، فقال له الحسن: كلامك والله أحسن من شعره:

ومما استحسن من شعر العباس بن الأحنف قوله:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنت مظلوماً فقل: أنا ظالم
فطوبى لمن أغفى من الليل ساعة وذاق اغتماضاً؛ إن ذاك لناعم

وقوله:

اصرف فؤادك يا عباس معتمداً عنها، وَإِلَّا تُمُتْ فِي حَبْهَا كَمَا
لو أنها من وراء الروم في بلد ما كنت أسكن إلا ذلك البلدا
يا من شكا شوقه من هول غيبته اصبر لعلك تلقى ما تحب غدا

وقوله:

أغَبَّ الزيارة لمابداً له الهجر أو بعض أسبابه
وما صدَّ عتاً، ولكنه طريد ملالة أحبابه

وفاة العباس بن الأحنف

حدثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي قال: حدثنا الرياشي، قال: ذكر جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحج، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقف على المحجة وهو ينادي: يا أيها الناس، هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ قال: فملنا إليه وقلنا له: ما تريد؟ قال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم، فملنا معه، فإذا بشخص ملقَى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يُحِيرُ جواباً، فجلسنا حوله، فأحس بنا، فرفع طرفه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا غريب الدار عن وطنه مفرداً يبكي على شَجْنِهِ
كلما جَدَّ السكاء به دَبَّتِ الأسقام في بدنه

ثم أغمى عليه طويلاً، وإنا لجلوس حوله إذ أقبل طائر فوق على أعلى الشجرة، وجعل يغرد، ففتح الفتى عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر، ثم قال:

ولقد زاد الفؤاد شَجْنِي طائر يبكي على قَتْنِهِ

شَفُّهُ مَا شَفَّنِي فَبِكِي كلنا يبكي على سَكْنِهِ

قال: ثم تنفس تنفساً فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه، فقال: هذا العباس بن الأحنف.

وقد أخبرنا بهذا الخبر أبو إسحاق الزجاجي النحوي، عن أبي العباس المبرد، عن المازني، قال: حدثنا جماعة من أهل البصرة بما ذكرناه.
وكانت وفاة أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبى سنة أربعين ومائتين.

نفي المتوكل علي بن الجهم

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين نَفَى المتوكل علي بن الجهم الشاعر إلى خُرَاسَان، وقيل: في سنة تسع وثلاثين ومائتين، وقد أتينا على خبره وما كان من أمره ورجوعه بعد ذلك إلى العراق، وخروجه يريد السفر، وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين، فلما صار بالقرب من حلب من بلاد قنسرين والعواصم بالموضع المعروف بخشبات لقيته خيل الكلبين فقتلته، فقال في ذلك وهو في الشرق:

أَزِيدُ فِي اللَّيْلِ لَيْلٌ أَمْ سَالُ بِالصَّبْحِ سَائِلٌ؟
ذَكَرْتُ أَهْلَ دُجَيْلٍ وَأَيْنَ مِنِّي دُجَيْلٌ؟

وكان علي بن الجهم السامي هذا - مع انحرافه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإظهاره التسنن - مطبوعاً مقتدراً على الشعر، عذب الألفاظ، غزير الكلام، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طعن من طعن على نسبه، وما قال الناس في عقب سامة بن لؤي بن غالب، وقول علي بن محمد بن جعفر العلوي الشاعر:

وَسَامَةُ مِنَّا فَأَمَّا بَنُوهُ فَأَمْرُهُمْ عِنْدَنَا مُظْلِمٌ
أَنَاسٌ أَتَوْنَا بِأَنَسَابِهِمْ خُرَافَةٌ مُضْطَجِعٌ يَحْلُمُ
وَقُلْتُ لَهُمْ مِثْلَ قَوْلِ النَّبِيِّ وَكُلُّ أَقَاوِيلِهِ مُحْكَمٌ
إِذَا مَا سَأَلْتُ وَلَمْ تَدْرِ مَا تَقُولُ فَقُلْ رَبَّنَا أَعْلَمُ

وقول العلوي فيه أيضاً:

لَوْ اكْتَنَفْتُ التُّضْرَ أَوْ مَعَدَا أَوْ اتَّخَذْتُ الْبَيْتَ كَهَفًا مَهْدَا
وَزَمَزَمْتُ شَرِيعَةً وَوَرَدَا وَالْأَخْشَبِينَ مُحْضَرًا وَمَبْدَا

ما ازددت إلا من قريش بعدا أو كنت إلا مصقلياً وُعْدًا

وإنما أعدنا ذكر هذا الشعر في هذا الموضع - وإن كنا قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب - لما سنح لنا من ذكر علي بن الجهم في أيام المتوكل، ولما احتجنا إليه عند ذكرنا لشعر علي بن الجهم وإجابته العلوي على هذا الشعر، فكان ما أجاب به علي الجهم لعلي بن محمد بن جعفر العلوي:

لم تُذِقْنِي حلاوة الإنصاف وتَعَسَّفْتَنِي أَشَدَّ اعتساف
وتركت الوفاء علماً بما فيه ه وأَسْرَفْتَ غاية الإسراف
غير أنني إذا رجعت إلى ح ق بني هاشم بن عبد مناف
لم أجد لي إلى التَّشْفِي سبيلاً بقواف ولا بغير قواف
لي نفس تأبى الدنية والإش راف لا تعتدي على الأشراف

وله في الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد، وهو قوله:

قالوا: حبست، فقلت: ليس بضائري حسي، وأي مهند لا يُعْمَد؟
أو ما رأيت الليث يألف غيْلَه كبراً، وأوباش السباع تردد
والشمس لولا أنها محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفَرْقَد
والنار في أحجارها مخبوءة لا تُضْطَلِّي إن لم تُثْرَهَا الأَزْنَد
والحبس ما لم تُعْشَه لدية شنعاء نِعَمَ المنزل المستورد
بيت يجدد للكريم كرامة ويزار فيه ولا يزور ويحفد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه لا يستذلُّك بالحجاب الأعْبُد

ومما أحسن فيه قوله:

خليلي ما أخلى الهوى وأمرَه وأعلمني بالحلو منه وبالمر
بما بيننا من حرمة هل رأيتما أرق من الشكوى وأقسى من الهجر؟
وأفصح من عين المحب لسره ولا سيما إن أطلَّقتْ عُبْرَة تجري

ومما اختير من قوله:

حسرت عني القنَاعَ ظنوه ه تولت ودمعها مسجوم
شر ما أنكرت تصرم عهد لم يذم لي، وأي عهد يدوم؟
أنكرت ما رات برأسِي وقالت: أمشيبي أم لؤلؤ منظوم

[قلت: أولاهما علمت، فقالت: ليس هَمِّي من الهموم التي يحـ إن أمراً أُخِنِّي عليّ بشيب الر ليس عندي وإن تَعَزَّيْتُ إلا

آية يستثيرها المهموم] من فيها العزاء والتسليم أس في ليلة لأمر عظيم طاعة حرة وقلب سليم

ومن جيد شعره:

هي النفس ما حَذَّلْتُها تتحمل وعاقبة الصبر الجميل جميلة ولا عار إن زالت عن المرء نعمة وما المال إلا حسرة إن تركته

وللدهر أيام تجور وتعذل وأكمل أخلاق الرجال التفضل ولكن عاراً أن يزول التجمل وغنم إذا قَدَّمْتَه متعجِّلُ

ومما اعتذر فيه فأحسن قوله في المتوكل:

إِنَّ ذُلَّ السُّؤَالِ وَالاعْتِزَارِ لَيْسَ مِنْ بَاطِلٍ يوردها المر فارَضَ للسائل الخضوع وللقا إن تجافيت مُنْعِماً كنت أولى أو تُعاقِبُ فأنت أعرف بالـ

خُطَّة صعبة على الأحرار ء ولكن سوابق الأقدار رف ذنباً بذلة الاعتذار مَنْ تجافى عن الذنوب الكبار ه، وليس العقاب منك بعار

ومما جود فيه قوله لما قيد:

فعلت لها والدمع شتى طريقه فلا تجزعي إماً رأيت قيوده

ونار الهوى بالقلب يذكو وقودها فإن خلاخيل الرجال قيودها

وكان في لسانه فضل قلَّ مَنْ سَلِمَ معه منه، وكان محمد بن عبد الله منحرفاً عنه، فاستشفع عليه بوصيف التركي حتى أصلح له ناحيته، ثم فسد عليه وصيف، فاستشفع عليه بمحمد بن عبد الله، وكتب إليه:

الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا قَلْبُنَا فِي يَدَيْهِ صَارَ الْأَمِيرُ شَفِيعاً إِلَى شَفِيعِي إِلَيْهِ

وله أشعار نادرة، وأمثال سائرة، اخترنا منها ما قدمنا ذكره واقتصرنا بذلك عن غيره، وقد رثاه جماعة من الشعراء بعد قتله، منهم أبو صاعد، فقال:

أرقي الندم واجتنبني الهجوعاً وضوني شمل وجذبك أن يضيعا

وقولي: إِنَّ كهف بني لزي عذاً بالشام منجدلاً صريعاً
عزاء يا بني جَهْم بن بدر فقد لاقيتُمْ حَطْباً فُضِيعاً
أما والله لو تَدْرِي المَنَآيَا بما لَاقَيْتُمْ لبَكْتُ نَجِيعاً
ثوى كهف الأرامل واليتامى ومن كان الزمان به ربيعاً
فَتَّى كان السهام على الأعادي وليثاً دون حادثة منيعاً

قال: وفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين كان خروج المتوكل من دمشق إلى سُرٍّ من رأى، فكان بين خروجه منها ورجوعه إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام، وفي خروجه يقول [يزيد] المهلبى شعراً طويلاً اخترنا منه قوله:

أظن الشام يَشْمَتُ بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تَدَعِ العراق وساكنيها فقد تُبْلَى المليحة بالطلاق

ولما نزل دمشق أبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغُوطَة [عليها] وما يرتفع من بخار مياهها، فنزل قصر المأمون، وذلك بين دارياً ودمشق، على ساعة من المدينة، في أعلى الأرض، وهذا الموضع بدمشق يُشْرِف على المدينة وأكثر الغُوطَة ويعرف بقصر المأمون إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

المتوكل في دمشق

وذكر سعيد بن نكيس قال: كنت واقفاً بين يدي المتوكل في مَضْرِبِهِ بدمشق إذ شَعَبَ الجند واجتمعوا ووضُّجُوا يطلبون الأعْطِيَّةَ، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب، وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرواق، فقال لي: يا أبا سعيد، ادع لي رجاء الحضاري، فدعوته، فقال له: يا رجاء، أما ترى ما خرج إليه هؤلاء؟ فما الرأي عندك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد كنت مُشَفِّقاً في هذا السفر من مثل هذا، فأشرت بما أشرت من تأخير، فمال أمير المؤمنين إليه، وقال: دَغَ ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك، فقال: يا أمير المؤمنين، توضع الأعطية، فقال له: فهذا ما أرادوا، وفيه مع ما خرجوا إليه ما يعلم، قال: يا أمير المؤمنين، مُرْ بهذا فإن الرأي بعده، فأمر عبيد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم، فلما خرج المال وبدىء بإنفاقه دخل رجاء فقال: مُرِ الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل إلى العراق، فإنهم لا يأخذون مما أخرج إليهم شيئاً، ففعل ذلك، فترك الناس الأعطية [فرجعوا] حتى إن الْمُعْطِيَّ ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه.

الأتراك يدبرون وقعة

قال سعيد: وقد كان الأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بُعَا الكبير، فإنهم دَبَرُوا في إبعاده عنه، فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها: إن بُعَا دبر أن يقتل أمير المؤمنين، والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خيله ورجله، فيأخذ عليه أطراف عسكره، ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به، فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته، ودخل في قلبه من بُعَا كل مدخل، وشكا إلى الفتح ذلك، وقال له في أمر بُعَا والإقدام عليه، وشاوره في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل في وقت بعينه [سَمَاه له] من ركوب الرجل بالأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه، وبعد ذلك يتبين الأمر، وأنا أرى أن تمسك، فإن صح هذا الدليل نظرنا كيف نفعل، وإن بطل ما كتب به فالحمد لله، وأقبلت الرقاع تطرح في كل وقت على جهة [التنصح، وأن في أعناق من كتبها بيعة لم يجد معها بداً من] النصح والصدق، فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها في مضرب بُعَا يقولون فيها: إن جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره، ودَبَرُوا ذلك، واتفقوا عليه، وتعاهدوا على أن يأتوه من نواحي كذا، ونواحي كذا، فالحمد لله إلا ما احترست لأمر المؤمنين، وحرسه في هذه الليلة من هذه المواضع، وخصَّتها بنفسك ومن تثق به، فإننا قد نصحننا وصدقنا، وأكثرنا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة، فلما وقف بُعَا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقاً، مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك، فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التي ذكرت، فأخذها على المتوكل وحرسها، واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق، فأقبل يتوقع مَنْ يوافيه فيفتك به، وسهر ليلته، وامتنع من الأكل والشرب، فلم يزل على تلك الحال إلى الغدَاة، وبُعَا يحرسه، والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك، وقد اتهم بُعَا، واستوحش من فعله، فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له: يا بُعَا، قد أبت نفسي مكانك مني، ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وجبَاء ونُزُل ومعونة وكل سبب، فقال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرني بما أحببت، فخلفه بالشام وانصرف، فأحدث الموالي عليه ما أحدثوا، فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة، ولم يعلم كل واحد منهما الحيلة في ذلك إلى أن تمت الحيلة.

تدبير المؤامرة ضد المتوكل

قال: ولما عزم بُعَا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركي، وكان قد اصطنعه واتخذهُ وملاً عينه من الصُّلّات، وكان مقدماً أهوج، فقال له: يا باغر أنت تعلم محبتي لك وتقديمي إياك وإيثاري لك وإحساني إليك، وإنّي قد صرت عندك في حد من لا يُعْصَى له أمر ولا يخرج عن محبته، وأريد أن أمرك بشيء فعرّفتني كيف قلبك فيه، فقال: أنت تعلم كيف أفعل فقل لي ما شئت حتى أفعله، قال: إن ابني فارس قد أفسد عليّ عملي وعزم على قتلي وسفك دمّي، وقد صحّ عندي ذلك منه، قال: فتريد مني ماذا؟ قال: أريد أن يدخل عليّ غداً فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الأرض، فإذا أنا وضعتها [في الأرض] فاقتله، قال: نعم، ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد في نفسك عليّ، قال: قد آمنك الله من ذلك. فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب، فلم يزل يراعي بُعَا أن يضع قلنسوته، فلم يفعل، وظن أنه نسي، فغمره بعينه أن أفعل؟ قال: لا، فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بُعَا: اعلم أنني فكرت في أنه حدّث وأنه ولدي، وقد رُمْتُ أن أستخلصه هذه المرة، فقال له باغر: أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدرت عليه فيه صلاحه؛ ثم قال له: وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرّفتني كيف تريد أن تكون فيه، قال له: قل ما شئت حتى أفعله، قال: أخي وصيف قد صحّ عندي أنه يدبر عليّ وعلى رفقائي، وأن مكاننا قد ثقل عليه، وأنه عوّل على أن يقتلنا ويفيننا وينفرد بالأمر؛ قال: فماذا تريد أن يُصنَّع به؟ قال: افعل هذا فإنه يصير إليّ غداً فالعلامة أن أنزل عن المصلّي الذي يكون معي قاعداً عليه، فإذا رأيته نزلت عنه فضع سيفك عليه، واقتله؛ قال: نعم، فلما صار وصيف إلى بُعَا حضر باغر وقام مقام المستعد، فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف، قال: فقال له بُعَا: يا باغر إنني فكرت في أنه أحي وأنّي قد عاقدته وحلفت له، فلم أستجز أن أفعل ما دبرته، ووصله وأعطاه. ثم إنه أمسك عنه مدة مديدة ودعا به فقال: يا باغر، قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك؟ قال: قلبي على ما تحبُّ فقل ما شئت حتى أفعله، فقال: هذا المنتصر قد صحّ عندي أنه على إيقاع التدبير عليّ وعلى غيري حتى يقتلنا وأريد أن أقتله، فكيف ترى نفسك في ذلك؟ فكفر باغر في ذلك ونكس رأسه [طويلاً] وقال: هذا لا يجيء منه شيء، قال: وكيف؟ قال: يقتل الابن والأب باقٍ؟ إذاً لا يستوي لكل شيء ويقتلكم أبوه كلكم به؟ قال: فما ترى عندك؟ قال: نبدأ بالأب أولاً فنقتله، ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك، فقال له: ويحك ويُفعل هذا ويُتْهِأ؟ قال: نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله، فجعل يردد عليه، فيقول: لا تفعل غير هذا، ثم قال له: فادخل أنت في أثري فإن قتلته

وإلا فاقتلني وضَّع سيفك عَلَيَّ، وقل: أراد أن يقتل مولاه، فعلم بُغَا حينئذٍ أنه قاتله وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل.

وفاة شجاع أم المتوكل

وفي سنة سبع وأربعين [ومائتين] توفيت شجاع أم المتوكل، وصلى عليها المنتصر، وذلك في شهر ربيع الآخر.

مقتل المتوكل

ثم قتل المتوكل بعد وفاتها بستة أشهر، ليلة الأربعاء لثلاث ساعات خلت من الليل، وذلك لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين وقيل: لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين.

وكان مولده بقم الصلح، حدث البحتري قال: اجتمعنا ذات ليلة مع الندماء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف، فقال بعض من حضر: بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم يُر مثله، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ، فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياعه، فنفذت الكتب بذلك، قال البحتري: فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله [بن يحيى] والسيف معه، وعرفه أنه ابتاع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم، فسر بوجوده، وحمد الله على ما سهل من أمره، وانتضاه فاستحسنه، وتكلم كل واحد منا بما يحب، وجعله تحت ثني فراشه، فلما كان من الغداة قال للفتح: اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالساً، قال: فلم يستم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح: يا أمير المؤمنين، هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة، وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين، فدعا به المتوكل فدفع إليه السيف، وأمره بما أراد، وتقدم أن يزداد في مرتبته، وأن يضعف له الرزق، قال البحتري: فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع إليه إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بهذا السيف. قال البحتري: لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجباً، وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبير، وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية، فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعاً لله عزّ وجلّ، ثم أخذ من ذلك التراب فنثره في لحيته ورأسه، وقال: إنما أنا عبد الله، وإن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر.

قال البحتري: فتطيرت له من ذلك، وأنكرت ما فعله من نثره التراب على رأسه ولحيته، ثم قعد للشراب، فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتاً استحسنة، ثم التفت إلى الفتاح فقال: يا فتح، ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك، ثم أقبل على البكاء.

قال البحتري: فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية؛ فإننا في ذلك إذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه مندبل وفيه خلعة وجهت بها إليه قبيحة، فقال له الرسول: يا أمير المؤمنين تقول لك قبيحة: إني استعملت هذه الخلعة لأمر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها، قال: فإذا فيها دراعة حمراء لم أر مثلها قط، ومُطْرَفُ خَزْ أحمر كأنه ديبقي من رفته، قال: فلبس الخلعة والتَّخَفَ بالمطرف. قال [البحتري: فتصيدت لأبدره بنادرة تكون سبباً لأخذ المطرف] فإني على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه، قال: فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذي جاءه بالخلعة، وقال: قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي، فقلت في نفسي: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، انقضت والله المدة؛ وسكر المتوكل سكرأ شديداً، قال: وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيم الخدم الذين عند رأسه، قال: فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم مثلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع، فهجموا علينا، وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر ومعه آخر من الأتراك على السرير، فصاح بهم الفتاح: ويلكم!! مولاكم؛ فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء وتطايروا على وجوههم، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتاح وهو يحاربهم ويمنعهم قال البحتري: فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن، فَقَدَهُ إلى خاصرته، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك، وأقبل الفتاح يمانعهم عنه فَبَعَجَهُ واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول، قال البحتري: فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه، ثم طرح بنفسه على المتوكل، فماتا جميعاً، فلما في البساط الذي قتلا فيه، وطرحا ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمتتصر، فأمر بهما دفنهما جميعاً، وقيل: إن قبيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه.

وقد كان بُعَا الصغير توحش من المتوكل فكان المتتصر يجتذب قلوب الأتراك وكان أوتامش غلام الواصل مع المتتصر، فكان المتوكل ييغضه لذلك، وكان أوتامش

يجتذب قلوب الأتراك إلى المنتصر، وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعتز، وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر، فكان المنتصر لا يُبعد المتوكل أحداً من الأتراك إلا اجتذبه، فاستمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراغة والأشروسية، إلى أن كان من الأمر ما ذكرناه.

[وقد ذكر في كيفية قتل المتوكل غير ما ذكرنا]، وهذا ما اخترناه في هذا الموضع، إذ كان أحسن ألفاظاً وأقرب مأخذاً، وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط، فأغني ذلك عن تكراره في هذا الكتاب.

ولم يكن المتوكل يوماً أشد سروراً منه في اليوم الذي قتل فيه؛ فلقد أصبح في هذا اليوم نشيطاً فرحاً مسروراً، وقال: كأني أجدر حركة الدم، فاحتجم في ذلك اليوم، وأحضر الندماء والملهين، فاشتد سروره وكثر فرحه، فانقلب ذلك الفرح ترحاً والسرور حزناً؛ فمن ذا الذي يغتر بالدنيا ويسكن إليها، ويأمن الغدر والنكبات فيها إلا جاهل مغرور؟ فهي دار لا يدوم نعيمها، ولا يتم فيها سرور، ولا يؤمن فيها محذور، قد قرنت منها السراء بالضراء، والشدة بالرخاء، والنعيم بالبلوى؛ ثم يتبعها الزوال، فمع نعيمها البؤس، ومع سرورها الحزن، ومع محبوبها المكروه، ومع صحتها السقم، ومع حياتها الموت، ومع فرحاتها الترحات، ومع لذاتها الآفات، عزيزها ذليل، وقويها مهين، وغنيها محروب، وعظيمها مسلوب، ولا يبقى إلا الحي الذي لا يموت ولا يزول ملكه وهو العزيز الحكيم.

وفي ذلك يقول البحري في غدر المنتصر بأبيه وفتكه به، من قصيدة له:

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أو ولي العهد غادره
فلا ملّي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وصف أيام المتوكل

وكانت أيام المتوكل في حسننها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص العام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء، كما قال بعضهم: كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل، ورخص السعر، وأمان الحب، وأيام الشباب؛ وقد أخذ هذا [المعنى] بعض الشعراء فقال:

قربك أشهى موقعاً عندنا من لين السعر وأمن السبيل
ومن ليالي الحب موصولة بطيب أيام الشباب الجميل

قال المسعودي : وقد قيل : إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل .

ويقال : إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف ألف درهم ، هذا مع كثرة الموالى والجند والساكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات .

ويقال : إنه كان له أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن ، ومات وفي بيوت الأموال أربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف ألف درهم ، ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل إلا وقد حَظِيَ في دولته ، وسعد بأيامه ، ووصل إليه نصيب وافر من ماله .

الحسين الخليع بين يدي المتوكل

وذكر محمد بن أبي عون قال : حضرت مجلس المتوكل على الله في يوم نيروز ، وعنده محمد بن عبد الله طاهر ، وبين يديه الحسين بن الضحاك الخليع الشاعر ، فغمز المتوكل خادماً على رأسه حَسَنَ الصورة أن يسقي الحسين^(١) كأساً ويحييه بتفاحة عنبر ، ففعل ذلك ، ثم التفت المتوكل إلى الحسين^(١) فقال : قل فيه أبياتاً ، فأنشأ يقول :

وكالدرة البيضاء حَيًّا بعنبر	من الورد يسعى في قَرِاطِقَ كالورد
له عَبَّاتٌ عند كل تحية	بعينه تستدعي الخليَّ إلى الوجد
تمنيت أن أُسْقَى بكفيه شربة	تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله دهرًا لم أَيْت فيه ساعة	من الليل إلا من حبيب على وعد

قال المتوكل : أحسنت والله ، يُعْطَى لكل بيت مائة دينار ، فقال محمد بن عبد الله : ولقد أجاب فأسرع ، وذكر فأوجع ، ولولا أن يَدَ أمير المؤمنين لا تطاولها يد لأجزلت له العطاء ولو بالطارف والتالد ، فقال المتوكل عند ذلك : يعطى لكل بيت ألف دينار .

قال : ويروى أنه لما أتى بمحمد بن المغيث إلى المتوكل وقد دعا له بالنطع والسيف ، قال له : يا محمد ما دعاك إلى المشاقَّة؟ قال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولا هما بك ، وهو العفو عن عبدك ، وأنشأ يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي	إمام الهدى ، والعَفْوُ بالحر أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة	وعفوك من نور النبوة يجمل

تضاءل دَنْبِي عند عفوك قلة فمَنْ لي بفضل منك، والمَنْ أفضل
لأنك خير السابقين إلى العُلا وإنك خَيْرَ الفاعلتين ستفعل
فقال المتوكل: أفعل خيرهما، وأمَّنْ عليك، ارجع إلى منزلك، قال ابن المغيث:
يا أمير المؤمنين، الله أعلم حيث يجعل رسالته.

من رثاء المتوكل

ولما قتل المتوكل رثته الشعراء؛ فممن رثاه علي بن الجهم، فقال من قصيدة له:
عَبِيدُ أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم، صبراً فكل مصيبة سَيَبْلَى على وجه الزمان جديدها
وفيه يقول يزيد بن محمد المهلب من قصيدة طويلة:

جاءت منيته والعين هاجعة هلا أتته المنايا وألْقنا قِصْدُ
عَلَّتْكَ أسياف مَنْ لا دونه أحد وليس فوقك إلا الواحد الصمد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ولم يَضِغْ مثله روح ولا جسد
وفيه يقول بعض الشعراء:

سرت ليلاً منيته إليه وقد خَلَى مناعمه وناما
فقلت: قم، فقام، وكم أقامت أخاً مُلْكٍ إلى هُلْكَ فقاما

وفيه يقول الحسين بن الضحاك الخليع:

إن الليالي لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان
أما رأيت خُطُوبَ الدهر ما فعلت بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

محبوبة جارية المتوكل

وذكر علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل
على الله أهدى إليه الناس على أقدارهم، وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة
ووصيف، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها
وثقفها وعلمها من صنوف العلم [وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغني به على العود] وكانت
تحسن كل ما يحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من المتوكل، وحَلَّتْ من قلبه محلاً
جليلاً لم يكن أحد يعدلها عنده، قال علي: فدَخَلْتُ عليه يوماً للمنادمة، فلما استقر بي
المجلس قام فدخل بعض المقاصير، ثم خرج وهو يضحك، فقال لي: ويلك يا علي،

دخلت فرأيت قِيَّةً قد كتبت في خدها بالمسك جعفرأ فما رأيت أحسن منه، فقل فيه شيئاً، فقلت: يا سيدي، [وحدني] أو أنا ومحبوبة، قال: لا، بل أنت ومحبوبة، قال: فدعت بدواة وقرطاس، فسبقتني إلى القول، ثم أخذت العود فترنمت، ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحناً وتضاحكت منه ملياً، ثم قالت: يا أمير المؤمنين، تأذن لي؟ فأذن لها، فغنت:

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرأ بنفسي محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت خطأ من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الوجد أسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكّه مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرا
ويا من لعيني من رأى مثل جعفر سقى الله صوب المستهلات جعفرأ

قال علي: وتبلدت خواطري حتى كأني ما أحسن حرفاً من الشعر، قال: فقال لي المتوكل: ويلك يا علي!! ما أمرتك به، فقلت: يا سيدي أقلني فوالله لقد عَزَبَ عن ذهني، فلم يزل يضرب به على رأسي ويعيرني به إلى أن مات.

قال علي: ودخلت عليه أيضاً لأنادمه، فقال لي: ويلك يا علي، علمت أني غاضبت محبوبة، وأمرتها بلزوم مقصورتها، ونهيت الحشم عن الدخول إليها، وأنفت من كلامها؟ فقلت: يا سيدي، إن كنت غاضبتها اليوم فصالحها غداً، ويديم الله سرور أمير المؤمنين، ويمد في عمره، قال: فأطرق ملياً، ثم قال للندماء: انصرفوا، وأمر برفع الشراب، فرفع، فلما كان من غد دخلت إليه، فقال: ويلك يا علي، إني رأيت البارحة في النوم أني قد صالحتها، فقالت جارية يقال لها شاطر كانت تقف أمامه: والله لقد سمعت الساعة في مقصورتها هينة لا أدري ما هي، فقال لي: قم ويلك حتى ننظر ما هي، فقام حافياً وقمت أتبعه حتى قربنا من مقصورتها، فإذا هي تخفق عوداً وتترنم بشيء كأنها تصوغ لحناً، ثم رفعت عقيرتها وتغنت:

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصيةً ليس لها توبة تخلصني
فمن شفيح لنا إلى ملك قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره وصارمني

قال: فصفق المتوكل طرباً، فصفقت معه، فدخل إليها فلم تزل تقبل رجل المتوكل وتمرغ خديها على التراب حتى أخذ بيدها، ورجعنا وهي ثالثتنا.

قال علي: فلما قتل المتوكل ضمت هي وكثير من الوصائف إلى بُعَا الكبير،

فدَخَلْتُ عليه يوماً للمنادمة، فأمر بهتِكِ الستارة، وأمر بالقينات فأقبلن يرفلن في الحلبي والحلل، وأقبلت محبوبة حاسرة من الحلبي والحلل، عليها بياض، فجلست مُطْرِقة منكسة، فقال لها وصيف: غني، قال: فاعتلت عليه، فقال: أقسمت عليك، وأمر بالعود فوضع في حجرها، فلما لم تجد بداً من القول تركت العود في حجرها، ثم غنت عليه غناء مرتجلاً:

أَيَّ عَيْشٍ يَلْدُ لِي لَا أَرَى فِيهِ جَعْفَرَا
مَلِكٌ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي نَجِيعٍ مُعَفَّرَا
كُلُّ مَنْ كَانَ ذَا خَبَا لِي وَسَقَمٌ قَدْ بَرَا
غَيْرَ مَحْبُوبَةٍ الَّتِي لَوْ تَرَى الْمَوْتَ يُشْتَرَى
لَا شِئْرَتَهُ بِمَا حَوَتْ يَدَاهَا لِثَقْبَرَا

قال: فغضب عليها وصيف وأمر بسجنها، فسجنت، وكان آخر العهد بها.

وفاة جماعة من أهل العلم

قال المسعودي: ومات في خلافة المتوكل جماعة من أهل العلم ونقله الآثار وحفاظ الحديث: منهم علي بن جعفر المدني بسامرا يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وأشهر.

وتنوزع في السنة التي مات فيها ابن المدني، وقد قَدَّمنا فيما سلف من هذا الكتاب السنة التي قيل فيها إن وفاته كانت فيها.

وفي هذه السنة مات أبو الربيع بن الزهراني، وقد تنوزع في السنة التي مات فيها يحيى بن معين؛ فمنهم مَنْ رأى ما قَدَّمنا في هذا الكتاب ومنهم مَنْ رأى - وهو الأكثر - أنه مات في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، ويكنى بأبي زكريا مولى بني مرة، وقد بلغ من السن خمساً وسبعين سنة وأشهرًا، بالمدينة، وقيل: إن في هذه السنة كانت وفاة أبي الحسن علي بن محمد المدائني الأخباري، وقيل: مات في أيام الواثق في سنة ثمان وعشرين ومائتين، وفيها كانت وفاة مسدد بن مُسَرَّهَد، واسمه عبد الملك بن عبد العزيز.

وفيها مات الحماني الفقيه، وابن عائشة واسمه عبد الله بن محمد بن حفص، ويكنى بأبي عبد الرحمن، وهو من تميم قريش.

وفي خلافة المتوكل مات هُذبة بن خالد، وشيبان بن فروخ الأبلي، وإبراهيم بن محمد الشافعي، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائتين.

وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين مات العباس بن الوليد التُّرْسِي بالبصرة، وعبد الله بن أحمد التُّرْسِي، وعبيد الله بن معاذ العنبري.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين مات إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه، وبشر بن الوليد القاضي الكندي صاحب أبي يوسف، وقد قيل: إن في هذه السنة مات العباس بن الوليد التُّرْسِي.

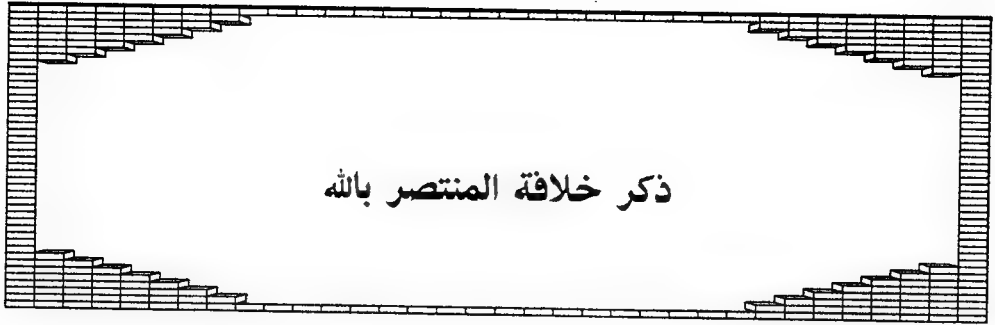
وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين مات عثمان بن أبي شَيْبَةَ الكوفي بالكوفة، والصُّلْتُ بن مسعود الجَحْدَرِي.

وفي سنة أربعين ومائتين مات شباب بن خليفة العصفري، وعبد الواحد بن عتاب.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين مات هشام بن عمار الدمشقي، وحميد بن مسعود الناجي، وعبد الله بن معاوية الجمحي، وفيها مات يحيى بن أكثم القاضي في الرُّبْدَة، ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين مات محمد بن المصطفى الحمصي، وعنبسة بن إسحاق بن شمر، وموسى بن عبد الملك.

قال المسعودي: وللمتوكل أخبار وسير جَسَان غير ما ذكرنا، وقد أتينا عليها على الشرح والإيضاح في كتابنا «أخبار الزمان»، والله الموفق للصواب.



ذكر خلافة المنتصر بالله

موجز

وبويع محمد بن جعفر المنتصر في صبيحة الليلة التي قُتل فيها المتوكل، وهي ليلة الأربعاء لثلاث خَلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، ويكنى بأبي جعفر، وأمه أم ولد يقال لها حبشية، رومية، واستخلف وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفري الذي أحدث بناءه المتوكل، ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكانت خلافته ستة أشهر.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

الموضع الذي قتل فيه المتوكل

كان الموضع الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع الذي قُتل فيه شيرويه أباه كسرى أبرويز، وكان الموضع يعرف بالماخورة، وكان مقام المنتصر بعد أبيه في الماخورة سبعة أيام، ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع.

وحكي عن أبي العباس محمد بن سهل قال: كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكزية في خلافة المنتصر، فدخلت إلى بعض الأزوقة، فإذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة، وحول البساط دارات فيها أشخاص ناسٍ وكتابة بالفارسية، وكنت أحسن القراءة بالفارسية، وإذا عن يمين المصلى صورة ملك، وعلى رأسه تاج كأنه ينطق، فقرأت الكتابة فإذا هي «صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك ملك ستة أشهر» ثم رأيت صور ملوك شتى، ثم انتهى بي النظر إلى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب «صورة يزيد بن [الوليد بن] عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر» فتعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله، فقلت: لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر، فكان والله كذلك، فخرجت من الرواق إلى مجلس وصيف وبُغَا، وهما في الدار الثانية، فقلت لوصيف: أعجزَ هذا الفَرَّاش أن يفرش تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذي عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه أبرويز، وعاشا ستة أشهر بعد ما قُتلا، فجزع وصيف من ذلك وقال: عليّ بأيوب بن سليمان النصراني خازن الفرش، فمثل بين يديه، فقال له وصيف: لم تجد ما يفرش في هذا اليوم تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذي كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره، وقد كان نالته آثار من الدماء؟ قال: سألتني أمير المؤمنين المنتصر عنه، وقال: ما فعل البساط؟ فقلت: عليه آثار [دماء] فاحشة، وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة،

فقال: لم لا تغسله وتطويه؟ فقلت: خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة، فقال: إن الأمر أشهر من ذلك، يريد قتل الأتراك لأبيه المتوكل، فطويناه وبسطناه تحته، فقال وصيف ويُّعًا: إذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذ وأحرقه بالنار، فلما قام أحرق بحضرة وصيف ويُّعًا، فلما كان بعد أيام قال لي المنتصر: افرش ذلك البساط الفلاني، قلت: وأين ذلك البساط؟ فقال: وما الذي كان من أمره؟ فقلت: إن وصيفاً ويُّعاً أمراني بإحراقه، قال: فسكّت ولم يُعِدْ في أمره شيئاً إلى أن مات.

وقد كان المنتصر طرب في هذه الأيام، فدعا بيّان بن الحارث العواد، وكان مطرباً مجيداً، وقد كان غضب عليه، فأحضره فغناه:

لقد طال عهدي بالإمام محمد	وما كُنت أخشى أن يطول به عهدي
فأصبحتُ ذا مُعِدٍ وداري قريبة	فيا عجباً من قرب داري ومن بُعدي
رأيتك في بُرْدِ النبي محمد	كَبَدِ الدجا بين العمامة والبرْد
[فيا ليت أن العيد عاد ليومه]	فإني رأيت العيد وَجْهَكَ لي يُبْدي

وكان ذلك ثاني يوم [عيد] الأضحى، وقد كان المنتصر صَلَّى بالناس في هذا العيد، ومما غنى به من الشعر للمنتصر في ذلك اليوم:

رأيتك في المنام أقلّ بخلاً	وأطوَع منك في غير المنام
فليت الصبح بادٍ ولا نراه	وليت الليل أخَرَ ألفَ عام
ولو أن النعاس يُباع ببعاً	لأغليت النعاس على الأنام

ومن شعر المنتصر أيضاً مما غنى بحضرته:

إني رأيتك في المنام كأنما	أعطيتني من ريق فيك البارد
وكان كَفْكَ في يدي، وكأنما	بتنا جميعاً في لحاف واحد
ثم انتيهتُ ومعصمك كلاهما	بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي
فظلت يومِي كله متراقداً	لأراك في نومي ولستُ براقداً

وزير المنتصر ابن الخصيب

وقد كان استوزر أحمد بن الخصيب وندم على ذلك، وكان نفي عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وذلك أن أحمد بن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة، فأخرج رجله من الركاب فزجَّ بها في صدر المتظلم فقتله، فتحدث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد اشكّل وزيرك، إنه رَكَّالُ
اشكله عن رَكْل الرجال، فإن ترد مالا فعند وزيرك الأموال

وزير المقتدر

قال المسعودي: ولو لحق هذا الشاعر الوزير حامد بن العباس في وزارته للمقتدر بالله لرأى منه قريباً مما ظهر من ابن الخصيب، وذلك أنه خاطبه مخاطب ذات يوم، فقلب ثيابه على كتفه ولكّم حلقه.

ولقد دخلت عليه ذات يوم أم موسى القهرمانة الهاشمية، أو غيرها من القهارمة، فخاطبته في شيء من الأموال عن رسالة المقتدر، فكان مما خاطبها به أن قال:

اضرطي والتقطي واحسبي لا تغلطي

فأخجلها ذلك، فقطعها عما له قصدت، فمضت من قورها إلى المقتدر والسيدة فأخبرتاهما بذلك، فأمر القيان [أن] يغنين ذلك اليوم بهذا الكلام، وكان يوم طرب وسرور.

وقد أتينا على خبره وأخبار غيره من وزراء بني العباس وكُتِّبَ بني أمية إلى هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. في الكتاب الأوسط.

مرض المنتصر وموته

وأخبرت عن أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفُرات قال: كان أحمد بن الخصيب سيء الرأي في والدي، وكان عاملاً له، فجاءني مخبر من خَدَم الخاصة فقال: إن الوزير قد ندب لأعمالكم فلاناً، وقد أمره في والدك بكل مكروه، وأن يُصادره على جملة من المال غليظة ذكَّرها، فقعدت وعندني بعض أصدقائنا من الكُتَّاب أبادر بالكتاب إلى والدي بذلك، فاشتغلت عن جليسي الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا، فانتبه مرعوباً، وقال: إني قد رأيت رؤيا عجيبة، رأيت أحمد بن الخصيب واقفاً في هذا الموضع وهو يقول لي: يموت الخليفة المنتصر إلى ثلاثة أيام، قال: قلت له: الخليفة في الميدان يلعب بالصولجان، وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار وقد قدمنا الطعام، فما استمنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال: رأيت الوزير بدار الخاصة غير مُسْفِر الوجه، وإني سألت عن سبب ذلك ف قيل لي: إن الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق، فدخل الحمام ونام في الباذننج فضربه الهواء، وركبته حمى هائلة، فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال له: يا سيدي، أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الرُكوب تبعاً فتدخل

الحمام ثم تخرج عرقاً فتنام في الباذهنج؟ فقال له المنتصر: أتخاف أن أموت؟ رأيت في المنام البارحة آتياً أتاني فقال لي: تعيش خمسا وعشرين سنة، فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري، وأني أبقى في الخلافة هذه المدة، قال: فمات في اليوم الثالث، فنظروا فإذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة.

وقد ذكر جماعة من أصحاب التواريخ أن المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بَقِين من شهر ربيع الأول، ومات مع صلاة العصر لخمس لَيَالٍ خَلَوْنَ من ربيع الآخر، وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين، وكان أول خليفة من بني العباس أظهر قبره، وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك، فأذن لها، وأظهرته بسلاما.

الخلاف في سبب موت المنتصر

وقد قيل: إن الطيفوري الطبيب سَمَّه في مشراط حَجَمَه به، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك، فأخرج وصيفاً في جمع كثير إلى غَزَاة الصائفة بطرسوس، ونظر يوماً إلى بُغَا الصغير. وقد أقبل في القصر، وحوله جماعة من الأتراك. فأقبل على الفضل بن المأمون، فقال: قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم، بقتلهم المتوكل على الله، فلما نظر[ت] الأتراك إلى ما يفعل بهم، وما قد عَزَمَ عليه، وجدوا منه الفرصة.

وقد شكا ذات يوم حرارة، فأراد الحجامه، فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم، وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه، ويقال: إن السم كان في موضع الطبيب حين فَصَدَه.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا، عن عبد الملك بن سليمان بن أبي جعفر، قال: رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان، وقد أحاطت بهما نار، وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما، فمنع الوصول، ثم أقبل المتوكل عليّ فقال: يا عبد الملك قل لمحمد: بالكأس الذي سقيتنا تشرب، قال: فلما أصبحت عَدَوْتُ على المنتصر فوجَدته محموماً، فواظبت على عيادته، فسمعتة في آخر علته يقول: عَجَلْنَا فَعُوجَلْنَا فمات من ذلك المرض.

من صفات المنتصر

وكان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغب في الخير، سخيّاً، أديباً، عفيفاً، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الإنصاف، وحسن المعاشرة، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله.

وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير، كثير الشر، شديد الجهل.

صنيع المنتصر بآل أبي طالب

وكان آل أبي طالب قبل خلافته في محنة عظيمة، وخوف على دمائهم، قد مُنعوا زيارة قبر الحسين والغري من أرض الكوفة، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد، وكان الأمر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومائتين وفيها أمر المعروف بالذيريج بالسير إلى قبر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهذمه ومخو أرضه وإزالة أثره، وأن يعاقب من وجد به، فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر، فكل خشي العقوبة، وأخجَم، فتناول الذيريج مِسْحاة وهدم أعالي قبر الحسين، فحيثُ أقدام الفَعَلَة فيه، وأنهم انتهوا إلى الحفرة وموضع اللحد فلم يروا فيه أثر رمة ولا غيرها، ولم تزل الأمور على ما ذكرنا إلى أن استخلف المنتصر، فأمن الناس، وتقدم بالكف عن آل أبي طالب، وترك البحث عن أخبارهم، وأن لا يمنع أحد زيارة الحيرة لقبر الحسين رضي الله تعالى عنه، ولا قبر غيره من آل أبي طالب، وأمر برد فِدْكَ إلى وَلَدِ الحسن والحسين، وأطلق أوقاف آل أبي طالب، وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم، وفي ذلك يقول البحري من أبيات له:

وإن علياً لأولى بكم وأزكى يداً عندكم من عمر
وكلُّ له فضله، والحجو ل يوم التراهن دون الفرر

وفي ذلك يقول يزيد بن محمد المهلبى . وكان من شيعة آل أبي طالب . وما كان امتحن به الشيعة في ذلك الوقت وأغریت بهم العامة :

ولقد بررت الطالبة بعدما ذموا زماناً بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم، فرأيتهم بعد العداوة بينهم إخوانا
أنست ليلهم وجذت عليهم حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم لرأوك أثقل من بها ميزانا

خلع أخويه من ولاية العهد

وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين خلع المنتصر بالله أخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد بعده، وقد كان المتوكل على الله أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط اشترطها، وأفرد لكل واحد منهم جزءاً من الأعمال رَسَمَه له وجعل ولي عهده والتالي لملكه محمداً المنتصر، وتالي المنتصر وولي عهده المعتز، وتالي المعتز وولي عهده إبراهيم المؤيد، وأخذت البيعة على الناس بما ذكرنا، وفرق فيها أموالاً وعمَّ الناس بالجوائز والصلّات،

وتكلمت في ذلك الخطاب، ونطقت به الشعراء، فما اختير من قولهم في ذلك قول مروان أبي الجنوب من قصيدة:

ثلاثة أملاك؛ فأما محمد فنور هُدى يَهْدِي به الله من يهدي
وأما أبو عبد الإله فإنه شبيهك في التقوى ويُجْدِي كما تجدي
وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة تَقِيّ وفيّ بالوعيد، وبالوعد
فأولهم نور، وثانيهم هدى، وثالثهم رشد، وكلهم مَهْدِي

وقوله للمتوكل مما أجاد فيه وأحسن:

يا عاشر الخلفاء دُمْتَ ممتعاً بالملك تعقد بعدهم للعاشر
حتى تكون إمامهم وكأنهم زُهرُ النجوم دَنَتْ لبدر زاهر

وفي بيعة المتوكل لمن ذكرنا من ولده الثلاثة بولاية العهد يقول الشاعر المعروف بالسلمي [من أبيات له]:

لقد شدَّ ركن الدين بالبيعة الرضا وطائر سعد جعفر بن محمد
بمنتصر بالله أثبت ركنه وأكَّد بالمعزز قبل المؤيد

وممن قال في ذلك فأحسن القول، وأجاد النظم، إدريس بن أبي حفصة حيث يقول:

إن الخلافة ما لها عن جعفر نور الهدى وبنيه من تحويل
فإذا قضى منها الخليفة جعفر [وَطَرًا، وَمَلَّ وليس بالمملول]
[فمحمد بعد الخليفة جعفر] للناس لا فقدوه. خيرُ بديل
فبقاء ملكك وانتظار محمد خير لنا وله من التعجيل

خروج الشاري باليمن

وقد كان خرج أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشاري، فحكم واشتد أمره فيمن انضاف إليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الأكراد، فرح إليه المنتصر جيشاً عليهم سيما التركي، فكانت له مع الشاري حروب، فأبسر الشاري، وأتى به المنتصر، فجاد عليه بالعفو، وأخذ عليه العهد، وخَلَّى سبيله.

وحكى عنه وزيره أحمد بن الخصيب بن الضحاك الجرجاني أنه قال حين رضي عن الشاري: إن لذة العفو أعذب من لذة الشفي، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام.

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، قال: رأى بعض الكتاب في المنام في الليلة التي استخلف في صبيحتها المنتصر كأن قائلًا يقول:

هذا الإمام المنتصر والمَلِكُ الحادي عشر
وأمره إذا أمر كالسيف ما لاقى بتر
وطرفه إذا نظر كالدهر في خير وشر

وقد كان أظهر الإنصاف في الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة. مع شدة الهيبة منها له.

وحدثني أبو الحسن أحمد بن علي بن يحيى المعروف بابن النديم، قال: حدثنا علي بن يحيى المنجم، قال: ما رأيت أحداً مثل المنتصر ولا أكرم أفعالاً بغير تبجح منه، ولا تكلف، لقد رأيته يوماً وأنا مغموماً شديد الفكر بسبب ضيعة مجاورة لضيعتي، وكنت أحب شراءها، فلم أزل أعمل الحيلة عند مالكيها حتى أجابني إلى بيعها، ولم يكن عندي في ذلك الوقت قيمة ثمنها، فصرت إلى المنتصر وأنا على تلك الحال، فبين الانكسار في وجهي، وشغل القلب، فقال لي: أراك مفكراً فما قضيتك؟ فجعلت أزوي عنه خبري، وأستر قصتي، فاستحلفني، فصدقته عن خبر الضيعة، فقال لي المنتصر: فكم مبلغ ثمنها، فقلت: ثلاثون ألف درهم، قال: فكم عندك منها؟ قلت: عشرة آلاف، فأمسك عني ولم يجبني، وتشاغل عني ساعة، ثم دعا بدواة وبطاقة، ثم وقع فيها بشيء لا أدري ما هو، وأشار إلى خادم كان على رأسه بما لم أفهم، فمضى الغلام مسرعاً، وأقبل يشغلني بالحديث ويطأعمني الكلام، إلى أن أقبل الغلام فوقف بين يديه، فنهض المنتصر وقال لي: يا علي، إذا شئت فانصرف إلى منزلك، وقد كنت قدرت عند مسألته أنه سيأمر لي بالثمن أو نصفه، فأتيت وأنا لا أعقل غمًا، فلما وصلت إلى داري استقبلني وكيلي فقال: إن خادم أمير المؤمنين صار إلينا ومعه بغل عليه بدرتان، فسلمهما إليّ وأخذ خطي بقبضهما، قال: فداخلني من الفرح والسرور ما لم أملك به نفسي، ودخلت وأنا لا أصدق قول الوكيل، حتى أخرج إلى البدرتين، فحمدت الله تعالى ما حبّاه لي، ووجهت في وقتي إلى صاحب الضيعة فوفيته الثمن، وتشاغل سائر يومي بتسليمها والإشهاد بها على البائع، ثم بكرت إلى المنتصر من الغد، فما أعاد عليّ حرفاً، ولا سألني عن شيء من خبر الضيعة حتى فرق الموت بيننا.

حديث عن العشق

قال المسعودي: وذكر الفضل بن أبي طاهر في كتابه في أخبار المؤلفين قال:

حدثني أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير مولى أمير المؤمنين، قال: كان المنتصر في أيام إمارته ينادمه جماعة من أصحابه، وفيهم صالح بن محمد المعروف بالحريري، فجرى في مجلسه ذات يوم ذكر الحب والعشق، فقال المنتصر لبعض مَنْ في المجلس: أخبرني عن أي شيء أعظم عند النفس فَقْدًا، وهي به أشد تفجعاً؟ قال: فَقْدُ خُلِّ مُشَاكِلٍ، وموت شكل موافق، وقال آخر ممن حضر: ما أشد جولة الرأي عند أهل الهوى! وفطام النفس عند الصبا، وقد تصدعت أكباد العاشقين من لوم العاذلين، فلوم العاذلين قُرْطٌ في آذانهم، ولوعات الحب نيران في أبدانهم، مع دموع المعاني، كغروب السَّوَانِي، وإنما يعرف ما أقول، من أبكته المغانِي والطلول، وقال آخر: مسكين العاشق، كل شيء عدوه: هبوب الرياح يُقْلِقُه، ولمعان البرق يورقه، والعدل يؤلمه، والبعد ينحله، والذكر يسقمه، والقرب يهيجه، والليل يضاعف بلاءه، والرقاد يَهْرُبُ منه. ورسوم الدار تحرقه، والوقوف على الطلول يبيكه. ولقد تداوت منه العشاق بالقرب والبعد. فما نجع فيه دواء. ولا هدهاء عزاء. ولقد أحسن الذي يقول:

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملُّ، وأنَّ النَّأْيَ يَشْفِي من الوجد
بكل تداوينا فلم يُشَفَّ ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

فكل قال: وأكثر الخطب في ذلك، فقال المنتصر لصالح بن محمد الحريري: يا صالح، هل عشقت قط؟ قال: إي والله أيها الأمير، وإن بقايا ذلك لفي صدري قال: ويلك لمن؟ قال: أيها الأمير، كنت ألف الرصافة في أيام المعتصم. وكانت لَقِينَةً أم ولد الرشيد جارية تخرج في حوائجها وتقوم في أمرها، وتلقي الناس عنها، وكانت قينة تتولى أمر القصر إذ ذاك، وكانت [الجارية] تمر بي فأحتشمها وأعينها، ثم راسلتها فطردت رسولي وهددتني، وكنت أقعد على طريقها لأكلمها، فإذا رأني ضحكت وغمزت الجواري بِالْعَبَثِ بي والهراء، ثم فارقتها وفي قلبي منها نار لا تخدم وغلغل لا يبرد ووجد يتجدد فقال له المنتصر: فهل لك أن أحضرها وأزوجكها إن كانت حرة أو أشتريها إن كانت أمة؟ فقال: والله أيها الأمير إن بي إلى ذلك أعظم الفاقة وأشد الحاجة، قال: فدعا المنتصر بأحمد بن الخصيب وسأله أن يوجه له في ذلك غلاماً من غلمانهِ منفرداً ويكتب معه كتاباً مؤكداً إلى إبراهيم بن إسحاق وصالح الخادم المتولي لأمر الحرم بمدينة السلام، فمضى الرسول وقد كانت [قينة] أعتقتها وخرجت من حد الجواري إلى حد النساء البوالغ، فحملها إلى المنتصر، فلما حضر[ت] نَظَرْتُ إليها، فإذا عجوز قد حذبت وعنست وبها بقية من الجمال، فقال لها: أتحيين أن أزوجك؟ قالت: إنما أنا أمتك أيها

الأمير ومولاتك، فافعل ما بدا لك، فأحضر صالحاً وأملكه بها وأمهرها؛ ثم مزح به فأحضر جوزاً مرصصاً وفركاً مخلقاً فنثره عليه، وأقامت مع صالح مدة طويلة، ثم ملأها ففارقها، وقال يعقوب التمار في ذلك:

منح الله أبا الفضـ	ل حياة لا تُنَغْصـ
وتولاه؛ فقد با	لغ في الحب وأخلص
عاشقاً كان على التـ	ويج للعقد تحرّص
من هوى مَنْ شعرها يخـ	ضرب بالحناء المعفـ
[فتراه عندما ينصـ	ل كالبرد المحرّص]
فهـي من أملح خلقـ	لله في التاج المفصـ
رُزق الصبر عليها	فتأتي وتربص
شيخة هام بها منـ	وجده شيخ مقرّص
قرنصت في عهد نوح	صاحب الفلك وقرنـ
أيّ حظ نال لولا الـ	فرك والجوز المرصـ
ليته قد جعل الأمـ	ر إليها وتخلص
فأبو الجوزان منها	حين يدنو يتقلـ

صنيعة مع عاشق

وذكر أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير، قال: كان المنتصر في أيام إمارته وجّهني إلى مصر في بعض أموره للسلطان، فعشقت جارية كانت لبعض النخاسين عرضت للبيع، محسنة في الصنعة مقبولة في الخلقة قائمة على الوزن من المحاسن والكمال، فساومت مولاه فأبى أن يبيعها إلا بألف دينار، ولم يكن ثمنها متهيئاً معي، فأزعجني السفر وقد علّقها قلبي، فأخذني المقيم المقيّد من حبها، وندمت على ما فاتني من شرائها. فلما قدمت وفرغت مما وجهني إليه وأديت إليه ما عملت حمد أثري فيه؛ وسألني عن حاجتي وخبري، فأخبرته بمكان الجارية وكلفي بها، فأعرض عني وجعل لا يزداد إلا حدة قلبي لا يزداد إلا كلفاً وصبري لا يزداد إلا ضعفاً، وسليت نفسي عنها بغيرها، فكأنني أغريتها ولم تتسل عنها، وجعل المنتصر كلما دخلت إليه وخرجت من عنده يذكرها ويهيج شوقي إليها، وتحتلّت إليه بندمائه وأهل الأنس به وخاص من يحظى من جواريه وأمّهات أولاده وجدته أم الخليفة أن يشتريها لي، وهو لا يجيبني إلى ذلك،

ويعيرني بقلّة الصبر وكان قد أمر أحمد بن الخصيب أن يكتب إلى عامل مصر في ابتاعها وحملها إليه من حيث لا أعلم، فحملت إليه وصارت عنده، فنظر إليها وسمع منها فعذرني فيها، ودفعها إلى قَيِّمَةِ جوارية فأصلحت من شأنها، فلما كان يوماً من الأيام استجلسني وأمرها أن تخرج إلى الستارة، فلما سمعت غناءها عرفتُها، وكرهت أن أعلمه أنني قد عرفتُها، حتى ظهر فيّ ما كتمت، وغلب عليّ صبري، فقال: ما لك يا سعيد؟ قلت: خيراً أيها الأمير، قال: فاقترَحَ عليها صوتاً كنت قد أعلمته أنني سمعته منها، وأني أستحسنه من غنائها. فغتنه فقال: أتعرف هذا الصوت؟ قلت: إي والله أيها الأمير، وكنت أطمع في صاحبته، فأما الآن فقد أيست منها، وكنت كالقاتل نفسه بيده وكالجالب الحنف إلى حياته؛ فقال: والله يا سعيد ما اشتريتها إلا لك ويعلم الله أنني ما رأيت لها وجهاً إلا ساعة دخلت عليها وقد استراحت من ألم السفر، وخرجت من شحوبة التبذل فهي لك، فدعوت له بما أمكنتني من الدعاء، وشكره عني مَنْ حضره من الجلساء، وأمر بها فهيئت وحملت إليّ فردت إليّ حياتي بعد أن أشرفت على الهلكة، ولا أحد عندي أحظى منها [ولا ولد أحب إليّ من ولدها].

شهادة الحمير

ومن ملاحات أحاديث الملهين المجان ما ذكره أبو الفضل بن أبي طاهر قال: حدثني أحمد بن الحارث الجزار عن أبي الحسن المدائني وأبي علي الحرمازي قالوا: كان بمكة سفيه يجمع بين الرجال والنساء على أفحش الريب وكان من أشراف قريش، ولم يذكر اسمه، فشكا أهل مكة ذلك إلى الوالي فغَرَّ به إلى عرفات، فاتخذها منزلاً ودخل إلى مكة مستتراً فلقى بها حرفاء من الرجال والنساء، فقال: وما يمنعكم مني؟ فقالوا: وأين بك وأنت بعرفات؟ فقال: حمار بدرهمين وصرتم إلى الأمن والنزهة والخلوة واللذة؛ قالوا: نشهد إنك لصادق؛ فكانوا يأتونه، فكثُر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وحواشيهم، فعادوا بالشكية إلى أميرهم، فأرسل إليه فأتى به فقال: أي عدو الله طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع بين الخبائث؟ فقال: أصلح الله الأمير! إنهم يكذبون عليّ ويحسدونني! فقالوا للوالي: بينا وبينه واحدة؛ تجمع حُمر المكارين وترسلها إلى عرفات فإن لم تقصد إلى بيته لما تعودت من إتيان السفهاء والفُجَّار [إياه] فالقول ما قال؛ فقال الوالي: إن في هذا لدليلاً، وأمر بجمع الحمر فجمعت ثم أرسلت فقصدت منزله، وأتاه أمانؤه فقال: ما بعد هذا شيء، جَرَّدوه! فلما نظر إلى السياط قال: ولا بد من ضربي؟ قال: لا بد يا عدو الله، قال: اضرب فوالله ما في هذا شيء بأشد من أن يسخر بنا أهل العراق ويقولون: أهل مكة يجيزون شهادة

الحمير مع تقريرهم لنا بقبول شهادة الواحد مع يمين الطالب، قال: فضحك الوالي وقال: لا أضربك اليوم، وأمر بتخليفة سبيله وترك التعرض له.

قال المسعودي: وللمنتصر بالله أخبار حسان وأشعار ومُلح ومنادمات ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة، وقد أتينا على مبسوطها وما استحسناه منها مما لم نورده في هذا الكتاب في كتابنا «أخبار الزمان» من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة، وكذلك في الكتاب الأوسط؛ إذ كنا ما ضمّناه كل كتاب منها لم نتعرض لذكره في الآخر، ولو كان كذلك لم يكن بينها فرق وكان الجميع واحداً، وسنورد بعد فراغنا من هذا الكتاب كتاباً نضمه فنوناً من الأخبار [على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يَسْتَحُ من فوائد الأخبار] ويخلله بالآداب وفنون الآثار، تالياً لما سلف من كتبنا ومعقباً لما تقدم من تصنيفنا. إن شاء الله تعالى.

ذكر خلافة المستعين بالله

موجز

وبويع أحمد بن محمد بن المعتصم في اليوم الذي توفي فيه المنتصر، وهو يوم الأحد لخمس خَلَوْنَ من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، ويكنى بأبي العباس، وكانت أمه أم ولد صقلبية يقال لها مخارق، وخلع نفسه، وسلم الخلافة إلى المعتز، فكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر. وقيل: ثلاث سنين وتسعة أشهر. وكانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث خَلَوْنَ من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وقتل وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه وكتابه

واستوزر المستعين بالله أبا موسى أوتامش، وكان المتولي لأمر الوزارة والقيم بها كاتباً لأوتامش يقال له شجاع [بن القاسم]، وبعد أن قتل أوتامش وكتابه [شجاع] صار على وزارته أحمد بن صالح بن شیرزاد، ولما قتل وصيف وبُغَا باغر التركي تعصبت الموالي، وانحدر وصيف وبُغَا إلى مدينة السلام، والمستعين معهما، فأنزلاه دار محمد بن عبد الله بن طاهر، وذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين، والمستعين لا أمر له، والأمر لبُغَا ووصيف، وكان من حصار بغداد ما ذكرناه في الكتاب الأوسط؛ وفي المستعين بالله يقول بعض الشعراء [في هذا العصر]:

خليفة في قَفْصٍ بين وصيف وبُغَا
يقول ما قال له كما يقول البَبْغَا

وقد كانت المستعين نفى أحمد بن الخصيب إلى إقريطش سنة ثمان وأربعين ومائتين، ونفى عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى برقة، واستوزر عيسى بن فرخان شاه، وقلد سعيد بن حميد ديوان الرسائل.

سعيد بن حميد

وكان سعيد حافظاً لما يُستحسن من الأخبار، ويُستجاد من الأشعار، متصرفاً في فنون العلم، ممنعاً إذا حَدَّث، مفيداً إذا جُولِسَ، وله أشعار كثيرة حسان؛ فمما يُستحسن ويختار من شعره قوله:

وَكُنْتُ أَخَوْفُهُ بِالْدَعَاءِ وَأَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَائِمِ
فَلَمَّا أَقَامَ عَلَى ظُلْمِهِ تَرَكْتُ الدَّعَاءَ عَلَى الظَّالِمِ

وقوله:

أَسِيدَتِي مَا لِي أَرَاكَ بِخَيْلَةٍ مَقِيمٌ عَلَى الْحَرَمَانِ مَنْ يَسْتَزِيدُهَا
فَأُضْبَحَتْ كَالدُّنْيَا نَذْمَ صُرُوفِهَا وَتُتْبِعُهَا ذُمًّا وَنَحْنُ عَبِيدُهَا

وقوله:

اللَّهُ يَعْلَمُ، وَالِدُنْيَا مَوْلِيَّةٌ وَالْعَيْشُ مُنْتَقِلٌ، وَالْدَّهْرُ ذُو دُولٍ
فَلَلْفِرَاقُ. وَإِنْ هَاجَتْ فَجِيعَتُهُ عَلَيْكَ. أَخُوفٌ فِي قَلْبِي مِنَ الْأَجْلِ
وَكُنْتُ أَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا وَالْيَأْسُ يَحْكُمُ لِلْأَعْدَاءِ فِي الْأَمْلِ

وقوله:

وَمَا كَانَ حَبَّيْهَا لِأَوَّلِ نَظَرَةٍ وَلَا غَمْرَةٍ مِنْ بَعْدِهَا فَتَجَلَّتْ
وَلَكِنُّهَا الدُّنْيَا تَوَلَّتْ، وَمَا الَّذِي يُسَلِّي عَنْ الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ؟

وقوله:

كَأَنَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ حِينَ تُجِيلُهُ عَلَى خَدَّهَا الرِّيَّانُ دُرٌّ عَلَى دُرٍّ

إلا أن سعيداً . على ما وصفنا عنه من الأدب . كان يتنصب ، ويظهر التسنن والتخيل ، وظهر عنه الانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

مَا رَأَيْنَا لِسَعِيدٍ بـ مِنْ حُمَيْدٍ مِنْ شَبِيهِه
مَا لَهُ يُوْذِي رَسُولَ اللَّهِ فِي شَثْمِ أَخِيهِ
إِنَّهُ الزَّنْدِيقُ مَسْتَوٍ لِـ عَلِيِّ دِينَ أَبِيهِه

وكان سعيد بن حميد من أبناء المجوس ، وفيه يقول بعض الشعراء ، وهو أبو علي

البصير :

رَأْسٌ مِنْ يَدَّعِي الْبَلَاغَةَ مِنْي وَمَنْ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي حِرَامِهِ
وَأَخُونَا وَلَسْتُ أَعْنِي سَعِيدَ بـ مِنْ حُمَيْدٍ تَوْرَخَ الْكِتَابَ بِاسْمِهِ

وكان لسعيد بن حميد وأبي علي البصير وأبي العيَّاء معاتبات ومكاتبات ومداعبات ، وقد أتينا على ذكرها في الكتاب الأوسط .

أبو علي البصير

وكان أبو علي البصير من أطيع الناس في زمانه ، لا يزال يأتي بالبيت النادر ، والمثل

السائر، الذي لا يأتي به غيره، وكان ابن ميادة بسوء اختياره يرى أنه أشعر من جرير، ويحسبه مقدماً على أهل عصره، وهو فوق نظرائه في وقته، ودون البحترى؛ فمن مشهور شعره قوله في المعلى بن أيوب:

لعمر أبيك ما نُسِبَ الْمُعَلَّى إلى كرم، وفي الدنيا كريم
ولكنَّ البلاد إذا أَقْشَعَرَتْ وَصَوَّحَ نَبْثُهَا رُعْيَ الهَشِيمِ
ومما استحسن له من شعره قوله:

إذا ما اغتدت طلبة العلم ما لها من العلم إلا ما يخلدُ في الكتب
غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي سمعي، ودفترها قلبي

ومما استحسن من قوله وهو يريد الحج:

خرجنا نبتغي مك هُجَّاجاً وَعُمَّاراً
فلما شارف الحير راعي إبلي حاراً
فقلت: احطط بها رحلي ولا تعباً بمن جارا
فصادفنا بهالهاوً وبستاناً وخَمَّاراً
وظبياً عاقداً بين الـ نقا والخصر زُّنَّاراً
فما ظَنُّكَ بالحلفا إن أشعلتْهَا ناراً

ظهور يحيى بن عمر الطالبي

وظهر في هذه السنة، وهي سنة ثمان وأربعين ومائتين، بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار، [وأمه فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار] وقيل: إن ظهوره كان بالكوفة سنة خمسين ومائتين فقتل وحمل رأسه إلى بغداد وصلب، فضج الناس من ذلك، لما كان في نفوسهم من المحبة له، لأنه استفتح أموره بالكف عن الدماء، والتَّوَرُّع عن أخذ شيء من أموال الناس، وأظهر العدل والإنصاف، وكان ظهوره لذلّ نزل به، وجفوة لحقته، ومحنة نالته من المتوكل وغيره من الأتراك، ودخل الناس إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يهتثونه بالفتح، ودخل فيهم أبو هاشم الجعفري. وهو داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء. ولم يكن يعرف في ذلك الوقت أقعد نسباً في آل أبي طالب وسائر بني هاشم وقريش منه، وكان ذا زهد وورع

ونسك وعلم، صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة، وقبره مشهور، وقد أتينا على خبره وما روي عنه من الرواية عن أبيه ومَنْ شاهد من سلفه في كتاب «حدائق الأذهان» في أخبار [آل] النبي ﷺ، فقال لابن طاهر: أيها الأمير، إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيًّا لغزِّي به، فلم يجبه محمد وخرج من داره وهو يقول: يا بني طاهر، البيتين، وقد كان المستعين أمر بنصب الرأس، فأمر ابن طاهر بإنزاله لما رأى الناس وما هم عليه، وفي ذلك يقول أبو هاشم الجعفري:

يا بني طاهر كُلوه وَبَيِّا إن لحم النبي غير مَرِي
إن وتراً يكون طالبه الله لَوَثِرَ بِالْفُوتِ غير حَرِي

وقد رُئي أبو الحسين يحيى بن عمر بأشعار كثيرة، وقد أتينا على خبر مقتله وما رثي به من الشعر في الكتاب الأوسط، ومما رثي به ما قاله فيه أحمد بن طاهر الشاعر من قصيدة طويلة:

سلام على الإسلام فهو مودَّع إذا ما مضى آل النبي فودَّعوا
فَقَدْنا العلا والمجد عند افتقادهم وأضحت عروش المكرمات تَضَعُ
أنجمُ عَيْنَ بين نوم ومضجع ولابن رسول الله في الترب مضجع
فقد أقفرت دار النبي محمد من الدين والإسلام؛ فالدار بَلَقُع
وفُتِلَ آل المصطفى في خلالها وبُدِّدَ شملُ منهم ليس يجمع
ألم تر آل المصطفى كيف تصطفى نفوسُهُم أُمُ المنون فتتبع
بني طاهر، واللؤم منكم سجية وللفدر منكم حاسر ومُقَنَع
قواطعكم في الترك غير قواطع ولكنها في آل أحمد تقطع
لكم كُلَّ يوم مشرب من دمائهم وغَلَّتْها من شربها ليس تَنْتَع
وما حكم لطلالبيين شرع وفيكم رماح الترك بالقتل شُرْع
لكم مرتع في دار آل محمد وداركُمْ للترك والجيش مرتع
أخلتكم بأن الله يرعى حقوقكم وحقُّ رسول الله فيك مضِيْع
وأضحوا يُرَجُّون الشفاعة عنده وليس لمن يرميه بالوتر يشفع
فيغلب مغلوب، ويقتل قاتل ويخفض مرفوع، ويدني المرفع

قال: وكان يحيى دَيِّناً، كثير التعطف والمعروف على عوام الناس، بارًّا بخواصهم، واصلًا لأهل بيته، مؤثراً لهم على نفسه، مُثَقِّلَ الظهر بالطلاليات، يجهد نفسه ببرهن والتحنن عليهن، لم تظهر له زلة، ولا عرفت له خزية.

ولما قتل يحيى جزعت عليه نفوس الناس جزءاً كثيراً، ورثاه القريب والبعيد، وحزن عليه الصغير والكبير، وجزع لقتله المليء والدنيء، وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره ومَن جزع على فقده:

وبَكَت الخيل شَجْوَهَا بعد يحيى	وبَكَاهُ المَهْنَدُ المصقول
وبَكَتَه العراق شرقاً وغرباً	وبَكَاهُ الكتاب والتنزيل
والمصلَى والبيت والركن والجُحْ	رُ جميعاً لهم عليه عَوِيل
كيف لم تسقط السماء علينا	يوم قالوا: أبو الحسين قتيل
وبناتُ النبيّ يندبن شَجْواً	مُوجَعَات، دموعُهُنَّ تسيل
وَيُؤْبِنُ للرزية بـدراً	فقدَه مفضّع عزيز جليل
قَطَعَتْ وجهه سيوف الأعداء	بأبي جهه الوسيم الجميل
وليحيى الفتى بقلبي غليل	كيف يؤذي بالجسم ذاك الغليل
قَتْلُهُ مذكر لقتل عليّ	وحسين، ويوم أودي الرسول
فصلاة الإله وقفاً عليهم	ما بكى مُوجَعٌ وَحَنٌ تُكُول

وكان ممن رثاه علي بن محمد بن جعفر العلوي الحماني الشاعر، وكان ينزل بالكوفة في حمان، فأضيف إليهم قال:

يا بقايا السلف الصا	لح والتَّجَرُّ الربيع
نحن للأيام من بيـ	ن قتيـل وجريح
خابَ وَجْهُ الأرض كم	غَيَّبَ من وجه صبيح
آه من يومك ما أو	داه للقلب القريح

وفيه يقول:

تَضَوُّعُ مسكاً جانبُ القبر إذ ثوى	وما كان لولا شِلْوُهُ يتضوُّعُ
مصارع فتیان كرام أعزة	أُتِيحَ ليحيى الخير منهم مَضْرَعُ

وقوله:

إني لقومي من أحساب قومكم	بمسجد الخيف في بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة	إلا وهمته أمضى من السيف

وقد كان علي بن محمد بن جعفر العلوي هذا. وهو أخو إسماعيل العلوي لأمه. لما

دخل الحسن بن إسماعيل الكوفة . وهو صاحب الجيش الذي لقي يحيى بن عمر . قد
عن سلامه ، ولم يمض إليه ، ولم يتخلف عن سلامه أحد من آل علي بن أبي طالب
الهاشميين ، وكان علي بن محمد الحماني نقيهم بالكوفة وشاعرهم ومدرسهم
ولسانهم ، ولم يكن أحد بالكوفة من آل علي بن أبي طالب يتقدمه في ذلك الوقت ،
فتفقدته الحسن بن إسماعيل ، وسأل عنه ، وبعث بجماعة فأحضره ، فأنكر الحسن تخلفه
عن سلامه ، فأجابه علي بن محمد بجواب مستقل آيس من الحياة ، فقال : أردت أن آتيك
مهتأ بالفتح ، وداعياً بالظفر ، وأنشد شعراً لا يقوم على مثله من يرغب في الحياة ، وهو :

قتلت أعز من ركب المطايا وجئتكَ أسْتَلِيكَ في الكلام
وَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَلْقَاكَ إِلَّا وفيما بيننا مد الحسام
ولكن الجناح إذا أهيضت قَوادِمُهُ يَرِفُّ على الأكام

فقال له الحسن بن إسماعيل : أنت موتور ، فلست أنكر ما كان منك ، وخلع عليه ،
وحمله إلى منزله .

بين الموفق وعلي بن محمد العلوي

قال : وكان أبو أحمد الموفق بالله حبس علي بن محمد العلوي لأمر شنع به عليه
من أنه يريد الظهور ، فكتب إليه من الحبس :

قد كان جدك عبد الله خَيْرَ أبٍ لا بُنِيَ علي حُسَيْنِ الخيرِ والحَسَنِ
فالكف يوهن منها كل أنملة ما كان من أختها الأخرى من الوهنِ

فلما وصل هذا الشعر إليه كفل وخلي إلى الكوفة .

وله أشعار ومراث في أخيه إسماعيل وغيره من أهله ، وفي ذم الشيب ، قد أتينا على
كثير من ذكرها في كتابنا «أخبار الزمان» عند ذكر أخبار الطالبيين ، وفي كتاب «مزاهر
الأخبار ، وطرائف الآثار ، في أخبار [آل] النبي ﷺ» .

ومما رآني به علي بن محمد أيضاً أبا الحسين يحيى بن عمر فأجاد فيه وافتخر على
غيرهم من قريش قوله :

لعمري لئن سُرْتُ قريش بهلكه لما كان وقافاً غداة التوقف
فإن مات تلقاء الرماح فإنه لمن مَعَشَرَ يَشْتَوْنَ موت التترف
فلا تشمتوا بالقوم من يبق منهم على سنن منهم مقام المخلف

لهم معكم إما جدعتم أنوفكم
تراث لهم من آدم ومحمد
وفيه يقول أيضاً في الشيب:

قد كان حين بدا الشباب به
وكأنه قمر تَمَنُّطَقَ في
يا ابن الذي جعلت فضائله
من أسرة جعلت مَخَايلهم
تتهيب الأقدار قدرهم
والموت لا تشوى رميته
ومن مراثيه المستحسنة في أخيه:

هذا ابن أُمِّي عديل الروح في جسدي
فاليوم لم يبق شيء أستريح به
أو مقلة بحَفِيَّ الهم باكية
تُرى أناجيك فيها بالدموع وقد
من لي بمثلك يا نور الحياة ويا
من لي بمثلك أدعوه لحادثة
قد دنت أنواع تُكَلِّ كُنْتُ أبلَّغها
قل للردى لا تغادر بعده أحداً
إن الزمان تَقْضَى بعد فرقته
وكانت وفاة علي بن محمد العلوي في خلافة المعتمد في سنة ستين ومائتين.

ظهور الحسن بن زيد العلوي

وفي خلافة المستعين . وذلك في سنة خمسين ومائتين . ظهر ببلاد طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقاتل شديد ، وما زالت في يده إلى أن مات سنة سبعين ومائتين ، وخلفه أخوه محمد بن زيد فيها إلى أن حاربه رافع بن هرثمة ، ودخل محمد بن زيد إلى الديلم في سنة سبع وسبعين ومائتين ، فصارت في يده ، وبايعه بعد ذلك رافع بن هرثمة وصار في جملته ،

وانقاد لدعوته، والقول بطاعته، وكان الحسن بن زيد ومحمد بن زيد يدعوان إلى الرضا من آل محمد، وكذلك مَنْ طرأ بعدهما ببلاد طبرستان. وهو الحسن بن علي الحسيني المعروف بالأطروش وولده. ثم الداعي الحسن بن القاسم الذي قتله أسفار بطبرستان، وكان الحسن بن القاسم من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أتينا على خبر سائر آل أبي طالب بطبرستان، ومن ظهر منهم بالمشرق والمغرب وغير ذلك من بقاع الأرض إلى هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. في كتابنا «أخبار الزمان» وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً من سائر ما يجب ذكره، لئلا يخلو هذا الكتاب من ذكرهم.

ظهور محمد بن جعفر

وظهر في هذه السنة. وهي سنة خمسين ومائتين. بالري محمد بن جعفر بن الحسن، ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان، وكانت له حروب بالري مع أهل خراسان من المسودة، فأسر وحمل إلى نيسابور إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فمات في محبسه بنيسابور.

ظهور أحمد بن عيسى العلوي

وظهر بعده بالري أحمد بن عيسى بن علي [بن الحسن بن علي] بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وحارب محمد بن طاهر، وكان بالري، فانهزم عنه وسار إلى مدينة السلام، فدخلها العلوي.

ظهور الكوكي بقزوين

وفي هذه السنة. وهي سنة خمسين ومائتين. ظهر بقزوين الكركي وهو الحسن بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو من ولد الأرقط، وقيل: إن اسم الكركي الحسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فحاربه موسى بن بُغَا، وصار الكركي إلى الديلم، ثم وقع إلى الحسن بن زيد الحسيني فهلك قبله.

ظهور الحسين بن محمد العلوي

وظهر بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فشرح إليه محمد بن عبد الله بن طاهر من بغداد جيشاً عليه ابن خاقان فأنكشف الطالبي واختفى لترك أصحابه له، وتخلفهم عنه، وكان ذلك في سنة إحدى وخمسين ومائتين.

عزم على أخذ البيعة لابنه

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة، وعزم على البيعة له، فأخراها لصغر سنه، وكان عيسى بن فرخان شاه قال لأبي علي البصير الشاعر أن يقول في ذلك شعراً يشير فيه بالبيعة له، فقال في ذلك قصيدة طويلة يقول فيها:

بك الله حاط الدين وانتاش أهله من الموقف الدخض الذي مثله يُردي
فولاً ابنك العباس عهدك، إنه له موضع، واكتب إلى الناس بالعهد
فإن خَلَفْتَه السن فالعقل بالغ به رتبة الشيخ الموفق للرشد
وقد كان يحيى أوتي العلم قبله صبيّاً، وعيسى كَلَم الناس في المهد

بين محمد بن طاهر وأبي العباس المكي

وقال أبو العباس المكي: كنت أنادم محمد بن طاهر بالري قبل مواقفته الطالبين، فما رأيته في وقت من الأوقات أشد سروراً منه ولا أكثر نشاطاً قبل ظهور العلوي بالري، وذلك في سنة خمسين ومائتين، وقد كنت عنده ليلة أتحدث، والخير وافد والسُّرُّ مسبل، إذ قال: كأني أشتهي الطعام فما آكل؟ قلت: صدر دراج أو قطعة من جدي باردة، قال: يا غلام، هات رغيفاً وخلاً وملحاً، فأكل من ذلك، فلما كان في الليلة الثانية قال: يا أبا العباس، كأني جائع فما ترى أن آكل؟ قلت: ما أكلت البارحة، فقال: أنت لا تعرف فرق ما بين الكلامين، قلت البارحة: كأني أشتهي الطعام، وقلت الليلة: كأني جائع، وبينهما فرق، فدعا بالطعام، ثم قال لي: صف لي الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل، قلت: أيكون ذلك مثوراً أو منظوماً؟ قال: لا، بل مثوراً، قلت: أطيب الطعام ما لقي الجوع بطعم وافق شهوة، قال: فما أطيب الشراب؟ قلت: كأس مدام تبرد بها غليلك، وتعاطي بها خليلك، قال: فأي السماع أفضل؟ قلت: أوتار أربعة، وجارية متربعة، غناؤها عجيب، وصوتها مصيب، قال: أي الطيب أطيب؟ قلت: ريح حبيب تحبه، وقرب ولد تربُّه، قال: فأي النساء أشهى؟ قلت: من تخرج من عندها كارهاً، وترجع إليها والهأ؟ قال: فأي الخيل أفره؟ قلت: الأشدق الأعين الذي إذا طُلِبَ سبق، وإذا طُلِبَ لحق، قال: أحسنت، يا بشر أعطه مائة دينار، قلت: وأين تقع مني مائتا دينار؟ قال: أو قد زدت نفسك مائة دينار؟ يا غلام أعطه المائة كما ذكرنا، والمائة الأخرى لحسن ظنه بنا، فانصرفت بمائتي دينار، فما كان بين هذا الحديث وبين تنحيه من الري إلا جمعة.

معرفة المستعين بالأخبار

وكان المستعين حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم، لهجاً بأخبار الماضين. وحدث محمد بن الحسن بن دُرَيْد قال: أخبرني أبو البيضاء مولى جعفر الطيار، وكان طيب الحديث، قال: وَفَدْنَا فِي أَيَّامِ الْمُسْتَعِينِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى سَامَرَا وَفِينَا جَمَاعَةٌ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَقَمْنَا بِيَابَهُ نَحْوًا مِنْ شَهْرٍ، ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَيْهِ، فَكُلَّ تَكَلَّمَ وَعَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَرَّبَ وَأَنْسَ، وَابْتَدَأَ بِذِكْرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَأَخْبَارَهُمَا، وَكُنْتُ أَعْرِفُ الْجَمَاعَةَ بِمَا شَرَعَ فِيهِ، فَقُلْتُ: أَيَاذُنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْكَلَامِ؟ قَالَ: ذَلِكَ إِلَيْكَ، فَشَرَعْتُ مَعَهُ فِيمَا قَصَدَ إِلَيْهِ وَتَسْلُسَلُ بِنَا الْكَلَامَ إِلَى فَنُونَ مِنَ الْعِلْمِ فِي أَخْبَارِ النَّاسِ، [ثُمَّ] انْصَرَفْنَا وَأُقِيمَ لَنَا الْإِنْزَالُ وَالْإِفْضَالُ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ جَاءَنَا خَادِمٌ وَمَعَهُ عِدَّةٌ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَفَرَسَانِ، فَحَمَلَتْ عَلَى جَنِيَّةٍ كَانَتْ مَعَهُمْ، وَأَتَى بِي إِلَى الْمُسْتَعِينِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْجَوْسُقِ، فَقَرَّبَنِي وَأَدْنَانِي، ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ أَنْ أَنْسَنِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَيَّامِهَا، وَأَهْلِ التَّيْمِ، فَانْتَهَى بِنَا الْكَلَامَ إِلَى أَخْبَارِ الْعُذْرِيِّينَ وَالْمُتَيْمِينَ، فَقَالَ لِي: مَا عِنْدَكَ مِنْ أَخْبَارِ عُزْوَةِ بِنِ حَزَامٍ، وَمَا كَانَ مِنْهُ مَعَ عَفْرَاءٍ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ عُزْوَةَ بِنَ حَزَامٍ لَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ عَفْرَاءَ بِنْتِ عَقَالٍ تُوْفِي وَجَدًا بِهَا وَصَبَابَةً إِلَيْهَا.

عروة بن حزام

فمر به رَكْبٌ فَعَرَفُوهُ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلِ عَفْرَاءَ صَاحَ صَائِحٌ مِنْهُمْ:
أَلَا أَيُّهَا الْقَصْرُ الْمَغْفَلُ أَهْلُهُ نَعِينَا إِلَيْكُمْ عُرْوَةُ بْنُ حَزَامٍ

فَفَهَمْتُ صَوْتَهُ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ:

أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ الْمَجْدُودُ وَيَحْكُمُ بِحَقِّ نَعِيتِمْ عُرْوَةُ بْنُ حَزَامٍ؟

فَأَجَابَهَا رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ:

نَعَمْ قَدْ تَرَكْنَاهُ بِأَرْضِ بَعِيدَةٍ مَقِيمًا بِهَا فِي سَبَسٍ وَأَكَامٍ

فَقَالَتْ لَهُمْ:

فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُونَ فَأَعْلَمُوا بِأَنْ قَدْ نَعِيتُمْ بِذَرِّ كُلِّ ظَلَامٍ

فَلَا لَقِيَّ الْفَتْيَانُ بَعْدَكَ لَذَّةً وَلَا رَجَعُوا مِنْ غَيْبَةِ بِسَلَامٍ

وَلَا وَضَعْتَ أَثْنَى شَرِيفًا كَمِثْلِهِ وَلَا فَرَحْتَ مِنْ بَعْدِهِ بِغَلَامٍ

وَلَا لَا بَلَغْتُمْ حَيْثُ وَجَهْتُمْ لَهُ وَنَغَصْتُمْ لَذَاتَ كُلِّ طَعَامٍ

ثم سألتهم: أين دفنوه؟ فأخبروها، فصارت إلى قبره، فلما قاربته قالت: أنزلوني فإني أريد قضاء حاجة، فأنزلوها فأنسلت إلى قبره فأكبّت عليه، فما راعهم إلا صوتها، فلما سمعوه بادروا إليها، فإذا هي ممتدة على القبر قد خرجت نفْسُها، فدفنوها إلى جانب قبره. قال: فقال لي: فهل عندك من خبره غير ما ذكرت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، هذا ما أخبرنا به مالك بن الصباح العدوي، عن الهيثم بن عدي بن [هشام بن] عروة، عن أبيه، قال: بعثني عثمان بن عفان مصداقاً في بني عُذْرَةَ في بلاد حي منهم يقال لهم بنو منبذة، فإذا بيت جديد منحاش عن الحي، فملت إليه، فإذا بشاب قائم في ظل البيت، وإذا عجوز جالسة في كسر البيت، فلما رأيته ترنم بصوت ضعيف يقول:

جعلت لِعَرَافِ اليمامة حكمه	وَعَرَافٌ نجد إن هما شَفَيَانِي
فقالا: نعم، نشفي من الداء كله	وقامامع العُودِادِ يبتدران
فما تركا لي رُقِيَّةً يعرفانها	ولا شَرْبَةً إلا بها سقياني
وقالا: شفاك الله، والله مالنا	بما حُمِلْتُ منك الضلوع يدان
فلهفي على عفراء لهفأ كأنه	على النحر والأحشاء حدُ سنان
فعفراء أحظى الناس عندي مَوَدَّةً	وعفراء عَنِّي المُعْرِضُ المتداني
وإني لأهوى الحشر إذ قيل: إنني	وعفراء يوم الحشر ملتقيان
ألا لَعَنَ الله الوُشَاةَ وَقَوْلُهُمْ:	فَلَأَنَّهُ أَضَحَّتْ خُلَّةً لِفُلَانٍ

ثم شهِقَ شهقة خفيفة، فنظرت في وجهه فإذا هو قد مات، فقلت: أيها العجوز، ما أظن هذا النائم بفناء بيتك إلا قد مات، قالت: وأنا والله أظن ذلك، فنظرت في وجهه، وقالت: فَاضْ وَرَبِّ الكعبة، فقلت: من هذا؟ فقالت: عروة بن حزام العذري، وأنا أمه، والله ما سمعت له أَنَّةً من سنة إلا في صدر يومي هذا، فإني سمعته يقول:

من كان من أمهاتي باكياً أبداً	فاليوم؛ إني أراني فيه مقبوضاً
تَسْمَعِيهِ فإني غير سامعه	إذا علوت رقاب القوم معروضاً

قال: فأقمت حتى شهدت غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، قال: فقال عثمان: وما دعاك إلى ذلك؟ قلت: اكتساب الأجر فيه والله، قال: فوصل الجماعة وقصّلني عليهم في الجائزة.

حديث عن مجنون بني عامر

قال المسعودي: ولمن سلف من المُتِّمِّين أخبار عجيبة، وأشعار حسان، فمن

ذلك ما حدثنا به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي، قال: حدثنا محمد بن سلام الجمحي، قال: أخبرني أبو الهياج بن سابق النجدي، ثم الثقفي، قال: خرجت إلى أرض بني عامر، لا شيء إلا للقاء المجنون، فإذا أبوه شيخ كبير، وإذا إخوته رجال، وإذا نَعَم ظاهرة وخير كثير، فسألته عن المجنون؛ فاستعبروا، وقال الشيخ: كان والله أَبَرَّ هؤلاء عندي؛ فهو امرأة من قومه، والله ما كانت تطمع في مثله: فلما عرف أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجه منها؛ فزوجها من رجل آخر؛ فقيدها، فكان بعض شفتيه ولسانه حتى خشنا أن يقطعهما؛ فلما رأينا ذلك حَلَيْنَا سبيله؛ فمرَّ في هذه الفَيَافِي يذهب إليه في كل يوم بطعامه فيوضع له بحيث يراه، فإذا عاينه جاء فأكل، وإذا خلقت ثياب جاؤوه بثياب؛ فوضعت بحيث يراها، فسألته أن يدلوني عليه، فدلوني على فتى من الحي، وقالوا: إنه لم يزل صديقاً له، وليس يأنس بأحد سواه؛ فسألته أن يدلني عليه؛ فقال: إن كنت تريد شعره فكل شعره عندي إلى أمس وأنا ذاهب إليه غداً؛ فإن كان قد ذكر شيئاً أتيتك به، قلت: أريد أن تدلني عليه، قال: إن رآك يفر منك، وأخاف أن يذهب مني فيما بعد؛ فيذهب شعره، فأبيت إلا أن يدلني، فقال: اطلبه في هذه الصحراء؛ فإذا رأيته فأذن منه مستأنساً، فإنه يتهددك ويتوعدك أن يرميك بشيء في يده، فاجلس كأنك لا تنظر إليه والْحَظُّهُ، فإذا رأيته قد سكن فاجهد أن تروي لقيس بن ذريح شيئاً فإنه معجب به، قال: فخرجت إليه يومي، فوجدته بعد العصر جالساً على تل، يخط بأصبعه خطوطاً، فدنوت منه غير منقبض، ففرَّ والله كما يفرُّ الوحش من الإنسان، وإلى جانبه أحجار، فتناول منها واحداً، فأقبلت حتى جلست قريباً منه، فمكثت ساعة، وهو كأنه نافر، فلما طال جلوسي سَكَنَ، وأقبل يعبث بأصابعه، فنظرت إليه، وقلت: أحسن والله قيس بن ذريح، حيث يقول:

وإني لَمُفْنٍ دَمَعُ عَيْنِي بالبكا
وقالوا: غداً! أو بعد ذاك ليلة
وما كنت أخشى أن تكون مَنِيَّتِي
بكفي إلا أن مَّا حَانَ حائن

قال: فبكى والله حتى سالت دموعه، ثم قال: أنا والله أشعر منه، حيث أقول:

أبى القلب إلا حبها عامرية
لها كُنْيَة عمرو، وليس لها عمرو
تكاد يدي تَنَدَى إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق الخضر
عجبت لسعي الدَّهْرِ بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زِدْنِي جَوَى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعداك الحشر

قال: ثم نهض، فانصرفت، ثم عُذْتُ من الغد، فأصبتَه، ففعلت فعلِي بالأمس، وفعل مثل فعله، فلما أنس قلت: أحسن والله قيس بن ذريح، حيث يقول: قال: ماذا؟ قلت:

هَبُونِي امراً إن تحسنوا فهو شاكر لذلك، وإن لم تحسنوا فهو صافح
فإن يك قوم قد أشاروا بهجرنا فإن الذي بيني وبينك صالح

قال: فبكي، وقال: أنا والله أشعر منه، حيث أقول:

وأذنيَّتني حتى إذا ما سبيتني بقول يحل العُصمَ سهل الأباطح
تجافَيْت عني حيث ما لي حيلة وَخَلَفْتُ ما خَلَفْتُ بين الجوانح
ثم ظهرت لنا ظلية، فوثب في إثرها؛ فانصرفت، ثم عدت في اليوم الثالث فلم أصادفه، فرجعت، فأخبرتهم؛ فوجهوا الذي كان يذهب بطعامه؛ فرجع، وأخبرهم أن الطعام على حاله! ثم غدوت مع إخوته! فطلبناه يومنا وليلتنا! فلما أصبحنا أصبناه في وادٍ كثير الحجارة؟ وإذا هو ميت؟ فاحتمله إخوته، ورجعت إلى بلدي.

وفاة بغا الكبير

قال المسعودي: وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين كانت وفاة بغا الكبير التركي؟ وقد نَيَّفَ على التسعين سنة، وقد كان باشراً من الحروب ما لم يباشره أحد، فما أصابته جراحة قط، وتقلد أبنته موسى بن بغا ما كان يتقلده، وضم إليه أصحابه، وجعلت له قيادته، وكان بغا دَيِّناً من بين الأتراك، وكان من غلمان المعتصم، يشهد الحروب العظام، وباشرها بنفسه، فيخرج منها سالماً، ويقول: الأجل جوشن.

بغا يرى رسول الله في الحلم

ولم يكن يلبس على بدنه شيئاً من الحديد، فعذل في ذلك، فقال: رأيت في نومي النبي ﷺ ومعه جماعة من أصحابه فقال لي: يا بغا، أحسنت إلى رجل من أمتي فدعا لك بدعوات استجيب له فيك، قال: فقلت: يا رسول الله وَمَنْ ذلك الرجل؟ قال: الذي خَلَصْتَه من السباع، فقلت: يا رسول الله، سَلَّ ربك أن يطيل عمري، فرفع يديه نحو السماء وقال: اللهم أَطِلْ عمره، وأتم أجله، فقلت: يا رسول الله، خمس وتسعون سنة، فقال رجل كان بين يديه: وَيُوقِي من الآفات، فقلت للرجل: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فاستيقظت من نومي، وأنا أقول: علي بن أبي طالب.

قصة له مع طالبي

وكان بُعَا كثير التعطف والبر للطالبيين، فقليل له: من [كان] ذلك الرجل الذي خلصته من السباع؟ قال: كان أتى المعتصم برجل قد رمى ببدعة، فجرت بينهم في الليل مخاطبة في خلوة، فقال لي المعتصم: خذه فألقه إلى السباع، فأتيت بالرجل إلى السباع لألقيه إليها وأنا مُعْتَظ عليه، فسمعتة يقول: اللهم إنك تعلم ما تكلمت إلا فيك، ولم أرد بذلك غيرك، وتقرباً إليك بطاعتك، وإقامة الحق على من خالفك، أفتسلمني؟ قال: فارتعدت وداخلتني له رِقَّة، وملىء قلبي له رعباً، فجذبتني عن طرف بركة السباع، وقد كدت أن أُزَجَّ به فيها، وأتيت به حجرتي فأخفيت فيه، وأتيت المعتصم فقال: هيه، قلت: ألقيته، قال: فما سمعته يقول؟ قلت: أنا عجمي وهو يتكلم بكلام عربي ما أدري ما يقول، وقد كان الرجل أغْلَظَ، فلما كان في السحر قلت للرجل: قد فتحت الأبواب وأنا مخرجك مع رجال الحرس، وقد أثرتك على نفسي، ووَقَيْتُكَ بروحي، فاجهدْ ألا تظهر في أيام المعتصم، قال: نعم، قلت: فما خبرك؟ قال: هجم رجل من عماله في بلدنا على ارتكاب المكاره والفُجُور وإمالة الحق ونُضْر الباطل، فَسَرَى ذلك إلى فساد الشريعة، وهَدم التوحيد، فلم أجد عليه ناصراً، فوثبت عليه في ليلة فقتله؛ لأن جرمه كان يستحق به في الشريعة أن يفعل به ذلك.

بين المستعين والأتراك

قال المسعودي: ولما انحدر المستعين ووصيف وبُعَا إلى مدينة السلام اضطربت الأتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي بسامرا، وأجمعوا على بعث جماعة إليه يسألونه الرجوع إلى دار ملكه، فصار إليه عدة من وجوه الموالي ومعهم البُرْدُ والقَصِيْبُ وبعض الخزائن ومائتا ألف دينار، ويسألونه الرجوع إلى دار ملكه، واعترفوا بذنوبهم، وأقرؤا بخطئهم، وضمنوا ألا يعودوا ولا غيرهم من نظرائهم إلى شيء من ذلك مما أنكره عليهم، وتذلّلوا وخضعوا، فأجيبوا بما يكرهون، وانصرفوا إلى سر من رأى، فأعلموا أصحابهم وأخبروهم بما نالهم، وإياسهم من رجوع الخليفة.

الموالي يجمعون على بيعة المعتز

وقد كان المستعين اعتقل المعتز والمؤيد حين انحدر إلى بغداد، ولم يأخذهما معه، وقد كان حذر من محمد بن الواثق حين انحدره فأخذه معه، ثم إنه هرب منه بعد في حال الحرب، فأجمع الموالي على إخراج المعتز والمبايعة له والانقياد إلى خلافته، ومحاربة المستعين وناصره ببغداد، فأنزلوه من الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق،

وكان معتقلاً فيه مع أخيه المؤيد، فبايعوه، وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين، وركب من غد ذلك اليوم إلى دار العامة، فأخذ البيعة على الناس، وخَلَعَ على أخيه المؤيد، وعقد له عقدين أسود وأبيض، فكان الأسود لولاية العهد بعده، والأبيض لولاية الحرمين وتقلدهما، وانبثت الكتب في سامرا بخلافة المعتر بالله إلى سائر الأمصار، وأرخت باسم جعفر بن محمد الكاتب، وأخذ أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين إلى بغداد، فنزل عليها، فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتر والمستعين، وهرب محمد بن الواثق إلى المعتر بالله، ولم تنزل الحرب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة، فلما نشبت الحرب بينهم كانت أمور المعتر تَقْوَى، وحالة المستعين تضعف، والفتنة عامة.

فلما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك كاتب المعتر وجَنَحَ إليه، ومال إلى الصلح على خلع المستعين، وقد كانت العامة ببغداد حين علمت ما قد عزم عليه من خلع المستعين. ثارت مُنْكَرَةً لذلك، متحيزة إلى المستعين، ناصرة له، فأظهر محمد بن عبد الله المستعين على أعلى قصره، فخطبته العامة وعليه البردة [والْقَضِيبُ]، فأنكر ما بلغهم من خلعه، وشكر محمد بن عبد الله بن طاهر، ثم التقى محمد بن عبد الله بن طاهر وأبو أحمد الموفق بالشماسية، فاتفقا على خلع المستعين على أن له الأمان ولأهله وولده وما حوته أيديهم من أملاكهم، وعلى أنه ينزل مكة هو ومن شاء من أهله، وأن يقيم بواسط العراق إلى وقت مسيره إلى مكة، فكتب له المعتر على نفسه شروطاً أنه متى نقض شيئاً من ذلك فالله ورسوله منه براء، والناس في حل من بيعته، وعهوداً يطول ذكرها، وقد خذل المعتر بعد ذلك لمخالفتها حين عالج في نقضها، فخلع المستعين نَفْسَهُ من الخلافة، وذلك يوم الخميس لثلاث خَلَوْنَ من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين، فكان له مذ وافى مدينة السلام إلى أن خلع سنة كاملة، وكانت خلافته. منذ تقلد الأمر على ما بيناه آنفاً إلى أن زال عنه ملكه. ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً على ما ذكرناه من الخلاف، وأحدر إلى دار الحسن ابن وهب ببغداد، وجمع بينه وبين أهله وولده، ثم أحدر إلى واسط، وقد وكل به أحمد بن طولون التركي، وذلك قبل ولايته مصر، وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه إياه وميله إلى المعتر بالله، وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر من أهل بغداد:

أطافت بنا الأتراك حَوْلًا مُجْرَمًا وما برحت في جُحرها أمٌ عامر
أقامت على ذُلِّ بها ومَهَانَةٍ فلما بَدَتْ أبدت لنا لَوْمَ غادر

ولم تَرُع حق المستعين؛ فأصبحت تعين عليه حادثات المقادر
لقد جمعت لؤماً وخبثاً وذلةً وأبقت لها عاراً على آل طاهر

ولما كان من الأمر ما قدمناه من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد
إلى سامرا، فخلع عليه المعتز، وتوج، ووشح بوشاحين، وخلع على من كان معه من
قواده، وقدم على المعتز عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبزْد
والقضيْب والسيْف وبجوهر الخلافة، ومعه شاهك الخادم، وكتب محمد بن عبد الله
إلى المعتز في شاهك: إن من أتاك بإرث رسول الله ﷺ لجدير أن لا تخفر ذمته.
وخلع المستعين وعلي وزارته أحمد بن صالح بن شيرداد.

موت المستعين

ولما كان في شهر رمضان من هذه السنة. وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين. بعث
المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين، وقد كان في جملة مَنْ حمّله من
واسط، فلقية سعيد وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز بالله، وترك
جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة.

وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خَلَوْنَ من شوال سنة اثنتين وخمسين
ومائتين، وهو ابن خمس وثلاثين سنة، على ما قدمنا في صدر هذا الباب.

وذكر شاهك الخادم قال: كنت عديلاً للمستعين عند إشخاص المعتز له إلى
سامرا، ونحن في عمارية، فلما وصل إلى القاطول تَلَقَّاه جيش كثير، فقال: يا شاهك
انظُرْ مَنْ رئيس القوم؟ فإن كان سعيد الحاجب فقد هلك، فلما عاينته قلت: هو والله
سعيد، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ذهبت والله نفسي، وجعل يبكي،
فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط، ثم أضجعه وَقَعَدَ على صدره واحتز رأسه،
وحمله على ما ذكرنا، واستقامت الأمور للمعتز، واجتمعت الكلمة عليه.

وللمستعين أخبار غير ما ذكرناه في هذا الكتاب، وأوردناه في هذا الباب، وقد أتينا
على ذكرها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما ذكرنا ما أوردنا في هذا الكتاب لثلا
يتوهم أنا أغفلنا ذكرها أو عَزَبَ عنا فهمها، فإننا بحمد الله لم نترك شيئاً من أخبار الناس
وسيرهم وما جرى في أيامهم إلا وقد ذكرناه، وأوردنا في كتبنا أحسنه، وفوق كل ذي
علم عليم، والله الموفق للصواب.

ذكر خلافة المعتز بالله

موجز

بُويع المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل، وأمه أم ولد يقال لها قبيحة، ويكنى أبا عبد الله، وله يومئذ ثمان عشرة سنة، بعد خلع المستعين لنفسه، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم، وقيل: ثلاث خلون منه، سنة اثنتين وخمسين ومائتين على ما قَدَّمنا، وبإيعه القُوَاد والموالي والساكرية وأهل بغداد، وخطب له في المسجد الجامع ببغداد في الجانبين.

ثم خلع المعتز نفسه يوم الاثنين لثلاث بَقِيْنَ من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ومات بعد أن خلع نفسه بستة أيام.

فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر، ودُفن بسامرا، فجُملة أيامه منذ بُويع بسامرا قبل خلع المستعين إلى اليوم الذي خلع فيه أربع سنين وستة أشهر وأياماً، ومنذ بُويع له بمدينة السلام ثلاث سنين وسبعة أشهر، وتوفي وله أربع وعشرون سنة.

ذكر جمل من أخباره، وسيره ولمع مما كان في أيامه

قول الناس في خلعه نفسه

ولما خلع المستعين بالله وأُخْدِرَ إلى واسط . بعد أن أشهدَ على نفسه أنه قد برىء من الخلافة وأنه لا يصلح لها ؛ لما رأى من الخلاف الواقع ، وأنه قد جعل الناس في حل من بيعته . قالت في ذلك الشعراء فأكثر ، ووصفته في شعرها فأغرقت ، فقال في ذلك البحري من قصيدة طويلة :

إلى واسطٍ خلف الدَّجَاج ، ولم يَكُنْ لينبت في لَحْمِ الدَّجَاجِ مخالب

وفي ذلك يقول الشاعر المعروف بالكناني من قصيدة :

إني أراك من الفراق جَزُوعاً أمسى الإمام مُسَيِّراً مخلوعاً
وغدا الخليفة أحمد بن محمد بعد الخلافة والبهاء خليعاً
كانت به الأيام تضحك زهرة وهو الربيع لمن أراد ربيعاً
فأزاله المقدور مِنْ رتب العُلا فشوى بِوَاسِطٍ لا يحس رجوعاً

وكان بين خلع المستعين وقتله تسعة أشهر ويوم .

وفاة جماعة من أهل العلم

ومات في خلافة المستعين جماعة من أهل العلم والمحدثين : منهم أبو هاشم محمد بن زيد الرفاعي ، وأيوب بن محمد الموراق ، وأبو كريب محمد بن العلاء الهمداني بالكوفة ، وأحمد بن صالح المصري ، وأبو الوليد السَّريُّ الدمشقي ، وعيسى بن حماد زغبة المصري بمصر ، ويكنى أبا موسى ، وأبو جعفر بن سوار الكوفي ، وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وفي خلافة المستعين . وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين . كانت وفاة الحسن بن صالح البزار ، وكان من عِلْيَةِ أصحاب الحديث ، وهشام بن خالد الدمشقي ، ومحمد بن

سليمان الجهنني بالمصيصة، والحسن بن محمد بن طالوت، وأبو حفص الصيرفي بسامرا، ومحمد بن زنبور المكي بمكة، وسليمان بن أبي طيبة، وموسى بن عبد الرحمن البرقي.

وفي خلافة المستعين . وذلك في سنة خمسين ومائتين . مات إبراهيم بن محمد التميمي، قاضي البصرة، ومحمود بن خدّاش، وأبو مسلم أحمد بن [أبي] شعيب الحراني، والحرث بن مسكين المصري، وأبو طاهر أحمد بن عمرو بن السرح، وغير هؤلاء ممن أعرضنا عن ذكره، من شيوخ المحدثين وَنَقْلَةَ الآثار، ممن قد أتينا في ذكرهم من أول زمن الصحابة، إلى وقتنا هذا. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. في سنة ست، ومن كتابنا المترجم بالأوسط، وإنما نذكر من وفاة من ذكرنا لئلا نخلي هذا الكتاب من نبذ مما يحتاج إلى ذكره على قدر الطالب له.

فص من الياقوت الأحمر

وقد كان المستعين في سنة ثمان وأربعين ومائتين أخرج من خزانة الخلافة فص ياقوت أحمر، يعرف بالجبلي، وكانت الملوك تصونه، وكان الرشيد اشتراه بأربعين ألف دينار، ونقش عليه [اسمه] أحمد، ووضع ذلك الفص في أصبعه، فتحدث الناس بذلك، وقد ذكر أن ذلك الفص قد تداولته الملوك من الأكاسرة وقد نقش في قديم الزمان، وذكر أنه لم ينقشه ملك إلا مات قتيلًا، وكان الملك إذا مات وجلس تاليه في الملك حك النقش، فتداولته في اللبس الملوك، وهو غير منقوش، فيقع للنادر من الملوك فينقشه، وكان ياقوتاً أحمر، يضيء بالليل كضياء المصباح إذا وضع في بيت لا مصباح فيه أشرق، ويرى فيه بالليل تماثيل تلوح، وله خبر طويل ظريف، وقد ذكرناه في كتابنا «أخبار الزمان» في ذكر خواتم ملوك الفرس، وقد كان هذا الفص ظهر في أيام المقتدر، ثم خفي أثره بعد ذلك.

بعض ما قيل في المعتز

وقد كان جماعة من الشعراء قالوا في المعتز . حين استتم له الأمر، واستقامت له الخلافة، وخلعها المستعين . أقوالاً كثير، فمن ذلك قول مروان بن أبي الجنوب من قصيدة طويلة:

إن الأمور إلى المعتز قد رَجَعَتْ والمستعين إلى حالاته رَجَعَا
قد كان يعلم أن المُلْكَ ليس له وأنه لك لكن نَفْسُهُ خدعا

وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرا، وقد قيل إنه البحرى:

لله دُرٌّ عصابة تركية رَدُّوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكَسَوْا جميع الناس ثوب الخوف
وطَعَنُوا فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فيه شبيه الضيف

وفي المعتز ورجوع الأمر إليه واتفاق الكلمة عليه يقول أبو علي البصير:

آبَ أمرُ الإسلام خَيْرَ مآبه وغدا الملك ثابتاً في نصابه
مستقراً قراره مطمئناً أهلاً بعد نأيه واغترابه
فأحمد الله وَخَدَه والتمس بالـ عفو عن هفا جزيل ثوابه

وزراء المعتز

وكان على وزارة المعتز جعفر بن محمد، ثم استوزر جماعة، فكانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنة مرسوم بالوزارة.

وكانت وفاة أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد في خلافة المعتز بالله.

وذلك في يوم الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، وهو ابن أربعين سنة، وقيل: ابن اثنتين وأربعين سنة، وقيل: أكثر من ذلك، وسمع في جنازته جارية تقول: ماذا لقينا في يوم الاثنين قديماً وحديثاً؟ وصلى عليه أحمد بن المتوكل على الله، في شارع أبي أحمد، وفي داره بسامرا، ودفن هناك.

علي بن محمد الطالبى

حدثنا ابن الأزر، قال: حدثني القاسم بن عباد، قال: حدثني يحيى بن هرثمة، قال: وَجَّهني المتوكل إلى المدينة لإشخاص علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر لشيء بلغه عنه؛ فلما صرت إليها ضجَّ أهلها وعجوا ضجيجاً وعجيجاً ما سمعت مثله، فجعلت أسكنهم وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وفتشت بيته، فلم أجده فيه إلا مصحفاً ودعاء، وما أشبه ذلك، فأشخصته وتولَّيت خدمته وأحسنيت عشرته، فبينما أنا [نائم] يوماً من الأيام، والسماء صاحية، والشمس طالعة؛ إذ ركب وعليه ممطر، وقد عقد ذنب دابته، فعجبت من فعله، فلم يكن بعد ذلك إلا هنيهة حتى جاءت سحابة فأرخت غَرَالِها، ونالنا من المطر أمر عظيم جداً، فالتفت إليّ، وقال: أنا أعلم أنك أنكرت ما رأيت وتوهمت أني علمت من الأمر ما لا تعلمه، وليس ذلك كما ظننت،

ولكن نشأت بالبادية، فأنا أعرف الرياح التي يكون في عقبها المطر، فلما أصبحت هبَّت ريح لا تخلف وشمنت منها رائحة المطر، فتأهبت لذلك. فلما قدمت مدينة السلام بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري. وكان على بغداد: فقال لي: يا يحيى، إن هذا الرجل قد وَلَّدهُ رسول الله ﷺ والمتوكل مَنْ تعلم، وإن حرصته على قتله كان رسول الله ﷺ خَضَمَكَ، فقلت: والله ما وقفت له إلا على كل أمر جميل.

فصرت إلى سامرا، فبدأت بوصيف التركي، وكنت من أصحابه، فقال: والله لئن سَقَطْتُ من رأس هذا الرجل شُغرة لا يكون المطالبُ بها غيري، فعجبت من قولهما، وعَرَفْتُ المتوكل ما وقفت عليه، وما سمعته من الثناء عليه، فأحسن جائزته، وأظهر بره وتكرمه.

وحدثني محمد بن الفرج بمدينة جرجان في المحلة المعروفة ببئر أبي عنان قال: حدثني أبو دعامه، قال: أتيت علي بن محمد بن علي بن موسى عائداً في علته التي كانت وفاته منها في هذه السنة، فلما هممت بالانصراف قال لي: يا أبا دعامه قد وجب حَقُّكَ، أفلا أحدثك بحديث تُسرُّ به؟ قال: فقلت له: ما أحوجني إلى ذلك يا ابن رسول الله، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن موسى، قال: حدثني أبي موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن الحسين، قال: حدثني أبي الحسين بن علي، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم! قال: قال رسول الله ﷺ «اكتب يا علي» قال: قلت: وما أكتب؟ قال لي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، الإيمان ما وقوته القلوب وصدقته الأعمال، والإسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة» قال أبو دعامه: فقلت: يا ابن رسول الله، ما أدري والله أيهما أحسن: الحديث أم الإسناد؟ فقال: إنها لصحيفة بخط علي بن أبي طالب ياملأ رسول الله ﷺ نتوارثها صاغراً عن كابر.

قال المسعودي: وقد ذكرنا خبر علي بن محمد بن موسى رضي الله عنه مع زينب الكذابة بحضرة المتوكل، ونزوله رضي الله عنه! إلى بركة السباع، وتذللها، له، ورجوع زينب عما ادعته من أنها ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأن الله تعالى أطال عمرها إلى ذلك الوقت، في كتابنا «أخبار الزمان» وقيل: إنه مات مسموماً!.

موت محمد بن عبد الله بن طاهر

قال المسعودي: وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين. وذلك في خلافة المعتز. مات محمد بن عبد الله بن طاهر، للنصف من ذي القعدة، بعد قتل وصيف بثلاثة عشر يوماً،

والقمر مكسوف وكان من الجود والكرم، وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وملوكية المجالسة، على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه [في عصره] وفيه يقول الحسين بن علي بن طاهر من قصيدة له:

كسف البدر والأمير جميعاً فانجلي البدر والأمير غميداً
عاود البدر نوره لتجليه ه ونور الأمير ليس يعود
يا كسوفين ليلة الأحد النحر س أحلتكما هناك السعد
واحد كان حده مثل حد السد يف والنار شُبَّ فيها الوقود

ماني الموسوس

وذكر أبو العباس المبرد قال: ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يوماً للمنادمة، وقد حضره ابن طالوت، وكان وزيره وأخص الناس به، وأحضرهم لخلواته، فأقبل عليه، وقال: لا بد لنا [اليوم] من ثالث تطيب لنا به المعاشرة، وتلد بمنادمته المؤانسة، فمن ترى أن يكون؟ وأغفنا أن يكون شرير الأخلاق، أو دنس الأعراق، أو ظاهر الإملاق، قال: فأعلمت الفكر، وقلت: أيها الأمير، خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤونة، وقد برىء من إبرام المَجالس، وخلا من ثقل المؤانس، خفيف الوطأة إذا أحببت، سريع الوثبة إذا أردت، قال: ومن ذلك؟ قلت: ماني الموسوس، قال: أحسنت والله فليتقدم إلى أصحاب الثماني والعشرين الربع في طلبه يرفعوه رفعة، فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرخ، فصار به إلى باب الأمير، فأخذ وحذف ونظف وأدخل الحمام وألبس ثياباً نظافاً وأدخل عليه، فقال: السلام عليك أيها الأمير، فقال محمد: وعليك السلام يا ماني، أما أن لك أن تزورنا على حين تَوَقَّان منا إليك ومنازعة قلوب منا نحوك؟ فقال ماني: الشوق شديد، والحب عتيد، والمزار بعيد، والحجاب صعب، والبواب فظ، ولو سهل لنا في الإذن لسهلت علينا الزيارة، فقال: أَلَطَّفْتُ في الاستئذان فليلطف لك في الإذن، لا يمنع ماني أي وقت ورد من ليل أو نهار، ثم أذن له في الجلوس، فجلس، ودعا بالطعام فأكل، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه، وكان محمد قد تشوّق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي، فأحضرت، فكان أول ما غنت به:

وَلَسْتُ بِنَاسٍ إِذْ غَدَوْتُ فَتَحَمَّلُوا دموعي على الأحباب من شدة الوجد
وقرؤني وقد زالت بليلى حُمُولُهُمْ بواكر نجد لا يكن آخر العهد

فقال ماني: أحسنت، وبحق الأمير إلا ما زدت فيه:

وقمت أناجي الفكر والدمع حائر بمُقَلَّة موقوف على الضرّ والجهد
ولم يعدني هذا الأمير بغيرة على ظالم قد لج في الهجر والصد
فاندفعت تغنيه، فقال له محمد: أعاشق أنت يا ماني؟ فاستحيا، وغمزه ابن طالوت
أن لا ييوح له بشيء، فيسقط من عينه، فقال: مبلغ طرب وشوق كان كامناً فظهر، وهل
بعد الشيب صَبُوء؟ ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت:

حَجَبُوهَا عن الريح لَأَنِّي قلت: يا رِيحُ بَلِّغِيهَا السَّلامَا
لو رَضُوا بالحجاب هان، ولكن منعوها عند الريح الكلامَا
فغنته، فطرب محمد، ودعا برطل فشرب، فقال ماني: ما على قائل هذا الشعر لو
زاد فيه:

فَتَنَقَّسْتُ ثم قلت لَطِيفِي: آه إِنْ زُرْتُ طِيفَهَا إِمَامَا
خُصَّهُ بِالسَّلام مَنِي؛ فَأَخْشَى يَمْنَعُوهَا لَشَقَوْتِي أَنْ تَنَامَا
لكان أنقب لزند الصَّبَابَة بين الأحشاء، وأشد تغلغلاً إلى الكبد الصَّدْيَا من زلال
الماء، مع حسن تأليف نظامه، والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه، فقال محمد: أحسنت
يا ماني، ثم أمره مؤنسة بإلحاقهما البيتين الأولين والغناء بهما، ففعلت، ثم غنت بهذين
البيتين:

يا خَلِيلِي سَاعَة لَا تَرِي مَا وَعَلَى ذِي صَبَابَة فَأَقِي مَا
مَا مَرَرْنَا بِدَارِ زَيْنَب إِلَّا هَتَكَ الدَّمْعُ سِرّاً الْمَكْتُومَا
فاستحسنه محمد، فقال ماني: لولا رهبة التعدي لأضفتُ إلى هذين البيتين بيتين لا
يَرِدَانِ على سمع ذي لب فيصدران إلا عن استحسان لهما، فقال محمد: يا ماني، الرغبة
في حسن ما تأني به حائلة دون كل رهبة، فهات ما عندك، فقال:

ظَبِيَة كَالْهَلَالِ لَوْ تَلَحَّظَ الصَّخْرُ بِطَرْفٍ لَغَادَرْتَهُ هَشِيمَا
وَإِذَا مَا تَبَسَّمَتْ خِلْتُ إِيْمَا ضَ بَرُوقٍ أَوْ لَوْلُؤاً مَنْظُومَا

فقال: أحسنت يا ماني، فأجز هذا الشعر:

لَمْ تَطِيبِ اللَّذَاتِ إِلَّا بِمَنْ طَابَتْ بِهَا اللَّذَاتِ مَأْنُوسَه
غَنَتْ بِصَوْتِ أَطْلَقَتْ عَبْرَةً كَانَتْ بِسَجْنِ الصَّبْرِ مَحْبُوسَه

فقال ماني:

وكيف صبر النفوس عن عادة أظلمها إن قلت طاووسه
وَجُرْتُ إن سَمَّيْتُهَا بَانَةَ في جنة الفردوس مغروسه
وَعَيَّرُ عَدْلٍ إن عدلنا بها جوهرة في البحر مغموسه
ثم سكت، فقال محمد: ما عدا في وصفه لها، فقال ماني:
جَلَّتْ عن الوصف فما فكرة تلحقها بالنعمة محسوسه

فقال محمد: أحسنت، فقالت مؤنسة: وجب شكرك يا ماني، فساعدتك دهرك،
وعطف عليك إلفك، وقارنك سرورك، وفارقك محدورك، والله يديم لنا ذلك بقاء من
به اجتمع شملنا، فقال لها ماني عند قولها: «وعطف عليك إلفك» مجيباً:

ليس لي إلف فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل
أنا موصول بنعمة من حبُّه بالمجد موصول
أنا مغبوط بنعمة من طبعه بالخير مأمول

فأوماً إليه ابن طالوت بالقيام، فنهض وهو يقول:

ملك قلّ النظير له زانه الغرُّ البهاليل
طاهري في مواكبه عُرفه في الناس مبذول
[دَمٌ مَنْ يشقى بصارمه مع هبوب الريح مطلول]
يا أبا العباس صُنْ أدبا خذْ بالدهر مفلول

فقال محمد: وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت، ثم أقبل على ابن
طالوت فقال: ليست خسارة المرء، ولا انتضاع الدهر، ولا نبؤ العين عن الظاهر بمذهب
جوهريّة الأدب المركب في الإنسان، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حيث يقول:

لا يعجبنيك من يصون ثيابه خُوفَ الغبار وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيته دنس الثياب وعرضه مغسول

قال ابن طالوت: فما رأيت أخضرَ ذهناً منه، إذ تقول الجارية: «عطف عليك
إلفك» وإنشاده عند قولها ذلك:

ليس لي إلف فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل

قال: فلم يزل محمد مُجْرياً عليه رزقه حتى توفي.

المعتز وولاية العهد

ونمي إلى المعتز أن المؤيد يدبر عليه، وأنه قد استمال جماعة من الموالي، فحبس المؤيد وأبا أحمد. وهما لأب وأم. وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد، فُضِرَبَ أربعين عصا إلى أن أجاب، وأشهد على نفسه بذلك، ثم اتصل بالمعتز أن جماعة من الأتراك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيد من حبسه، فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد ميتاً، وأحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا أثر فيه، فيقال: إنه أدرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه، وضيق حبس أبي أحمد، فكان بين دخوله سر من رأى وما لقي بها من الإكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام، ثم أشخص إلى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوماً، ورتب إسماعيل ابن قبيصة. وهو أخو المعتز لأبيه وأمه. مكان المؤيد في ولاية العهد، واجتمع قواد الموالي إلى المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبُعَا، فأجابهم إلى ذلك.

حوادث

وفي هذه السنة مات زرافة صاحب دار المتوكل بمصر.

وقد كان يوسف بن إسماعيل العلوي غلب على مكة فمات في هذه السنة فخلفه بعد وفاته أخوه محمد بن يوسف، وكان أسن منه بعشرين سنة، فنال الناس في هذه السنة [بسببه] جَهْدٌ شديد، فبعث المعتز بأبي الساج الأشروسي إلى الحجاز؛ فهرب محمد بن يوسف، وقتل خلق من أصحابه.

وفيها أوقع الحسن بن زيد الحسيني لسليمان بن عبد الله بن طاهر، فأخرجه عن طبرستان.

وفي هذه السنة قدم إلى سامرا عيسى ابن الشيخ الشيباني من مصر، ومعه مال كثير، وستة وسبعون رجلاً من سائر ولد أبي طالب من ولد علي وجعفر وعقيل كانوا قد خرجوا من الحجاز خَوْفَ الفتنة والجهد النازل بالحجاز إلى مصر، فحملوا منها، فأمر المعتز بتكفيْلهم، والتخيلة عنهم؛ لما وقف عليه من أمرهم.

وولى عيسى ابن الشيخ فلسطين.

وفي هذه السنة. وهي سنة ثلاث وخمسين ومائتين. مات صفوان العقيلي صاحب ديار مُضَرَ في حبس سامرا.

وفي هذه السنة [كان] قتل أهل كَرْخ سامراء من الفراغة والأتراك لوصيف التركي، وتخلص بُغَا منهم، واشتد أمر مساور الشاري، ورتب صالح بن وصيف [في] موضع وصيف.

موت بغا الصغير

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين خرج من سامرا إلى ناحية الموصل، فانتهبت الموالي داره، وانفض من كان معه من الجيش، وانحدر في زُرُق [متكرراً] فوقع به بعض المغاربة بجسر سامرا، فقتل ونصب رأسه بسامرا، وهو بُغَا الصغيرة، ثم أخذ الرأس إلى مدينة السلام فنصب على الجسر.

وكان المعتز في حياة بُغَا لا يلتذ بالنوم، ولا يخلع سلاحه، لا في ليل ولا في نهار، خوفاً من بُغَا، وقال: لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي، وكان يقول: إني لأخاف أن ينزل عليّ بُغَا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض، وقد كان بُغَا عزم على أن ينحدر سراً فيصل إلى سامرا في الليل، ويصرف الأتراك عن المعتز، ويفيض فيهم الأموال، فكان من أمره ما وصفنا.

الأتراك والمعتز

ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم، وإعماله الحيلة في فنائهم، وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغة دونهم صاروا إليه بأجمعهم، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وجعلوا يقرعون بذنوبه، ويوبخونه على أفعاله، وطالبوه بالأموال، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك، فلج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال، فلما حصل المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي، وقد كان المعتز نَفَاه إليها واعتقله فيها، فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا، فتلقاه الأولياء في الطريق، ودخل إلى الجوسق، وأجاب المعتز إلى الخلع، على أن يعطوه الأمان أن لا يُقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه، فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه، وجلسا جميعاً على السرير، فقال له محمد بن الواثق: يا أخي، ما هذا الأمر؟ قال المعتز: أمر لا أطيعه، ولا أقوم به، ولا أضلح له، فأراد المهتدي أن يتوسط أمره، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك، فقال المعتز: لا حاجة لي فيها، ولا يرصونني لها، قال المهتدي: فأنا في حل من بيعتك، قال: أنت في حل وسعة، فلما جعله في حل من بيعته

حَوَّلَ وجهه عنه، فأقيم عن حضرته، ورُدَّ إلى محبسه، فُقْتِلَ في محبسه بعد أن خلع بسة أيام، على ما قدمنا في صدر هذا الباب.

وقد قالت الشعراء في خلع المعتز وقتله فأكثر، ورثته فأحسن، فمن ذلك قول بعض أهل ذلك العصر من قصيدة له:

عَيْنُ لا تبخلي بسفح الدموع خانه الناصح الشفيق ونالت
بَكَرَ الترك ناقمين عليه قَتَلُوهُ ظُلماً وجوراً فألقو
كان يغشى بحسنه بهجة البدن وترى الشمس تستكين فلا تش
لم يهابوا جيشاً، ولا رهبوا السيوف أصبح الترك مالكي الأمر والعاد
وترى الله فيهم مالك الأمم

وقال فيه آخر من قصيدة طويلة:

أضَبَحْتُ مقلتي بدفع سفوحها قتلوه ظُلماً وجوراً وغدراً
نَضَّرَ الله ذلك الوجه وجهاً أيها الترك سوف تلقون للدهر
فاستعدُّوا للسيف عاقبة الأمم

وقال آخر من قصيدة طويلة أيضاً:

أصبحت مقلتي تَسُحُّ الدموعا لهف نفسي عليه، ما كان أعلا
ألزموه ذنباً على غير جرم وبنو عمه وعم أبيه
ما بهذا يصحُّ مُلْكُ، ولا يغ

المعتز أول من ركب بحيلة الذهب

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب، وكان من سلف قبله من

خلفاء بني العباس . وكذلك جماعة من بني أمية . يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق وأنجاد السيوف والسروج واللُجُم، فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك .

المستعين أول من وسع الأكمام

وكذلك المستعين قبله أخذت لبس الأكمام الواسعة، ولم يكن يعهد ذلك، فجعل عرضها ثلاثة أشبار ونحو ذلك، وصَغَّرَ القلائس، وكانت قبل ذلك طوالاً كأقباع القضاة .

علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلويان

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين ظهر بالكوفة علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلوي، فشرح إليهما المعتز سعيد بن صالح المعروف بالحاجب في جيش عظيم، فانهزم الطالبيان لتفرق أصحابهما عنهما .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وفاة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم! وما نال أهل المدينة وغيرهم من أهل الحجاز في أيامه من الجهد والضيق، وما كان من أمر أخيه بعد وفاته، وهو محمد بن يوسف، مع أبي الساج وحر به إياه، ولما انكشف من بين يدي أبي الساج سار إلى اليمامة والبحرين، فغلب عليها، وخلفه بها عقبه المعروف ببني الأخضر إلى اليوم، وقد كان ظَهَرَ بناحية المدينة بعد ذلك ابن لموسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

بعض الطالبيين الذين نالهم مكروه

قال المسعودي: وقد ذكرنا في كتابنا «أخبار الزمان» سائر أخبار من ظهر من آل أبي طالب، ومن مات منهم في الحبس وبالسم، وغير ذلك من أنواع القتل: منهم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، وهو أبو هاشم، سقاه عبد الملك بن مروان السم، ومحمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حملة سعيد الحاجب من البصرة، فحبس حتى مات، وكان معه ابنه علي، فلما مات الأب خُلِّيَ عنه، وذلك في أيام المستعين، وقيل غير ذلك، وجعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، قتله ابن الأغلب بأرض المغرب، والحسن بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قتله العباس بمكة، وحمل في أيام المعتز من الري علي بن موسى بن

إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد ومات في حبسه، وَحَمَلَ سعيد الحاجب من المدينة موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان من النسك والزهد في نهاية الوصف، وكان معه إدريس بن موسى، فلما صار سعيد بناحية زباله من جادة الطريق اجتمع خلق من العرب من بني فزارة وغيرهم لأخذ موسى من يده، فَسَمَهُ فمات هنالك، وَخَلَّصَتْ بنو فزارة ابنه إدريس بن موسى.

وفي خلافة المعتز في سنة اثنتين وخمسين ومائتين كان بُدُوُ الفتنة بين البلالية والسعدية بالبصرة، وما نتج من ذلك من ظهور صاحب الزنج.

وللمعتز أخبار حسان غير ما ذكرنا قد أتينا على مبسوطها في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وبالله التوفيق.

ذكر خلافة المهدي بالله

موجز

وبويع المهدي محمد بن هارون الواثق قبل الظهر من يوم الأربعاء، لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب، ويكنى بأبي عبد الله، وله يومئذ سبع وثلاثون سنة، وقيل: تسع وثلاثون سنة، وإنه قتل ولم يستكمل الأربعين سنة في سنة ست وخمسين ومائتين، فكانت ولايته أحد عشر شهراً، ودُفن بسامرا، وقيل: إن مولده كان في سنة ثمانى عشرة ومائتين.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

واستوزر المهدي بالله جماعة . على قصر مدته . فسلموا منه من قتل وغيره ، منهم عيسى بن فَرْخَانْشَاه .

قبة المظالم وشيء من سيرته

وبنى المهدي قبة لها أربعة أبواب ، وسماها قبة المظالم ، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وحَرَّمَ الشراب ، ونهى عن القيان ، وأظهر العدل ، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، ويخطب الناس ويؤم بهم ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته ، وسُمُوا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه ، وذلك أن موسى بن بُعَا الكبير كان عاملاً غائباً بالري مشغولاً بحرب آل أبي طالب كالحسن بن زيد الحسني ، ومما كان من الديلم ببلاد قزوین ودخلهم إياها عَنَوَةً وقتلهم أهلها ، فلما نمي إلى موسى بن بعا قتل المعتز ، وما كان من أمر صالح بن وصيف والأتراك في ذلك قَفَلَ من تلك الديار متوجهاً إلى سامرا ، منكراً لما جرى على المعتز .

الخلاف في مقتل المعتز

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في [ذكر] أخبار المعتز قَتَلَ المعتز مجملًا ولم نبين كيفية قتله ، وتنازع الناس في ذلك مفصلاً ، ورأيت أصحاب السير والتواريخ وذوي العناية بأخبار الدول قد تباينوا في مقتله : فمنهم من ذكر أن المعتز مات في حَبْسِهِ في خلافة المهدي بالله على ما قدمنا من التاريخ حَتَفَ أنفه ، ومنهم من ذكر أنه منع من حبسه [من] الطعام والشراب فمات عند قطع مواد الغذاء عنه من المأكَل والمشرب ، ومنهم من رأى أنه حَقَنَ بالماء الحار المغلي ، فمن أجل ذلك حين أخرج إلى الناس وجدوا جوفه وارماً ، والأشهرُ في الأخباريين ممن عني بأخبار العباسيين أنه أدخل حماماً وأكره في

دخوله إياه، وكان الحمام محمياً ومنع الخروج منه، ثم تنازع هؤلاء: فمنهم من قال إنه ترك في الحمام حتى فاضت نفسه، ومنهم من ذكر أنه أخرج بعد أن كادت نفسه تتلف للحمى، ثم أُسقي شربة ماء مقرورة بثلج، فنثرت الكبد وغيره، فحمد من فوره، وذلك ليومين خَلَوْا من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقد أتينا على مبسوط هذه الأخبار [وتنازعهم في هذه الآثار] في كتابنا «أخبار الزمان».

بين المهدي وموسى بن بغا

ولما اتصل بالمهدي مسير موسى بن بُغَا إلى دار الخلافة أنكر ذلك، وكاتبه بالمقام في موضعه، وأن لا يحل عن مركزه للحاجة إليه، فأبى موسى بن بُغَا إلا إغذاذ المسير والسرعة فيه، حتى وافى سامرا، وذلك في سنة ست وخمسين ومائتين، وصالح بن وصيف يدبر الأمر مع المهدي، فلما دنا موسى من سامرا صاحت العامة في مواضعها والغوغاء في طرقاتها: يا فرعون، قد جاء موسى، وكان صالح بن وصيف قد نفر عن المهدي حين علم بموافاة موسى، وقال: إن المهدي راسلَ موسى في السر في المسير إلى سامرا، والشخص إلىهما، وكاتبه في ظاهر الأمر وراسله أن لا يقدم، وكان رجل من قواد الأتراك يقال له بايكيال قد غلب على الأمر أيضاً، وترأس، فدخل موسى سامرا حتى انتهى إلى مجلس المهدي وهو جالس للمظالم، والدار غاصّة بخواص الناس وعوامهم، فشرع أصحاب موسى فدخلوا الدار، وجعلوا يخرجون العامة منها بأشد ما يكون من الضرب بالدبابيس والطبرزينات والعسف، فضجّت العامة، فقام المهدي منكرّاً عليهم فعلمهم بمن في الدار، فلم يرجعوا عما هم عليه فتنحى مُغَضِّباً، فقدم إليه فرس [فركب] وقد استشعر منهم العَذَر، فمضى به إلى دار يارجوج، وقد كان موسى بن بُغَا انصرف عن دار المهدي لما نظر إلى ضجّة العامة فيها، فنزل تلك الدار، فسير بالمهدي إليها، فأقام فيها ثلاثاً عند موسى بن بُغَا [فأخذ عليه موسى العهود والمواثيق ألا يغدر به، وكان أكثر الجيش مع موسى بن بُغَا] وكان فيه ديانة وتقشف، حتى إن الجند تأسّوا به، ولم يكن يشرب النبيذ، وكان المهدي في أخلاقه شراسة، فنافر موسى، وكاد الأمر أن ينفرج، والحال أن يتسع، غير أن موسى تعطف عليه، وأعمال الحيلة في قتل صالح بن وصيف، وخاف موسى أن يكون صالح بن وصيف يعمل الحيلة عليهم في حال اختفائه، فبث في طلبه العيون، حتى وقع عليه، [فلما علم صالح هجومهم عليه] قاتل ومانع عن نفسه، فقتل واحتز رأسه وأتى به إلى موسى بن بُغَا، ومنهم من رأى أنه أحمى له حمام وأدخل إليه فمات فيه، على حسب ما فعل بالمعتز.

مقتل المهدي

وقوي أمر مُساور الشاري، ودنا في عسكره من سامرا، وعمّ الناس بالأذى، وانقطعت السابلة، وظهرت الأعراب، فأخرج المهدي بالله موسى بن بُعَا وبايكيال إلى حرب الشاري، وخرج معهما فشيعهما، ثم قَفَلَا من غير أن يلقيا شَرًّا، فلما استشعر المهدي رجوعهما خرج فعسكر بجسر سامرا في جمع من المغاربة والفراغة وغيرهم من الرسوم ليحارب بايكيال، [وقد قيل: إن بايكيال أقرأ موسى كتاباً للمهدي بقتل موسى وَالْقَتْلُ بِهِ، وإنه كتب إلى موسى بمثل ذلك، وإنهما علما بتضريب الأمر بينهما، فرجعا عما خرجا إليه، وأشرف بايكيال على المهدي] فانصرف موسى على ظهر سامرا متخرجاً لقتال المهدي، فكانت بين المهدي وبين بايكيال حرب عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس، وانكشف بايكيال، واستظهر المهدي عليه، فخرج كمين بايكيال على المهدي وفيه يارجوج التركي فولّى المهدي وأصحابه، ودخل سامرا مستغيثاً بالعامّة مستنصرأ بالناس يصيح في الأسواق فلا مغيث، وقدامه أناس من الأنصار، فمضى مؤسراً من النصر إلى دار ابن خيعونة بسامرا مختفياً، فهجموا عليه وعزلوه، وحملوه منها إلى دار يارجوج، وقيل له: أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟ فقال: أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين، ف قيل له: [إن] الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وأنت إنما رجالك [ما بين] تركي وخَزَرِي [وفرغاني] ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟ فكثرت منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه، ثم انقادوا إليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب. وقيل: غيره. وقال: هذا سوء رأي منكم، وخطأ في تدبيركم، إن أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا، قال: وسيأتي عليكم جميعاً، ويفرق جمعكم، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجأؤوه بالخناجر، فكان أول من جرحه ابن عم لبايكيال، جرحه بخنجر في أوداجه، وانكبّ عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه، وأقبل يمسّ الدم حتى روي منه، والتركي سكران، فلما روي من دم المهدي قام قائماً وقد مات المهدي، فقال: يا أصحابنا قد رَوِيْتُ من دم المهدي كما رَوِيْتُ في هذا اليوم من الخمر.

وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهدي، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين

عظيمين وشد بالرجال إلى أن مات، وقيل: قتل خنقاً، وقيل: كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات.

فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه، وندموا على ما كان منهم من قتله؛ لما تبينوا من نسكه وزهده، وقيل: إن ذلك كان يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقية من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان موسى بن بُعَا ويارجوج التركي غير داخلين في فعل الأتراك.

سبب حنق الأتراك

وكان حَنَقُ الأتراك على المهدي بسبب قتله بايكيال، وذلك أن بايكيال وقع بيد المهدي فضرب عنقه، ورمى به إلى أصحابه، ومنهم من رأى أنه قتل في الحرب المتقدم ذكرها في الموضع المعروف بجسر سامرا.

قتله لكاتبين

وقد كان المهدي لما أَفْضَتِ الخلافة إليه أخرج أحمد بن إسرائيل الكاتب وأبا نوح الكاتب إلى باب العامة بسامرا يوم الخميس لثلاث خلون من شهر رمضان، فضرب كل واحد منهما خمسمائة سوط، فماتا، وذلك لأمر كانت منهما استحقاقاً عند المهدي فيما يجب في حكم الشريعة أن يفعل بهما ذلك.

وقتل المهدي وله من الولد سبعة عشر ذكراً وست بنات.

ابن المدبر

وقد كان المهدي وَلِيَّ أحمد بن المدبر خَرَّاجَ فلسطين، وكانت له معه أخبار قد أتينا على جميعها فيما سلف من كتبنا، وأخبار ابن المدبر لما وصل إلى فلسطين وما حمل إلى سامرا، وقيل: إن المعتز بالله كان أخرجه إلى الشام، ولأحمد بن المدبر أخبار حسان، ولإبراهيم بن المدبر أخيه مع صاحب الزنج أخبار حين أسره.

مع طفيلي

قال المسعودي: فمن أخبار أحمد بن المدبر المستحسنة مما دَوَّهَهَا الناسُ في أخبار الطفيليين أن أحمد كان قليل الجلوس للمنادمة، وكان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم، ولا ينبسط إلى سواهم، قد اصطفاهم لعشرته، وأخذهم لمنادمته، كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره، وكان طفيلي يعرف بابن دَرَّاج من أكمل الناس

أدباً، وأخفهم روحاً، وأشدّهم في كل مليحة افتناناً، فلم يزل يحتال إلى أن عرف وقت جلوس أحمد بن المدبر للندماء، فتزياً في زي ندمائه، ودخل في جملتهم، وظن حاجبه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء، ولم ينكر شيئاً من حاله، وخرج أحمد بن المدبر فنظر إليه بين القوم، فقال لحاجبه: اذهب إلى ذلك الرجل فقل له: ألك حاجة؟ فسقط في يد الحاجب وعلم أن الحيلة قد تمت عليه، وأن ابن المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقتله فمر وهو يجرُّ برجليه، فقال له: الأستاذ يقول لك: ألك حاجة؟ فقال: قل له لا، فقال له: ارجع إليه فقل له: ما جُلُوسُكَ؟ فقال: الساعة جلسنا يا بغيض، فقال: ارجع إليه فقل له: أي شيء أنت؟ فقال: قل له طفيلي يرحمك الله، فقال له ابن المدبر: أنت طفيلي؟ قال: نعم أعزك الله، قال: إن الطفيلي يُحْتَمَلُ على دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخلوة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال: منها أن يكون لاعباً بالشطرنج أو بالنرد، أو ضارباً بالعود أو الطنبور، فقال: أيدك الله أنا أحسن هذه الأشياء كلها، قال: وفي أي وظيفة أنت منها؟ قال: في العلّيا من جميعها، قال لبعض ندمائه: لاعبه بالشطرنج فقال الطفيلي: أصلح الله الأستاذ فإن قُـمِرْتُ؟ قال: أخرجناك من ديارنا، قال: فإن قَمَرْتُ؟ قال: أعطيناك ألف درهم، قال: فإن رأيت أيدك الله أن تحضر الألف درهم فإن في حضورها قوة للنفس والإيقان بالظفر، فأحضرت فلعبا فغلب الطفيلي ومد يده ليأخذ الدراهم، فقال الحاجب لينفي عن نفسه بعض ما وقع فيه: أعزك الله إنه زعم أنه في الطبقة العليا، وابن فلان غلامك يغلبه، فأحضر الغلام، فغلب الطفيلي، فقال له: انصرف، فقال: أحضروا النرد، فأحضرت فلوعب فَعَلَبَ، فقال الحاجب: ولا هذا يا سيدي في الطبقة العليا من النرد، ولكن بوابنا فلان يغلبه، فأحضر البواب، فغلب الطفيلي، فقال له: اخرج، فقال: يا سيدي فالعود، فأتي بالعود، فضرب فأصاب، وغنى فأطرب، فقال الحاجب: يا سيدي في جوارنا شيخٌ هاشمي يُعَلِّمُ القيان أخذقُ منه، فأحضر الشيخ فكان أطرب منه، فقال له: اخرج، فقال: فالطنبور، فأعطي طنبوراً فضرب ضرباً لم ير الناس أحسن منه، وغنى غناء في النهاية، فقال الحاجب: أعز الله الأستاذ، فلان المحتكر في جوارنا أخذقُ منه، فأحضر المحتكر فكان أخذق منه وأطيب، فقال له ابن المدبر: قد تقصينا لك بكل جهد فأبت حرفتك إلا طردك من منزلنا، فقال: يا سيدي بقيت معي بابة حسنة، قال: ما هي؟ قال: تأمر لي بقوس بندق مع خمسين بندقة رصاص، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه في دبره بهن [جميعاً] وإن أخطأت بواحدة منهن ضربت رقبتني، فضج الحاجب من ذلك، ووجد ابن المدبر في ذلك شفاء لنفسه وعقوبة ومكافأة له على ما فَرَطَ منه في إدخال الطفيلي إلى مجلسه، فأمر بإكافين فأحضرا وجعل أحدهما فوق الآخر وشدَّ الحاجب فوقهما، وأمر

بالقوس والبندق فدفع إلى الطفيلي، فرمى به فما أخطأه، وخلي عن الحاجب وهو يتأوه لما به، فقال له الطفيلي: أعلى باب الأستاذ من يحسن مثل هذا؟ فقال: يا قرنان ما دام البرجاس استي فلا!

وللطفيليين أخبار حسان مثل خبر بنان الطفيلي مع المتوكل في اللوزنج، وما ابتداء من العدد من الواحد إلى ما فوقه من القرآن، ولغيره منهم ما قد أتينا على ذكره في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، على الشرح والتمام والكمال، وإنما نورد في هذا الكتاب لمعاً مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى.

سيرة المهدي

وقد كان المهدي بالله ذهب في أمره إلى القصد والدين، فقرّب العلماء، ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببرّه، وكان يقول: يا بني هاشم، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيّت، وذبح الكباش التي كان يُنَاطَحُ بها بين يدي الخلفاء والديوك، وقتل السباع المحبوسة، ورفع بُسُط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم، وكان يواصل الصيام.

وقيل: إنه لما قتل استخرج رحله من الموضع الذي كان يأوي إليه، فأصيب له سفظ مقفل، فتوهموا أن فيه مالاً أو جوهراً، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل، وقيل: جبة شعر، فسألوا من كان يخدمه فقال: كان إذا جَنَّ الليل لبسها، وغلّ نفسه، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح، وإنه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ثم يقوم، وإنه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب وقد دنا من إفطاره وهو يقول: اللهم إنه قد صَحَّ عن نبيك محمد ﷺ أنه قال: ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله: دعوة الإمام العادل، وقد أجهدت نفسي في العدل على رعيتي، ودعوة المظلوم، وأنا مظلوم، ودعوة الصائم حتى يفطر، وأنا صائم، وجعل يدعو عليهم وأن يُكْفَى شَرهم.

طرف من القول بخلق القرآن

وذكر صالح بن علي الهاشمي قال: حضرت يوماً من الأيام جلوس المهدي

للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول إليه ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته، فأقبلت أزمقهُ ببصري إذا نظر في القصص، فإذا رفع طرفه إليّ أطرفتُ، فكأنه علم ما في نفسي، فقال لي: يا صالح، أحسب أن في نفسك شيئاً تحب أن تذكره، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فأمسك، فلما فرغ من جلوسه أمرني أن لا أبرح ونهض فجلست جلوساً طويلاً، ثم دعاني فدخلت إليه وهو على حصير الصلاة، فقال لي: يا صالح، أتحدثني بما في نفسك أو أحدثك به؟ قلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن، فقال: كأني بك قد استحسنت ما رأيت من مجلسنا، فقلت: أي خليفة إن لم يكن يقول بخلق القرآن، فقلت: نعم، فقال: قد كنت على ذلك برهة من الدهر حتى أقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أدنة من الثغر الشامي مقيد طوال، حسن الهيئة، فسلم عليه غير هائب، ودعا فأوجز، فرأيت الحياء منه في حماليق عين الواثق والرحمة له، فقال له: يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، أحمد يقل ويضعف عن المناظرة، فرأيت الواثق قد صار في مكان الرقة والرحمة له غضباً، فقال له: أبو عبد الله يضعف عن المناظرة؟ فقال له: هوّ عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن في كلامه؟ فقال له الواثق: قد أذنت لك، فأقبل الشيخ على أحمد فقال له: يا أحمد ماذا دعوت الناس إليه؟ فقال: إلى القول بخلق القرآن، فقال الشيخ: مقالتي هذه التي دعوّت الناس إليها من القول بخلق القرآن، داخلة في الدين فلا يكون الدين تاماً إلا بالقول بها؟ قال: نعم، قال الشيخ: رسول الله ﷺ دعا الناس إليها أو تركهم؟ قال: تركهم، قال: فعلمها رسول الله ﷺ أو لم يعلمها؟ قال: علمها، قال: فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم إليه رسول الله ﷺ وتركهم منه؟ فأمسك أحمد، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة، ثم قال له بعد ساعة: يا أحمد، قال الله في كتابه العزيز: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فقلت أنت: لا يكون الدين تاماً إلا بمقالتيكم بخلق القرآن، فالله أصدق في إكماله وإتمامه أو أنت في نقصانك؟ فأمسك، قال الشيخ: يا أمير المؤمنين وهذه ثانية، ثم قال له بعد ساعة: أخبرني يا أحمد عن قول الله عز وجل في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية فمقالتي هذه التي دعوت الناس إليها مما بلغه الرسول ﷺ للأمة أم لا؟ فأمسك، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثة، ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد لما علم رسول الله ﷺ من مقالتي هذه التي دعوت الناس إليها وإلى القول بها من خلق القرآن أوسعه أن أمسك عنهم أم لا؟ قال أحمد: بل اتسع له ذلك، فقال: وكذلك لأبي بكر وعمر، وكذلك لعثمان، وكذلك لعلي، رضي الله عنهم! قال: نعم، فصرف وجهه إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول

الله ﷺ ولأصحابه فلا وَسَّعَ اللهُ علينا، فقال الواثق: نعم لا وَسَّعَ اللهُ علينا إن لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه، ثم قال الواثق: اقطعوا قيده، فلما فكوا قيده [عنه] جاذب عليه، فقال الواثق: دعوه، ثم قال للشيخ: لم جاذبت عليه؟ قال: لأنني عقدت في نيتي أن أجاذب عليه، فإذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفني وبدني حتى أقول: يا رب، سَلِّ عَبْدَكَ هذا لم يَقْدِنِي ظُلماً وأراعَ فيَّ أهلي، فبكى الواثق، وبكى الشيخ وكل من حضر، ثم قال له الواثق: يا شيخ، اجعلني في حلٍّ، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حلٍّ إعظماً لرسول الله ﷺ [و] لقرابتك منه، فتَهَلَّلَ وجه الواثق وسره، ثم قال له: أقم عندي آنس بك، فقال: مكاني في ذلك الثغر أنفع، أنا شيخ كبير، ولي حاجة، قال: سَلِّ ما بدا لك، قال: يأذن أمير المؤمنين لي في الرجوع إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم، قال: قد أذنت لك، وأمر له بجائزة، فلم يقبلها، فرجعت من ذلك الوقت [عن تلك المقالة]. وأحسب أن الواثق رَجَعَ عنها.

قال: وعرض على المهدي يوماً دفاتر خزائن الكتب، فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات قالها المعتر بالله وكتبها بخطه، وهي:

إِنِّي عَرَفْتُ عِلَاجَ الطَّبِّ مِنْ وَجَعِي وَمَا عَرَفْتُ عِلَاجَ الْحُبِّ وَالْخُدَعِ
جَزَعْتُ لِلْحُبِّ، وَالْحَمَى صَبَرْتُ لَهَا إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ جَزْعِي
مَنْ كَانَ يَشْغَلُهُ عَنِ الْإِفْهِ وَجَعٌ فَلَيْسَ يَشْغَلُنِي عَنْ حُبِّكُمْ وَجَعِي
وَمَا أَمَلُ حَبِيبِي، لِيَتَنِي أَبَدًا مَعَ الْحَبِيبِ، وَيَا لَيْتَ الْحَبِيبِ مَعِي

فَقَطَّبَ وجه المهدي بالله، وقال: حَدَّثَ وسلطان الشباب، وكان المهدي كثيراً ما ينشد البيت الأول من هذا الشعر.

خبر نوف عن علي بن أبي طالب

وذكر محمد بن علي الربيعي . وكان ممن يكثر ملازمة المهدي [وكان حسن المجلس، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. قال: كنت أبيات في الليالي المهدي] فقال لي ذات ليلة: أتعرف خبر نوف الذي حكاه عن علي بن أبي طالب حين كان يُبَايَعُهُ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، ذكر نوف قال: رأيت علياً رضي الله عنه [ليلة] قد أكثر الخروج والدخول والنظر إلى السماء، ثم قال لي: يا نوف، أنائم أنت؟ قال: قلت: بل رايق [أرْمَقُ] بعيني منذ الليلة يا أمير المؤمنين، فقال لي: يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا أرض الله بساطاً، وتراها ثياباً، وماءها طيباً، والكتاب شعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح عيسى ابن

مريم عليها السلام، يا نوف، إن الله تعالى أوحى إلى عبده عيسى عليه السلام أن قل لبني إسرائيل ألا يدخلوا إلي إلا بقلوب وجة، وأبصار خاشعة، وأكف نقية، وأعلمهم أنني لا أجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من خلقي قبلهم مظلمة. قال محمد بن علي الربيعي: فوالله لقد كتب المهدي هذا الخبر بخطه، وقد كنت أسمع في جوف الليل وقد خلا بره في بيت كان لخلوته وهو يبكي ويقول: يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، ويمر في الخبر إلى آخره، إلى أن كان من أمره ما كان من الأتراك وقتلهم إياه.

علة حب الدنيا

قال محمد بن علي: قلت للمهدي ذات يوم. وقد خلوت به، وقد أكثرنا من ذكر آفات الدنيا ومن رغب فيها، ومن انحرف عنها [وزهد فيها]: يا أمير المؤمنين، ما للإنسان العاقل المميز مع علمه بجميع آفات الدنيا وسرعة انتقالها وزوالها وغروها لطلابها يحبها ويأنس إليها؟ قال المهدي: حق ذلك له، منها خلق فهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قدر رزقه فهي حياته، وفيها يعاد فهي كفاته، وفيها اكتسب الجنة فهي مبدأ سعادته، والدنيا ممراً الصالحين إلى الجنة، فكيف لا يحب طريقاً تأخذ بسالكها إلى الجنة في نعيم مقيم خالداً [مخلداً] إن كان من أهلها؟!

وقيل: إن هذا الكلام في جواب علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، [و]أجاب به سائلاً سأل عن ذلك، وهو مأخوذ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين مدح الدنيا وذم الذم لها، على حسب ما قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر زهده وأخباره.

خروج صاحب الزنج بالبصرة

قال المسعودي: وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة في خلافة المهدي، وذلك في سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان يزعم أنه علي بن [محمد بن] أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأكثر الناس يقول: إنه دعي آل أبي طالب [ينكرونه] وكان من أهل قرية من أعمال الري يقال لها ورزنين، وظهر من فعله ما دل على تصديق ما رمي به [من] أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج؛ لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه، وله خطبة يقول في أولها: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، ألا لا حكم إلا لله، وكان يرى الذنوب كلها شركاً، وكان أنصاره الزنج، وكان ظهوره ببئر نخل بين مدينة الفتح وكرخ البصرة في ليلة الخميس لثلاث بقين من شهر رمضان سنة

خمس وخمسين ومائتين [وغلب على البصرة في سنة سبع وخمسين ومائتين]، وقتل ليلة السبت لليلتين خَلَّتَا من صفر سنة سبعين ومائتين، وذلك في خلافة المعتمد على الله، وقد صنف الناس في أخباره وحروبه وما كان من أمره كتباً كثيرة، وكان أول من صنف أخباره وما كان من بَدْءِ أمره ووقوعه إلى بلاد البحرين، وما كان من خبره مع الأعراب محمد بن الحسن بن سهل ابن [أخي] ذي الرياستين الفضل بن سهل صاحب المأمون، وهو الرجل الذي كان من أمره مع المعتضد بالله ما قد ذكرناه واشتهر قبل ذلك في الناس، وما كان من أمره إلى أن جعله كَدَجَاج على النار وجَلَدُهُ يَنْفُخ ويتفرق.

وقد ذكر الناس صاحب الزنج في أخبار الميضة وكتبهم، وقد أتينا على جميع خبره وبَدْءِ خبر البلاية والسعدية بالبصرة في الكتاب الأوسط، فأغني ذلك عن إعادته، وسنورد في هذا الكتاب في الموضع المستحق له لمعاً من ذكره، وما كان من أمره في مقتله.

عمرو بن بحر الجاحظ

قال المسعودي: وفي هذه السنة [وهي] سنة خمس وخمسين ومائتين، وقيل: سنة ست وخمسين ومائتين، كانت وفاة عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة في المحرم، ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه، مع قوله بالعثمانية، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدّي ما سمع، وكتب الجاحظ. مع انحرافه المشهور. تجلو صداً الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان: منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر [عليه] لا كفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيلين، وكتاب البخلاء، وسائر كتبه في نهاية الكمال، مما لم يقصد منها إلى نصب ولا إلى دفع حق، ولا يُعْلَم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه، وكان غلاماً إبراهيم بن سيار النظام، وعنه أخذ، ومنه تعلّم.

وحدث يموت بن المزرع. وكان الجاحظ خاله. قال: دخل إلى خالي أناس من البصرة من أصدقائه في العلة التي مات فيها، فسألوه عن حاله، فقال: عليل من مكانين: من الأسقام، والدَّيْنِ، ثم قال: أنا في هذه العلة المتناقضة التي بتخوف من بعضها التلف وأعظمها نيف وسبعون سنة، يعني عمره.

قال يموت بن المزرع: وكان يَطْلِي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الآخر لو قُرِض بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده.

قال ابن المزرع: وسمعه يقول: رأيت [بالبصرة] رجلاً يروح ويغدو في حوائج الناس، فقلت له: قد أتعبت بذلك بدنك، وأخلقت ثيابك، وأعجفت برؤوسك، وقتلت غلامك، فما لك راحة ولا قرار، فلو اقتصدت بعض الاقتصاد، قال: سمعت تغريد الأطيوار [في الأسحار، في أعالي الأشجار، وسمعت محسنات القيان على الأوتار] فما طربت طربي لنعمة شاكر أوليته معروفاً أو سعت له في حاجة.

يموت بن المزرع

وكان يموت لا يعود مريضاً خوفاً من أن يتطير باسمه، وله أخبار حسان، وأشعار جياذ، وقد كان سكن طبرية من بلاد الأردن من الشام فمات بها، وذلك بعد الثلاثمائة، وكان من أهل العلم والنظر والمعرفة والجدل، وله ولد يقال له مهلهل بن يموت بن المزرع، وهو شاعر مجيد من شعراء هذا الوقت، وهو سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وفيه يقول أبوه يموت بن المزرع:

مهلهل قد حَلَبْتُ شَطُورَ دهر	فكافحني بها الزَمَنُ العنوت
وجاريت الرجال بكل ربع	فأذعن لي الحثالة والرتوت
فأوجع ما أجنُّ عليه قلبي	كريمٍ عَضُّهُ زَمَنُ عتوت
كفى حزناً بِضَيْعَةٍ ذي قديم	وأبناء العبيد لها التخوت
وقد أسهرت عيني بعد غَمُضٍ	مَخَافَةٍ أَنْ تَضِيعَ إِذَا فَنِيْتُ
وفي لطف المهيمن لي عزاء	بمثلك إن فنيت وإن بقيتُ
وإن يشتد عظمك بعد موتي	فلا تقطعك جائحة سنوت
وقل: بالعلم كان أبي جَوَاداً	يقال: ومن أبوك؟ فقل: يموت
تَقَرَّرَ لَكَ الأبعاد والأداني	بعلم ليس يجحده البهوت

وللمهدي أخبار حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا، والله ولي التوفيق.

ذكر خلافة المعتمد على الله

موجز

وبويع المعتمد أحمد بن جعفر المتوكل يوم الثلاثاء لأزبَعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وهو ابن خمس وعشرين سنة، ويكنى أبا العباس، وأمه أُم ولد كوفية يقال لها فتيان، ومات في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وهو ابن ثمان وأربعين سنة، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

ولما أفضت الخلافة إلى المعتمد على الله استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان [وزير المتوكل، فلما مات عبيد الله] استوزر الحسن بن مخلد، ثم صارت الوزارة إلى سليمان بن وهب، ثم صارت إلى صاعد.

حرب صاحب الزنج

وخلع المعتمد على أخيه أبي أحمد الموفق وعلى مفلح، يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين، وأشخصهما إلى البصرة لمحاربة صاحب الزنج، فأوقع مفلح التركي بصاحب الزنج يوم الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين، فأصاب مفلحاً سهم في صدغه، فأصبح يوم الأربعاء ميتاً، وحمل إلى سامرا فدفن بها، وانصرف أبو أحمد عن محاربة صاحب الزنج.

الإمام الثاني عشر

وفي سنة ستين ومائتين قبض أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام في خلافة المعتمد، وهو ابن تسع وعشرين سنة، وهو أبو المهدي المنتظر، والإمام الثاني عشر عند القطعية من الإمامية، وهم جمهور الشيعة وقد تنازع هؤلاء في المنتظر من آل النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاة الحسن بن علي وافترقوا على عشرين فرقة، وقد ذكرنا حجاج كل طائفة منهم لما اجتبه لنفسها واختارته لمذهبها، في كتابنا المترجم بـ «سر الحياة» وفي كتاب: «المقالات، في أصول الديانات» وما ذهبوا إليه من الغيبة وغير ذلك.

وقد كان المهدي سير بقيقحة أم المعتز وعبد الله بن المعتز وإسماعيل بن المتوكل وطلحة بن المتوكل وعبد الوهاب بن المنتصر إلى مكة، فلما أفضت الخلافة إلى المعتمد بعث بحملهم إلى سامرا.

يعقوب الصفار

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين كان مسير يعقوب بن الليث الصفار نحو العراق في جيوش عظيمة، فلما نزل دير العاقول على شاطئ دجلة بين واسط وبغداد، وقد أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» على بدء خبر يعقوب بن الليث ببلاد سجستان، وكونه في حال صغره صفاراً، وخروجه من مطوعة سجستان إلى حرب الشراة، واتصاله بدرهم بن نصر، وخبر شادرق مدينة الشراة مما يلي بلاد سجستان المعروفة، بأوق، وترقي الأمر بيعقوب إلى أن كان من أمره ودخوله بلاد زابلستان. وهي بلاد فيروز بن كبك ملك زابلستان. وما كان من أمره مع رسول ملك الهند على جسر بسط ودخوله بلاد هراة ثم بلخ، وإعماله الحيلة إلى أن دخل بلاد نيسابور، وقبضه على محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، ثم دخوله إلى بلاد طبرستان، ومواقعة الحسن بن زيد الحسيني، مع ما قدمنا قبل وصفنا من خبر حمزة بن أدرك الخارجي، وما كان من أمره في أيام عبد الله بن طاهر، وإليه تضاف الحمزية من الخوارج، وانتهينا بأخبار يعقوب بن الليث من بدئه إلى غايته ووفاته ببلاد جندي سابور من كور الأهواز.

فلما نزل يعقوب بن الليث دير العاقول خرج المعتمد فعسكر يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخر سنة اثنتين وستين ومائتين في الموضع المعروف بالقائم بسامرا، واستخلف ابنه المفوض، ووصل المعتمد إلى سيب بني كوما يوم الخميس لخمس خلون من رجب من هذه السنة، فواقع الصفار يوم الأحد لتسع خلون من رجب من السنة في الموضع المعروف باضطربد بين السيب ودير العاقول، فهزم الصفار، واستباح عسكره، وأخذ من أصحابه نحو عشرة آلاف رأس من الدواب، وذلك أنه فجر عليه النهر المعروف بالسيب، فغشي الماء الصحراء، وعلم الصفار أن الحيلة قد توجهت عليه، وقد كان حمل على أصحاب السلطان في ذلك اليوم بضعة عشرة حملة، وغرق إبراهيم بن سيما، وقتل بيده خلقاً كثيراً، وطعن محمد بن أوتاش التركي، وكان يتوهم أنه خادم، وقال لأصحابه: ما رأيتم في عسكرهم مثل هذا الخادم، وقد كان الصفار في هذا اليوم قصد الميمنة. وكان عليها موسى بن بعا. وقتل خلقاً كثيراً من الناس منهم المغربي المعروف بالمبرقع، ونجا الصفار بنفسه والخواص من أوليائه، واتبعه جيش المعتمد وأهل القرى والسواد، فغنم الأكثر من ماله وعدده، واستنقذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وكان مقيداً، كان أسره من نيسابور على ما قدمنا، ومعه علي بن الحسين من قریش، وأتى الموفق. وكان في القلب. محمد بن طاهر ففك قيوده وخلع عليه، وردّه إلى مرتبته. وقيل: إن السبب في هزيمة الصفار في ذلك اليوم. مع ما ذكرنا من فجر النهر وارتطام

الخيول فيه . أن نصيراً الديلمي مولى سعيد بن صالح الحاجب كان في الشذوات في بطن دجلة، فوافى مؤخر عسكر الصفار وسواده، فخرج من الشذوات فطرح النار في الإبل والبغال [والحمير] والخيول، وكان في عسكره خمسة آلاف جمل بُخْتِي من جمازيات وغيرها؛ ففترقت الإبل في العسكر، وشردت البغال والخيول، واضطرب الناس في مصاف الصفار لما سمعوه ورأوه في عسكره وسواده من ورائهم، فكانت الهزيمة على الصفار بما ذكرنا، ويقال: إن يعقوب بن الليث قال في سفرته هذه أبياتاً، وفي مسيره، وأنه خرج منكراً على المعتمد ومن معه من الموالي إضاعتهم الدين، وإهمالهم أمر صاحب الزنج، فقال:

خراسان أحويها وأعمال فارس وما أنا من ملك العراق بآيس
إذا ما أمور الدين ضاعت وأهملت ورثت فصارت كالرسوم الدوارس
خرجتُ بعون الله يمناً ونصرة وصاحب رايات الهدى غير حارس

وكانت وفاة الصفار يوم الثلاثاء لسبع بقين من شوال سنة خمس وستين ومائتين، على ما ذكرنا بجندي سابور.

وخلف في بيت ماله خمسين ألف درهم وثمانمائة ألف دينار، وخلفه أخوه عمرو بن الليث مكانه.

سياسة الصفار

وكانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلا فيمن سلف من الملوك في الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره، واستقامتهم على طاعته لما كان قد شملهم من إحسانه، وغمرهم من بره، وملاً قلوبهم من هيئته.

طاعة أتباعه له

فما ذكر من [ظهور] طاعتهم له أنه كان بأرض فارس، وقد أباح الناس أن يرتعوا، ثم حدث أمر أراد النقلة والرحيل من تلك الكورة فنادى مناديه بقطع الدواب عن الرتع، وأنه رؤي رجل من أصحابه قد أسرع إلى دابته والحشيش في فمها، فأخرجه من فيها مخافة أن تلوكة بعد سماعه النداء، وأقبل على الدابة مخاطباً فقال بالفارسية: أمير المؤمنين دوابر أترت بريدند، وتفسير ذلك: اقطعوا الدواب عن الرطوبة، وأنه رؤي في عسكره في ذلك الوقت رجل من قواده ذو مرتبة والدرع الحديد على بدنه لا ثوب بينه وبين بشرته، ف قيل له في ذلك، فقال: نادى منادي الأمير، البسوا السلاح، وكنت

[عرباناً] أغتسل من جنابة، فلم يسعني التشاغل بلبس الثياب عن السلاح، وكان الرجل إذا أتاه راغباً في خدمته مؤثراً للانقطاع إليه تفرّس فيه، فإذا أعجبه منظره امتحن خبره واستبرأ ما عنده من رمي أو طعام أو غير ذلك من ثقافة، فإذا رأى منه ما يعجبه سأل عن خبره وحاله، ومن أين أقبل، ومع من كان، فإذا وافقه ما سمعه منه قال له: اصدقني عما معك من المال والمتاع والسلاح، فيقف على جميع ما معه، ثم يبعث أناساً قد رتبوا لذلك، فيبيعون جميع ذلك، ويجعلونه عيناً أو ورقاً، ويدفع إليه، ويثبت في الديوان، ثم تزيج علله في اللباس والسلاح والمأكّل والمشرب والدوابّ والبغال والحمير من إصطبله، حتى لا يفقد الرجل جميع ما يحتاج إليه من أمره على قدر مكانه ومرتبته، فإن نقم عليه بعد ذلك مذهبه، ولم يرض اختياره، سلبه جميع ما أنعم به عليه، حتى يخرج من عسكريه نحو ما دخل إليه، محتملاً بما معه من ذلك العين والورق، إلا أن يكون ذلك الرجل معتضداً، فيصير له فضل من أرزاقه، فلا يمنعه ما كان له من متقدم ماله، وكانت جميع دوابه ملكاً له وإن أعلافها من قبله، ولها ساسة ووكلاء يقومون بأمرها، إلا خصوص دوابهم التي تكون عندهم إلا أن ملكها له، واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير، حيثما توجه من مسيره، فيكثر الجلوس عليه، ويشرف منه على أهل معسكره، وعلى قضيم دوايه، ويرمق الخلل من وكلائه، فإذا رأى شيئاً يكرهه بادر بتغييره، وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم، والغني الظاهر منهم، والنكاية في حروبهم، فجعلهم أصحاب الأعمدة الذهب، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب، ثم يليهم في اللباس والغنى فوج ثان هم أصحاب الأعمدة الفضة، فإذا كان في الأعياد، أو في الأيام التي يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال، دفع إليهم تلك الأعمدة، وإنما ضربت هذه الأعمدة عُدّة للنواب.

وسئل بعض ثقاته، ممن ينظر حاله، عن اشتغاله في خلواته، وعن مجالسته مع أهل بطانته، وهل يسمر مع أحد أو يجالسه، فذكر أنه لا يطلع أحداً على سره، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه، وأكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريده، ويظهر غير ما يضمّره، ولا يشرك أحد فيما يدبره برأي ولا غيره، وإن تفرّجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم، ويؤدّبهم، ويخرّجهم، ويدعوهم، ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور، يتضاربون بها بين يديه، ففي هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره.

ولما واقع الصفار الحسن بن زيد الحسني بطبرستان. وذلك في سنة ستين ومائتين، وقيل: سنة تسع وخمسين ومائتين. وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب في الطلب، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد، وهم راجعون من طلب

الحسن بن زيد، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم في تلك الحرب : ما رأيت أيها الأمير كالיום، قال له الصفار: وأعجب منه ما أريك إياه، ثم قربوا من الموضع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد، فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد، وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة على حاله: لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشيء، ولا دنوا إليه، معسكرين بالقرب منه من حيث يروونه بالموضع الذي خلفهم فيه الصفار، فقال له الرسول: هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتي له منهم ما أراد.

وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح، يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح، وإلى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه، وليس في مضربه شيء غيره، فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره، اضطجع على ترسه، ونزع راية فيجعلها مخدته، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي.

وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه، بحيث تقع عينه عليهم، ويَرَى مداخلهم، فيمرون مع أطناب الشقاق إلى خيمة مضروبة، بحيث لا يرى هو موضعها، لكنه يرى مداخلهم إليها، ومخرجهم منها، فمن احتاج إليه منهم، واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه، دعاه فأمره، وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضاً من السلام عليه، ولم يكن لأحد أن يتقدم إلى باب مجلسه إلا رجل من خواصه، يعرف بالعزیز، وإخوته، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه، فيها غلمان من خواصه، فإذا احتاج إلى أمر يأمر به صاح بهم، فخرجوا إليه، وإلا فهو في أكثر نهاره وليله في ذلك الموضع لا يقومون على رأسه، وخيمته من داخل أخبية مطنبة، كلها يدور فيها خمسمائة غلام، يبيتون من داخل مضربه، على كل نفس منهم ثقة، قد وكل بتفقد أحواله، لئلا يكون منهم عبث أو فساد، فهو المأخوذ به، ويذبح له في كل يوم عشرون شاة، فتطبخ في خمس قدور من الصُفَر الكبار، وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهي، وله أرزة في كل يوم وخبيصة فالودج مع القدور الخمس، وهي ألوان غليظة، فيأكل منها، ويفرق الباقي في الغلمان الذين في داخل مضربه، ثم أهل عسكره حول مضربه، وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده.

وقال بعض من ورد إليه برسالة السلطان: أيها الأمير، أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك إلا سلاحك ومسح أنت عليه، قال: إن رئيس القوم يأتيهم به أصحابه في [ما يظهر من] أفعاله وسيرته، لو استعملت ما ذكرت من الأثاث، لأنقلنا البهائم، ولأنتم

بي في فعلي من في عسكري، ونحن نقطع في كل يوم المهامه والمفاوز والأودية والقيعان، ولا يصلح لنا إلا التخفيف.

وكان قليل الاستعمال للبغال في عسكره، وكان في عسكره خمسة آلاف جمل بُخْتُ وأضعاف عددها حمير شُهَب كالبغال، وهي الحمير المعروفة بالصفارية، تحمل الأثقال عوضاً من البغال، وكان السبب في ذلك أنه إذا نزل خليت الجمال والحمير للرعي، وليس في وسع البغال ذلك.

قال المسعودي: وليعقوب بن الليث الصفار، وعمرو بن الليث أخيه، سير وسياسات عجيبة، وحيل ومكايد في الحروب، قد أتينا على ذكرها، وما انتظم لنا من وصفها، في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وإنما نذكر في هذا الكتاب منها لمعاً مما لم نعرض لذكره فيما سلف من كتبنا.

وفاة موسى بن بغا

وفي سنة أربع وستين ومائتين. وذلك في خلافة المعتمد. كانت وفاة موسى بن بُغَا، وفيه يقول بعض الشعراء، وكان قد امتدحه فلم يصله بشيء:

مات موسى فهان ذاك علينا لم يَضُرْني إذ قيل قد مات شيئاً
وكذا لا يضربني موت مَنْ لم يُسَدِّ خيراً إليّ إذ كان حياً

موت المزني

وفي هذه السنة. وهي سنة أربع وستين ومائتين. مات أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني صاحب المختصر من علم محمد بن إدريس الشافعي، يوم الخميس، لست بقين من شهر ربيع الأول من هذه السنة، بمصر.

موت جماعة من أهل العلم

وفيهما مات أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب، صاحب مالك بن أنس، وقد روي عن عمه عبد الله بن وهب عن مالك.

وفيهما مات يونس بن عبد الأعلى الصدفي، بمصر، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة.

وفيهما مات أبو خالد يزيد بن سنان بمصر، وصلى عليه بكار بن قتيبة القاضي، وشَخَّصَ الموفق لمحاربة صاحب الزنج في صفر، سنة سبع وستين ومائتين، وقَدَّمَ الموفق ابنه أبا العباس في ربيع الآخر إلى سوق الخميس، وقد كان الشعراني صاحب

العلوي قد تحصن بها في جمع كثير من الزنج، ففتح هذا الموضع، وغنم جميع ما كان فيه، وفتح مواضع كثيرة، وقتل من كان فيها من الزنج، وسار الموفق إلى الأهواز فأصلح ما أفسده الزنج، ثم عاد إلى البصرة، فلم يزل منازلًا لصاحب الزنج حتى قتل، فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، يقتل الصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويحرق ويخرب، وقد كان أتى بالبصرة في وقعة واحدة على قتل ثلاثمائة ألف من الناس.

من أعمال المهلبى بالبصرة

وقد كان المهلبى من عليّة أصحاب علي بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة، فنصب منبراً بالموضع المعروف بمقبرة بني يشكر، وكان يصلي يوم الجمعة بالناس، ويخطب على ذلك المنبر لعلي بن محمد، ويترحم بعد ذلك على أبي بكر وعمر، ولا يذكر عثمان ولا علياً في خطبته، ويلعن جابرة بني العباس، وأبا موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، على ما قدمنا من قوله في هذا الكتاب، وأنه كان يذهب إلى رأي الأزارقة من الخوارج.

ولما ركن مَنْ بقي بالبصرة إلى هذا الفعل من المهلبى بها اجتمعوا في بعض الجمع، فوضع فيهم السيف، فمن ناج سالم، ومن مقتول، ومن غريق، واختفى كثير من الناس في الدور والآبار، فكانوا يظهرن بالليل، فيأخذون الكلاب فيذبونها ويأكلونها، والفئران، والسنائير، فأفئوها حتى لم يقدروا منها على شيء، فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه، [ويراعي بعضهم موت بعض، ومن قدر منهم على صاحبه قتله وأكله] وعدموا مع ذلك الماء العذب.

وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع ومعها أختها، وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلوا لحمها، قالت المرأة: فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها وأكلناها، ولقد حَضَرَتْ أختها وقد جاءت على النهر [ونحن على مشرعة عيسى بن أبي حرب] وهي تبكي ومعها رأس أختها، فقبل لها: ويحك!! ما لك تبكين؟ قالت: اجتمعوا على أختي فما تركوها تموت موتاً حسناً حتى قطعوها، فظلموني، فلم يُعْطُونِي من لحمها شيئاً إلا رأسها هذا، وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها، ومثل هذا كثير، وأعظم مما وصفنا.

وبلغ من أمر عسكره أنه كان ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة، وينادي عليها بنسبها: هذه ابنة فلان الفلاني، لكل زنجمي منهم العشرة والعشرون والثلاثون: يطوّهن الزنج، ويخدمن النساء والزنجيات،

كما تخدم الوصائف، ولقد استغاثت إلى علي بن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت [عند] بعض الزنج، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه، فقال [لها]: هو مولاك وأولى بك من غيره.

وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل، فأما المكثر فإنه يقول: أفنى من الناس ما لا يدركه العد[د]، ولا يقع عليه الإحصاء، ولا يعلم ذلك إلا عالم الغيب، فيما فَتَحَ من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد [من] أهلها، والمقلل يقول: أفنى من الناس خمسمائة ألف نفر، وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحُدْساً، إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط.

وكان مقتله [على] ما بينا آنفاً سنة سبعين ومائتين، وذلك في خلافة المعتمد.

صاعد بن مخلد

وقد كان الموفق بعد ذلك وَجَّه بصاعد بن مخلد في سنة اثنتين وسبعين ومائتين إلى حرب الصفار، فأمره على مَنْ معه من الجيوش، وشيَّعه الموفق، فلما صار إلى بلاد فارس تجبر واشتدَّ سلطانه، وانصرف من المدائن في بعض الأيام فاحتجم في خفة ورانة عليه، ونمي ذلك إلى الموفق وما هو عليه من التجبر، فقال في ذلك أبو محمد عبد الله بن الحسين بن سعد القطريلي الكاتب في قصيدة طويلة اقتصرنا منها على ما نذكره، وهو:

تكفهر لما طغى ودان بدين العجم

وأصبح في خفة وفي رانة محتجم

فأشخصه الموفق إلى واسط، فكان مدة مقامه في الوزارة سبع سنين إلى أن قبض عليه وعلى أخيه عبدون النصراني.

وماتت جارية لصاعد بعد حبسه، وكانت الغالبة على أمره، وكان يقال لها جعفر، و ماتت بعدها بأيام أم الموفق؛ ففي ذلك يقول عبد الله بن الحسين بن سعد من أبيات له:

أَخَذْتُ جعفر برأس القطار ثم قالت: أذنتكم بالبوار

فأجابت أم الأمير، وقالت: قد أتيناك أول الزُّوار

وسياتيك صاعد عن قريب كتبه للبلاء في الاستطار^(١)

وأحصي ما وجد لصاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه، دون ما وجد لأخيه عبدون، فكان مبلغه ثلاثمائة ألف دينار، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه ألف ألف وثلاثمائة ألف.

ومات صاعد في الحبس، وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين.

وفاة جماعة من الأعيان

وفي سنة سبعين ومائتين كانت وفاة [أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني، الفقيه ببغداد، وفيها مات أبو أيوب سليمان] بن وهب الكاتب، وأحمد بن طولون، وذلك بمصر يوم السبت لعشر خلون من ذي القعدة من سنة سبعين ومائتين، وله خمس وستون سنة.

أحمد بن طولون وابنه

وكانت ولاية أحمد بن طولون سبع عشرة سنة، وكان بين الظفر بصاحب الزنج ومرض أحمد بن طولون عشرة أشهر، ولما يش أحمد بن طولون من نفسه بايع لابنه أبي الجيش بالأمر من بعده، فلما توفي جدّد أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون العهد لنفسه.

وقعة الطواحين

ووجه الموفق ابنه أبا العباس لمحاربة أبي الجيش خمارويه في سنة إحدى وسبعين ومائتين، فكانت الوقعة بينهما بالطواحين من أعمال فلسطين يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال في هذه السنة، فكانت الهزيمة على أبي الجيش، واحتوى أبو العباس على جميع عسكره، وأفلت أبو الجيش في جماعة من قواده حتى أتى الفسطاط، وتخلّف غلامه سعد الأعسر فواقع أبا العباس، فهزّمه واستباح عسكره، وقتل رؤساء قواده، وجلّة أصحابه، ومضى أبو العباس لا يلوي على شيء حتى أتى العراق، وقلد أبو الجيش أمر وزارته عليّ بن أحمد المادرائي، وأبو بكر محمد بن عليّ بن أحمد المادرائي هو المعتقل في يد الإخشيد محمد بن طنج في هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. وقد كان على وزارته بمصر هو وولده الحسين بن محمد، فلما استوزر الإخشيد أبا الحسن عليّ بن خلف بن طباب وانفصل من دمشق إلى الفسطاط قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن خلف واستوزر أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب.

الربيع المرادي

وفي سنة سبعين ومائتين كانت وفاة الربيع بن سليمان، المرادي، المؤذن، صاحب محمد بن إدريس الشافعي، والراوي لأكثر كتبه عنه بمصر.

وأخبرنا أبو عبد الله الحسن بن مروان المصري وغيره، عن الربيع بن سليمان قال: استعار الشافعي من محمد بن الحسن الكوفي شيئاً من كتبه، فلم يبعث بها إليه، فكتب إليه الشافعي:

يا، قل لمن لم تر عي	ن مَنْ رآه مثله
من كان من قد راءه	ما قد رأى مَنْ قبله
ومن كلامنا له	حيث علقنا عقله
لأن ما يجننه	فاق الكمال كله
العلم يَنْهَى أهله	أن يمنعوه أهله
لعله يبذله	لأهله لعله

فبعث إليه محمد بن الحسن بأكثر كتبه التي سأل عنها.

المعتمد والموفق

وبايع المعتمد لابنه جعفر، وسماه المفوض إلى الله، وقد كان المعتمد أثر اللذة، واعتكف على الملاهي، وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الأمور وتديرها، ثم حظر على المعتمد وحبه، فكان أول خليفة قهر [وحبس] وحجر عليه، ووكل به بفم الصلح، وقد كان قبل ذلك هرب وصار إلى حديثه الموصل، فبعث الموفق بصاعد إلى سامرا، وكتب إلى إسحاق بن كنداج فردّه من [حديثه] الموصل.

خروج أحمد بن طولون

وفي سنة أربع وستين ومائتين كان خروج أحمد بن طولون من مصر مظهرًا للغزو في عساكر كثيرة وخلق من المطوعة قد انجذبوا معه من مصر وفلسطين، فقبّل وصوله إلى دمشق مات ماجور التركي بدمشق، وقد كان عليها، فدخلها أحمد، واحتوى على جميع تركته من الخزائن وغيرها، وسار منها إلى حمص، وسار منها إلى بلاد أنطاكية، ووصلت مقدمته إلى بلاد الإسكندرية من شاطئ بحر الروم، ووصل هو إلى الموضع المعروف ببغراس من جبل اللكام، وقد تقدمته المطوعة والغزاة إلى الثغر الشامي، ثم عطف هو

راجعاً من غير أن يكون تقدم إلى الناس معرفة ذلك منه، حتى نزل مدينة أنطاكية، وفيها يومئذ سيما الطويل في عدة منيعة من الأتراك وغيرهم وقد قدمنا فيما تقدم من هذا الكتاب الخبر عن كيفية بناء أنطاكية وقصة سورها، والملك الباني لها، وصفة سورها في السهل والجبل. وقد كان قبل نزول أحمد بن طولون على أنطاكية وقع بين سيما وبين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم من أرض الشام، وكان سيما الطويل قد عم أذاه أهلها من قتل وأخذ مال، وكان نزول ابن طولون على باب من أبوابها يعرف بباب [فارس تلقاء السوق، وقد أحاطت عساكره بها، ونزل غلامه المعروف بلؤلؤ على باب من أبوابها يعرف بباب البحر، وقد كان لؤلؤ بعد ذلك انحدر إلى السلطان مستأمناً، فأتى الموفق وهو مُنَازِل لصاحب الزنج، فكان من أمره وقتل صاحب الزنج ما قدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من وقوع المشاجرة بين أصحاب لؤلؤ وأصحاب الموفق كما قدمنا أيهم القاتل لصاحب الزنج، وكادت الحال أن تنفرج بينهم في ذلك اليوم حتى قيل في عسكر الموفق:

كيفما شئتم فقولوا إنما الفتح لِلؤلؤ

فكان ابن طولون على أنطاكية في آخر سنة أربع وستين ومائتين، وكان افتتحها إياها في سنة خمس وستين ومائتين بالحيلة من داخلها من بعض أهلها بالليل، وقد أخذوا بحراسهم سورها فتحدر بعضهم مما يلي الجبل وباب فارس، فأتى ابن طولون وقد يش من فتحها لمنعتها وحصانة سورها، فوعده فتحها، فضم إليهم عدة من رجاله فتسلقوا من حيث نزلوا، واستعد هو في عسكره وأخذ أهبطه، وسيما في داره، فما انفرج عمود الصبح إلا والطلولونية قد كَبُرُوا على سورها، ونزلوا منحدرين إليها، وارتفع الصوت وكثر الضجيج، وركب سيما فيمن تسرع معه من خواصه، فأرسلت عليه امرأة من أعالي سطح حَجَرَ رَحَا فأتت عليه، وأخذ بَعْضُ من عرفه رأسه فأتى به ابن طولون وقد دخل من باب فارس ونزل على عين هنالك ومعهم الحسين بن عبد الرحمن القاضي المعروف بابن الصابوني الأنطاكي الحنفي، فعاث أصحاب ابن طولون ساعة بأنطاكية، وشمل الناس أذاهم، ثم رفع ذلك لساعتين من النهار، وارتحل ابن طولون يؤمُّ الثغر الشامي، فأتى المصيصة وأذنة، وامتنع من أهل طرسوس وفيها يازمان الخادم، فلم يكن له في فتحها حيلة، فرجع عنها وقد أراد الغزو. على ما قيل، والله أعلم لأمر بلغه أن العباس ولده قد عصى عليه وفرغ أن يحال بينه وبين مصر. فحث في السير ودخل القسطنطين، ولحق العباس ببرقة من بلاد المغرب خوفاً من أبيه وقد حمل معه ما أمكنه حملة من الخزائن

والأموال والعدد، وقد أتينا على ما جرى بين أحمد بن طولون وولده العباس من المراسلات في كتابنا «أخبار الزمان».

يازمان غلام الفتح بن خاقان

وكانت وفاة يازمان الخادم في أرض النصرانية غازياً في جيش الإسلام تحت الحصن المعروف بكوكب، وكان مولى الفتح بن خاقان، فحمل إلى طرسوس، فدفن بباب الجهاد، وذلك للنصف من رجب سنة ثمان وسبعين ومائتين، وكان معه في تلك الغزاة من أمراء السلطان المعروف بالعجفي وابن أبي عيسى وكان على إمرة طرسوس، وكان يازمان في نهاية البلاغة في الجهاد في البر والبحر، وكان معه رجال من البحرين لم ير مثلهم ولا أشد منهم، وكان له في العدو نكاية عظيمة، وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في حصونها، ولم ير في الثغور الشامية والجزرية. بعد عمرو بن عبيد الله [ابن مروان] الأقطع صاحب ملطية، وعلي بن يحيى الأرمني صاحب الثغور الشامية. أشد إقداماً على الروم من يازمان الخادم.

عمرو بن عبيد الله الأقطع

وكانت وفاة عمرو بن عبيد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني في سنة واحدة، استشهدا جميعاً، وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين في خلافة المستعين بالله. وقد كان عمرو بن عبيد الله غازياً في تلك السنة في المَلَطِيَّين، فلقي ملك الروم في خمسين ألفاً، فصر الفريقان جميعاً، فاستشهد عمرو بن عبيد الله ومن كان معه من المسلمين إلا اليسير، وذلك يوم الجمعة للنصف من رجب من هذه السنة.

علي بن يحيى الأرمني

وقد كان علي بن يحيى الأرمني انصرف عن الثغر الشامي وولي أرمينية ثم صرف عنها. فلما صار إلى بلاد ميّافارقين من ديار بكر عدل إلى ضياع له هنالك ووقع النفير، فخرج مسرعاً وقد أغارت جيوش الروم، فقتل علي بن يحيى مقدار أربعمئة نفس، والروم لا تعلم أنه علي بن يحيى الأرمني.

وأخبرني بعض الروم. ممن كان قد أسلم وحسن إسلامه. أن الروم صورت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين: منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية، فأقاد منه بالضرب وردّه إلى القسطنطينية؛ وعبد الله البطال، وعمرو بن

عبيد الله، وعلي بن يحيى الأرمني، والعريل بن بكار، وأحمد بن أبي قطيفة، وقرنياس البيلقاني صاحب مدينة إبريق - وهي اليوم للروم - وكان بطريق البيالقة، وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين ومائتين؛ وحرس خارس أخت قرنياس؛ ويازمان الخادم في موكبه والرجال حوله، وأبو القاسم بن عبد الباقي؛ وقد أتينا على وصف مذهب البيالقة واعتقادهم وهو مذهب بين النصرانية والمجوسية، وقد دخلوا في هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. في جملة الروم، وقد فسرنا خبرهم في كتابنا «أخبار الزمان».

من حمية معاوية

فأما خبر معاوية وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطريق من مدينة القسطنطينية، فهو أن المسلمين غَزَوْا في أيام معاوية، فأسر جماعة منهم، فأوقفوا بين يدي الملك، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فَلَطَمَ حُرَّ وجهه فأكمه. وكان رجلاً من قريش. فصاح: وإسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية؟ إذا أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا، فنمي الخبر إلى معاوية فأكمه، وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه وامتنع من الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أجمل الأمر في أعمال الحيلة بإقامة الفداء بين المسلمين والروم إلى أن فادى بذلك الرجل، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام دعاه معاوية فبره وأحسن إليه، ثم قال له: لم نهملك ولم نضيعك ولا أبئنا دمك وعرضك، ومعاوية مع ذلك يجيل الرأي ويعمل الحيلة، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان به عارفاً، كثير الغزوات في البحر، صمّل من الرجال، مرطان بالرومية، فأحضره وخَلَا به وأخبره بما قد عزم عليه، وسأله أعمال الحيلة فيه والتأتي له فتوافقا على أن يدفع للرجل مالاً عظيماً يبتاع به أنواعاً من الطُّرْفِ والمُلَحِّ والجهاز والطيب والجوهر وغير ذلك، وابتني له مركب لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في مسيره بنياناً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مد قبرس فاتصل برئيسها وأخبره أن معه جارية للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك، فروسِلَ الملك بذلك، وأعلم بحال الرجل، فأذن له في الدخول، فدخل خليج القسطنطينية، وسار فيه حتى انتهى إلى القسطنطينية، وقد أتينا على مقدار مسافة هذا الخليج، واتصاله بالبحر الرومي وبحر مانطس عند ذكرنا البحار فيما سلف من هذا الكتاب. فلما وصل إلى القسطنطينية أهدى للملك وجميع بطارقه، وبائعهم وشاراهم، ولم يعط للبطريق الذي لطم وجه القرشي شيئاً، وقصده إلى ذلك البطريق الذي لطم الرجل القرشي، وتأتى الصوري في الأمر على حسب ما رسمه له معاوية، وأقبل الرجل

من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره البطارقة والملك بابتياح حوائج ذكروها، وأنواع من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سرّاً، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له جميع ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه، وتقدم إليه فقال: إن ذلك البطريق إذا عُدّت إلى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقصد والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والمتفقد لأحوالك، وانظر ماذا يطلب منك حين أوّيك إلى الشام، فإن منزلتك ستعلو وأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقت جميع ما أمرتك به وعلمت غرض البطريق منك وأي شيء يأمرك بابتياحه لتكون الحيلة بحسب ذلك، فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة على ما لم يطلب منه زادت منزلته وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك وقال له: ما ذنبك إليك؟ وبماذا استحقّ غيري أن تقصده وتقضي حوائجه وتعرض عني؟ فقال له الصوري: أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب أدخل إلى هذا الملك والبلد كالمبتكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم، لئلا ينمّوا بخبري ويعنوا بأمرى إلى المسلمين فيكون في ذلك فقيدي، وإذا قد علمت ميلك إليّ فلست أحب أن يعتني بأمرى سواك ولا يقوم به عند الملك وغيره غيرك، فأمر بي بجميع حوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجواهر والطرائف والثياب، ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم إلى معاوية، ومن معاوية إلى الروم، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج، والحيلة لا تتوجه لمعاوية حتى مضى على ذلك سنين فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتجيت أن تغمرني بقضاء حاجة وتمنّ بها علي: أن تبتاع لي بساطاً سوسنجر بمخاده ووسائده يكون فيه من أنواع الألوان من الحمرة والزرق وغيرهما، ويكون من صفته كذا وكذا، ولو بلغ ثمنه كل مبلغ؛ فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصوري إذا ورد إلى القسطنطينية تكون مركبةً بالقرب من موضع ذلك البطريق، وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راقبة على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه، وكانت الضيعة مما يلي فم الخليج مما يلي بحر الروم والقسطنطينية، فانصرف الصوري إلى معاوية سرّاً، وأخبره بالحال؛ فأحضر معاوية بساطاً بوسائد ومخاد ومجلس؛ فانصرف به الصوري مع جميع ما طلب منه من دار الإسلام، وقد تقدم إليها معاوية بالحيلة وكيفية إيقاعها، وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة وفي العشرة، وفي الروم طمّع وشَرّه؛ فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية. وقد طابت له الرياح، وقد قرب من ضيعة

البطريق . أخذ الصوري خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب ؛ فأخبر أن البطريق في ضيعته ، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً بين هذين البحرين وهما الرومي ومانطس ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ، والضياع والعمائر على هذا الخليج من حافته ، والمراكب تختلف والقوارب بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية ، وهذه المراكب لا تحصى في هذا الخليج كثرة ، فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته فرش ذلك البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه ، والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا مَنْ ظهر منهم في المركب عمله ، والريح في القلع ، والمركب مار في الخليج كأنه سهم قد خرج من كبده قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه ؛ لسرعة سيره واستقامته في جريه ، فأشرف على قصر البطريق وهو جالس في مستشرفه مع حرمه وقد أخذت منه الخمر وَعَلَاهُ الطرب وذهب به الفرح والسرور [كل مذهب] فلما رأى البطريق مركب الصوري غَتَّى طرباً ، وصاحب فرحاً وسروراً وابتهاجاً بقدمه ، فدنا من أسفل القصر ، وحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب ، فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر ، فلم يستطع الليث في موضعه حتى نزل قبل أن يخرج ذلك الصوري من مركبه إليه ، فطلع المركب ، فلما استقرت قدمه في المركب ودنا من المجلس ضرب الصوري بعقبه على مَنْ تحت البساط من الوقوف . وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب . فما استقر دقه بقدمه حتى اختطف المركب بالمجاذيف فإذا هو في وسط [الخليج يطلب] البحر لا يلوي على شيء ، وارتفع الصوت ، ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر ، فلم يكن الليل حتى خرج من الخليج وتوسَّط البحر ، وقد أوثق البطريق كِتَافاً ، وطابت له الريح ، وأسعده الجد ، وحملته المجاذيف في ذلك الخليج ، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام ، ورأى البر ، وحمل الرجل ، فكانوا في اليوم الثالث عشر حضوراً بين يدي معاوية بالفرح والسرور لإثلاجه بالأمر وتمام الحيلة ، وأيقن معاوية بالظفر وعلو الجد ، فقال : عليّ بالرجل القرشي ، فأتي به ، وقد حضره خواص الناس ، فأخذوا مجالسهم ، وانغصص المجلس بأهله ، فقال معاوية [للقرشي : قم فاقصص من هذا البطريق الذي لَطَم وجهك على بساط معظم الروم ؛ فإننا لم نضيعك ولا أبحنأ دمك وعرضك ، فقام القرشي ودنا من البطريق ، فقال له معاوية : انظر لا تتعد ما جرى عليك منه ، واقتصص منه على حسب ما صنع بك ، ولا تتعد ، وراع ما أوجب الله عليك من المماثلة ، فَلَطَمَه القرشي لطمات ، ووكزه في حلقه ، ثم انكبَّ القرشي على يد [ي] معاوية وأطرافه يقبلها ، وقال : ما أضاعك مَنْ سَوَّدَكَ ، ولا خاب فيك

أَمَلُ من أملك، أنت ملك لا تضام، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأَغْرَقَ في دعائه ووصفه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وِبَرَّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أموراً كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك، وقال للصوري: سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن كان أَسِرَ معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته، فحملوا إلى صور مكرمين، وحملوا في المركب، فطابت لهم الرياح، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم، وقربوا من فم الخليج، وإذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به، فطرح البطريق ومن معه، وانصرف الصوري راجعاً، وحمل البطريق من ساعته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، تباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهئين له من الأسر؛ فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله بالبطريق والهدايا؛ فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أَمَكِرَ الملوك وأذْهَى العرب، ولهذا قدمته العرب عليها، فسأس أمرها، والله لو هَمَّ بأخذي لمت له الحيلة عليّ.

وقد أتينا على خبر معاوية فيما سلف من هذا الكتاب، وأتينا على مبسوطه وأخبار الوافدين والوافدات عليه من الأمصار فيما سلف من كتبنا، وإن كنا قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب من أخبار معاوية جملاً.

ولملوك الروم وبطارقتها. ممن سلف وخلف إلى هذا الوقت. أخبار حسان مع ملوك بني أمية والخلفاء من بني العباس في المَعَاذِي والسَّرَايا وغيرها، وكذلك لأهل الثغور الشامية والجزرية إلى هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. وقد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا، وقدما في هذا الكتاب جملاً من أخبارهم ومقادير أعمارهم وأيامهم، ولمعاً من سيرهم، وكذلك أخبرنا عن ملوك الأمم وسيرهم.

محبة المعتمد للهو

أول من اتخذ العود ونحوه

قال المسعودي: وكان المعتمد مشغولاً بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي، وذكر عبيد الله بن خرداذبه أنه دخل عليه ذات يوم، وفي المجلس عدة من ندمائه من ذوي العقول والمعرفة والحجى، فقال له: أخبرني عن أول من اتخذ العود، قال ابن خرداذبه: قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة: أول من اتخذ العود لمك بن متوشلخ بن محويل بن عاد بن خنوخ بن فاين بن آدم، وذلك أنه كان له

ابن يحبه حباً شديداً، فمات، فعلقه بشجرة، فتقطعت أوصاله، حتى بقي منه فخذُه والساق والقدم والأصابع، فأخذ خشباً فرققه وألصقه، فجعل صدر العود كالفخذ، وعنقه كالساق، ورأسه كالقدم، والملاوي كالأصابع، والأوتار كالعروق، ثم ضرب به وناح عليه، فنطق العود، قال الحمدوني:

وناطق بلسانٍ لا ضمير له كأنه فخذٌ نيطت إلى قدم
يُبدي ضمير سواه في الحديث كما يُبدي ضمير سواه منطلق القلم

واتخذ توبل بن لمك الطبول والدفوف، وعملت ضلال بنت لمك المعازف، ثم اتخذ قوم لوط الطنابير، يستميلون بها الغلمان [ثم اتخذ الرعاة] والأكراد نوعاً مما يصفر به، فكانت أغنامهم إذا تفرقت صفروا فاجتمعت؛ ثم اتخذ الفرس الثائي للعود، والدياتي للطنبور، والسرياني للطلبل، والسنج الصنج، وكان غناء الفرس بالعيدان والصنوج، وهي لهم، ولهم النغم والإيقاعات والمقاطع والطروق الملوكية؛ وهي سبع طروق: فأولها سكاف، وهو أكثرها استعمالاً لتنقل الأنهار، وهو أفصحها مقاطع، وأمرسه، وهو أجمعها لمحاسن النغم، وأكثرها تصعداً وانحداراً، وما دار وسان، وهو أثقلها، وسايكاد، وهو المحبوب للأرواح، وسيسم، وهو المختلس المنقل، وحويعران، وهو الدرج الموقوف على نغمة، وكان غناء أهل خراسان وما والاها بالزنج، وعليه سبعة أوتار، وإيقاعه يشبه إيقاع الصنج، وكان غناء أهل الري وطبرستان والديلم بالطنابير، وكانت الفرس تقدم الطنبور على كثير من الملاهي، وكان غناء النبط والجرامقة بالغيروارات، وإيقاعها يشبه إيقاع الطنابير.

وقال فندروس الرومي: جعلت الأوتار أربعة بإزاء الطبائع، فجعلت الزبر بإزاء المرة الصفراء، والمثنى بإزاء الدم، والمثلث بإزاء البلغم، واليَم بإزاء المرة السوداء.

ملاهي الروم

وللروم من الملاهي الأرغل، وعليه ستة عشر وترأ، وله صوت بعيد المذهب وهو من صنعة اليونانيين، والسلبان، وله أربعة وعشرون وترأ، وتفسيره ألف صوت، ولهم اللورا، وهي الرباب، وهي من خشب، ولها خمسة أوتار، ولهم القيثارة، ولها اثنا عشر وترأ، ولهم الصلنج وهو من جلود العجاجيل، وكل هذه معازف مختلفة الصفة، ولهم الأرغن، وهو ذو منافخ من الجلود والحديد.

الهند

وللهند الكنكلة، وهو وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج.

حداء العرب

قال: وكان الحُدَاء في العرب قبل الغناء، وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير في بعض أسفاره فانكسرت يده، فجعل يقول: يا يَدَاه، يا يَدَاه، وكان من أحسن الناس صوتاً، فاستوسقت الإبل وطاب لها السير، فاتخذته العرب حُدَاء برجز الشعر، وجعلوا كلامه أول الحداء فمن قول الحادي:

يا هادياً يا هادياً ويا يداه يا يداه

فكان الحُدَاء أول السماع والترجيع في العرب، ثم اشتق الغناء من الحُدَاء، ونَحَنَ نساء العرب على موتاهما، ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أوْلَعَ بالملاهي والطرب من العرب، وكان غناؤهم النصب ثلاثة أجناس: الركباني، والسناد الثقيل، والهزج الخفيف.

أول الغناء في العرب

وكان أول من غنَّى من العرب الجرادتان، وكانتا قيتين على عهد عاد لمعاوية بن بكر العملي، وكانت العرب تسمي القينة الكربة، والعود المزهر، وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها [جنس واحد، وغناؤهم] جنسان: حنفي، وحميري؛ والحنفي أحسنهما، ولم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النصب، حتى قدم النضر بن الحارث بن كَلْدَة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي من العراق وافداً على كسرى بالحيرة؛ فتعلم ضرب العود والغناء عليه؛ فقدم مكة فعلم أهلها، فاتخذوا القينات.

أثر الغناء

والغناء يرق الذهن، ويلين العريكة، و[يبهج] النفس ويسرُّها، ويشجع القلب، ويسخي البخيل، وهو مع النبيذ يعاونان على الحزن الهادم للبدن، ويُخَدِّثان له نشاطاً، ويفرجان الكرب، والغناء على الانفراد يفعل ذلك، وفضل الغناء على المنطق كفضل المنطق على الخرس، والبرء على السقم، وقد قال الشاعر:

لا يبعثن على همومك إذ ثَوْتُ غير المدام ونغمة الأوتار

فالله در حكيم استنبطه، وفيلسوف استخرجه، أي غامض أظهر؟ وأي مكنون كَشَفَ؟ وعلى أي فن دَلَّ؟ وإلى أي علم وفضيلة سبق؟ فذلك نسيجٌ وَخِدٌ، وقرع دهره. وقد كانت الملوك تنام على الغناء ليسري في عروقتها السرور، وكانت ملوك الأعاجم لا تنام إلا على غناء مطرب، أو سمر لذيذ، والعربية لا تُنَوِّمُ وَلَدَهَا وهو يبكي، خَوْفٌ أن يسري الهم في جسده، ويدب في عروقه، ولكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فَرِحَ مسرور، فينمو جسده، ويصفو لونه ودمه، ويشف عقله، والطفل يرتاح إلى الغناء، ويستبدل ببكائه ضحكاً.

وقد قال يحيى بن خالد بن برمك: الغناء ما أَطْرَبَكَ فَأَرْقَصَكَ، وأبكاك فأشجأك، وما سوى ذلك فَبَلَاءٌ وهم.

قال المعتمد: قد قلت فأحسنَت، ووصفت فأطنبت، وأقمت في هذا اليوم سُوقاً للغناء، وعيداً لأنواع الملاهي، وإن كلامك لمثل الثوب المَوْشَى، يجتمع فيه الأحمر، والأصفر، والأخضر، وسائر الألوان؛ فما صفة المغني الحاذق؟

المغني الحاذق

قال ابن خرداذبه: المغني الحاذق يا أمير المؤمنين: من تمكن من أنفاسه، ولطف في اختلاسه، وتفرغ في أجناسه.

أنواع الطرب

قال المعتمد: فعلى كم تنقسم أنواع الطرب؟

قال: على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين، وهي طرب محرك، مستخف الأريحية، ينعش النفس، ودواعي الشيم عند السماع، وطرب شجن وحزن، لا سيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب، والشوق إلى الأوطان، والمراثي لمن عدم الصبر من الأحباب، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس، ولا سيما عند سماع جودة التأليف، وإحكام الصنعة؛ إذ كان مَنْ لا يعرفه ولا يفهمه لا يسره، بل تراه متشاغلاً عنه؛ فذلك كالحجر الجَلْمَد، والجماد الصَّلْد، سواء وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ، وقد قال يا أمير المؤمنين بعض الفلاسفة المتقدمين، وكثير من حكماء اليونانيين: مَنْ عرضت له آفة في حاسة الشم كَرِهَ رائحة الطيب، ومن غَلِظَ حسه كره سماع الغناء، وتشاغل عنه، وعَابَهُ، وَدَمَّهُ.

منزلة الإيقاع وألقابه

قال المعتمد: فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم؟

قال: قد قال في ذلك يا أمير المؤمنين مَنْ تقدم: إن منزلة الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر، وقد أوضحوا الإيقاع، ووسَّموه بسمات، ولقَّبوه بألقاب، وهو أربعة أجناس: ثقيل الأول، وخفيفه، وثقيل الثاني، وخفيفه، والرملة الأول، وخفيفه، والهزج، وخفيفه، والإيقاع: هو الوزن، ومعنى أوقع وزَّن، ولم يوقع: خرج من الوزن، والخروج إبطاء عن الوزن أو سرعة؛ فالثقل الأول: نقره ثلاثة ثلاثة، اثنتان ثقيلتان بطيئتان، ثم نقرَة واحدة، وخفيف ثقيل الثاني: نقرة اثنتان متواليتان، وواحدة بطيئة، واثنتان مزدوجتان، وخفيف الرمل: نقره اثنتان اثنتان مزدوجتان، وبين كل زوج وقفة، والهزج: نقرة واحدة واحدة مستويتان ممسكة، وخفيف الهزج: نقرة واحدة واحدة متساويتان في نسق واحد أخف قدراً من الهزج، والطرائق ثمان: الثقيلان الأول والثاني، وخفيفاهما، وخفيف الثقيل [الأول] منهما يسمى بالمأخوري، وإنما سُمِّي بذلك؛ لأن إبراهيم بن ميمون الموصلي. وكان من أبناء فارس، وسكن الموصل. كان كثير الغناء في هذه المواخير، بهذه الطريقة، والرمل وخفيفه، ويتفرع من كل واحد من هذه الطرائق مزمووم مطلق، وتختلف مواقع الأصابع فيها فيحدث لها ألقاباً تميزها، كالمعصور، والمخبول، والمحثوث، والمخدوع، والأدراج.

والعودُ عند أكثر الأمم وجُلُّ الحكماء يوناني، صنَّعه أصحاب الهندسة على هيئة طبائع الإنسان؛ فإن اعتدلت أوتاره على الأقدار الشريفة جَانَسَ الطبائع فأطرب، والطَّرَبُ: رَدُّ النفس إلى الحال الطبيعية دفعة، وكل وَتَرَ مثل الذي يليه ومثل ثلثه. والدستبان الذي يلي الأنف موضوع على خط التسع من جملة الوتر [والذي يلي المشط موضوع على خط الربع من جملة الوتر] فهذه يا أمير المؤمنين جوامع في صفة الإيقاع ومنتهى حدوده.

ففرح المعتمد في هذا اليوم، وخلع على ابن خرداذبه، وعلى مَنْ حضره من ندمائه، وفَضَّله عليهم، وكان يوم لهو وسرور.

فلما كان صبيحة تلك الليلة دعا المعتمد مَنْ حضره في اليوم الأول، فلما أخذوا مراتبهم من المجلس قال لبعض مَنْ حضره من ندمائه [ومغنيه] صف لي الرقص وأنواعه، والصفة المحمودة من الرقص، واذكر لي شمائله.

الرقص وأنواعه

فقال المسؤول: يا أمير المؤمنين، أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم، فجملة الإيقاع في الرقص ثمانية أجناس: الخفيف، والهزج،

والرمل، وخفيف الرمل، [وخفيف الثقيل الثاني، وثقيله] وخفيف الثقيل الأول، وثقيله، والراقص يحتاج إلى أشياء في طباعه، وأشياء في خَلْقته، وأشياء في عمله؛ فأما ما يحتاج إليه في طباعه فخفة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع، وأن يكون طالبه مرحاً إلى التدبير في رقصه والتصرف فيه، وأما ما يحتاج إليه في خَلْقته فطول العنق والسوالف، وحسن الدَّلِّ والشمائل، والتمايل في الأعطاف، ورقة الخصر [والخفة] وحسن أقسام الخلق وَوَاقِع المناطق، واستدارة الثياب من أسافلها ومخارج النفس، والإراحة، والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع، وإمكان لينها في نقلها وفيما يتصرف فيه من أنواع الرقص من الإبل، ورقص الكرة، وغيره، ولين المفاصل، وسرعة الانتقال في الدُّوران، ولين الأعطاف. وأما ما يحتاج إليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص، وإحكام كل حد من حدوده، وحسن الاستدارة، وثبات القدمين على مدارهما، واستواء ما تعمل يُمنى الرُّجُل ويسراها، حتى يكون في ذلك واحداً. ولوضع القدم ورفعها وجهان: أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع، والآخر أن يتشبث به، فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الإيقاع فهو من الحس والحسن سواء، وأما ما يتشبث به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن؛ فليسكن ما يوافق الإيقاع مترافعاً، وما يتشبث به متسافلاً.

قال المسعودي: وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس قد دُونت في أنواع من الأدب، منها: مدح النديم، [وذكر فضائله، وذم التفرد بشرب النبيذ، وما قيل في ذلك من المنشور والشعر، وما قيل في أخلاق النديم] وصفاته وعفافه وأمن عَيْثِه، والتداعي إلى المنادمات والمراسلات في ذلك، وعدد أنواع الشرب في الكثرة، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه، وأصول الغناء ومبادئه في العرب وغيرها من الأمم، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم، وتعبية مجالس الندماء والتحيات كما قال العطوي في ذلك:

حيّ التحيّة أصحاب التحيات القائلين إذا لم تَسْقِهم: هات
أما الغداة فَسَكْرَى في نعيمهم وبالعشيّ فَصَرَعَى غير أموات
وبين ذلك قَصَفٌ لا يُعَادِلُهُ قصف الخليفة من لهو ولذات

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» مما لم يتقدم له ذكر كَصُنُوف الشراب، والاستعمال لأنواع الثَّقَل إذا وضع ذلك في المناقل والأطباق فنضد نضداً، ورصف رصفاً، والإبانة عن المراتب في ذلك، ووصف جمل آداب الطبخ مما يحتاج التابع إلى معرفته، والأديب إلى فهمه من المتولدات في معرفة الألوان، ومقادير

التوابل والأبزار، وأنواع المحادثات، وغسل اليدين بحضرة الرئيس، والمقام عن مجلسه، وإدارات الكاسات، وما حكي في ذلك عن الأسلاف من ملوك الأمم وغيرهم، وما قيل في الإكثار والإقلال من الشراب، وما ورد في ذلك من الأخبار، وطلب الحاجات والاستمناعات من أهل الرياسة على المعاقرات، وهيئة النديم وما يلزمه لنفسه، وما يلزم الرئيس لنديمه، والفرق بين التابع والمتبوع، والنديم والمندام، وما قال الناس في العلة التي من أجلها سمي النديم نديماً، وكيفية الأدب في لعب الشطرنج، والفرق بينها وبين التُّرد، وما ورد في ذلك من الأخبار، وانتظمت فيه من الدلائل والآثار، وما ورد عن العرب في أسماء الخمر وُزُود التحريم فيها، وتنازع الناس في رد غيرها من أنواع الأنبذة عليها قياساً، ووصف أنواع آتيها، ومن كان يشربها في الجاهلية ومن حرّمها، ووصف السكر، وما قال الناس في ذلك، وكيفية وقوعه: أمن الله أم من خلقه؟ وغير ذلك مما لحق بهذا الباب، واتصل بهذه المعاني، وإنما نذكر هذه اللمع منبهين بها على ما قدمنا فيما سلف من كتبنا.

ثورة تنتهي بموت الموفق وقيام المعتضد

وكان أبو العباس المعتضد محبوساً فلما خرج أبوه الموفق [إلى الجبل] خلفه بدار الوزير إسماعيل بن بلبل، وكان مُضَيّقاً عليه، إلى أن وافى الموفق من أذربيجان عليلاً مُذْنِفاً مورماً في بيت من الخشب قد اتخذ له مبطناً بالخز والحريز وفي أسفله حلق قد جعل فيها الدهن فتحمله الرجال على أكتافها نواكب. وكان وصوله إلى بغداد يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين، فأقام بمدينة السلام أياماً فاشتدت عِلّته؛ وأرجف بموته؛ وانصرف إسماعيل بن بلبل وقد يش منه، فوجّه إسماعيل بن بلبل إلى كفهم، وقيل: إلى بكتمر. وكان موكباً بالمعتضد بالمداخن، على أقل من يوم من مدينة السلام. أن ينصرف بالمعتضد والمفوض إلى الله ابنه إلى بغداد، فدخل المعتضد إليها في يومه، واتصل بإسماعيل صلاح الموفق، فأنحدر معه المعتضد والمفوض في طيارة إلى دار ولده، وقد كان يأنس الخادم ومؤنس الخادم وصافي الحرمي وغيرهم من خدم الموفق وغلماؤه، أخرجوا أبا العباس من الموضع الذي كان فيه محبوساً، وساروا به إلى الموفق، وأحضر إسماعيل بن بلبل والمعتضد والمفوض معه، وكثر اضطراب القواد والموالي، وأسرعت العامة وسائر الخدم في النهب، فأنتهبوا دار إسماعيل بن بلبل، ولم تبق دار جليل ولا كاتب نبيل إلا نهبوا، وفتحت الجسور، وأبواب السجون، ولم يبق أحد في المطبق ولا في الحديد إلا أخرج، وكان أمراً فظيعاً

غليظاً، وخلع على أبي العباس، وعلى إسماعيل بن بلبل، وانصرف كل واحد منهما إلى منزله، فلم يجد إسماعيل في داره ما يقعد عليه، حتى وَجَّه إليه الشاه ابن ميكال ما قعد عليه، وقام بأمر طعامه وشرابه، وقد كان إسماعيل أَسْرَعَ في بيوت الأموال، وأسرف في النفقات والجوائز والخلع [والعطايا]، وأَمَدَّ العرب وأَجَزَلَ لهم الأنزال والأرزاق، واصطنع بني شيان من العرب وغيرهم من ربيعة، وكان يزعم أنه رجل من بني شيان، وطالَبَ بخراج سَنَةِ مبهمة، فثقل على الراعية، وكثر الداعي عليه، ومكث الموفق بعد ذلك ثلاثة أيام، ثم توفي ليلة الخميس، لثلاث بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين، ومات وله تسع وأربعون سنة، وأمه أم ولد رومية، يقال لها: أسحر، وكان اسم الموفق طلحة، وفيه يقول الشاعر:

لما استظل بظل الملك واجتمعت له الأمور فمنقاد ومقسور
حُطَّتْ عليه لمقدارٍ مَنِئِيَّتُهُ كذاكَ تَصْنَعُ بالناس المقاديرُ

فلما مات الموفق قام المعتضد بأمور الناس في التدبير مكان أبيه الناصر، وهو الموفق، وخلع جعفر المفوض من ولاية العهد، وقام إسماعيل بن بلبل في الوزارة بعد شغب كثير كان في مدينة السلام، وكان لأبي عبد الله بن أبي الساج ولخادمه وصيف خطب جليل، وقيد إسماعيل بن بلبل، ووجه أبو العباس إلى عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه ورد إليه أمر كتابه، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين، ولم يزل إسماعيل بن بلبل يعذَّبُ بأنواع العذاب، وجعل في عنقه غل فيه رمانة حديد، والغل والرمانة مائة وعشرون رطلاً، وألبس جبة صوف قد صيرت في ودك الأكارع، وعلق معه رأس ميت؛ فلم يزل على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين، ودفن بِغُلَّةٍ وقيوده، وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التي كانت في خزائنه، فضربت وفرقت في الجند.

غداة المعتضد الذي مات عقيبه

قال المسعودي: وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطحب يوم اثنين لإحدى عشرة [ليلة] بقيت من رجب [الفرد] سنة تسع وسبعين ومائتين، فلما كان عند العصر قدم الطعام، فقال: يا موشكيره. للموكل به. ما فعلت الرؤوس بأرقابها؟ وقد كان قدم من الليل أن يقدم له رؤوس حملان، وقد فصل فيها أرقابها، فقدمت، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه [وسُمَّارَه] يعرف بقف الملقم؛ ورجل آخر يعرف بخلف المضحك؛ فأول من ضرب بيده إلى الرؤوس الملقم، فانترع أذن واحد منها، [ولقمه في الرقاق،

وغمسها في الأصباغ، وأهوى بها إلى فيه، وأمعن في الأكل] وأما المضحك فإنه يقتلع اللهازم والأعين، فأكلوا وأكل المعتمد، وأتموا يومهم؛ فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فإنه تهرأ في الليل، وأما المضحك فإنه مات قبل الصباح، وأما المعتمد فأصبح ميتاً قد لحق بالقوم.

ودخل إسماعيل بن حماد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد، فسلم عليه بالخلافة، وكان أول مَنْ سَلَّمَ عليه بها، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعه بدر غلام المعتضد يقول: هل ترون به من بأس أو أثر؟ مات فجأة، وقتلته مداومته لشرب النبيذ، فنظروا إليه فإذا ليس به من أثر، فغسل وكفن وجعل في تابوت قد أعد له وحُمل إلى سامرا فدفن بها. وذكروا. والله أعلم. أن سبب وفاته أنه سقي نوعاً من السم في شرايهم الذي كانوا يشربونه، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت، وربما وجدوه في سنبل الطيب، وهو ألوان ثلاثة، وفيه خواص عجيبة.

وللمعتمد أخبار حسان وما كان في أيامه من الكوائن والحوادث مما كان [بخراسان] من حروب الصفار [وغيره، وما كان من ولد أبي دُلفَ بأرض الجبل، وما كان من العرب من الطولونية] وما كان بديار بكر من بلاء وأسر وغيرهما من أحمد بن عيسى ابن الشيخ، وما كان باليمن، قد أتينا على مبسوطها وجميع ذلك كله والغَرَر منه وما حدث في كل سنة من أيامه من الحوادث في كتابينا: «أخبار الزمان» والأوسط، فأغني ذلك عن إعادته في هذا الكتاب.

ذكر خلافة المعتضد بالله

موجز

وبويع أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد بالله، في اليوم الذي مات فيه المعتمد على الله [عمه] وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وأمه أم ولد رومية يقال لها ضرار، وكان وفاته يوم الأحد لسبع بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين؛ فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين، وتوفي بمدينة السلام وله سبع وأربعون سنة، وقيل: إنه ولي الخلافة وهو ابن إحدى وثلاثين سنة، وتوفي سنة تسع وثمانين. على ما ذكرنا. وله أربعون سنة وأشهر، على تباين أصحاب التواريخ في كتبهم، وما أرخوه في أيامهم، والله الموفق.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

حال الرعية في أيامه

ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، ورخصت الأسعار، وهدأ الهرج، وسالمة كل مخالف، وكان مُظْفَرًا قد دانت له الأمور، وانفتح له الشرق والغرب، وأدبل له [في] أكثر المخالفين عليه والمُنَابِذِينَ له، وظفر بهارون الشاري.

وكان صاحب المملكة والقيم بأمر الخلافة بذّر مولاة، وإليه جميع المعارف في جميع الآفاق، وإليه أمر الجيوش وسائر القواد.

مالية الدولة في عهده

وخلف المعتضد في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار، ومن الورق أربعين ألف ألف درهم، ومن الدواب والبغال [والجمازات] والحمير والجمال اثني عشر ألف رأس، وكان مع ذلك شحيحاً بخيلاً ينظر فيما لا ينظر فيه العوام.

تقديره

وحكى عبد الله بن حمدون. وكان نديمه وخاصته، وممن كان يأنس به في خلواته. أنه أمر أن تنقص حَسْمُهُ ومن كان يجري عليه الأنزال من كل رغيف أوقية، وأن يبتدأ بأمر خبزه؛ لأن للوصائف عدداً من الرغفان فيها ثلاث لذا وأربع لذا وأكثر من ذلك، قال ابن حمدون: فتعجبت من ذلك في أول أمره، ثم تبينت القصة؛ فإذا أنه يتوفر من ذلك في كل شهر مال عظيم، وتقدم إلى خَزَّانِه أن يختار له من الثياب التسترية والديقية أحسنها لتقطيعها لنفسه.

أنواع من قسوته

وكان مع ذلك قليل الرحمة، كثير الإقدام، سفاكاً للدماء، شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله.

وكان إذا غضب على القائد النبيل، والذي يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفرة [بحضرته] ثم يدلى على رأسه فيها، ويطح التراب عليه، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب، ويداس التراب، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره.

وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويَقِيد؛ فيؤخذ القطن فيحشى في أذنه وخيشومه وفمه، وتوضع المناfox في دبره حتى يتنفخ ويعظم جسمه ثم يسد الدبر بشيء من القطن، ثم يفصد، وقد صار كالجمل العظيم، من العرقين اللذين فوق الحاجبين، فتخرج النفس من ذلك الموضع، وربما كان يقام الرجل في أعلى القصر مجرداً مؤثقاً ويرمى بالنشاب حتى يموت.

واتخذ المطامير، وجعل فيها صنوف العذاب، وجعل عليها نجاح الحرمي المتولي لعذاب الناس، ولم يكن له رغبة إلا في النساء والبناء؛ فإنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمئة ألف دينار، وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ.

وزراؤه

وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته، فلما مات استوزر القاسم بن عبيد الله.

صلاته العيد

وقد كان المعتضد في هذه السنة. وهي سنة تسع وسبعين ومائتين. ركب يوم الفطر. وهو يوم الاثنين. إلى مصلى اتخذه بالقرب من داره، [فصلى بالناس] وكبر في الركعة الأولى ست تكبيرات، وفي الآخرة تكبيرة واحدة، ثم صعد المنبر، فحصر ولم تسمع له خطبة؛ ففي ذلك يقول بعض الشعراء:

حصر الإمام ولم يبين خطبة للناس في حل ولا إحرام
ما ذاك إلا من حياء، لم يكن ما كان من عي ولا إفحام

زواجه بنت خمارويه

وفي هذه السنة قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخمارويه بن أحمد، ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة [وطراز]، فوصل إلى المعتضد يوم

الاثنين لثلاث خَلَوْنَ من شوال، وخلع عليه وعلى سبعة نفر معه، ثم سعى في تزويج ابنة خمارويه من عليّ المكتفي، فقال المعتضد: إنما أراد أن يتشرف بنا، وأنا أزيد في تشريفه، أنا أتزوجها، فتزوجها، وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها؛ فيقال: إنه حمل معها جوهرأ لم يجتمع مثله عند خليفة قط؛ فاقتطع ابن الجصاص بعضه، وأعلم قَطْر الندى بنت خمارويه أن ما أخذ مُودَع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه؛ فماتت والجوهر عنده؛ فكان ذلك سبب غناه واستقلاله، وقد كانت لابن الجصاص محن بعد ذلك في أيام المقتدر، وما كان من القَبْض عليه، وما أخذ منه من الأموال بهذا السبب وغيره، وحمل المعتضد صداق قطر الندى وهو بمدينة بلد إلى أبي الجيش، وكان الصداق ألف ألف درهم، وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق، وكان مما خص به أبا الجيش في نفسه وَحَبَاه به بَذَرَة من الجوهر المثلث فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج وإكليل، وقيل: قلنسوة، وكرزن. وكان وصولهم إلى مصر في رجب سنة ثمانين ومائتين، وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن حمل ما وصفنا إلى مدينة السلام في الماء.

ابن الجصاص

وحدث أبو سعيد أحمد بن الحسين بن منقذ قال: دخلت يوماً على الحسن بن الجصاص وإذا بين يديه سفظ مبطن بالحرير فيه جوهر قد نظم منه سبع؛ فرأيت شيئاً حسناً ووقع في نفسي أن عددها يجاوز العشرين؛ فقلت له: جعلني الله فداك! كم عدد [ما في] كل سبحة؟ فقال لي: مائة حبة، وزن كل حبة كوزن صاحبها لا تزيد ولا تنقص، وقد عدلت كل سبحة وزن صاحبها، وإذا بين يديه سبائك ذهب توزن بَقَبَان كما يوزن الحطب؛ فلما خرجت من عنده تلقاني أبو العيناء فقال لي: يا أبا سعيد، على أي حال تركت هذا الرجل؟ فوصفت له ما رأيت، فقال رافعاً رأسه إلى السماء: اللهم إن كنت لم تُسَاوِ بيني وبينه في الغنى، فَسَاوِ بيني وبينه في العمی، ثم اندفع يبكي، فقلت: يا أبا عبيد الله، ما شأنك؟ فقال: لا تنكر ما رأيت مني، لو رأيت ما رأيت لضعفت، ثم قال: الحمد لله على هذه الحالة، وقال: يا أبا سعيد، ما حَمَدْتُ الله تعالى على العمی إلا في وقتي هذا؛ فقلت لمن يخبر حال ابن الجصاص: بأي شيء ختم هذا السبح؟ فقال: بياقوتة حمراء لعل قيمتها أكثر مما تحتها.

أبو العيناء

وكانت وفاة أبي العيناء سنة اثنتين وثمانين ومائتين بالبصرة في جمادى الآخرة،

وكان يكنى بأبي عبيد الله، وكان قد انحدر من مدينة السلام إلى البصرة في زورق فيه ثمانون نفساً في هذه السنة فغرق الزورق، ولم يتخلص مما كان فيه إلا أبو العيناء، وكان ضريراً، تَعَلَّقَ بأطراف الزورق فأخرج حَيًّا، وتلف كل من كان معه، فبعد أن سلم ودخل البصرة مات.

وكان لأبي العيناء من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن عليه أحد من نُظَرَائِهِ، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي علي البصير وغيره، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا.

وحضر مجلس بعض الوزراء، فتعارضوا حديث بعض البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء، وقد كان أَمَعَنَ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال: قد أَكْثُرَتْ من ذكرهم ووصفك إياهم، وإنما هذا من تصنيف الـوَرَّاقِينَ وتأليف المحسنين، فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الـوَرَّاقُونَ عليك أيها الوزير بالبذل والجود؟ فأَمْسَكَ عنه الوزير، وتعجب الناس من إقدامه عليه.

واستأذن يوماً على الوزير صاعد بن مخلد، فقال له الحاجب: الوزير مشغول فانتظر، فلما أبطأ إذنه قال للحاجب: ما صنع الوزير؟ قال: يصلي، قال: صدقت لكل جديد لذة، يعيره بأنه حديث عهد بالإسلام.

وقد كان أبو العيناء دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجَعْفَرِي، وذلك في سنة ست وأربعين ومائتين، فقال له: كيف قولك في دارنا هذه؟ فقال: إن الناس بَنَوْا الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك، فاستحسن ذلك ثم قال له: كيف شربك النبيذ؟ فقال: أعجز عن قليله، وافتضح من كثيره، فقال له: دَعْ هذا عنك ونادمننا، فقال: أنا امرؤ محجوب، والمحجوب تتخطف إشارته، ويجور قصده، وينظر منه إلى ما لا ينظر إليه، وكل مَنْ في مجلسك يخدمك، وأنا أحتاج أن أخدم، وأخرى لست آمن أن تنظر إليّ بعين رَاضٍ وقلبك غضبان، أو بعين غضبان وقلبك رَاضٍ، ومتى لم أُمَيِّز بين هاتين هلكت، فأختار العافية على التعرض للبلاء، فقال: بَلَّغْنَا عَنْكَ بَدَاءً، قال: يا أمير المؤمنين، قد مدح الله تعالى وذم فقال: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وقال جل ذكره: ﴿هَآؤَ مَسْأَلُ بْنُ جَبْرِ﴾ [القلم: ١١] الآية فإن لم يكن البداء بمنزلة العقرب يلدغ النبي ﷺ والذمي فلا ضَيْرَ في ذلك، قال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أك صادقاً ولم أستم التُّكْسَ اللئيم المذمماً
ففيَمَ عَرَفْتُ الخير والشر باسمه وَشَقَّ لِيَّ الله المسامع والفما؟

قال: من أين أنت؟ قال: من البصرة، قال: ما تقول فيها؟ قال: ماؤها أجاج، وحرها عذاب، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم.

وكان وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان واقفاً على رأسه، قال: ما تقول في عبيد الله بن يحيى بن خاقان؟ قال: نعم العبد، منقسم بين طاعة الله تعالى وخدمتك.

ودخل ميمون بن إبراهيم صاحب ديوان البريد، فقال له: ما تقول في ميمون؟ قال: يد تسرق، وأست تضبط، وهو بمنزلة يهودي قد سرق نصف خزينة، له إقدام ومعه إحكام، إحسانه تكلف، وإساءته طبيعة، فأضحكه ذلك منه، ووصله وصرفه.

هدايا الصفار للمعتضد

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين ورَدَتْ هدايا من قبل عمرو بن الليث الصفار: منها مائة دابة من مَهاري خراسان وجمازات كثيرة وصناديق كثيرة وأربعة آلاف ألف درهم، وكان معها صنم من صُفَر على مثال امرأة لها أربعة أيْدٍ وعليها وشاحان من فضة مُرَصَّعَانِ بالجواهر الأحمر والأبيض، وبين يدي هذا المثال أصنام صغار لها أبد ووجوه وعليها الحلبي والجوهر، وكان هذا التمثال على عَجَلٍ قد عمل على مقدارها تجره الجمازات؛ فصير بذلك أجمع إلى دار المعتضد؛ ثم رد هذا التمثال إلى مجلس الشرطة في الجانب الشرقي؛ فنصب للناس ثلاثة أيام ثم رد إلى دار المعتضد، وذلك في يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة؛ فسمت العامة هذا التمثال شغلاً؛ لاشتغالهم عن أعمالهم بالنظر إليه عدة هذه الأيام.

وقد كان عمرو بن الليث قد حمل هذا الصنم من مدن افتتحها من بلاد الهند ومن جبالها مما يلي بلاد بسط ومعبر وبلاد الدوار، وهي تغور في هذا الوقت. وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. مما يليها من الأكافر والأمم المختلفة حَضَرُ وَبَدُو، فمن الحضر بلاد كابل وبلاد باميان، وهي بلاد متصلة ببلاد زابلستان والرخج، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الأمم الماضية والملوك الغابرة أن زابلستان تعرف ببلاد فيروز بن كبك ملك زابلستان.

وقد كان عيسى بن علي بن ماهان دخل في طلب الخوارج في أيام الرشيد إلى السند وجبالها والقندهار والرخج وزابلستان، يقتل ويفتح فتوحاً لم يتقدم مثلها في تلك الديار؛ ففي ذلك يقول الأعمى الشاعر المعروف بابن العذافر القمي:

كاد عيسى يكون ذا القرنين بلغ المغربين والمشرقين
لم يَدْعَ كابلاً ولا زابلستا ن فما حولها إلى الرخجين

وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الأخبار عن قلاع فيروز بن بك الملك ببلاد زابلستان التي ليس في قلاع العالم على ما ظهر للناس من ذوي العناية والتقدير ومن أكثر في الأرض المسير أحصن منها، ولا أمنع ولا أعلى في الجو، ولا أكثر عجائب منها، وذكرنا عجائب تلك الديار إلى بلاد الطبيين وبلاد خراسان واتصالها بسجستان، وعجائب المشرقين والمغربين من عامر وغامر، وما في العامر من الأمم المختلفة الخلق والخلق.

قدوم أهل البصرة على المعتضد

وقد كان أهل البصرة وردوا على المعتضد في مراكب بحرية بيض مشحمة بالشحم والنورة على ما في بحرهم، ووفد فيها خلق من خطبائهم ومتكلميهم وأهل الرياسة والشرف والعلم: منهم أبو خليفة الفضل بن الحجاب الجمحي، وكان مولى آل جُمح من قریش، وكان ولي القضاء بعد ذلك، يشكون إلى المعتضد ما نزل بهم من محن الزمان، وجذب لحقهم، وجور من العمال اعتورهم، وألحوا بالصياح والضجيج في مراكبهم في دجلة، فجلس لهم المعتضد من وراء حجاب، وأمر الوزير القاسم بن عبيد الله وغيره من كتاب الدواوين بالجلوس لهم من حيث يسمع المعتضد خطابهم، فيقصون لهم بما يشكونه من حكم الدواوين، ثم أذن للبصريين فدخلوا، وأبو خليفة في أولهم، عليهم الطيالة الزرق والأقناع على رؤوسهم، ذوو عوارض جميلة وهيئة حسنة، فاستحسن المعتضد ما رأى منهم، وكان المبتدئ منهم بالنطق أبو خليفة؛ فقال: غمر العامر، وذکر الظاهر، واختلفت العواء، وخسفت الجوزاء، وأناخت علينا المصائب، واعتورتنا المحن، وقام كل رجل منا في ظلمة، واصطلمت الضياع، وانخفضت القلاع، فانظر إلينا بعين الإمام، تستقيم لك الأيام، وتنقاد لك الأنعام، وإلا فنحن البصريون لا نُدفع عن فضيلة، ولا نتنافس عن جليلة وسَجَّع في كلامه، وأغرق في خطابه، فقال له الوزير: أحسبك مؤدباً أيها الشيخ، فقال له: أيها الوزير، المؤدبون أجلسوك هذا المجلس، قال له الوزير: كم في خمس من الإبل؟ قال له أبو خليفة: الخبير سألت؛ في خمس من الإبل شاة، وفي العشر شاتان؛ ثم مضى في وصف فرائض الإبل واصفاً لما يجب فيها، ذاكراً للتنازع في موضعه منها؛ ثم شرع في البقر والغنم، بلسان فصيح وخطاب حسن في إيجاز من خطاب وبيان من الوصف؛ فبعث المعتضد. وقد أعجبه ما سمع، وأكثر لذلك من الضحك. بخادم إلى الوزير، فقال له: اكتب لهم عما يريدون، وأجبههم إلى ما سألوه، ولا تصرفهم إلا شاكرين؛ فهذا شيطان قذف به البحر، ومثله فليَقْد على الملوك.

أبو خليفة الجمحي

وكان أبو خليفة لا يتكلف الإعراب، بل قد صار له كالطَّبع، لدوام استعماله إياه من عنفوان حدثته، وكان ذا محل من الإسناد.

وله أخبار ونوادر حسان قد دوت: منها أن بعض عمال الخراج بالبصرة كان مصروفاً عن عمله، وأبو خليفة مصرفاً عن قضائه، فبعث العامل إلى أبي خليفة أن مبرمان النحوي صاحب أبي العباس المبرد قد زارني في هذا اليوم إلى بعض الأنهار والبساتين، فأتوه مبكرين مع من حضرنا من أصحابنا، وسألوه الحضور معهم، فجلسوا في سمارية متفكهين قد غيروا ظواهر زيهم حتى أتوا نهراً من أنهار البصرة [واستحسنوا بعض البساتين فقدموا إليه وخرجوا إلى الشط وجلسوا تحت النخل على شط النهر] وقدم إليه ما حُمل معهم من الطعام وكان أيام المبادي وهي الأيام التي يُثمر فيها الرطب فيكبسونه في القواصر تمرأ، وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل في التمر من الأكرّة، وهم الزراع وغيرهم؛ فلما أكلوا قال بعضهم لأبي خليفة غير مكن له خوفاً أن يعرفه مَنْ حضر ممن ذكرنا من الأكرّة والعمال في النخل: أخبرني أطل الله بقاءك عن قول الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْاً أَنفُسَكُ وَأَهْلِيكُ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] هذه الواو ما موقعها من الإعراب؟ قال أبو خليفة: موقعها رفع، وقوله: «قوا» هو أمر للجماعة من الرجال، قال له: كيف تقول للواحد من الرجال وللأثنين؟ قال: يقال للواحد من الرجال: قِ، وللأثنين: قيا، وللجماعة: قوا، قال: كيف تقول للواحدة من النساء وللأثنين منهن وللجماعة منهن؟ قال أبو خليفة: يقال للواحدة: قي، وللأثنين: قيا، وللجماعة: قين. قال: فأسألك أن تعجل بالعجلة كيف يقال للواحد من الرجال والأثنين والجماعة والواحدة من النساء والأثنين منهن والجماعة منهن؟ قال أبو خليفة عجلان: قِ قيا قوا قي قيا قين، وكان بالقرب منهم جماعة من الأكرّة، فلما سمعوا ذلك استعظموه، وقالوا: يا زنادقة، أنتم تقرؤون القرآن بحروف الدجاج، وعدّوا عليهم فصفعوهم، فما تخلص أبو خليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم إلا بعد كد طويل.

وقد أتينا على نوادر أبي خليفة وأخباره ومخاطبته لبغلته حين ألقته وما تكلم به حين دخول اللص إلى داره وغير ذلك في كتابنا الأوسط.

وكانت وفاة أبي خليفة بالبصرة في سنة خمس وثلاثمائة.

ابن الشيخ في آمد

وفي سنة ست وثمانين ومائتين في ربيع الأول نزل المعتمد على آمد، وذلك بعد

وفاة أحمد بن عيسى ابن الشيخ عبد الرزاق، وقد تحصن بها ولده محمد بن أحمد بن عيسى بن عبد الرزاق، فَبَتَّ جيوشه حولها وحاصرها، فحدث علقمة بن عبد الرزاق قال: حدثنا رَوَاحَةُ بن عيسى بن عبد الملك، عن شعبة بن شهاب اليشكري، قال: وَجَّهَ بي المعتضد إلى محمد بن أحمد بن عيسى ابن الشيخ لَأَخْذَ بالحجة عليه، فلما صرت إليه وَاتَّصَلَ الخبر بِأَمِّ الشَّريف أُرْسِلَتْ إلي، فقالت: يا ابن شهاب، كيف خَلَفْتَ أمير المؤمنين؟ قال: فقلت: خَلَفْتُهُ والله ملكاً جَدَلًا، وَحُكْمًا عَدَلًا، أَمَارًا بِالْمَعْرُوفِ، فَعَالًا لِلْخَيْرِ، مَعْتَزِرًا عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ، مَتَذِلًّا لِلْحَقِّ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لُومَةٌ لَائِمٌ، قال: فقالت لي: هو والله أهل لذلك ومستحقه ومستوجه، وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو ظل الله الممدود على بلاده، وخليفته المؤمن على عبادته، أَعَزُّ بِهِ دِينَهُ، وَأَحْيَا بِهِ سُنَّتَهُ، وَثَبَّتَ بِهِ شَرِيعَتَهُ. ثم قالت لي: وكيف رأيت صاحبًا؟ تعني ابن أخيها محمد بن أحمد، قال: فقلت: رأيت غلاماً حَدَّثًا معجباً قد استحوذ عليه السفهاء فاستمدَّ بِأَرَائِهِمْ وَأَنْصَتَ لِأَقْوَالِهِمْ، فهم يزخرفون له الكلام، ويوردونه التَّدَمُّ، فقالت لي: فهل لك أن تَرْجِعَ إليه بكتاب فلعلنا أن نَحْلُ ما عَقَدَهُ السفهاء؟ قال: قلت: أجل، فكَتَبْتُ إِلَيْهِ كِتَابًا لَطِيفًا [حَسَنًا] أَجَزَلْتُ فِيهِ الْمَوْعِظَةَ، وَأَخْلَصْتُ فِيهِ النَّصِيحَةَ، وَكُتِبَتْ فِي آخِرِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ:

أَقْبَلَ نَصِيحَةَ أُمِّ قَلْبِهَا وَجِعَ	عليك، خوفًا وإشفاقًا، وَقُلْ سَدَدًا
وَاسْتَعْمَلَ الْفِكْرَ فِي قَوْلِي؛ فَإِنَّكَ إِنْ	فَكَّرْتَ أَلْقَيْتَ فِي قَوْلِي لَكَ الرِّشْدَا
وَلَا تَثِقْ بِرَجَالٍ فِي قُلُوبِهِمْ	ضغائن تبعث الشُّنَّانَ وَالْحَسَدَا
مِثْلَ النَّعَاجِ خَمُولٍ فِي بَيْوتِهِمْ	حتى إذا أَمْنُوا أَلْفَيْتَهُمْ أَسَدَا
وَدَاوِ ذَلِكَ وَالْأَدْوَاءَ مِمَّ كُنْتَ	وإذا طبيبك قد أَلْقَى إِلَيْكَ بَدَا
وَاعْطِ الْخَلِيفَةَ مَا يَرْضِيهِ مِنْكَ، وَلَا	تَمْنَعُهُ مَالًا وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدَا
وَارْدَدَ أَخَا يَشْكُرُ رَدًّا يَكُونُ لَهُ	رِذَاءٌ مِنَ السُّوءِ لَمْ تُشْمِثْ بِهِ أَحَدَا

قال: فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ، وَسَرْتُ بِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، فَلَمَّا نَظَرَ فِيهِ رَمَى بِهِ إِلَيَّ، ثم قال: يا أخا يشكر، ما بَأْرَاءَ النِّسَاءِ تُسَاسُ الدُّوَلِ، وَلَا بَعْقُولِهِنَّ يُسَاسُ الْمُلُوكِ، أَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِكَ، فَرَجَعْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبَرَ عَنْ حَقِّهِ وَصَدَقَهُ، فَقَالَ: وَأَيْنِ كِتَابُ أُمِّ الشَّريف؟ قال: فَأَظْهَرْتَهُ، فَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ شَعْرُهَا وَعَقْلُهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَشْفَعَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَوْمِ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي فَتْحِ أَمْدٍ مَا كَانَ وَنَزَلَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ عَلَى الْأَمَانِ لَمَّا عَظُمَ الْقِتَالُ وَجَّهَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: يَا شُعْلَةَ بْنَ شَهَابٍ؛ هَلْ عِنْدَكُمْ عِلْمٌ مِنْ أُمِّ الشَّريف؟ قال: قلت: لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: امْضِ مَعَ هَذَا الْخَادِمِ

فإنك تجدها في جملة نساها، قال: فمضيت، فلما بصرت بي أسفرت عن وجهها وأنشأت تقول:

رَيْبُ الزَّمانِ وَصَرْفُهُ وَعَتُوهُ كَشَفَ الْقَناعِ
وَأَذَلُّ بَعْدَ الْعِزِّ مَنْ الصَّعْبَ وَالْبَطْلَ الشَّجاعِ
ولقد نصحت فما أظعد ت، وكم حرمت بأن أطاعا
فأبى بنا المقدور إلا أن نُقَسِّمَ أو نَباعا
يا ليت شعري هل ترى يوماً لفرقتنا اجتماعا

قال: ثم بكت وضربت بيدها على الأخرى، ثم قالت لي: يا [ابن] شهاب، كأنني والله كنت أرى ما أرى، فإننا لله وإنا إليه راجعون، قال: فقلت لها: إن أمير المؤمنين قد وجَّهني إليك، وما ذاك إلا لحسن رأي منه فيك، قالت: فهل لك أن توصل إليه كتابي هذا بما فيه؟ قلت: نعم، فكتبت إليه بهذه الأبيات:

قل للخليفة والإمام المرتضى وابن الخَلَّافِ من قريش الأبطح
بك أصلح الله البلاد وأهلها بعد الفساد، وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العز التي لولاك بعد الله لسم تزحزح
وأراك رَيْبَك ما تحبُّ فلا ترى ما لا يُحِبُّ، فَجُدْ بعفوك واضفح
[يا بهجة الدنيا وبذر ملوكها هَبْ ظالمي ومفسدي لمصلح]

قال: فأخذت الكتاب، وسرت به إلى أمير المؤمنين، فلما عرضت عليه الأبيات أعجبته، وأمر أن يحمل إليها تُخَوِّت من الثياب وجملة من المال، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك، وشَفَّعها في كثير من أهلها ممن عظم جرمه واستحق العقوبة عليه.

حرب مع رافع بن ليث

وكتب المعتضد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَفَ بمواقعة رافع بن ليث وذلك في سنة تسع وسبعين ومائتين، فسار أحمد بن عبد العزيز إلى رافع، والتَقُوا بالري لسبع بقين من ذي القعدة من هذه السنة، وأقامت الحرب بينهم أياماً، ثم كانت على رافع بن ليث، فولَّى، وركب أصحاب ابن أبي دُلَفَ أكتافهم، واستولوا على عسكرهم، وكان وصول هذا الخبر إلى بغداد لست خلون من ذي الحجة من هذه السنة.

محمد بن الحسن بن سهل يدعو لرجل طالبي

وفي سنة ثمانين ومائتين أخذ ببغداد رجل يعرف بمحمد بن الحسن بن سهل ابن أخي ذي الرياستين الفضل بن سهل، يلقب بشميلة، ومعه عبيد الله بن المهدي، ولمحمد بن الحسن بن سهل هذا تصنيفات في أخبار الميضة، وله كتاب مؤلف في أخبار علي بن محمد صاحب الزنج على حسب ما ذكرنا من أمره فيما سلف من هذا الكتاب، فأقر عليه جماعة من المستأمنة من عسكر العلوي وأصيب له جرائد فيها أسماء رجال قد أخذ عليهم البيعة لرجل من آل أبي طالب، وكانوا قد عزموا على أن يظهروا ببغداد في يوم بعينه، ويقتلوا المعتضد، فأدخلوا إلى المعتضد، فأبى من كان مع محمد بن الحسن أن يقرأوا، وقالوا: أما الرجل الطالبي فإننا لا نعرفه، وقد أخذت علينا البيعة له ولم نرّه، وهذا كان الواسطة بيننا وبينه، يعنون محمد بن الحسن، فأمر بهم فقتلوا، واستبقى شميلة طمعاً في أن يدلّه على الطالبي، وخلي عبيد الله بن المهدي لعلمه ببراءته، ثم أراد المعتضد بالله بمحمد بن الحسن بجميع الجهات أن يدلّه على الطالبي الذي أخذ له العهد على الرجال، فأبى، وجرى بينه وبين المعتضد خطب طويل، وكان في مخاطبته للمعتضد أن قال: لو شَوَيْتَنِي على النار ما زدتك على ما سمعت مني، ولم أقر على من دعوت الناس إلى طاعته وأقررت بإمامته، فاصنع ما أنت له صانع، فقال له المعتضد: لسنا نعذبك إلا بما ذكرت، فذكر أنه جعل في حديدة طويلة أدخلت في دبره وأخرجت من فمه وأمسك بأطرافها على نار عظيمة حتى مات بحضرة المعتضد وهو يسبه ويقول فيه العظائم، والأشهر أنه جعل بين رماح ثلاثة وشُدَّ بأطرافها وكتف وجعل فوق النار، من غير أن يماسها وهو في الحياة يدار عليها ويشوى كما تشوى الدجاج وغيرها إلى أن تفرقع جسمه، وأخرج فصلب بين الجسرين من الجانب الغربي.

محاربة بني شيبان

وفي هذه السنة كان خروج المعتضد في طلب الأعراب من بني شيبان، و[قد] كانوا عَتَوْا وأكثروا الفساد، وأوقع بهم مما يلي الجزيرة والزاب في الموضع المعروف بوادي الذئاب، فقتلَ وأسَرَ وساق الذراري وسار إلى الموصل.

وفي هذه السنة افتتح أبو عبد الله بن أبي الساج المراجعة من بلاد أذربيجان، فقبض على عبد الله بن الحسين، واستصفى أمواله، ثم أتى عليه بعد ذلك.

فتح عمان

وفي هذه السنة كانت وفاة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف.

وفي هذه السنة افتتح أحمد بن ثور عمان، وكان مسيره إليه من بلاد البحرين، فواقع الشراة من الأباضية، وكانوا في نحو من مائتي ألف، وكان إمامهم الصُّلْتُ بن مالك ببلاد بروي من أرض عمان؛ وكانت له عليهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وحمل كثيراً من رؤوسهم إلى بغداد [فنصبت بالجسر].

وفيهما دخل المعتضد بغداد منصرفاً من الجزيرة.

[وفي هذه السنة كان دخول عمرو بن الليث نيسابور].

ابنة ابن أبي الساج

وفي هذه السنة نقلت ابنة محمد بن أبي الساج إلى بدرٍ غلام المعتضد؛ وقد أتينا على خبر ابن أبي الساج وما كان من تزويجه ابنته لبدر بحضرة المعتضد؛ وما كان من خبر ابن أبي الساج ورحلته عن باب خراسان متوجهاً إلى أذربيجان في الكتاب الأوسط.

مسير إسماعيل بن أحمد إلى أرض الترك

وفي هذه السنة سار إسماعيل بن أحمد. بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد واستيلائه على إمرة خراسان. إلى أرض الترك، ففتح المدينة الموصوفة من مدنها بدار الملك، وأسر خاتون زوجة الملك، وأسر خمسة عشر ألفاً من الترك وقتل منهم عشرة آلاف، ويقال: إن هذا الملك يقال له طنكش، وهذا الاسم سِمَةٌ لكل ملك مَلَك هذا البلد من ملوكهم، وأراه من الجنسين المعروفين بالخدلجية، وقد أتينا فيما سلف من هذا الكتاب على جمل من أخبار الترك وأجناسهم وأوطانهم، وكذلك فيما سلف من كتبنا.

بين وصيف وعمرو بن عبد العزيز

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين كانت الحرب بين وصيف خادم ابن أبي الساج وعمرو بن عبد العزيز ببلاد الجبل، وكان من أمره ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا، وكان المعتضد خرج في هذه السنة إلى الجبل لأمر بلغته: منها قصة محمد بن زيد العلوي الحسيني صاحب بلاد طبرستان، فولّي ولده علياً المكتفي الري، وأنزله بها، وأضاف إليه قزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان، وانصرف المعتضد إلى بغداد وقد قلد عمرو بن عبد العزيز أصبهان وكرخ أبي دُلف.

أحداث

وفيهما استأمن إلى المكتفي على كوره، وسار إلى المعتضد في عدة كثيرة، وفيها

سار طغج بن شبيب أبو الإخشيد صاحب مصر في هذا الوقت . وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . في عساكر كثيرة من دمشق ، فدخل طرسوس غازياً وافتتح ملوريه مما يلي بلاد برغوث ودرب الراهب .

وفي هذه السنة نزل المعتضد على حمدان بن حمدون وقد تحصن في القلعة المعروفة بالصوارة نحو عين الزعفران ، وسارع إسحاق بن أيوب العنبري [إلى طاعة المعتضد ، ودخل في عسكره ، واستأمن الحسين بن حمدان بن حمدون] ومن كان معه من أصحابه إلى المعتضد ، وقد أتينا على خبر حمدان بن حمدون وما كان من أمره وصعوده الجبل الجودي وعبوره دجلة وكاتبه النصراني ودخول عسكر المعتضد ليلاً إلى إسحاق بن أيوب حتى أتى به إلى المعتضد ، وإخراجه المعتضد لهذه القلعة ، وقد كان حمدان أنفق عليها أموالاً جلية ، وهو حمدان بن حمدون بن الحارث بن منصور بن لقمان ، وهو جد أبي محمد الحسن بن عبد الله الملقب بناصر الدولة في هذا الوقت . وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . وما كان من الحسين بن حمدان في طلبه هارون الشاري ، وما كان من أخذ الحسين بن حمدان إياه ، بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب .

مقتل أبي الجيش خمارويه

قال المسعودي: وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين دُيِّحَ أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بدمشق في ذي القعدة ، وقد كان بَنَى في سفح الجبل أسفل من دير مروان قصرأ ، وكان يشرب فيه في تلك الليلة ، وعنده طغج ، وكان الذي تولى ذلك خادماً من خدمهم ، وأتى بهم على أميال فقتلوا وصلبوا ، ومنهم من رُمِيَ بالنشاب ، ومنهم من شرح لحمه من أفخاذه وعجزته ، وأكله السودان من ممالك أبي الجيش .

الخصيان

وقد أتينا على أخبار الخدم من السودان والصقالبة والروم والصين ، وذلك أن أهل الصين يَخْصُون كثيراً من أولادهم كفعل الروم بأولادهم ، وما اجتمع عليه الخصيان من التضاد ، وذلك لما حدث بهم من قطع هذا العضو ، في كتابنا «أخبار الزمان» وما أحدثته الطبيعة فيهم عند ذلك كما قاله الناس فيهم وما ذكروه من الصفات .

وذكر المدائني أن معاوية بن أبي سفيان دخل ذات يوم على امرأته فاخنة . وكانت ذات عقل وحزم . ومعه خصي ، وكانت مكشوفة الرأس ، فلما رأت معه الخصي غَطَّت رأسها ، فقال لها معاوية : إنه خصي ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أترى المثلة به أحلَّت له

ما حرم الله عليه؟ فاسترجع معاوية، وعلم أن الحق ما قالته، فلم يُدْخِلْ بعد ذلك على حرمه خادماً، وإن كان كبيراً فانياً.

وقد تكلم الناس فيهم، وذكروا الفرق بين المجبوب والمسلوب، وأنهم رجال مع النساء ونساء مع الرجال، وهذا خَلَفُ من الكلام، وفاسد من المقال، بل هم رجال، وليس في عدم عضو من أعضاء الجسد ما يوجب إلحاقهم بما ذكروا، ولا عدم نبت اللحية محيلاً لهم عما وصفوا، ومن زعم أنهم بالنساء أشبه فقد أخبر عن تغيير فعل الباري جل وعز، لأنه خَلَقَهُمْ رجالاً [لا نساء، و] ذُكْراناً، لا إناثاً، وليس في الجنائية عليهم ما يقلب أعيانهم، ويزيل خَلْقَ الباري جل وعز [لهم]، وقد قلنا في علة عدم نتن الآباط في الخدم وما قالته الفلاسفة فيما سلف من كتبنا، لأن الخادم بطيء لا يوجد لآباطه رائحة، وهذا من فضائل الخدم.

نقل جثة خمارويه إلى مصر

وَحِمِلَ أبو الجيش في تابوت إلى مصر، وَوَرَدَ الخبر بذلك إلى مصر [يوم الأحد لخمس ليال خَلَوْنَ من ذي الحجة، وَكَانَ ذبحه لأيام بقيت من ذي القعدة، فبويع لابنه جيش. وَكَانَ خمارويه به يكنى. من الغد يوم الاثنين، وَأَتَى بأبي الجيش إلى مصر]، فأخرج من التابوت، وَجَعَلَ على السرير، وذلك على باب مصر، وخرج ولده الأمير جيش، وسائر الأمراء والأولياء، فتقدم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبداني وصلى عليه، وذلك في الليل.

فحكى أبو بشر الدولابي عن أبي عبد الله النجاري. وكان شيخاً من أهل العراق، وكان يقرأ في دور آل طولون وَمَقَابِرِهِمْ. أنه كان في تلك الليلة ممن يقرأ عند القبر، وقد قدم أبو الجيش لِيُدَلِّي في القبر، ونحن نقرأ جماعة من القراء سبعة سورة الدخان، فأحدر من السرير، وَدُلِّي في القبر، وانتهينا من السورة في هذا الوقت إلى قوله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ - ٤٩] قال: فخفضنا أصواتنا وأدغمنا حياء ممن حضر.

من حزم المعتضد

ومما ذكر من خبر المعتضد وحزمه في الأمور وحيله أنه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم في الجند عشر بدر، فحملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم، فنقب منزله في تلك الليلة، وأخذت العشر البدر، فلما أصبح نظر إلى النقب ولم ير المال، فأمر بإحضار صاحب الحرس، وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلي، فلما

أتاه قال له : إن هذا المال للسلطان والجند ، ومتى لم تأت به أو بالذي نقبه وأخذ المال ألزمتك أمير المؤمنين غرمه ، فجد في طلبه ، وطلب اللص الذي جَسَرَ على هذا الفعل ، فصار إلى مجلسه ، وأحضر التوابين والشرط ، والتوابون : هم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا ، فإذا جرت حادثة علموا مِن فِعْل مَنْ هي ، فدلُّوا عليه ، وربما يتقاسمون اللصوص ما سرقوه ، فتقدم إليهم في الطلب ، وتهذِّدهم ، وأوعدهم ، وطالبهم فتفرق القوم في الدروب والأسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار . فما لبثوا أن أحضروا رجلاً نحيفاً ضعيف الجسم رث الكسوة هين الحالة فقالوا : يا سيدي هذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد ، وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال ، فأقبل عليه مؤنس العجلي فقال له : ويلك!! مَنْ كان معك؟ وَمَنْ أعانك؟ وأين أصحابك؟ ما أظنك تقدر على عشر بدر وحدك في ليلة ، ما كنتم إلا عشرة وأقل ذلك خمسة ، فأقر [لي] بالمال إن كان مجتمعاً ، وعلى أصحابك إن كان المال قد قسم ، فما زاده على الإنكار شيئاً ، فأقبل يترَفَّقُ به ويَعِدُّه أن يشبهه ويرزقه ويعظم جازئته ، ويعده بكل جميل على رده والإقرار به ، ويتوعَّده بكل مكروه [وهو] على جحوده وإنكاره ، فلما غاظه ذلك وأنكره ويش من إقراره أخذ في عقوبته ومساءلته ، فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجله وكعابه وعضله ، حتى لم يكن للضرب فيه موضع ، وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق ، فلم يقر بشيء ، فبلغ ذلك المعتضد ، فأحضر صاحب الجيش ، فقال له : ما صنعت في المال؟ فأخبره الخبر ، فقال له : ويلك!! تأخذ لصاً قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال ، فأين حيل الرجال؟ [قال : يا أمير المؤمنين ما أعلم الغيب ، ولم تكن لي في أمره حيلة غير ما فعلت ، قال : أحضرني الرجل] فأتى به وقد حمل في جل ، فوضع بين يديه وقد نقل ، فسأله فأنكر؛ فقال له : ويلك!! إن مُت لم ينفعك ، وإن برئت من هذا الضرب [ونجوت] لم أدعك تصل إليه ، فلك الأمان والضمان على ما تصلح به حالك ويحمد به أمرك فأبى إلا الإنكار ، فقال : علي بأهل الطب ، فأحضروا ، فقال : خذوا هذا الرجل إليكم فعالجوه بأرفق العلاج ، وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد ، واجتهدوا أن تبرئوه في أسرع وقت ، فأخذوه إليهم ، وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على الجند ، فيقال : إنه بريء وصلح في أيام يسيرة ، ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب حتى صَحَّ وقوي جسمه وظهر لونه ورجعت إليه نفسه ، ثم ذكر به ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر بين يديه سأله عن حاله ، فدعا وشكر ، وقال : أنا بخير ما أبقي الله أمير المؤمنين ، ثم سأله عن المال ، فعاد إلى الإنكار ، فقال له : ويلك!! لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو

وصل إليك بعضه، فإن كنت أخذته كله، فإنك تنفقه في أكل وشرب ولهو، ولا أظنك تفنيه قبل موتك، وإن مت فعليك وزره، وإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك به، فأقر [لنا به، وأقر] على أصحابك، فإني أقتلك إن لم تقر، ولا ينفعك بقاء المال بعدك، ولا يبالي أصحابك بقتلك، ومتى أقررت دفعت إليك عشرة آلاف درهم، وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك، ورسمتك من التوابين، وأجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك، وتكون عزيزاً، وتنجو من القتل، وتخلص من الإثم، فأبى إلا الإنكار، فاستحلفه بالله [فحلف] وأظهر له مصحفاً، [واستحلفه] فحلف عليه، فقال: إني سأظهر على المال، فإن أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك، فأبى إلا الإنكار، فقال له: فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي، فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه وأنه مظلوم متهم، وأن التوابين قد تبرؤوا به، فقال له المعتضد: فإن كنت قد كذبت قتلتك وأنا بريء من دمك؟ قال: نعم، فأمر بإحضار ثلاثين أسود، بحيث يراهم ويرونه، وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته، فأنت عليه أيام وهو قاعد لا يتكئ [ولا يستند] ولا يستلقي ولا يضطجع، وكلما خفق خَفَقَةً وجيء فكه وقمع رأسه، حتى إذا ضعف وقارب التلف أمر بإحضاره، فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الأيمان، فحلف على ذلك كله وبما لم يستحلفه به أنه ما أخذ المال ولا يعرف من أخذه، فقال المعتضد لمن حضر: قلبي يشهد أنه بريء، وأن ما يقول حق خَفَقَةً، وأن التوابين قد عرفوا صاحبه، وقد أثمنا في هذا الرجل، وسأله أن يجعله في جِلٍّ، ففعل، ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام، وأحضر بارد الشراب، وأمره بالجلوس والأكل والشراب، فأقبل يأكل ويشرب، ويَحْتُ على الأكل، ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر، حتى لم يبق للأكل والشرب موضع، ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب، وأتى له بحشية ريش فوطيء له ومهد، فلما استلقى واستراح وغفا أمر بإزعاجه وسرعة إيقاظه، فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفي عينيه الوَسْنُ، فقال له: حدثني كيف صنعت؟ وكيف نقبت؟ ومن أين خرجت؟ وإلى أين ذهبت بالمال؟ ومن كان معك؟ قال: ما كنت إلا وحدي، وخرجت من الثقب الذي دخلت منه، وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به، فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقماش والقصب فوضعت تحتها وعَطَّيْتَهُ، وهو هنالك، فأمر برده إلى فراشه، فردوه وأضجعوه عليه، ثم أمر بإحضار المال، فأحضر عن آخره، وأحضر مؤنس العجلي، وأحضر الوزير والجلساء، وقد غطي المال بالبساط ناحية من المجلس، ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى في النوم وذهب عنه الوَسْنُ، فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول، فجحد وأنكر، فأمر بكشف البساط، وقال له: ويلك!! أليس هذا المال؟ أليس فعلت كذا وكذا؟ يصف له ما كان

حَدَّثَهُ، بِهِ، فَأَسْقَطَ فِي يَدِ اللَّصِّ، ثُمَّ أَمَرَ فَقَبَضَ عَلَى يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ وَأَوْثَقَ، ثُمَّ أَمَرَ بِمَنْفَاخٍ فَنَفَخَ فِي دَبْرِهِ، وَأَتَى بِقُطْنٍ فَحَشَى فِي أُذُنَيْهِ وَفَمِهِ وَخِيْشُومِهِ، وَأَقْبَلَ يَنْفَخُ، وَخَلَّى عَنْ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ مِنَ الْوُثَاقِ؛ وَأَمْسَكَ بِالْأَيْدِي وَقَدْ صَارَ كَأَعْظَمَ مَا يَكُونُ مِنَ الزُّرْقَاكِ الْمَنْفُوخَةِ، وَقَدْ وَرَمَ سَائِرَ أَعْضَائِهِ وَعَظَمَ جِسْمَهُ، وَعَيْنَاهُ قَدْ امْتَلَأَتْ وَبَرَزَتْ، فَلَمَّا كَادَ أَنْ يَنْشَقَّ أَمَرَ بَعْضَ الْأَطْبَاءِ فَضْرِبَهُ فِي عَرْقَيْنِ فَوْقَ الْحَاجِبَيْنِ، وَهُمَا فِي الْجَبِينِ، فَأَقْبَلَتِ الرِّيحُ تَخْرُجُ مِنْهُمَا مَعَ الدَّمِ وَلَهَا صَوْتُ وَصْفِيرٌ إِلَى أَنْ خَمِدَ وَتَلَفَ، وَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مَنْظَرٍ رُؤِيَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْعَذَابِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْبَدْرَ كَانَتْ عَيْنًا، وَإِنْ عُدَّهَا كَانَ أَكْثَرَ مِمَّا وَصَفْنَا.

ابن المغازلي المضحك

وقد كان ببغداد رجل يتكلم على الطريق، ويقصُّ على الناس بأخبار ونوادر ومَضَاحِكٍ ويعرف بابن المغازلي. وكان في نهاية الحَذَقِ لَا يَسْتَطِيعُ مِنْ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ أَنْ لَا يَضْحَكُ. قَالَ ابْنُ الْمَغَازِلِيِّ: فَوَقَفْتُ يَوْمًا فِي خِلَافَةِ الْمَعْتَضِدِّ عَلَى بَابِ الْخَاصَّةِ أَضْحَكُ وَأَنَادِرُ؛ فَحَضَرَ حَلَقَتِي بَعْضُ خِدْمَةِ الْمَعْتَضِدِّ، فَأَخَذْتُ فِي حِكَايَةِ الْخِدْمِ، فَأَعْجَبَ الْخَادِمَ بِحِكَايَتِي، وَأَشْغَفَ بَنَوَادِرِي، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَادَ وَأَخَذَ بِيَدِي، وَقَالَ: إِنِّي لَمَّا انْصَرَفْتُ عَنْ حَلَقَتِكَ دَخَلْتُ فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَعْتَضِدِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَذَكَرْتُ حِكَايَتَكَ وَمَا جَرَى مِنْ نَوَادِرِكَ فَاسْتَضَحَكْتَ، فَرَأَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ مِنِّي، وَقَالَ: وَيْلَكَ!! مَا لَكَ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْبَابِ رَجُلٌ يَعْرِفُ بَابِنَ الْمَغَازِلِيَّ يُضْحِكُ وَيَحَاكِي، وَلَا يَدَعُ حِكَايَةَ أَعْرَابِي وَتُرْكِي وَمَكِّي وَنَجْدِي وَنَبْطِي وَزَنْجِي وَسَنْدِي وَخَادِمَ إِلَّا حَكَاهَا، وَيَخْلُطُ ذَلِكَ بَنَوَادِرِ تَضْحَكُ الشُّكُولُ وَتُضْطَبِّي الْحَلِيمُ، وَقَدْ أَمَرَنِي بِإِحْضَارِكَ وَلِي نِصْفِ جَائِزَتِكَ، فَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ طَمَعْتُ فِي الْجَائِزَةِ السَّنِيَّةِ: يَا سَيِّدِي، أَنَا ضَعِيفٌ وَعَلِيَّ غَيْلَةٌ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِكَ فَمَا عَلَيْكَ إِنْ أَخَذْتُ بَعْضَهَا سَدَسَهَا أَوْ رُبْعَهَا، فَأَبَى إِلَّا نِصْفَهَا، فَطَمَعْتُ فِي النِّصْفِ وَقَنَعْتُ بِهِ؛ فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ وَأَحْسَنْتُ، وَوَقَفْتُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْقَفْتُ فِيهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ، فَلَمَّا نَظَرَ فِي أَكْثَرِهِ أَطْبَقَهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي: أَنْتَ ابْنُ الْمَغَازِلِيِّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَحْكِي وَتُضْحِكُ، وَأَنَّكَ تَأْتِي بِحِكَايَاتٍ عَجَبِيَّةٍ وَنَوَادِرٍ طَرِيفَةٍ، قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الْحَاجَةُ تَقْتَضِي الْحِيلَةَ، أَجْمَعُ بِهَا النَّاسَ، وَأَتَقَرَّبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ بِحِكَايَتِهَا، أَلْتَمَسَ بَرَّهْمَ، وَأَتَعِيشُ بِمَا أَنَالَهُ مِنْهُمْ، قَالَ: فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ، وَخُذْ فِي فَنِكَ، فَإِنْ أَضْحَكْتَنِي أَجْزَلْتُكَ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَإِنْ لَمْ أَضْحَكْ فَمَا لِي عَلَيْكَ؟ فَقُلْتُ لِلْحَيِّنِ وَالْخَذْلَانِ: مَا مَعِيَ إِلَّا قَفَّايَ فَاصْفَعُهُ مَا أَحْبَبْتَ،

وكم شئت، وبما شئت، فقال لي: قد أنصفت، إن ضحكك فلك ما ضمنت، وإن أنا لم أضحك صفعتك بهذا الجراب عَشْرَ صفعات، فقلت في نفسي: ملك لا يصفع إلا بشيء يسير، وبشيء خفيف هَيْن، ثم التفت وإذا أنا بجراب آدم ناعم في زاوية البيت، فقلت في نفسي: ما أخطأ حَزْرِي، ولا أَخْلَفَ ظَنِي، وما عسى أن يكون من جِرَابٍ فيه ريح، إن أنا أضحكته ربحت، وإن أنا لم أضحك فأمَر عشر صفعات بِجِرَابٍ منفوخ هَيْن، ثم أخذت في النوادر والحكايات والنفاسة والعبارة، فلم أدع حكاية أعرابي ولا نحوي ولا مُخَنَّث ولا قَاضٍ ولا زُطِّي ولا نَبْطِي ولا سندي ولا زنجي ولا خادم ولا تركي ولا شطارة ولا عيارة ولا نادرة ولا حكاية إلا أحضرتها وأتيت بها، حتى نفذ جميع ما عندي وتصدَّع رأسي [وانقطعت وسكت، وَفَتَرْتُ وَبَرَزْتُ، فقال لي: هيه، هات ما عندك، وهو مغضب لا يضحك ولا يتسم] ولم يبق ورائي خادم إلا هرب، ولا غلام إلا ذهب لما استَفَزَّهم الضحك وورد عليهم من الأمر، فقلت: يا أمير المؤمنين قد نفذ والله ما معي، وتصدَّع رأسي، وذهب معاشي، وما رأيت قط مثلك، وما بقيت لي إلا نادرة واحدة، فقال: هاتها، فقلت: يا أمير المؤمنين وعدتني أن تصفني عشراً وجعلتها مكان الجائزة، فسألك أن تضعف الجائزة وتضيف إليها عشراً، فأراد أن يضحك فاستمسك، ثم قال: نفعل، يا غلام خذ بيده، فأخذ بيدي ومددت قَفَاي فصفعت بالجراب صفة، فكأنما سقط على قَفَاي قلعة، وإذا فيه حصي مُدَوَّر كأنه صنجات، فصفعت به عشراً كادت أن تنفصل رقبتني وينكسر عنقي، وَطُتْ أَذْناي، وقدح الشعاع من عيني، فلما استوفيت العشرة صِخْتُ: يا سيدي، نصيحة، فرفع الصفع عني بعد أن عزم على إيفاء ما كنت سألت من إضعاف جائزتي، فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: يا سيدي، إنه ليس في الديانة أحسن من الأمانة، ولا أقبح من الخيانة، وقد ضمنت للخادم الذي أدخلني عليه نصف الجائزة على قتلها أو كثرتها، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه بفضلته وكرمه قد أضعفها، فقد استوفيت نصفها، وبقي لخادمك نصفها، فضحك حتى استلقى، واستَفَزَّه ما كان قد سمعه مني أولاً، وتحامل له وصبر عليه، فما زال يضرب بيده ويفحص برجله ويمسك بِمَرَأَقِ بطنه، حتى إذا سكن ضحكته ورجعت إليه نفسه قال: عليّ بفلان الخادم، فأتي به، وكان طَوَّالاً، فأمر بصفعه، فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء قضيتي؟ وأي جناية جنائتي؟ فقلت له: هذه جائزتي، وأنت شريك، وقد استوفيت نصفها، وبقي نصيبك منها، فلما أخذه الصفع وطرق قَفَاه الصافع أقبلت عليه أقول له: قلت لك: إني ضعيف

مُعِيلَ وَشَكَّوتَ إِلَيْكَ الْحَاجَةَ وَالْمَسْكَنَةَ، وَأَقُولُ لَكَ: يَا سَيِّدِي، لَا تَأْخُذْ نَصْفَهَا، لَكَ سِدْسُهَا، لَكَ رُبْعُهَا، وَأَنْ تَقُولَ: مَا آخِذٌ إِلَّا نَصْفَهَا، وَلَوْ عَلِمْتَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ جَوَائِزَهُ صَفْعٌ وَهَبْتُهَا لَكَ كُلِّهَا، فَعَادَ إِلَى الضَّحْكِ مِنْ قَوْلِي لِلخَادِمِ، وَعَتَابِي لَهُ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى صَفْعَهُ وَسَكَنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ضَحْكِهِ أَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ تَكَاثُهُ صُرَّةً قَدْ كَانَ أَعَدَّهَا فِيهَا خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ وَقَدْ أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ: قِفْ، هَذِهِ كُنْتُ أَعَدَدْتُهَا لَكَ، فَلَمْ يَدْعُكَ فَضُولُكَ حَتَّى أَحْضَرْتَ لَكَ شَرِيكاً فِيهَا، وَلَعَلَّنِي كُنْتُ أَمْنَعُهُ مِنْهَا. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْنَ الْأَمَانَةُ وَقَبِيحَ الْخِيَانَةِ؟ وَوِدِدْتُ أَنَّكَ كُنْتَ تَدْفَعُهَا كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَتَصْفَعُهُ مَعَ الْعَشْرَةِ عَشْرَةَ أُخْرَى، وَتَدْفَعُ لَهُ الْخَمْسَمِائَةَ دِرْهَمٍ، فَقَسَمَ الدِّرَاهِمَ بَيْنَنَا، وَانْصَرَفْنَا.

وفاة جماعة

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين كانت وفاة إسماعيل بن إسحاق القاضي، والحرث بن أبي أسامة، وهلال بن العلاء الرقي.

حرب هارون الشاري

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين نزل المعتضد تكريت وسار الحسين بن حمدان في الأولياء لحرب هارون الشاري، فكانت بينهم حرب عظيمة كانت للحسين بن حمدان عليه، فأَتَى بِهِ الْمُعْتَضِدُ أُسِيرًا بِغَيْرِ أَمَانٍ، وَمَعَهُ أَخُوهُ فَدَخَلَ الْمُعْتَضِدُ بَغْدَادَ، وَقَدْ نُصِبَتْ لَهُ الْقُبَابُ، وَزِينَتْ لَهُ الطَّرَقَاتُ، وَعَبَّأَ الْمُعْتَضِدُ بِاللَّهِ جِيُوشَهُ بِيَابِ الشَّمَاسِيَةِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ التَّعْبَةِ وَأَكْمَلَ هَيْئَةَ، فَاشْتَقَوْا بَغْدَادَ إِلَى الْقَصْرِ الْمَعْرُوفِ بِالْحُسْنِيِّ، ثُمَّ خَلَعَ الْمُعْتَضِدُ عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ حَمْدَانَ خِلْعًا شَرَفَهُ بِهَا، وَطَوَّقَهُ بِطُوقٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَخَلَعَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قُرَسَانِهِ وَرُؤَسَاءِ أَصْحَابِهِ وَأَهْلِهِ، وَشَهَرَهُمْ فِي النَّاسِ كِرَامَةً لَمَّا كَانَ مِنْ فَعْلِهِمْ وَحَسَنَ بِلَاثِهِمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِالشَّارِيِّ فَأَرْكَبَ فِيلاً وَعَلَيْهِ دُرَّاعَةٌ دِيْبَاجٍ، وَعَلَى رَأْسِهِ بَرْنَسٌ خَزْ طَوِيلٌ، وَخَلْفَهُ أَخُوهُ عَلَى جَمَلٍ فَالَجَ وَهُوَ ذُو السَّنَامِينَ، وَعَلَيْهِ دُرَّاعَةٌ دِيْبَاجٍ وَبَرْنَسٌ خَزْ، وَسِيرَهُمَا فِي أَثَرِ الْحُسَيْنِ بْنِ حَمْدَانَ وَأَصْحَابِهِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمُعْتَضِدُ فِي أَثَرِهِ عَلَيْهِ قَبَاءُ أَسْوَدَ وَقُلْنَسُودَ مُحَدَّدَةً عَلَى فَرَسٍ صَنَائِي عَنْ يَسَارِهِ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُوَفَّقِ، وَخَلْفَهُ بَدْرُ غَلَامِهِ، وَأَبُو الْقَاسِمِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَزِيرُهُ وَابْنُهُ الْقَاسِمُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَأَكْثَرَ النَّاسُ الدَّعَاءَ لَهُ، وَتَكَاثَفَ النَّاسُ فِي مَنْصَرِفِهِمْ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ إِلَى الْغَرْبِيِّ، فَانْخَسَفَ بِهِمْ كَرْسِيُ الْجِسْرِ الْأَعْلَى، وَسَقَطَ عَلَى زُورْقٍ مَمْلُوءٍ نَاسًا، فَغَرِقَ فِي هَذَا الْيَوْمِ

نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف، واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب وبالغاصّة، وارتفع الضجيج، وكثر الصّراخ من الجانبين جميعاً، فبينما الناس كذلك إذ أخرج بعض الغاصّة صبيّاً عليه حلي فاخرة من ذهب وجوهر، فبصر به شيخ من النظارة طرّار، فجعل يلطم وجهه حتى أدمى أنفه، ثم تمرغ في التراب، وأظهر أنه ابنه، وجعل يقول: يا سيدي، لم تَمُتْ إذ أخرجوك صحيحاً سوياً لم يأكلك السمك، ولم تمت، حبيبي ليتني كحلت عيني بك مرة قبل الموت، وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به، فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك إلا أن الصبي في أيديهم، وليس يهمه ما كان عليه من حلي وثياب، وإنما أراد أن يكفنه ويصلي عليه ويدفنه، فخبّره الناس بالخبر، فبقي هو ومن معه من التجار متعجبين مبهورين، وسألوا عنه واستبحثوا، فإذا لا عين ولا أثر، وعَرَفَ تَوَابُوا هذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأياسوا أبا الغريق منه، وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده، وأنه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوماً من أول الصباح إلى باب بعض العُدُولِ الكبار المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة قد حملها على عاتقه وفأس وزنبيل، فقام في ثوب خلّقي، ولم يتكلم حتى وضع الفأس في الدكاكين التي على باب ذلك العُدُولِ فهدمها، وجعل ينقي الآجر ويعزله، فسمع ذلك العدل بهدمها، ووقع الفأس والهدم، فخرج لينظر فإذا الشيخ دائب يهدم دكاكينه التي على باب داره، فقال: يا عبد الله، أي شيء تصنع؟ ومن أمرك بهذا؟ فجعل الشيخ يعمل عمله، ولا يلتفت إلى العدل، ولا يكلمه، فاجتمع الجيران وهما في المحاورّة، فأخذوا بيد الشيخ، فوكزه هذا، ودفعه هذا، فالتفت إليهم، فقال: [ما لكم؟] ويلكم!! أي شيء تريدون مني؟ أما تستحيون؟ تعبتون بي وأنا شيخ كبير؟ فقالوا: ما لنا والعبث بك؟ وَيَحَكْ!! مَنْ أمرك بهذا؟ قال: وَيَحَكْم!! أمرني صاحب الدار، فقالوا: هذا صاحب الدار يكلمك، قال: لا والله ما هو هذا، فلما سمعوا كلامه وغفلته رحموه، وقالوا: هذا مجنون أو مخدوع خَدَعَهُ بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه، وهم الذين حملوا هذا الشيخ على هذا الفعل؛ فلما منعوه من الهدم مضى إلى الجرة التي جاء بها. وقد كان وضعها إلى جانب الباب. فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه بها، فصرخ وبكى، فلم يَشْكُ العدلُ أن محتالاً خدعه وأخذ ثيابه، فقال: وأي شيء ذهب لك؟ قال: قميص جديد اشتريته أمس ومِلْحَقَةٌ لبيتي وسراويل، فرقوا له جميعاً، ودعاه العُدُولُ فكساه ووهب له دراهم كثيرة، ووهب له الجيران دراهم كثيرة، وانصرف غانماً، وهذا الشيخ كان يُعرف بالعقاب، وكني بأبي الباز، وله أخبار عجيبة وحيل [الطيفة] وهو الذي احتال للمتوكل، حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه إن سرق من داره شيئاً يعرفه في ثلاث ليالٍ

ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل إلى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار، وإن خرجت هذه الليالي ولم يتم عليه ما ذكرنا فله الضيعة المعين ذكرها في المبايعه، فأتى بهذا الشيخ في عتقوان شبابه إلى المتوكل، فضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بختيشوع شيئاً لا ينكره، وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها في هذه الليالي، فاحتال هذا الشيخ المعروف بالعقاب بحيل لطيفة إلى أن سرق بختيشوع وجعله في صندوق وأتى به المتوكل، في خبر ظريف، وأنه رسول لعيسى ابن مريم نزل إلى بختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج في طعام اتخذه أطعمه لحراس داره في تلك الليلة، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» وهذا الشيخ قد برز في مكايده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم.

الكيمياء

ولطلاب صنعة الكيمياء من الذهب والفضة وأنواع الجواهر من اللؤلؤ وغيره وصنعة أنواع الأكسيرات من الإكسير المعروف بالفرار وغيره وإقامة الزئبق وصنعة فضة وغير ذلك من خدعهم وحيلهم في القرع والمغنطيس والتقطير والتكليس والبوداق والحطب والفحم والمنافع أخبار عجبية وحيل [في هذا المعنى] قد أتينا على ذكرها ووجوه الخدع فيها وكيفية الاحتيال بها في كتابنا «أخبار الزمان» وما ذكره في ذلك من الأشعار، وما عزوه إلى من سلف من اليونانيين والروم، مثل قلوبطرة الملكة، ومارية، وما ذكره خالد بن يزيد بن معاوية في ذلك، وهو عند أهل هذه الصنعة من المتقدمين فيهم، في شعره الذي يقول فيه:

خذ الطلق مع الأشق وما يوجد في الطرق
وشيثاً يشبه البرقا فدبزه بسلا حرق
فإن أحببت مولاكا فقد سُودَّت في الخلق

وقد صنف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي رسالة في ذلك، وجعلها مقاليتين يذكر فيها تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله، وخدع أهل هذه الصناعة وحيلهم، وترجم هذه الرسالة بإبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها، وقد نقض هذه الرسالة على الكندي وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف صاحب الكتاب المنصوري في صناعة الطب الذي هو عشر مقالات، وأرى القول إن ما ذكره الكندي فاسد، وأن ذلك قد يتأتى فعله، ولأبي بكر بن زكريا في هذا المعنى كتب قد صنفها، وأفرد كل واحد منها بنوع من الكلام في هذه الصنعة في الأحجار المعدنية

[والشعر] وغير ذلك من كيفية الأعمال، وهذا باب قد تنازع الناس فيه من فعل قارون وغيره، ونحن نعوذ بالله من التهوس فيما يخسف الدماغ، ويذهب بنور الأبصار، ويكشف الألوان من بخار التصعيدات ورائحة الزاجات وغيرها من الجمادات.

جيش ابن خمارويه وأصحابه

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين كان الفداء [بالأسر] بين المسلمين والروم في شعبان، وكان بدؤه الثلاثاء، وفيه كان مسير جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون من الشام إلى مصر في جيوشه، فخالفه طغج بدمشق بعد ذلك.

وفيهما خرج عن [عسكر] جيش بن خمارويه خاقان المفلحي وبندقة بن كمجور ابن كنداج فساروا إلى وادي القرى، ودخلوا مدينة السلام، فخلع عليهم المعتضد، وفيها كان الشغب بمصر، وقتل علي بن أحمد المارداني أبو محمد المارداني المقبوض عليه في هذا الوقت. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. بمصر، وقبض على جيش ابن خمارويه، ونصب أخوه هارون بن خمارويه مكانه، وكانوا قد تقموا على جيش تقدمه لغلامه نجح المعروف بالطولوني وأخيه سلامة المعروف بالموثمين، وقد كان أخوه سلامة هذا بعد ذلك صاحب جماعة من الخلفاء منهم القاهر والراضي، وأراه مع المتقي في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

وفاة مقدم الرعيني

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي عمرو مقدم بن عمرو الرعيني بمصر، ليومين بقيًا من شهر رمضان، وكان من جلة الفقهاء، ومن كبار أصحاب مالك. وفيها ولّى المعتضد يوسف بن يعقوب القضاء بمدينة السلام، وخلع عليه، وانتدبه للجانب الشرقي.

مصادرة ابن الطيب السرخسي ومقتله

وفي هذه السنة. وهي سنة ثلاث وثمانين ومائتين. قبض المعتضد على أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي صاحب يعقوب بن إسحاق الكندي، وسلّمه إلى بدر غلامه، ووجّهه إلى داره من قبض على جميع ماله، وقرر جواريه على المال حتى استخرجه، فكان جملة ما حصل من العين والورق وثمان الآلات خمسين ومائة ألف دينار، وكان ابن الطيب قد ولي الحسبة ببغداد، وكان موضعه من الفلسفة لا يُجْهَل، وله مصنفات حسان في أنواع من الفلسفة وفنون من الأخبار.

وقد تنازع الناس في كيفية قتله، والسبب الذي من أجله كان قتل المعتضد إياه، وقد أتينا على ما قيل في ذلك في كتابنا المترجم بالأوسط، فأغني ذلك عن إعادته في ذلك الكتاب.

رافع بن هرثمة

وفيها ورد الخبر بقتل عمرو بن الليث لرافع بن هرثمة. وفي سنة أربعة وثمانين ومائتين أدخل إلى بغداد رأس رافع بن هرثمة، ثم صُلِبَ ساعة من نهار، ثم رُدَّ إلى دار السلطان.

ثورة

وفي هذه السنة كان لأهل بغداد ثورة مع السلطان لصياحهم بالخدم السودان: يا عقيق، صب ماء واطرح دقيق، يا عاق، يا طويل الساق، وذلك أن الخدم في دار السلطان منهم اجتمعوا فكلموا المعتضد بما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام، فأمر المعتضد بجماعة من العامة، فضربوا بالسياط، فشغب العامة لذلك.

شبح يتشكل للمعتضد

وفي هذه السنة ظهر للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره، فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر شاباً حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة، وتارة يظهر شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار، وتارة يظهر بيده سيف مسلول، وضرب بعض الخدم قتلته، فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره، وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها، فأكثر الناس القول في ذلك، واستفاض الأمر، واشتهر في خواص الناس وعوامهم، وسارت به الركبان، وانتشرت به الأخبار والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم، فمن قائل: إن شيطاناً مريداً صمد له يظهر فيؤذيه، ومنهم من يقول: إن بعض مؤمني الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعاً وعن المنكر زاجراً، ومنهم من رأى أن ذلك بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة فيضعها في فمه فلا يدرك بحاسة البصر، وكل ذلك ظن وحسبان، فأحضر المعتضد المعزمين، واشتد قلقه، واستوحش، وجاز عليه أمره، فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه، وضرب وحبس جماعة منهم، وقد أتينا على الخبر في ذلك

وما حكى عن أفلاطون في هذا المعنى، وعلى خبر شغب أم المقتدر بالله والسبب الذي من أجله حبسها المعتضد وأراد قطع أنفها والتشويه بها في كتابنا «أخبار الزمان».

وفي هذه السنة وَرَدَ الخبر بقتل أبي الليث الحارث بن عبد العزيز بن أبي دُلْفٍ بسيفه لنفسه في الحرب، وذلك أن سيفه كان على عاتقه مشهوراً فكبابه فرسه فذبحه سيفه، فأخذ عيسى النوشري رأسه وأنفذه إلى بغداد.

يوم الأَجْفَر

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وقع صالح بن مدرك الطائي في نهبان وسنبس وغيرهم من طيء بالحاج، وعلى الحاج جيء الكبير، وكانت لجيء مع صالح ومَنْ معه من الطائيين حرب عظيمة في الموضع المعروف بقاع الأَجْفَر، وتشوش الحاج وأخذهم السيف، فمات عطشاً وقتلاً خلائق من الحاج، وأصاب جيء ضربات كثيرة، وكانت العرب ترتجز في ذلك اليوم وتقول:

ما إن رأى الناس كيوم الأَجْفَر الناس صَرَعَى والقبور تحفر
وأخذ من الناس نحو من ألفي دينار.

وفاة إبراهيم بن محمد الحربي الفقيه

وفي هذه السنة . وهي سنة خمس وثمانين ومائتين . كانت وفاة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه المحدث في الجانب الغربي، وله خمس وثمانون سنة، وكانت [وفاته] يوم الاثنين لسبع بقين من ذي الحجة، ودفن مما يلي باب الأنبار وشارع السكبش والأسد، وكان صدوقاً عالمياً فصيحاً جواداً عفيفاً، وكان زاهداً عابداً ناسكاً، وكان مع ما وصفنا من زهده وعبادته . ضاحك السن، ظريف الطبع، سلس القياد، ولم يكن معه تجبر ولا تكبر، وربما مزح مع أصدقائه بما يستحسن منه، ويُستقبح من غيره، وكان شيخ البغداديين في وقته، وظريفهم، وناسكهم، وزاهدهم، ومستندهم في الحديث، وكان يتفقه لأهل العراق، وكان له مجلس يوم الجمعة في المسجد الجامع الغربي .

وأخبرنا أبو إسحاق [إبراهيم] بن جابر قال: كنت أجلس يوم الجمعة في حلقة إبراهيم الحربي، وكان يجلس إلينا غلامان في نهاية الحسن والجمال من الصورة والبزّة من أبناء التجار من الكرخيين، وبزّتهما واحدة، كأنهما روحان في جسد، إن قاما قاما معاً، وإن قعدا قعدا معاً، فلما كان في بعض الجمع حضر أحدهما وقد بان الاصفرار بوجهه والانكسار في عينيه، فتوسمت أن غيبة الآخر لعله [و] قد لحق الحاضر من أجل

ذلك الانكسار، فلما كان الجمعة الثانية حضر الغائب ولم يحضر الذي كان في الجمعة الأولى منهما، وإذا الصفرة والانكسار بين في لونه ونشاطه، فعلمت أن ذلك للفراق [الواقع] بينهما، ولأجل الألفة الجامعة لهما، فلم يزالا يتسابقان في كل جمعة إلى الحلقة، فأيهما سبق صاحبه إلى الحلقة لم يجلس الآخر، فصح عندي ما كان تقدم في نفسي جواز كونه، فلما كان في بعض الجمع حضر أحدهما فجلس إلينا، وجاء الآخر فأشرف على الحلقة، فإذا صاحبه قد سبق، وإذا المسبوق المطلع إلى الحلقة قد خنقته العبوة، فتبينت ذلك في حماليق عينه، وإذا في يسراه رفاع صغار مكتوبة فقبض بيمينه رقعة من تلك الرقاع وحذف بها في وسط الحلقة، وانساب بين الناس ماراً مستحياً، وأنا أزمقه ببصري، وكذلك جماعة ممن كان جالساً في الحلقة، وكان إلى جانبي على اليمين أبو عبد الله علي بن الحسين بن حوثة، وذلك في عنفوان الشباب وأوان الحداثة، فوقعت الرقعة بين يدي إبراهيم الحربي، فقبض عليها ونشرها وقرأها، وكان من شأنه فعل ذلك إذا وقعت في يده رقعة فيها دعاء أن يدعو لصاحبها مريضاً كان أو غير ذلك، ويؤمن على دعائه من حضر، فلما قرأ الرقعة أقبل يتأمل ما فيها تأملاً شافياً لأنه رأى ملقيها، ثم قال: اللهم اجمع بينهما، وألف بين قلوبهما، واجعل ذلك مما يقرب منك ويؤلف لديك، وأمنوا على دعائه كما جرت العادة منهم بفعله، ثم أدرج الرقعة بسببته وإبهامه وحذني بها، فتأملت ما فيها، وقد كنت مستطلعاً نحوها لتبين الملقى لها، فإذا فيها مكتوب:

عَفَا اللهُ عَنْ عَبْدِ أَعَانَ بدعوة لِيَخْلِينَ كَانَا دائمين على الود
إلى أن وشى واشي الهوى بنميمة إلى ذاك من هذا فحالا عن العهد

فكانت الرقعة معي فلما كانت الجمعة الثانية حضرا معاً وإذا الاصفرة والانكسار قد زالا [عنهما]، فقلت لابن حوثة: إني لأرى الدعوة قد سبقت لهما بالإجابة من الله تعالى، وإن دعاء الشيخ كان على التمام إن شاء الله تعالى؛ فلما كان في تلك السنة كنت ممن حج فكانني أنظر إليهما بين متى وعرفات محرمين جميعاً، فلم أزل أراهما متآلفين إلى أن كهلا، وأرى أنهما في صف أصحاب الديباج في الكرخ، أو غيره من الصفوف.

إبراهيم بن جابر القاضي

قال المسعودي: وهذا الخبر سمعته من إبراهيم بن جابر القاضي قبل ولايته القضاء، وهو يومئذ ببغداد يعالج الفقر، ويتلقاه من خالقه بالرضا، ناصراً للفقر على الغنى، فما مضت أيام حتى لقيته بحلب من بلاد قنسرين والعواصم من أرض الشام،

وذلك في سنة تسع وثلاثمائة، وإذا هو بالضد عما عهدته، متولياً القضاء على ما وصفنا، ناصراً ومشرفاً للغنى على الفقر، فقلت له: أيها القاضي، تلك الحكاية التي كنت تحكيها عن الوالي الذي كان بالري، وأنه قال لك: إن الخواطر اعترضتني بين منازل الفقراء والأغنياء، فرأيت في النوم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال لي: يا فلان؛ ما أحسنَ تواضع الأغنياء للفقراء شكراً لله تعالى وأحسن من ذلك تعزز الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى، فقال لي: إن الخلق تحت التدبير لا ينفكون من أحكامه في جميع متصرفاتهم، وكنت كثيراً ما أسمعه فيما وصفنا من حال فقره يذمُّ ذري الحرص على الدنيا، ويذكر في ذلك خبراً عن علي كرم الله وجهه. وهو أن علياً كان يقول: ابن آدم، لا تتحمل همَّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه؛ فإنه إن يكن من أجلك يأت الله فيه برزقك، واعلم أنك لن تكتسب شيئاً فوق قوتك إلا كنت خازناً فيه لغيرك. فركب بعد ذلك الهماليج من الخيل.

ولقد أخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوباً تسترياً وقصباً وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد، وخلف مالا عظيماً لغيره.

وفاة المبرد

وفي هذه السنة . وهي سنة خمس وثمانين ومائتين . كانت وفاة أبي العباس محمد بن يزيد النحوي المعروف بالمبرد، ليلة الاثنين ليلتين بقيتا من ذي الحجة، وله تسع وسبعون سنة، ودفن بمقابر باب الكوفة من الجانب الغربي بمدينة السلام.

محمد بن يونس

وفي سنة ست وثمانين ومائتين مات محمد بن يوسف الكوفي المحدث، ويكنى بأبي العباس، يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة، وله مائة سنة وست سنين، ودفن بمقابر [باب] الكوفة من الجانب الغربي، وكان عالي الإسناد.

أبو سعيد الجنابي

وفي هذه السنة كان الفَرَزُّ من أبي سعيد الجنابي بالبصرة ومن معه البحرين خوفاً من أن يكبسها، وكتب الواثقي. وهو أحمد بن محمد، وكان على حربها. إلى المعتضد بذلك، فأطلق لسورها أربعة عشر ألف دينار فبنيت وحصنت.

أبو الأغر والأعراب

وفي هذه السنة ظفر أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمي بصالح بن مدرك الطائي بناحية فيد مكرأ في ذهابهم إلى مكة، وقد كانت الأعراب جمعت لأبي الأغر ليستنقذوا صالحاً من يده، فواقعهم وقتل رئيسهم جحش بن ذيال وجماعة معه، وأخذ رأسه، فلما علم صالح بن مدرك بقتل جحش بن ذيال يئس من الخلاص من يد أبي الأغر، فلما نزل المنزل المعروف بمنزلة القرشي أتاهم غلام بطعام فاستلب منه سكناً وقتل نفسه، فأخذ أبو الأغر رأسه وأظهره بالمدينة، فتباشر الحاج، وكانت لأبي الأغر في رجوعه وقعة عظيمة اجتمع هو ونحير وغيرهما من أمراء قوافل الحاج مع الأعراب، وكانت الأعراب قد اجتمعت وتحشدت من طيء وأحلافها، فكانت رجالاتها نحواً من ثلاثة آلاف راجل، والخيـل نحواً من ذلك، فكانت الحرب بينهم ثلاثاً، وذلك بين معدان القرشي والحاجر، ثم انهزمت الأعراب وسلم الناس، وكان ممن تولى مع أبي الأغر الحيلة على صالح بن مدرك سعيد بن عبد الأعلى.

ودخل أبو الأغر مدينة السلام وقُدَّامه رأس صالح وجحش ورأس غلام لصالح أسود، وأربعة أسارى، وهم بنو عم صالح بن مدرك، فخلع السلطان في ذلك اليوم على أبي الأغر، وطوّقه بطوق من ذهب، ونصب الرؤوس على الجسر من الجانب الغربي، وأدخل الأسارى المطبق.

أحداث

وفي هذه السنة مات إسحاق بن أيوب العبيدي وكان على حرب ديار ربيعة. وفيها شخص العباس بن عمر الغنوي إلى البصرة لحرب القرامطة بالبحرين.

وفي هذه السنة كانت الحرب بين إسماعيل بن أحمد وعمرو بن الليث صاحب بلخ فأسر عمرو، وقد أتينا على كيفية أسره في الكتاب الأوسط.

وفي [رجب من هذه السنة، وهي] سنة سبع وثمانين ومائتين كان خروج العباس بن عمرو من البصرة في جيش عظيم ومعه خلق من المطوعة نحو هجر، فالتقى هو وأبو سعيد الجنابي، فكانت بينهم وقائع انهزم فيها أصحاب العباس، وأسر وقتل من أصحابه نحو سبعمائة صبراً، دون من هلك من الرمل والعطش، فأحرقت الشمس أجسادهم؛ ثم إن أبا سعيد منَّ على العباس بن عمرو بعد ذلك فأطلقه فصار إلى المعتضد فخلع عليه، وبعد هذه الواقعة افتتح أبو سعيد مدينة هجر بعد حصار طويل، وقد أتينا على مبسوط هذه الحروب والسبب الذي من أجله كانت تخلية أبي سعيد العباس بن عمرو

الغنوي [في كتابنا الأوسط، وما كان من أمر العباس بن عمرو] مع مَنْ بالبحرين من قومه وعصبتهم له.

الداعي العلوي

وفي هذه السنة . وهي سنة سبع وثمانين ومائتين . كان مسير الداعي العلوي من طبرستان إلى بلد جرجان في جيوش كثيرة من الديلم وغيرهم، فلقيته جيوش المسودة من قبل إسماعيل بن أحمد، وعليها محمد بن هارون، فكانت وقعة لم ير مثلها في ذلك العصر، وصَبَرَ الفريقان جميعاً، وكانت للمبيضة على المسودة، ثم كانت مكيدة من محمد بن هارون لما رأى من ثبوت الديلم على مَصَافِهَا، فلم ينقض صفوفه، وولى، فأسرعت الديلم ونقضت صفوفها، فرجعت عليهم المسودة، وأخذهم السيف، فقتل منهم بشر كثير وأصاب الداعي ضربات، وذلك أن أصحابه لما نقضوا صفوفهم في الغنيمة ولم يعرجوا عليه ثبت مع من وقف لنصره، فكرت عليهم الجيوش، فأسفرت الحرب وقد أُنْخِزَ بالكُلُوم، وأسر ولده زيد بن محمد بن زيد وغيره، وبقي محمد الداعي أياماً يسيرة، وتوفي لما ناله، فدفن بباب جرجان وقبره هناك معظم إلى هذه الغاية.

وقد أتينا على خبره بطبرستان وغيرها وما كان من سيرته، وخبر بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف حين دخل إليه مستأماً في كتابنا «أخبار الزمان» وكذلك ذكرنا خبر يحيى بن الحسين الحسني الرُّسِّي باليمن، وتظافره هو وأبو سعد بن يعفر على ما كان من حروبهم باليمن مع القَرَامِطَةِ، وما كان من أمرهم مع علي بن الفضل صاحب المذيخرة، وما كان من قصته وخبر وفاته، وقصة شيخ لاعة صاحب قلعة نحل، وخبر ولده إلى هذا الوقت بها . وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . ونزول يحيى بن الحسين الرسي مدينة صعدة من بلاد اليمن، وخبر ولده أبي القاسم، وخبر ولد ولده إلى هذه الغاية وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً منبهين على ما قدمنا من تصنيفنا مما بسطناه من أخبار من ذكرناه وشرحنا من قصصهم وسيرهم وما كان منهم .

المعتضد ووصيف الخادم

وفي هذه السنة . وهي سنة ثمان وثمانين ومائتين . كان دخول المعتضد إلى الثغر الشامي في طلب وصيف الخادم، وراسله مع رشيق المعروف بالخزامي، واستأمن إلى المعتضد وصيف البكتمري وغيره من القواد قواد الخادم، وأصحابه، وقد كان وصيف الخادم لما أُخِذَ الأكثر من أصحابه أراد الدخول إلى أرض الروم والتعلق بالدروب، وقد

كان المعتضد أسرع من السير من بغداد وسَرَّ أخباره ولم يعلم بذلك وصيف مع شدة حذره وتفقده لأمره، حتى عبر المعتضد الفرات وسار إلى الشام، فلم يُفلح جسد المعتضد لذلك لما أتعب نفسه في سرعة السير، وقد كان المعتضد لما توسط الثغر الشامي خلف سواده بالكنيسة السوداء، وجرد القواد في طلب وصيف، فساروا في طلبه خمسة عشر ميلاً إلى أن أدركه أوائل الخيل وفيهم خاقان المفلحي ووصيف موشكين وعلي كورة وغيرهم من القواد، فقاتلهم وصيف، وذلك في الموضع المعروف بدرب الجب، فلما أشرف المعتضد ووصيف قد خَذَلَه أصحابه وتفرق عنه جمعه أسر وأتى به المعتضد، فسلمه إلى مؤنس الخادم، وأمن جميع أصحابه إلا نفرًا انضافوا إليه من الثغر الشامي وغيره وأحرق المعتضد المراكب الحربية، وحمل من طرسوس أبا إسحاق إمام الجامع، وأبا عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي صاحب مدينة أذنة من الثغر الشامي وغيرهم من البحرين مثل البغيل وابنه، وكان دخول المعتضد إلى مدينة السلام في الماء لسبع خلون من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين، ودخل جعفر بن المعتضد وهو المقتدر، وبدر الكبير وسائر الجيش على الظهر، وقد زينت الطرق، وبين أيديهم وصيف الخادم على جمل فالج وعليه دراعة ديباج وبرنس، وخلفه على جمل آخر البغيل، وخلف البغيل ابنه على جمل آخر، وخلف ابن البغيل على جمل آخر رجل من أهل الشام يعرف بابن المهندس، وقد لبسوا الدرايع من الحرير الأحمر والأصفر، وعلى رؤوسهم البرانس، وطُوقَ وسُورَ خاقان المفلحي وغيره من القواد ممن أبلى في ذلك اليوم الذي كان فيه أسر وصيف الخادم، وقد كان المعتضد أراد استحياء وصيف [الخادم] وأسف على موت مثله لشهامته وشجاعته وحسن حيله وإقدامه، ثم قال: ليس في طبع هذا الخادم أن يراسه أحد، بل في طبعه أن يرؤس [في] نفسه؛ وقد كان بعث إليه بعد أن قبض عليه وأوثق بالحديد: هل لك من شهوة؟ قال: نعم، باقة من الريحان أشمها، وكتب من سير الملوك الغابرة أنظر فيها، فلما رجع الرسول إلى المعتضد وأخبره [بما سأله أمر له بما طلب، وأمر من يراعي نظره في الكتب، في أي فصل ينظر؟ فأخبر] أنه يديم النظر في سير الملوك وحروبها ومحنتها، دون سائر ما حمل إلى حضرته من الدفاتر، فتعجب المعتضد وقال: هو يهُونُ على نفسه الموت.

وفاة ابن أبي الساج

وفي هذه السنة كانت وفاة أبي عبيد الله محمد بن أبي الساج بأذربيجان، فاختلف كلمة أصحابه وغلماناه بعده؛ فمنهم من انحاز إلى أخيه يوسف بن أبي الساج، ومنهم من انحاز إلى ولده بودار.

بشر بن موسى المحدث

[وفي هذه السنة . وهي سنة ثمان وثمانين ومائتين . كانت وفاة أبي علي بشر بن موسى بن صالح بن صبيح بن عمير ، المحدث ، وله ثمان وسبعون سنة ، ودفن في الجانب الغربي بمقابر باب التين] .

عمرو بن الليث

وفي هذه السنة أدخل عمرو بن الليث إلى مدينة السلام في جمادى الأولى ، قدم به عبد الله بن الفتح رسول السلطان ، فشهر عمرو ، وأركب على جمل فالج وقد ألبس دراعة ديباج وخلفه بدر والوزير القاسم بن عبيد الله في الجيش ، فأتوا به الثريا ، فرآه المعتضد ، ثم أدخل المطامير ، وقد كان في هذا الوقت ثارت عساكر الشاكرية من قبل طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث غضباً لجده عمرو ، ولحقته ببلاد الأهواز ، وخرجت عن حدود فارس ، واضطرب الأمر ، وبعث المعتضد بعبد الله بن الفتح وأشناس إلى إسماعيل بن أحمد ومعهما هدايا ، منها : مائة بدنة ديباج ، منسوجة بالذهب ، مُرَصَّعة بالجواهر ، ومنطقة ذهب مُرَصَّعة بالجواهر ، وغير ذلك من الجواهر ، وثلاثمائة ألف دينار ليفرقها في أصحابه ، ويبعثهم إلى بلاد سجستان إلى حرب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، وأمر عبد الله بن الفتح أن يحمل في طريقه من خراج ما يجتاز به من بلاد الجبل عَشْرَةَ آلاف ألف درهم ، ويضيفها إلى الثلاثمائة ألف دينار ، وسار بدر غلام المعتضد بالله في عساكره إلى بلاد فارس من هذه السنة ، فنزل شيراز ، وانكشف عن البلد الشاكرية .

وفاة وصيف الخادم

وفي أول يوم من المحرم . وهو يوم الثلاثاء من سنة تسع وثمانين ومائتين . توفي وصيف الخادم ، فأخرج وصلب على الجسر بدنأ بلا رأس ، وقد كان الخدم سألوا المعتضد أن يستروا عورته ، فأباح لهم ذلك ، فألبس ثياباً ، وَلَفَّ عليه ثوب جديد ، وخيط على مكان الثياب من سرته إلى الركبتين ، وطلّى بدنه بالصبر وغيره من الأطلية القابضة والماسكة لأجزاء جسمه ، فأقام مَضْلُوب على الجسر لا يبلى إلى سنة ثلاثمائة في خلافة المقتدر بالله .

وفي هذه السنة شغب الجند والعامّة ، فعمدت العامة إليه تماجناً وخطوه من فوق الخشبة ، وقالوا : قد وجب علينا حق الأستاذ أبي علي وصيف الخادم لطول مجاورته لنا وصبره علينا ، ولا يبلى على هذه الخشبة ، فلفوه في رداء بعضهم ، وحملوه على أكتافهم ، وهم نحو من مائة ألف من الناس : يرقصون ويغنون ويصيحون حوله : الأستاذ ،

الأستاذ، فلما ضجروا من ذلك طرحوه في دجلة [فغرق في ذلك اليوم منهم قوم في دجلة] وذلك أنهم شَيَّعوه في الماء سباحة، فغرق منهم في جرية الماء خلق كثير.

أبو الفوارس القرمطي

وفي هذه السنة أتى بجماعة من القرامطة من ناحية الكوفة، منهم المعروف بأبي الفوارس [فأدخلوا على الجمل، فأمر المعتضد بالله بقتل أبي الفوارس] بعد أن قطعت يده ورجلاه، وصلب إلى جانب وصيف الخادم، ثم حول إلى ناحية الكنائس مما يلي الياسرية من الجانب الغربي، فصلب مع قرامطة هناك.

وقد كان لأهل بغداد في قتل أبي الفوارس هذا أراجيف كثيرة، وذلك أنه لما قُدم ليضرب عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام: هذه عمامتي تكون قبلك، فإنني راجع بعد أربعين يوماً، فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ويحسون الأيام ويقتلون ويتناظرون في الطرق في ذلك، فلما تمت الأربعون يوماً. وقد كان كثر لغطهم، واجتمعوا، فكان بعضهم يقول: هذا جسده، ويقول آخر: قد مرّ، وإنما السلطان قتل رجلاً آخر وصلبه موضعه لكي لا يفتن الناس. فكثر تنازع الناس في ذلك حتى نودي بتفريقهم، فترك التنازع والخوض فيه.

المعتضد والطالبيون

وكان ورد مال من محمد بن زيد من بلاد طبرستان ليفرق في آل أبي طالب سراً، فغمز بذلك إلى المعتضد، فأخضّر الرجل الذي كان يحمل المال إليهم، فأنكر عليه إخفاء ذلك، وأمره بإظهاره، وقَرَّبَ آل أبي طالب. وكان السبب في ذلك قرب النسب، ولما أُخْبِرْنَا به أبو الحسن محمد بن علي الوراق الأنطاكي، الفقيه المعروف بابن الغنوي بأنطاكية، قال: أخبرني محمد بن يحيى بن أبي عباد الجليس، قال: رأى المعتضد بالله وهو في سجن أبيه كأن شيخاً جالساً على دجلة، يمدُّ يده إلى ماء دجلة، فيصير في يده وتجف دجلة، ثم يرده من يده، فتعود دجلة كما كانت، قال: فسألت عنه، فقيل لي: هذا علي بن أبي طالب! قال: فقمتم إليه وسَلَّمْت عليه، فقال: يا أحمد، إن هذا الأمر صائر إليك، فلا تتعرض لولدي، ولا تُؤْذِهِمْ، فقلت: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين. وغمَّ الناس تأخُّرُ الخراج عنهم، وكان إنعام المعتضد عليهم، فقالت الشعراء في ذلك وأكثر، ووصفت في أشعارها ذلك وأُطْبِثَتْ، [فممن وصف] فأحسن يحيى بن علي المنجم، فقال:

يا مُخَيِّي الشرف اللَّبَابُ وَمُجَدِّدَ الملك الخراب

ومعيد رُكن الدين في لنا ثابتاً بعد اضطراب
فُتِّ المملوك مبرزاً فُوت المبرز في الجلاب
أُسعد بنيروز جمع ت الشكر فيه إلى الثواب
قدمت في تأخير ما قد قَدَّموه إلى الصَّواب

وقوله:

يَوْمَ نِيرُوزِكَ يَوْم واحد لا يَتَأَخَّرُ
من حَزِيرَانٍ يُوَافِي أَبداً في أحد عَشْرُ

وصول قطر الندي للمعتضد

وكان وصول قطر الندي بنت خمارويه إلى مدينة السلام مع ابن الجصاص في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين ومائتين؛ ففي ذلك يقول علي بن العباس الرومي:

يا سيد العرب الذي رُفِّت له باليمن والبركات سيدة العجم
أُسعد به كسعودها بك، إنها ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بِمَالَى نَاطِرَيْهَا بهجةً وضميرها نُبلاً، وَكَفَّيْهَا كَرَم
شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

ولما دخل عمرو بن الليث مدينة السلام من المصلى العتيق رافعاً يديه يدعو وهو على جمل فالج، وهو ذو السنامين، وكان أنْفَذَهُ إلى المعتضد في هدايا تَقَدَّمَتْ له قبل أسره، فقال في ذلك الحسن بن محمد بن فهم:

ألم تَرَ هذا لدهر كيف صُرُوفه يَكُون عسيراً مَرَّةً ويسيراً
وَخَسْبُكَ بالصفار نُبلاً وَعِزَّة يروح وَيَعْدُو في الجيوش أميرا
حَبَاهُم بأجمال، ولم يَذِرْ أَنَّهُ عَلَى جمل منها يُقَاد أسيرا
وفي ذلك يقول محمد بن بَسَام:

أَيُّهَا الْمُغْتَرُّ بالدن يا أما أبصرت عَمُرَا
مُقْبِلاً قد أركب الفنا لج بعد الملك قَسْرَا
وعليه بُرُئْسُ السُّخْ طة إذلالاً وَقَهْرَا
رافعاً كَفَّيْهِ يَدْعُو الله أسراراً وَجَهْرَا
أن ينجيه من القَتْ لي وأن يعمل صفراً

ولما [ظَهَرَ] قتل محمد بن هارون لمحمد بن زيد العلوي أظهر المعتضد لذلك النكير والحزن، تأسفاً على قتله.

وكانت وفاة نصر بن أحمد صاحب ما وراء نهر بلخ في أيام المعتضد، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين، وصار الأمر إلى أخيه إسماعيل بن أحمد.

وفاة جماعة من الأعيان

وكانت وفاة أحمد بن أبي طاهر الكاتب صاحب كتاب «أخبار بغداد» سنة ثمانين ومائتين.

وفيهما كانت وفاة أحمد بن محمد القاضي الذي يحدث.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي مؤدب المكتفي بالله، في المحرم، وهو صاحب الكتب المصنفة في الزهد وغيره.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي سهل محمد بن أحمد الرازي [القاضي] المحدث.

وإنما نذكر وفاة هؤلاء لدخولهم في التاريخ، وحمل الناس العلم عنهم من الآثار عن رسول الله ﷺ.

وكانت وفاة عبيد الله بن شريك المحدث في سنة خمس وثمانين ومائتين ببغداد.

وفيهما [كانت] وفاة بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَفَ بطبرستان.

وفيهما مات محمد بن الحسين الجنيد.

وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين مات أبو علي بشر [بن موسى بن صالح ابن شيخ] ابن عميرة البغدادي، وكانت وفاة أبيه أبي محمد موسى بن صالح ابن شيخ ابن عميرة الأسدي في سنة سبع وخمسين ومائتين في خلافة المعتمد على الله، وله نيف وتسعون سنة، وقُبِضَ ولده وهو ابن تسع وتسعين سنة.

وفيهما مات أبو المثنى معاذ بن المثنى بن معاذ العنبري في أيام المعتضد.

قال المسعودي: وقد ذكرنا من اشتهر من الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أهل الآراء والأدب في كتابينا «أخبار الزمان» و«الأوسط» وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً ملوِّحين على ما سلف.

وفاة المعتضد

وكانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمانٍ بَقِيْنَ من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين، في قصره المعروف بالحسني، بمدينة السلام، وقيل: إن وفاته كانت بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه، فكان يَسْري في جسده، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا، ومنهم مَنْ رأى أن بعض جواريه سَمَّته في منديل أعطته إياه يتنَشَّفُ به، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا.

وقد كان أوصى أن يُدْفَنَ في دار محمد بن عبد الله بن طاهر، في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام، فلما اعتراه العَشيُّ ووقع للموت شَكُّوا في وفاته، فتقدم الطبيب إلى بعض أعضائه فجسه فأحس به وهو على ما به من السكرات، فأنف من ذلك وَرَكَلَهُ برجله فقلبه أذرعاً، فيقال: إن الطبيب مات منها، ومات المعتضد من ساعته، وسمع ضجة وهو على ما به من الحال، ففتح عينيه، وأشار بيديه كالمستفهم، فقال له مؤنس الخادم: يا سيدي، الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله، فأطلقنا لهم العَطَاءَ، فَنَقَطَ وهمهم في سكرته، فكادت أنْفُسُ الجماعة أن تخرج من هَيْئته، وحمل إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر، فدفن بها.

قال المسعودي: وللمعتضد أخبار وسير وحروب ومسير في الأرض غير ما ذكرنا، قد أتينا على ذكرها وَالْغُرَر من مبسوطها في كتابينا «أخبار الزمان» و«الأوسط».

ذكر خلافة المكتفي بالله

موجز

وبويع المكتفي بالله . وهو علي بن أحمد المعضد . بمدينة السلام ، في اليوم الذي كانت فيه وفاة أبيه المعتضد ، وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين ، وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله ، والمكتفي يومئذ بالرقعة ، وللمكتفي يومئذ نيف وعشرون سنة ، ويكنى بأبي محمد ، فكان وصول المكتفي إلى مدينة السلام [من الرقة] يوم الاثنين لسبع ليالٍ بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين ، وكان دخوله في الماء ، ونزل قصر الحسيني على دجلة ، وكانت وفاته يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وهو يومئذ ابن إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، فكانت خلافته ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، وقيل : ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوماً ، على تباين الناس في تواريخهم ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

اسم علي في الخلفاء

ولم يتقلد الخلافة إلى هذا الوقت . وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . من خلافة المتقي بالله من اسمه علي إلا علي بن أبي طالب والمكثفي .

رد المظالم إلى أهلها

ولما نزل المكثفي قصر الحسيني في اليوم الذي كان فيه دخوله إلى مدينة السلام خلع على القاسم بن عبيد الله ، ولم يخلع على أحد من القواد ، وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس ، وإطلاق من كان محبوساً فيها ، وأمر برّد المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير إلى أهلها ، وفرق فيهم أموالاً ، فمالت قلوب الرعية إليه ، وكثر الداعي له بهذا السبب .

غلب عليه جماعة

وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه ، ثم غلب عليه بعد وفاة القاسم [بن عبيد الله] وزيره العباس بن الحسن وفاتك ، وقد كان القاسم بن عبيد الله أوقع بمحمد بن غالب الأصبهاني ، وكان يتقلد ديوان الرسائل وكان ذا علم ومعرفة ، وأوقع بمحمد بن بشار وابن منارة لشيء بلغه عنهم ، فأوثقهم بالحديد ، وأخذهم إلى البصرة ، فيقال : إنهم غرقوا في الطريق ، ولم يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية ؛ ففي ذلك يقول علي بن بسام :

عذرك في قتلك المسلمين وقلنا : عداوة أهل الملل
فهذا المغاري ما ذنبه ودينكما واحد لم يزل

إيقاعه ببدر

وقد كانت الحال انفرجت بين القاسم بن عبيد الله وبدر قبل هذا الوقت ، فلما

استخلف المكتفي أغراه القاسم بيدر، وكان ميل جماعة من القواد عن بدر فساروا إلى حضرة السلطان، وسار بدر إلى واسط، فأخرج القاسم المكتفي إلى نهر ذبال، فعسكر هنالك، وجعل في نفس المكتفي من بدر كل حالة يقدر عليها من الشر، وأغراه به، فأحضر القاسم أبا حازم القاضي وكان ذا علم ودراية فأمره عن أمير المؤمنين بالمسير إلى بدر فيأخذ له الأمان ويجيء به معه ويضمن له عن أمير المؤمنين ما أحب، فقال أبو حازم: ما كانت أبلغ عن أمير المؤمنين رسالة لم أسمعها منه، فلما امتنع عليه أحضر أبا عمرو [محمد] بن يوسف القاضي فأرسل به إلى بدر في شذاء، فأعطاه الأمان [والعهود] والمواثيق عن المكتفي، وضمن له أن لا يسلمه عن يده إلا عن رؤية أمير المؤمنين، فخلى عسكره، وجلس معه في الشذاء مُضْعِدِينَ فلما انتهوا إلى ناحية المدائن والسبب تلقاه جماعة من الخدم فأحاطوا بالشذاء، وتنحى أبو عمرو عنه إلى طيار فركب فيه، وقرب بدر إلى الشط، وسألهم أن يصلي ركعتين، وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين قبل الزوال من ذلك اليوم، فأملهوه للصلاة، فلما كان في الركعة الثانية قطعت عنقه، وأخذ رأسه فحمل إلى المكتفي، فلما وضع الرأس بين يدي المكتفي سجد وقال: الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة.

ودخل المكتفي إلى مدينة السلام يوم الأحد لثمان خلون من شهر رمضان؛ ففي محمد بن يوسف القاضي يقول بعض الشعراء في ضمانه لبدر العهود والمواثيق عن المكتفي:

قل لقاضي مدينة المنصور	بِمَ أَحَلَلْتَ أَخْذَ رَأْسِ الْأَمِيرِ؟
بعد إعطائه المواثيق والعهود	دَ وَعَقَّدَ الْأَمَانَ فِي مَنْشُورِ
أَيْنَ أَيْمَانِكَ الَّتِي يَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى	أَنَّهَُا يَمِينٌ قُجُورٌ؟
أَيْنَ تَأْكِيدِكَ الطُّلَاقَ ثَلَاثاً	لَيْسَ فِيهِنَّ نِيَّةَ التَّخْيِيرِ؟
أَنْ كَفَّيْكَ لَا تَفَارِقَ كَفَّيْ	هَ إِلَى أَنْ تَرَى مَلِيكَ السَّرِيرِ
يا قليل الحياء يا أكذب الأمم	ة يَا شَاهِداً شَهَادَةَ زُورِ
ليس هذا فعل القضاة، ولا تُخ	سِنَّ أَمْثَالَهُ وَلَا أَلَا الْجَسُورِ
قد مضى من قتلت في رمضان	رَاكِعاً بَعْدَ سَجْدَةِ التَّكْبِيرِ
أي ذنب أَتَيْتَ فِي الْجُمُعَةِ الزَّهَرِ	رَاءَ فِي خَيْرِ خَيْرِ خَيْرِ الشُّهُورِ؟
فَأَعِدَّ الْجَوَابَ لِلْحَكَمِ الْعَا	دَلْ مِنْ بَعْدِ مَنْكَرٍ وَنَكِيرِ
يا بني يوسف بن يعقوب أَضْحَى	أَهْلُ بَغْدَادٍ مِنْكُمْ فِي غُرُورِ

شَتَّتَ اللهُ شَمْلَكُمْ، وأراني بكم الذل بعد ذلك الوزير
أنتم كلكم فداء أبي حازم المستقيم كل الأمور

منزلة بدر

قالوا: وكان بدر حراً، وهو بدر بن خير من موالي المتوكل، وكان بدر في خدمة ناشيء غلام الموفق صاحب ركابه، ثم اتصل بالمعتضد، وقرب من قلبه وخف بين يديه في أيام الموفق، وكان للمعتضد غلام يقال له فاتك، وكان من أعلى غلمانها، فبعد من قلبه، وانحطت مرتبته، وكان السبب في ذلك أن المعتضد غضب على بعض جواريه فأمر ببيعها، ففسد فاتك من ابتاعها له، فكان السبب في إبعاده من قلب المعتضد عند نمو ذلك إليه، وزاد أمر بدر، وعَلَّتْ مرتبته، حتى كان يلتبس الحوائج به من المعتضد، وكانت الشعراء تقرن مدح بدر بمدح المعتضد، وكذلك من خاطبه فيما عدا المنظوم من الكلام. قال المسعودي: وأخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي النديم الشطرنجي بمدينة السلام، قال: كان لي وعد على المعتضد، فما ظفرت به حتى عملت قصيدة ذكرت فيها بدرأ أولها:

أيها الهاجر مَزْحاً لا مجد	أَجْزَاءُ الْوَدِّ أَنْ يُلْقَى بِصَدِّ؟
لأمير المؤمنين المعتضد	بَحْرُ جُودٍ لَيْسَ يَعْذُوه أَحَدُ
وأبو النجم لمن يقصده	جَدُولٌ مِنْهُ إِلَى الْبَحْرِ يَرِدُ
قد مضى الفطر إلى الأضحى وقد	أَنْ أَنْ يَقْرُبَ وَعَدٌ قَدْ بَعْدُ
ما اقتضائي الوعد أن لست على	ثِقَةٌ مِنْ أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِ
غير أن النفس تهوى عاجلاً	وَسَوْأَ أُعْطَى كَرِيمٌ أَوْ وَعْدُ

قال: فَضَحِكَ وَأَمَرَ بِمَا وَعَدَنِي بِهِ.

وأخبرنا محمد بن النديم بمدينة السلام، قال: سمعت المعتضد يقول: أنا آنف من هبة القليل، ولا أرى الدنيا لو كانت لي أموالها وجمعت عندي تفي بقدر جودي، والناس يزعمون أنني بخيل، أتراهم لا يعلمون أنني جعلت أبا النجم بيني وبينهم أعرف ما مبلغ ما ينفقه يوماً [فيوماً] لو كنت بخيلاً ما أطلقت ذلك له.

وأخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الفقيه الورّاق الأنطاكي بمدينة أنطاكية قال: أخبرني إبراهيم بن محمد الكاتب، عن يحيى بن علي المنجم النديم، قال: كنت يوماً بين يدي المعتضد وهو مُقَطَّبٌ، فأقبل بدر، فلما رآه من بعيد ضحك وقال لي: يا يحيى، من الذي يقول من الشعراء:

في وجهه شافع يمحو إساءته من القلوب وَجِيهٌ حَيْثَمَا شَفَعَا
فقلت: يقوله الحكم بن قنبرة المارني [البصري]، فقال: لله دره! أنشدني هذا
الشعر، فأنشدته:

وَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النُّومَ فامتنعنا وزاد قلبي على أوجاعه وَجَعَا
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ فِي أَعْطَافِهِ لمعت حسناً، أو البدر من أزراره طلعَا
مُسْتَقْبَلُ الَّذِي يَهْوَى، وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ، ومعدور بما صنعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ مِنْ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثَمَا شَفَعَا
قال: وأخذ قوله:

أَوِ الْبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا

أحمد بن يحيى بن العراف الكوفي فقال:

بَدَا وَكَأَنَّمَا قَمَرٌ عَلَى أَزْرَارِهِ طَلَعَا
يَحْتَ الْمَسْكُ مِنْ عِرْقِ الْجَبِ يَنْ بَنَانِهِ وَلَعَا

ظهور القرمطي بالشام

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين ظهر القَرْمِطِيُّ بالشام، وكان من حروبه مع طنج وعساكر المصريين ما قد اشتهر خبره، وقد أتينا على ذكره فيما سلف [من كتبنا] وما كان من خروج المكتفي إلى الرقة وأخذ القَرَامِطَةَ وذلك في سنة إحدى وتسعين ومائتين، وكذلك ما كان من ذكرويه بن مهرويه ووقوعه بالحاج في سنة أربع وتسعين ومائتين إلى أن قتل وأدخل إلى مدينة السلام.

فداء الغدر وفداء التمام

قال المسعودي: وكان فداء الغدر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين ومائتين باللامس بعد أن فادوا بجماعة من المسلمين والروم، ثم إن الروم غدروا بعد ذلك، وكان فداء التمام باللامس بين الروم والمسلمين على التمام في شوال من سنة خمس وتسعين ومائتين، والأمير في الفداءين جميعاً رستم وكان على الثغور الشامية، فكان عِدَّةٌ من فدى به من المسلمين في فداء ابن طغان في سنة ثلاث وثمانين ومائتين. على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكره. ألفي نفس وأربعمائة وخمسة وتسعين نفساً من ذكر

وأثنى، وكان عدة من فدى به من المسلمين في الغدر ألفاً ومائة وأربعاً وخمسين نفساً، وعدد من فودي به في فداء التمام ألفين وثمانمائة واثنتين وأربعين نفساً.

مالية الدولة

ومات المكتفي وقد خَلَفَ في بيوت الأموال [من العَيْن] ثمانية آلاف ألف دينار ومن الورق خمسة وعشرين ألف ألف درهم من الدواب والبغال والجمازات وغيرها تسعة آلاف رأس، وكان مع ذلك بخيلاً ضيقاً.

وأخبرنا أبو الحسن أحمد بن يحيى المنجم المعروف بابن النديم، وكان من حُذاق أهل النظر والبحث وأهل الرياسة من أهل التوحيد والعدل، وفي أخيه علي بن يحيى يقول أبو هفان:

لِرَبِيعِ الزَّمانِ في الحَوْلِ وقت وابنُ يحيى في كل وقتٍ رَبِيعُ
رَجُلٍ عنده المكارم سُوق يَشْتَرِي دَهْرَهُ ونحن نبيعُ

وظيفته من الطعام

قال: وكانت وظيفة المكتفي بالله عشرة ألوان في كل يوم، وجَدِّي في كل جمعة، وثلاث جامات حلواء، وكان يردد عليه الحلواء، ووكل على مائدته بعض خدمه، وأمره أن يحصي ما فضل من الخبز، فما كان من المكسر عزله للثريد، وما كان الصالح رُدَّ إلى مائدته من الغد، وكذلك كان يفعل بالبوراد والحلواء.

نهب ضياعاً من أهلها

وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بإزاء قطربل، فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير ثمن من مُلَّاكها، فكثر الداعي عليه، فلم يستتم ذلك البناء حتى توفي، وكان هذا الفعل مشاكلاً لفعل أبيه المعتضد في بناء المطامير.

قسوة وزيره

وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة، شديد الإقدام، سفاكاً للدماء، وكان الكبير والصغير على رعب [وخوف] منه، لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه.

وفاة الوزير

وكانت وفاته عشية الأربعاء لعشر خلون من ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين

ومائتين، وله نيف وثلاثون سنة؛ ففي ذلك يقول بعض أهل الأدب، وأراه عبد الله بن الحسن بن سعد:

شربنا عَشِيَّةَ مات الوزير ونَشْرَبُ يا قوم في ثالثه
فلا قدَّسَ الله تلك العظام ولا بـسارك الله في وارثه

مقتل عبد الواحد بن الموفق

وكان ممن قتل القاسم بن عبيد الله عبد الواحد بن الموفق، وكان معتقلاً عند مؤنس [الفحل] فبعث إليه حتى أخذ برأسه، وذلك في أيام المكتفي، وقد كان المعتضد يُعزِّه ويميل إليه ميلاً شديداً، ولم يكن لعبد الواحد همة في خلافة ولا سمو إلى رئاسة، بل كان همته في اللعب مع الأحداث، وقد كان المكتفي أخبر عنه أنه راسل عدة من غلمانه الخاصة، فوكل به مَنْ يراعي خبره وما يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه، فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابي حيث يقول:

تلوم على تَرْكِ الغِنَى باهليَّةً طَوَى الدهر عنها من طريف وتالد
رَأَتْ حَوْلَهَا النسوان يمشين خلصة مُقْلَدَةً أجيادها بالقلائد
أَسْرَكِ أني نلت ما نال جعفر من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني مُعَصَّهَما بالمُرَهَفَاتِ البوارد
دَرِنِي تجنني مِيتَتِي مطمئنة ولم أـتَجَشَّمْ هَؤُلَ تلك الموارد
فإن نفيسات الأمور مَشُوبَةٌ بمستودعاتٍ في بطون الأساود
وإن الذي يسمو إلى دَرْكِ العلا مُلْقَى بأسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب: يا سيدي، أين أنت عما تمثل به يزيد بن المهلب:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحياة فلم أجد حياةً لنفسي مِثْلَ أن أـتَقَدَّمَ

فقال له عبد الواحد: مَهْ، لقد أخطأت الغرض، وأخطأ ابن المهلب، وأخطأ قائل هذا البيت، وأصاب أبو فرعون التميمي حيث يقول، قال النديم: حيث يقول ماذا؟ قال:

وما بي شيء في الوغى غير أنني أخاف على فَخَارَتِي أن تحطَّما
ولو كنت مُبْتَاعاً من السوق مثلها لَدَى الروع ما باليت أن أـتَقَدِّما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفي ضحك، وقال: قد قلت للقاسم ليس عَمِي عبدُ الواحد ممن تسمو همته إليها، هذا قول مَنْ ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمره يعانقه وكلاب يهارش بها وكباش يناطح بها وديوك يقاتل بها، أطلقوا لعمي كذا وكذا، فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله.

وقد كان المكتفي لما أن مات القاسم وتبين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره، وضربه بالسوط، وحرقه بالنار، وقد قيل غير ذلك، والله أعلم.

مقتل ابن الرومي

وممن أهلكه القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم في خشكانجة علي بن العباس بن جَرِيح الرومي، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها، وكان من مختلقي معاني الشعراء، والمجودين في القصير والطويل، متصرفاً في المذهب تصرفاً حسناً، وكان أقل أدوات الشعر، ومن محكم شعره وجيده قوله:

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَجْرَحُ ثُمَّ يَأْسُو يَعْوُضُ أَوْ يَسْأَلِي أَوْ يُنْسِي
أَبْتُ نَفْسِي الْهَلُوعَ لَفَقْدِ شَيْءٍ كَفَى حَزْناً لِنَفْسِي فَقَدْ نَفْسِي

ومن قوله العجيب الذي ذهب إلى معاني فلاسفة اليونانيين وَمَنْ مَهَرَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ قوله في القصيدة التي قالها في صاعد بن مخلد:

لَمَّا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ زَوَالِهَا يَكُونُ بَكَاءَ الطُّغْيَانِ سَاعَةً يُوَضَّعُ
وَلَا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا، وَإِنِهَا لَا تُفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَوْسَعُ؟

ومما دَقَّ فيه فأحسن وذهب إلى معنى لطيف من النظر على ترتيب الجدلين وطريقة حُذَّاق المتقدمين قوله:

غَمُوضُ الشَّيْءِ حِينَ تَذُبُّ عَنْهُ يُقَلِّلُ نَاصِرَ الْخَصْمِ الْمُحَقِّقِ
تَضْيِيقُ عَقُولٍ سَمْتَعِيهِ عَنْهُ فَيَقْضِي لِلْمَجْلِ عَلَى الْمَدَقِّ

ومما أجاد فيه في وصف القناعة قوله:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَعْدَ مِ يَوْمًا كَذَبَ الشَّهْوَةُ
فَكُلْ مَا شِئْتَ يَصْدُرْكَ عَنْ الْمُسْرَةِ وَالْحُلُوءِ
وَطَأْ مَا شِئْتَ يَحْصَنُكَ عَنْ الْحُسْنَاءِ فِي الْخُلُوءِ
وَكَمْ أَتَسَاكَ مَا تَهْوَا ه نِيلُ الشَّيْءِ لَمْ تَهْوَا

وقوله :

بأبي حُسْنُ وجهك اليوسفي يا كفيّ الهوى وفوق الكفيّ
فيه وَزْدٌ ونرجسٌ، وعجيب اجتماع الشتوي والصيفي

وقوله في العنب الرازقي :

ورازقيّ مُخْطَفُ الخصور كأنه مخازن البلور
ألين في المس من الحرير [وَرِيحُهُ كَمَاءٍ وَزْدٍ جُورِي] ^١
لو أنه يبقى على الدهر لَقَرَّطُوهُ للحسان الحور

ولابن الرومي أخبار حسان مع القاسم بن عبيد الله الوزير، وأبي الحسن علي بن سلميان الأخفش النحوي، وأبي إسحاق الزجاج النحوي .

وكان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء، وكان شَرِهًا نَهْمًا، وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل إسماعيل بن علي التُّوبَخْتِي وغيره من آل نوبخت .

وفاة جماعة من الأعيان

وفي سنة تسعين ومائتين مات عبد الله بن أحمد بن حنبل، يوم السبت لعشر بَقِيْنَ من جمادى الآخرة .

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين كانت وفاة أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، ليلة السبت لثمان بَقِيْنَ من جمادى الأولى، ودُفِنَ في مقابر باب الشام في حجرة اشترت له، وَخَلَفَ إحدى وعشرين ألف درهم وألفي دينار، وغلة بشارع باب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار .

من أخبار ثعلب

ولم يزل أحمد بن يحيى مقدماً عند العلماء منذ أيام حدائته إلى أن كبر وصار إماماً في صناعته، ولم يخلف وارثاً إلا ابنة لابته، فرد ماله عليها، وكان هو ومحمد المبرد عالين قد ختم بهما الأدباء، وكانا كما قال بعض الشعراء من المحدثين :

أيا طالب العلم لا تجهلن وعُذُّ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هَذَيْنِ علم الورى ولا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة بهذين في الشرق والمغرب

وكان محمد بن يزيد المبرد يحب أن يجتمع في المناظرة مع أحمد بن يحيى ويستكثر منه، وكان أحمد بن يحيى يمتنع من ذلك.

وأخبرنا أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلي الفقيه. وكان صديقهما. قال: قلت لأبي عبد الله الدينوري خَتَنَ ثعلب: لِمَ يَأْبَى أحمد بن يحيى الاجتماع مع المبرد؟ فقال لي: أبو العباس محمد بن يزيد حسن العبارة، حلو الإشارة، فصيح اللسان، ظاهر البيان، وأحمد بن يحيى مَذْهَبُهُ مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في مَحْفَلٍ حكم لهذا على الظاهر إلى أن يعرف الباطن.

وأخبرنا أبو بكر القاسم بن بشار الأنباري النحوي، أن أبا عبد الله الدينوري هذا كان يختلف إلى أبي العباس المبرد يقرأ عليه كتاب سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، فكان ثعلب يَغْدِلُهُ على ذلك، فلم يكن ذلك يَزِدُّهُ.

وقيل: إن وفاة أحمد بن يحيى ثعلب كانت في سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وفاة جماعة من العلماء

وفي هذه السنة - وهي سنة إحدى وتسعين ومائتين - مات محمد بن محمد الجدوعي القاضي، وله أخبار عجيبة فيما كان به من المذهب قد أتينا على وصفه ونوادره فيها وما كان له من التعزز في الكتاب الأوسط.

وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين كانت وفاة أبي حازم عبد العزيز بن عبد الحميد القاضي، يوم الخميس لسبع ليالٍ خلون من جمادى الآخرة من هذه السنة ببغداد، وله نيف وتسعون سنة.

أحداث

وفي هذه السنة تغلب ابن الخليجي على مصر. وفيها وقع الحريق العظيم، فأحرق بباب الطاق نحواً من ثلاثمائة دكان وأكثر. وظفر بابن الخليجي في سنة ثلاث وتسعين ومائتين بمصر، وأدخل إلى بغداد، وقد أشهر، وقدامه أربعة وعشرون إنساناً من أصحابه منهم صندل المزاحمي الخادم الأسود، وذلك للنصف من شهر رمضان من هذه السنة.

وفيات

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين مات موسى بن هارون بن عبد الله بن مروان

البزاز المحدث، المعروف بالحمال، في يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان ببغداد، ويكنى أبا عمران، وهو ابن نيف وثمانين سنة، ودفن في مقابر باب حرب إلى جانب أحمد بن حنبل.

وقد قدمنا العذر فيما سلف من هذا الكتاب لذكرنا وفاة هؤلاء الشيوخ إذ كان الناس في أغراضهم مختلفين، وفي طلبهم الفوائد متباينين، وربما قد يقف على هذا الكتاب من لا غرض له فيما ذكرناه فيه ويكون غرضه معرفة وفاة هؤلاء الشيوخ.

وكانت وفاة أبي مسلم إبراهيم بن عبد الله الكجي البصري المحدث في المحرم سنة اثنتين وتسعين ومائتين [وهو ابن اثنتين وتسعين سنة] وكان مولده في شهر رمضان سنة مائتين.

وقبض أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب وهو في سن أبي مسلم على ما ذكرنا من تنازع الناس في تاريخ وفاته، وقد كان أبو العباس أحمد بن يحيى قد ناله صَمَمٌ وزاد عليه قبل موته، حتى كان المخاطب له يكتب ما يريد في رقاع.

وصف القطائف

وأخبرنا محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال: كُنَّا يوماً نأكل بين يدي المكتفي، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل، فقال: هل وصفت الشعراء هذا؟ فقال له يحيى بن علي: نعم، قال أحمد بن يحيى فيها:

قطائف قد حُشِيَتْ باللوز والسكر الماذي حَشَوَ الموز
تسبح في آذَى دهن الجوز سررت لما وقعت في حَوْزِي
سُرُور عباس بقرب قَوْزِ

قال: وأنشدته لابن الرومي قوله:

وأنت قطائف بعد ذاك لطائف

فقال: هذا يقتضي ابتداء، فأنشدني العشر من أوله، فأنشدته لابن الرومي:
وَخَبِيصَةَ صَفَرَاءَ دِينَارِيَّةٍ ثَمناً وَلَوْناً زَقْفَهَا لَكَ حَزُورِ
عَظُمْتَ فَكَادَتْ أَنْ تَكُونَ إِوْزَةً وَثُوتَ فَكَادَ إِهَابُهَا يَتَفَطَّرُ
طَفَقَتْ تَجُودُ بِوَبْلِهَا جُودَابَةً فَإِذَا لُبَّابِ اللُّوزِ فِيهَا السُّكَّرُ
نَعَمَ السَّمَاءُ هُنَاكَ ظَلَّ صَبِيْبُهَا يَهْمِي، وَنَعَمَ الْأَرْضُ ظَلَّتْ تُمَطِّرُ

يا حسننها فوق الخوان ودهنها
ظُلْنَا نُقْشِرْ جِلْدَهَا عَنْ لَحْمِهَا
وتَقْدَمُ ثَمَّهَا قَبْلَ ذَاكَ ثَرَائِدُ
وَمُرَقَّاتُ كُلِّهِنَّ مَزْخَرَفُ
وَأَتَتْ قَطَائِفَ بَعْدَ ذَاكَ لَطَائِفُ
ضَحْكُ الْوُجُوهِ مِنَ الطَّبْرِزْدِ فَوْقَهَا
قَدَامَهَا بِصَهِيرِهَا يَتَفَرَّغُ
وَكَأَنَّ تَبَرَّأً عَنْ لَجِينِ يُقْشَرُ
مِثْلَ الرِّيَاضِ بِمِثْلِهِنَّ يُصَدَّرُ
بِالْبَيْضِ مِنْهَا مَلْبَسُ وَمُدْثَرُ
تَرَضَى إِلَهَاتُهَا بِهَا وَيَرْضَى الْحَنْجَرُ
دَمْعَ الْعَيُونِ مَعَ الدِّهَانِ يَقْطُرُ

وصف اللوزينج

فاستحسن المكتفي بالله الأبيات، وأوما إلي أن أكتبها له، فكتبها له.

قال محمد بن يحيى الصولي: وأكلنا يوماً بين يديه بعد هذا بمقدار شهر، فجاءت لوزينجة، فقال: هل وصف ابن الرومي اللوزينج؟ فقلت: نعم، فقال: أنشدنيه، فأنشدته:

لا يخطئني منك لوزينج
لم تُغْلِقِ الشَّهْوَةَ أَبْوَابَهَا
لو شاء أن يذهب في صخرة
يدور بالنفخة في جامه
عاون فيه منظرٌ مخبراً
[كالحسن المحسن في شدوه
مستكثف الحشو، ولكنه
كأنما قُدَّتْ جلابيبه
يُخَالُ مِنْ رَقَةٍ أَجْزَائِهِ
لو أنه صُوِّرَ مِنْ خَبْرِهِ
من كل بيضاء يودُ الفتى
مدهونة زرقاء مدفونة
ذيقَ له اللوز فمما مُرَّةٌ
وانتقد السكر نقاده
فلا إذا العين رأتها نَبَتْ
إذا بدا أعجب أو عَجَبَا
إلا أَبَتْ زلفاه أن يحجبا
لَسَهْلَ الطَّيْبُ لَهُ مَذْهَبَا
دوراً ترى الدهن له لولبا
مستحسن سَاعَدَ مستعذبا
ثم فأضحى مغرباً مطرباً
أَرْقُ جِلْدًا مِنْ نَسِيمِ الصَّبَا
من أعين القطر الذي قُبَا
شارك في الأجنحة الجُنْدَبَا
ثغر لكان الواضح الأَشْنَبَا
أن يجعل الكف لها مَرْكَبَا
شهباء تحكي الأَزْرَقَ الأشهبَا
مَرَّتْ عَلَى الذَائِقِ إِلَّا أَبَى
وشارفوا في نقده المذهبَا
ولا إذا الضرس علاها نبا

فحفظها المكتفي؛ فكان يُشِدُّهَا.

من شعر المكتفي

ومما استحسن من شعر المكتفي لنفسه:

إني كَلِفْتُ، فلا تَلْحُوا، بجارية كأنها الشمس، بل زادت على الشمس
لها من الحسن أعلاه؛ فرؤيتها سَعْدِي، وَغَيْبُهَا عن ناظري نحسي
وللمكتفي أيضاً:

بلغ النفس ما اشْتَهَتْ فإذا هي قد اشْتَفَتْ
إنما العيش ساعة أنت فيها وما انقضت
كل من يعذل المحبَّ إذا ما هَذَا سَكَت
وله أيضاً:

مَنْ لي بأن يعلم ما أَلْقَى فيعرف الصَّبْوَ والعشقا
ما زال لي عبداً، وَحُبِّي له صَيَّرني عبداً له رِقَا
أُعْتِقَ من رقي، ولكنني من حبه لا أملك العتقا

شراب الدوشاب

وأخبرنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه، قال:
أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حمدون، قال: تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفي أصناف
الأشربة، فقال: فيكم مَنْ يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً؟ فأشدته قول ابن الرومي:

إذا أَجَذْتُ حبه وَدِبْسَهُ ثم أَجَذْتُ ضربه وَمَرْسَهُ
ثم أَطَلْتُ في الإناء حَبْسَهُ شرب منه البابلي نفسه

فقال المكتفي: قبحه الله!! ما أَشْرَهُ!! لقد شَوَّقَنِي في هذا اليوم إلى شرب
الدوشاب.

قصة هريسة

وقدم الطعام، فوضع بين أيدينا طيفورية عظيمة فيها هريسة، وقد جعل في وسطها
مثل السكرجة الضخمة مملوءة من دسم الدجاج؛ فضحكت وخطر ببالي خبر الرشيد مع
أَبَانَ القاري، فلحظني المكتفي، وقال: يا أبا عبد الله؛ ما هذا الضحك؟ فقلت: خبر
ذكرته في الهريسة يا أمير المؤمنين ودهن الدجاج مع جدك الرشيد، فقال: وما هو؟
قلت: نعم يا أمير المؤمنين، ذكر العتيبي والمدائني أن أَبَانَ القاري تَغَدَّى مع الرشيد،

فجاؤوا بهريسة عجيبة في وسطها مثل السكرجة الضخمة على هذا المثال من دهن الدجاج، قال أبان: فاشتيت من ذلك الدسم، وأجللت الرشيد من أن أمد يدي فأغمس فيه، قال: ففتحت بأصبعي فيه فتحاً يسيراً، فانقلب الدسم نحوي، فقال الرشيد: يا أبان، أخرقتها لتغرق أهلها؟ فقال أبان: لا يا أمير المؤمنين، ولكن سقناه لبلد ميت، فضحك الرشيد حتى أمسك صدره.

هدية من أبي مضر بن الأغلب

وفي سنة خمس وتسعين ومائتين وردت إلى مدينة السلام هدية زيادة الله بن عبد الله، ويكنى أبا مضر، وكانت الهدية مائتي خادم أسود، وأبيض، ومائة وخمسين جارية، ومائة من الخيل العربية، وغير ذلك من اللطائف.

آل الأغلب بإفريقية

وقد كان الرشيد في سنة أربع وثمانين ومائة. وذلك بالركة. قلد إبراهيم بن الأغلب أمر إفريقية من أرض المغرب، فلم يزل آل الأغلب أمراء إفريقية حتى أخرج عنها زيادة الله ابن عبد الله هذا في سنة ست وتسعين ومائتين، وقيل: في ستة خمس وتسعين ومائتين، أخرجه من المغرب أبو عبد الله المحتسب الداعية الذي ظهر في كتامة وغيرها من البربر، فدعا إلى عبيد الله صاحب المغرب، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب تولية المنصور للأغلب بن سالم السعدي المغرب.

علة المكتفي

قال: واشتدت علة المكتفي بالله بالذرب، فأحضر محمد بن يوسف القاضي وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب، فأشهدهما على وصيته بالعهد إلى أخيه جعفر، وقد قَدَّمنا ذكر وفاته فيما سلف من هذا الكتاب فأغني ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

قال المسعودي: وللمكتفي بالله أخبار حسان، وما كان في عصره من الكوائن قي قصة ابن البلخي بمصر، وأمر القُرْمِطِي بالشام، وأمر ذكرويه وخروجه على الحاج، وغير ذلك مما كان في خلافته، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، فأغني ذلك عن إعادة ذكره.

ذكر خلافة المقتدر بالله

موجز

وبويع المقتدر بالله جعفر بن أحمد في اليوم الذي توفي فيه أخوه المكتفي بالله، وكان يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين، ويكنى أبا الفضل، وأمه أم ولد يقال لها شغب، وكذلك أم المكتفي أم ولد يقال لها ظلوم، وقيل غير ذلك، وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة، وقتل ببغداد بعد صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليالٍ بَقِيْنَ من شوال سنة عشرين وثلاثمائة؛ فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً، وبلغ من السن ثمانية وثلاثين سنة وخمسة عشر يوماً، وقد قيل في مقدار عمره غير ما ذكرنا، والله أعلم.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

مقتل وزيره

وبويع المقتدر وعلي وزارته العباس بن الحسن إلى أن وَثَبَ الحسين بن حمدان، ووصيف بن سوارتكين، وغيرهما من الأولياء على العباس بن الحسن فقتلوه وفاتكأ معه، وذلك في يوم السبت لإحدى عَشْرَةَ لَيْلَةً بقيت من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، وكان من أمر عبد الله بن المعتز ومحمد بن داود وغيرهما ما قد انضح في الناس واشتهر، وأتينا على ذكره في الكتاب الأوسط وغيره في أخبار المقتدر بالله.

مصنفات في سيرة المقتدر

وقد صنف جماعة من الناس أخبار المقتدر مجتمعة مع أخبار غيره من الخلفاء ومُفْرَدَةً، وعمل ذلك في أخبار [الدولة من أخبار] بغداد، وقد صنف أبو عبد الله بن عبدوس الجهشيارى أخبار المقتدر بالله في ألوف من الأوراق، ووقع لي منها أجزاء يسيرة.

وأخبرني غير واحد من أهل الدراية أن ابن عبدوس صنف أخبار المقتدر في ألف ورقة، وإنما نذكر من أخبار كل واحد منهم لمعاً، وإنما الغرض جوامع من أخبارهم تَبَعَثَ على دَرْسِهِ وحفظ ما فيه ونَسْجِهِ.

عبد الله بن المعتز

وكان عبد الله بن المعتز أديباً، بليغاً، شاعراً، مطبوعاً، مجوداً، مقتدرأ على الشعر، قريب المأخذ، سَهْلَ اللفظ، جيد القريحة، حسن الاختراع للمعاني، فمن ذلك قوله:

تقول العاذلات: تَعَزَّ عنها وأطْفِ لهيب قلبك بالسُّلو
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاسا أَلذ من الشَّماتة بالعَدُو؟

وقوله:

ضعيفة أجفانه والقلب منه حَجَرُ
كأنما الحاظه من فعله تعتذر

وقوله:

تولَّى الجهل، وانقطع العتاب، ولاح الشيب، وافتضح الخضاب
لقد أبغضت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخود الكعاب؟

وقوله:

عجباً للزمان في حالتيه وبِلاءٍ دفعت منه إليه
رُبَّ يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وقوله في أبي الحسن علي بن محمد بن الفُرات الوزير:

أبا حسن، ثَبَّتْ في الأرض وَطْأَتِي وأدركتني في المعضلات الهزاهز
وألْبستني درعاً عليّ حصينة فناديت صرف الدهر هل من مبارز

وقوله [أيضاً]:

ومن شر أيام الفتى بَذَلُ وجهه إلى غير من خَفَّت عليه الصنائع
متى يدرك الإحسان من لم تكن له إلى طلب الإحسان نفس تنازع

وقوله:

فإن شئت عادتني السقاة بكأسها وقد فَتَحَ الإصباح في ليلة فَمَا
فخلت الدجا والفجر قد مَدَّ خيطه رداءً مُوَشَّى بالكواكب مُعْلَماً

وقوله:

وأبكي إذا ما غاب نجم كأنني فقدتُ صديقاً أو رُزئتُ حميماً
فلو شق من طرف الليالي كواكب شققت لها من ناظريّ نجوماً

ومما أحسن فيه قوله في عيد الله بن سليمان:

لآل سليمانَ بْنَ وهب صنائع إليّ، ومعروف لديّ تقدّمَا
هُم عَلمُوا الأيام كيف تَبَرُّني وهم غَسَلُوا من ثوب والديّ الدما

وقوله عند وفاة المعتصم بالله :

قضوا ما قضوا من حقه ثم قدموا
وصَلُّوا عليه خاشعين كأنهم

إماماً يؤمُّ الخلق بين يديه
صفوف قيام للسلام عليه

وقوله في فصادة المعتضد بالله :

يا دَمًا سأل من ذراع الإمام
قد ظنناك إذ جريت إلى الطُّسِّ

أنت أذكى من عنبر ومدام
تِ دموعاً من مقلَّتي مستهام
ضع في نفس مهجة الإسلام

وقوله :

اصبر على حسد الحسو
فالنار تأكل نفسها

د فإنَّ صبرك قاتلُ
إن لم تجد ما تأكله

وقوله :

يطوف بالراح بيننا رَشاً
يكاد لحظ العيون حين بدا

مُحَكَّم في القلوبِ والمُقلِّ
يسفك من خده دَمَ الخجلِ

وقوله :

رَشاً يتيه بحسن صورته
وكان عقرب صُدَّغه وقفت

عَبْتُ الفتور بلحظ مقلته
لما دنت من نار وجنته

وقوله :

إذا اجتني وردة من خده فمه
تكونت تحتها أخرى من الخجل

وفاة محمد بن داود الأصفهاني

قال : وكانت وفاة أبي بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني الفقيه سنة ست وتسعين ومائتين ، وكان ممن قد علا في رتبة الأدب ، وتُصرف في بحار اللغة ، وتفشَّن في موارد المذاهب ، وأشفى على أغراض المطالب ، وكان عالماً بالفقه منفرداً ، وواحداً فيه فريداً ، وألف في عنفوان صباه وقبل كماله وانتهائه الكتاب المعروف بالزهرة ، ثم تناهت فكرته ، ونسقت قوته ، فصنف في الفقهيات ككتابه الوصول إلى معرفة الأصول ، وكتاب الإنذار ، وكتاب الأعذار والإيجاز ، وكتابه المعروف بالانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشير وعيسى بن إبراهيم الضيرير .

ومما قال فيه فأحسن في عنفوان شبابه، وأثبتته في كتابه المترجم بالزهرة، وعزاه إلى بعض أهل عصره، وإن كان محسناً في سائر كلامه من منظومه ومثوره قوله:

على كبدي من خيفة البين لوعةً يكاد لها قلبي أسى يتصدعُ
يخاف وقوع البين والشمل جامع فيبكي بعين دمعها متسرّعُ
فلو كان مسروراً بما هو واقع كما هو محزون بما يتوقعُ
لكان سواء برؤيه وسقامه ولكن شك البين أدهى وأوجع
وقوله:

تمتع من حبيبك بالوداع إلى وقت السرور بالاجتماع
فكم جرّبت من وصل وهجر ومن حال ارتفاع وانخفاض
وكم كأس أمر من المنايا شربت فلم يضق عنها ذراعي
فلم أر في الذي لاقيت شيئاً أمراً من الفراق بلا وداع
تعالى الله كل مواصلات وإن طالت تؤول إلى انقطاع
وقوله:

لا خير في عاشق يخفي صبابته بالقول، والشوق في زفرائه بادي
يخفي هواء وما يخفي على أحد حتى على العيس والركبان والحادي

وفاة علي بن بسام

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة في خلافة المقتدر بالله كانت وفاة علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام؛ وكان شاعراً لسنأ، مطبوعاً في الهجاء، ولم يسلم منه وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير. وله هجاء في أبيه وإخوته وسائر أهل بيته، فما قال في أبيه [محمد بن نصر]:

بنى أبو جعفر داراً فشيدّها ومثله لخيار الدور بناء
فالجوع داخلها، والذل خارجها، وفي جوانبها بؤس وضراء
ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء
وله فيه:

هَبْكَ عُمُرَتِ عمر عشرين نسرًا أترى أنني أموت وتبقى
فلئن عشتُ بعد يومك يوماً لأشقنَّ جيب مالك شقاً

وله فيه :

رأى الجوع طباً، فهو يحمي ويحتمي فلست ترى في داره غير جائع
ويزعم أن الفقر في الجود والسخا وأن ليس حظ في اكتساب الصنائع
لقد أمن الدنيا، ولم يخش صَرْفَهَا ولم يدر أن المرء رهْنُ الفجائع

وأنشدني أبو الحسن محمد بن علي الفقيه الورّاق الأنطاكي بأنطاكية، لعلي بن محمد بن بسام، يهجو الموفق والوزير أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، والطائي أمير بغداد، وعبدون النصراني، أخا صاعد، وأبا العباس بن بَسْطَام، وحامد بن العباس وزير المقتدر بالله بعد ذلك، وإسحاق بن عمران، أمير الكوفة يومئذ :

أيرجو المَوْفَّقُ نَصْرَ الإله وأمر العباد إلى دانيه
ومن قبلها كان أمر العباد لَعَمْرُ أبيك إلى زانيه
فإن رضيت رضيت أنه كالدالية فوقها داليه
وَوَظَلَّ ابنُ بلبل يُدْعَى الوزير ولم يَكُ في الأعصر الخاليه
وظحان طي تولى الجُسُور وَسَقَى الفرات وزر قاميه
ويحكم عبدون في المسلمين ومن مثله تؤخذ الجاليه
وأحول بَسْطَام ظل المشير وكان يَحُوكُ ببرزاطيه
وحامد يا قوم لو أمره إلَيَّ لألزمته الراويه
نعم، ولأرجعته صاغراً إلى بيع رمان حضراويه
وإسحاق عمران يدعي الأمير لداهية أيما داهيه
فهذي الخلافة قد ودَّعَتْ وَظَلَّتْ على عرشها خاويه
فَخَلَّ الزمان لأوغاده إلى لعنة الله والهاويه
فيا ربّ قد ركب الأردلون ورجلي من رجلهم عاليه
فإن كنت حامِلًا مثلهم وإلا فأرحل بني الزانيه

جمع في شعره هذا جميع رؤساء أهل الدولة في ذلك العصر .

وأنشد أبو إسحاق الزّجاج النحوي صاحب المبرد [لابن بسام] في المعتضد، وقد خَتَنَ ابنه جعفرأ المقتدر :

انصرف الناس من ختان يدعون من جوعهم حزاما
فقلت: لا تعجبوا لهذا فهكذا تَخْتَنُ اليتامى

وله أيضاً في المعتضد:

إلى كم لا نرى ما نرتجيه ولا ننفك من أملٍ كذوبٍ
لئن سَمَوْتُكَ معتضداً فإنني أظنك سوف تعضد عن قريب

وله في الوزير العباس بن الحسن، وابن عمرويه الخراساني، وكان أمير بغداد

يومئذ:

لعن الله الذي قَلَدَ دَعَبَ عِباس السَّوْزَارَه
والذي وَلَّى ابن عمرو يَه بِبَغْدَادِ الْإِمَارَه
فوزير شَنَج الوجهِ ه بِطَيْن كَالْغَرَارَه
وقَفَا فِيهِ سَنَامَا ن ورأس كَالْخِيَارَه
لم يزل يعرف بالزُّو ر قَدِيمَا وَالْعِيَارَه
وأَمِير أعْجَمِيٍّ كَحَمَارِ ابْنِ حَمَارَه
رحل الإسلام عَنَّا بَتَوَلَّيْهِ الْإِدَارَه

وأنشدني في أبي الحسن جَحْظَةُ البرمكي المغني:

لجَحْظَةُ المحسن عندي يد أَشْكُرُهَا مِنْهُ إِلَى الْمَحْشَرِ
لما أَرَانِي وَجْهَ بَرْدُونِه وَصَانَنِي عَنْ وَجْهِهِ الْمُنْكَرِ

وله في أبيه محمد بن نصر بن منصور بن بسام:

خَبِيصَةٌ تَعْقِدُ مِنْ سُكَّرِه وَبُرْمَةٌ تَطْبِخُ مِنْ قَنْبَرِه
عند فتى أَسْمَحَ مِنْ حَاتِم يَطْبِخُ قَدْرَيْنِ عَلَى مَجْمَرِه
وليس ذا في كل أيامه لَكِنَّهُ فِي الدَّعْوَةِ الْمُتَكَبِّرِه
في يوم لهو فطع هائل وَمَجْمَعُ اللَّذَاتِ وَالْقُرْقُرِه
يقول للآكل من خبزه: تَعْساً لِهَذَا الْبَطْنِ مَا أَكْبَرِه

وله في أبيه أيضاً:

خبز أبي جعفر طباشيرُ فِيهِ الْأَفَاوِيهُ وَالْعَقَاقِيرُ
فيه دواء لكل مُغْضِلَةٍ لِلْبَطْنِ وَالصَّدْرِ وَالْبَوَاسِيرِ
وقصعة مثل مدهن صغراً فَتَزَعَقُ مِنْ حَوْلِهَا النُّوَاطِيرُ
ونَيْلُ ما تَرْتَجِيهِ مِنْ يَدِه مَا لَيْسَ تَجْرِي بِهِ الْمَقَادِيرُ

وله فيه :

بعثت لأستهديه غيراً ولم أكن
فَوَجَّه لي كي نستوي في ركوبه
وقال في جماعة من الرؤساء :

قل للرؤوس ومن تُرجى نوافلهم
إن تشغلوني بأعمال أصيرها
وله أيضاً :

مال لي رأيك دائباً
ارجع إلى ما تستح
وله في عبيد الله بن سليمان الوزير :

عبيد الله ليس له مَعَاد
رددت إلى الحياة فعدت عنها
وله في القاسم بن عبيد الله بن سليمان :

قل للمولى دولة السلطان :
كم من وزير قد رأيت معظماً
وله في عبيد الله بن سليمان :

لا بد يا نفس من سجود
هَبَّتْ لك الريح يا ابن وهب
وله في إسماعيل بن بلبل الوزير :

لأبسي الصقر دولة
مُزْنَةٌ حين أطمعت
وله في العباس بن حسن الوزير :

تحمل أوزار البرية كلها
ألم تر أسباب الذين تقدموا
وزير بظلم العالمين يجاهر
وكيف أتتهم بالبلاء الدوائر

لأعلم أن العير صار لنا صهرا
فيركبه بطناً وأركبه ظهرا

ومن يؤمل فيه الرُفْدُ والعمل
شغلاً، وإلا ففي أعراضكم شغل

مستسخطاً أبداً لِرزقك
ق فإن قوتك فوق حقك

ولا عَقْلٌ، وليس له سَدَاد
لِقول الله : لو رُدوا لَعادوا

عند الكمال تَوَقُّعُ النقصان
أضحى بدار مَذَلَّة وهوان

في زمن القرد للقرد
فخذ لها أهبة الركود

مثله في التخلُّف
أذنت بالتكشاف

وله في الوزير صاعد بن مخلد:

سجدنا للقروء رجاء دنيا حَوَّثَهَا دُونَنَا أَيْدِي الْقُرُودِ
فما نالت أناملنا بشيء عملناه سوى ذل السجود

وله في العباس بن الحسن الوزير:

بَنَيْتَ عَلَى دَجَلَةٍ مَجْلِساً تَبَاهَى بِهِ فِعْلٌ مَنْ قَدْ مَضَى
فلا تفرحنَّ فكم مثل ذا رأيناه ما تم حتى انقضى

وله في الوزير علي بن محمد بن الفرات:

وقفت شهوراً للوزير أعدّها فلم تثنه نحوي الحقوق السوالفُ
فلا هو يرعى لي رعاية مثله ولا أنا أستحيي الوقوف وأنفُ

وله في أبي جعفر محمد بن جعفر الغريلي:

سألت أبا جعفر فقال: يَدِي تَقْضُرُ
فقلت له: عاجلاً يكون كما تذكر

وله فيه:

لحياة كَثَّةٌ أَضْرَبَهَا النَّثْرُ فُ، وَوَجْهَهُ مُشَوَّهٌ مَلْعُونُ
قلت لما بدا يجمجم في القو ل وَيَهْذِي كَأَنَّهُ مَجْنُونُ:
صدق الله، أنت مَنْ ذَكَرَ الله مَهِينٌ وَلَا يَكَادِ يَبِينُ

وله في ابن المَرْزُبَانِ، وقد كان سأله دابة فمنعه:

بَخِلْتُ عَنِّي بِمَقْرِفِ عَطْبٍ فلن تراني ما عشت أطلبه
وإن تكن صُنَّتْهُ فَمَا خَلَقَ الله مصوناً وأنت تركبه

وله مما أحسن فيه:

تضمن لي في حاجتي ما أحبه فلما اقتضيت الوعد قَطَبٌ واعتلى
وصيّر عذراً شُغْلَهُ واتصاله ولولا اتصال الشغل ما كان أشغلا

ولعلي بن محمد بن بسام في هذه المعاني أشعار كثيرة، اكتفينا بذكر البعض عن إيراد ما هو أكثر منه في هذا الكتاب، لما قدمنا ذكره فيما سلف قبله من الكتب، وقد كان أبوه محمد بن نصر بن منصور في غاية السرور والمروءة، وكان رجلاً مترفاً، حسن الزي، ظاهر المروءة، مشغولاً بالبناء.

وذكر أبو عبد الله القمي قال: دخلت عليه يوماً شاتياً، شديد البرد ببغداد، فإذا هو في قبة واسعة قد طليت بالطين الأحمر الأرمني، وهو يلوح، بريقاً، فقدرت أن تكون القبة عشرين ذراعاً في مثلها، وفي وسطها كانون بزرافين إذا اجتمع ونُصِبَ كان مقداره عشرة أذرع في مثلها، وقد ملئ جمر العَصَى، وهو جالس في صدر القبة، عليه غلالة تستريه، وما فضل عن الكانون مفروش بالديباج الأحمر، فأجلسني بالقرب منه، فكدت أتلظى، فدفعت إلى جام ماء الورد وقد مزج بالكافور، فمسحت به وجهي، ثم رأيته قد استسقى ماء، فأتوه بماء رأيت فيه ثلجاً، فلم يكن لي وكُذِّ إلا قطع ما بيني وبينه، ثم خرجت من عنده إلى برد مائع، وقد قال لي: لا يصلح هذا البيت لمن يريد الخروج منه.

طعام محمد بن نصر

قال: ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جالس في موضع آخر في داره، وقد رفعه على بركة، وفي صدره صفة، وهو يُشْرِفُ منها على البستان، وعلى حِيزِ الغزلان، وحظيرة القماري وأشباهها، فقلت له: يا أبا جعفر، أنت والله جالس في الجنة، قال: فليس ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها، فما جلست واستقر بي المجلس حتى أتوه بمائدة جزع لم أر أحسن منها، وفي وسطها جام جزع ملونة، وقد لوى على جنباتها الذهب الأحمر، وهي مملوءة من ماء ورد، وقد جعل سافاً على ساف، كهيئة الصومعة من صدور الدجاج، وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح، ثم أتينا بسنبوسق يفور وبعده جامات اللوزينج، ورفعت المائدة، وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة، فقدم بين أيدينا إجانة صيني بيضاء قد كومت بالبنفسج والخيري، وأخرى مثلها قد عبئ فيها التفاح الشامي قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف تفاحة، فما رأيت طعاماً أنظف منه ولا ريحاناً أظرف منه، فقال لي: هذا حقُّ الصُّبُوح، فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم.

قال المسعودي: وإنما ذكرنا هذا الخبر عن محمد بن نصر ليعلم أن علي بن محمد ابنه أخبر عنه بضد ما كان عليه، وأنه لم يسلم من لسانه إنسان، وله أخبار وهجو كثير في الناس قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا، وما كان من قوله في القاسم بن عبيد الله، ودخوله إلى المعتضد وهو يلعب بالشطرنج ويتمثل بقول علي بن بسام: حَيَاةٌ هَذَا كَمُوتِ هَذَا فليس تخلو من المصائب

فلما شال رأسه نظر إلى القاسم فاستحيا، فقال: يا قاسم، أقطع لسان ابن بسام عنك، فخرج القاسم مبادراً ليقطع لسانه، حتى قال له المعتضد: بالبر والشغل ولا

تعرض له بسوء، فولاه القاسم البريد والجسر بجند قنسرين والعواصم من أرض الشام، وما كان من قوله في أسد بن جهور الكاتب وخبره معه وما عم بهجائه أسداً وغيره من الكتاب وهو:

تَعِسَ الزمان لقد أتى بعجائب ومحا رُسومَ الظرف والآداب
أو ما ترى أسدَ بن جهور قد غدا متشبهاً بأجلّة الكتاب
وأتى بأقوام لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب

وزراء المقتدر

ولما قتل العباس بن الحسن استوزر المقتدر علي بن محمد بن موسى بن الفرات [يوم الأربعاء لأربع ليالٍ خلون من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين] فكانت وزارته إلى أن سخط عليه ثلاث سنين وتسعة أشهر وأياماً.

واستوزر محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان في اليوم الذي سخط فيه علي بن محمد بن موسى بن الفرات، وهو يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة [سنة تسع وتسعين ومائتين] وخلع عليه ولم يخلع على أحد غيره، وقبض عليه يوم الاثنين لعشر خلون من المحرم سنة إحدى وثلاثمائة.

وخلع على الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة [خلت] من المحرم سنة إحدى وثلاثمائة، وقبض عليه يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة سنة أربع وثلاثمائة.

واستوزر علي بن محمد بن الفرات ثانية، وخلع عليه يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة سنة أربع وثلاثمائة، وقبض عليه يوم الخميس لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ست وثلاثمائة.

وخلع على الوزير حامد بن العباس يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة، وأطلق علي بن عيسى في اليوم الثاني من وزارته، وهو يوم الأربعاء، وفوضت الأمور إليه، وقبض على حامد بن العباس.

واستوزر علي بن محمد بن الفرات، وهي الثالثة من وزارته، وقد كان ولده محسن بن علي هو الغالب على الأمور في هذه الوزارة، فأتى على جماعة من الكتاب [ثم قبض عليه وعلى ولده، على حسب ما قدمنا من خبرها في صدر هذا الباب].

واستوزر المقتدر عبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني، ثم استوزر بعده أحمد بن عبيد الله الخصيبي، ثم استوزر علي بن عيسى ثانية، ثم استوزر [أبا] علي

محمد بن علي بن مقله، ثم استوزر بعده سليمان بن الحسن بن مخلد، ثم استوزر بعده عبيد الله بن محمد الكلواذي، ثم استوزر بعده الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وهو المقتول بالرقه، ثم استوزر بعده الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات.

مقتل المقتدر

وقتل المقتدر بالله ببغداد وقت صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة، وكان قتله في الوقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقي، وتولى دفن المقتدر العامة وكان وزيره في ذلك اليوم أبا الفتح الفضل بن جعفر [بن موسى بن الفرات على حسب ما ذكرنا].

وذكر أن الفضل أخذ الطالع في وقت ركوب المقتدر بالله إلى الوقعة التي قتل فيها، فقال له المقتدر: أي وقت هو؟ فقال: وقت الزوال، فقطب له المقتدر، وأراد أن لا يخرج حتى أشرفت عليه خيل مؤنس، فكان آخر العهد به من ذلك الوقت.

السادس من بني العباس

وكل سادس من خلفاء بني العباس مخلوع مقتول، فكان السادس منهم محمد بن هارون المخلوع، والسادس الآخر: المستعين، والسادس الآخر: المقتدر بالله.

وللمقتدر أخبار حسان، وما كان في أيامه من الحروب، والوقائع، وأخبار ابن أبي الساج وأخبار مؤنس وأخبار سليمان بن الحسن الحماني وما كان منه بمكة في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وغيرها، وما كان في المشرق والمغرب وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» مفصلاً، وفي الكتاب الأوسط مجملًا، وذكرنا منه في هذا الكتاب لمعاً، وأرجو أن يفسح الله لنا في البقاء ويمد لنا في العمر ويسعدنا بطول الأيام، فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر تضمنه فنون الأخبار، وأنواعاً من ظرائف الآثار، على غير نظم من تأليف، ولا ترتيب من تصنيف، على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار، ويوجد من بوادر الآثار، ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومخلط الآداب، تالياً لما سلف من كتبنا، ولاحقاً لما تقدم من تصنيفنا.

وفاة موسى بن إسحاق الأنصاري

وكانت وفاة موسى بن إسحاق الأنصاري القاضي في خلافة المقتدر، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة [الفقيه] الكوفي، ودفن في الجانب الشرقي، وكان هذا [ن] من علماء أهل الحديث وكبار أهل النقل.

غرق البيت الحرام

وورد الخبر إلى مدينة السلام بأن أركان البيت الحرام الأربعة غرقت حتى غمّ الغرق الطواف وفاضت بثر زمزم، وأن ذلك لم يعهد [وه] فيما سلف من الزمان.

وفيات

وفيها كانت وفاة يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد القاضي، وذلك في شهر رمضان بمدينة السلام، وهو ابن خمس وتسعين سنة، وقيل: إن في هذه السنة كانت وفاة محمد بن داود بن [علي بن] خلف الأصبهاني الفقيه، وقد قدمنا ذكره، وأن وفاته كانت في سنة ست وتسعين ومائتين وإنما حكينا الخلاف في ذلك.

وفي هذه السنة. وهي سنة سبع وتسعين ومائتين. كانت وفاة ابن أبي عوف البروري المعدل ببغداد، وذلك في شوال، وهو ابن نيف وثمانين سنة، ودفن في الجانب الغربي. وإنما نذكر هؤلاء لنقلهم السنن، واشتغالهم بذلك، وحاجة أهل العلم وأصحاب الآثار إلى معرفة وقت وفاتهم.

وفيها مات أبو العباس أحمد بن مسروق المحدث وهو ابن أربع وثمانين سنة، ودفن بباب آل حرب من الجانب الغربي.

وقد قدمنا في هذا الكتاب أخبار مَنْ ظهر من آل أبي طالب في أيام بني أمية وبني العباس، وفي غيره مما سلف من كُتُبنا، وما كان من أمرهم من قُتل أو حُبس أو حرب.

ظهور طالبي في مصر

وقد كان ظهر بصعيد مصر أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن [إسماعيل بن إبراهيم بن] الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقتله أحمد بن طولون، بعد أقاصيص قد أتينا عليها فيما سلف من كُتُبنا.

وإنما نذكر من ظهر من آل أبي طالب واللمع من أخبارهم في هذا الكتاب لاشتراطنا فيه على أنفسنا من إيراد ذكرهم ومقاتلتهم، وغير ذلك من أخبارهم من منذ [قتل] أمير المؤمنين إلى الوقت الذي ينتهي إليه تصنيفنا لهذا الكتاب.

وفاة الرسي

وكانت وفاة يحيى بن الحسين [الحسيني] الرسي بعد أن قطن بمدينة صَعْدَة من أرض اليمن في سنة ثمان وسبعين ومائتين، وقام بعده ولده الحسن بن يحيى.

ظهور ابن الرضا

وكان ظهور ابن الرضا . وهو محسن بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد . في أعمال دمشق في سنة ثلاثمائة ، وكانت له مع أبي العباس أحمد بن كيغلف وقعة فقتل صبراً ، وقيل : قتل في المعركة ، وحمل رأسه إلى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي .

ظهور الأطروش العلوي

وظهر ببلاد طبرستان والديلم الأطروش . وهو الحسن بن علي . وأخرج عنها المسودة ، وذلك في سنة إحدى وثلاثمائة ، وقد كان ذا فهم وعلم ومعرفة بالآراء والنحل ، وقد كان أقام في الديلم سنين ، وهم كفار على دين المجوسية ومنهم جاهلية ، وكذلك الجيل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فاستجابوا وأسلموا ، وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوین وغيرها ، وبنى في الديلم مساجد ، والديلم زعم كثير من الناس من ذوي المعرفة بالنسب أنهم من ولد باسل بن ضبة بن أد وأن الجيل من تميم ، وقد قيل : إن دخول الأطروش إلى طبرستان كان في أول يوم من المحرم سنة إحدى وثلاثمائة ، وإن في هذا اليوم دخل صاحب البحرين البصرة ، وقتل أميرها طمسك المفلحي ، وقد أتينا على خبر الأطروش العلوي وخبر ولده وخبر أبي محمد الحسن بن القاسم الحسيني الداعي واستيلائه على طبرستان ومقتله ، وما كان من الجيل والديلم في أمره في كتابنا «أخبار الزمان» .

وفيات

وكانت وفاة أبي العباس أحمد بن [عمر بن] سُرَيج القاضي في سنة ست وثلاثمائة .

وكانت وفاة أبي جعفر محمد [بن جرير الطبري الفقيه ببغداد في سنة عشر وثلاثمائة ، وكانت وفاة أبي إسحاق] إبراهيم بن جابر القاضي بحلب ، وأدخل الليث ابن علي بن الليث ابن أخي الصفار إلى مدينة السلام على الفيل في سنة سبع وتسعين ومائتين وقدامه الجيش وحوله ، وقد شهر ، وقيل : إن الليث أدخل إلى مدينة السلام في سنة ثمان وتسعين ومائتين .

وفي هذه السنة . وهي سنة ثمان وتسعين ومائتين . مات ببغداد أبو بكر محمد بن

سليمان المروزي، المحدث، صاحب الجاحظ، وقيل أيضاً: إن وفاته كانت في سنة ثمان وتسعين.

أحداث

وفي هذه السنة كان دخول فارس صاحب مراكب الروم وحربها إلى ساحل الشام، فافتتح حصن القبة بعد حرب طويل، وعدم مغيث يغيثهم من المسلمين، وافتتح مدينة اللاذقية فسبي منها خلقاً كثيراً، ووقع بالكوفة برْدَ عظيم الواحدة رطل بالبغدادي، وريح مظلمة، وذلك في شهر رمضان، وانهدم كثير من المنازل والبنيان، وكان فيها رَجْفَةٌ عظيمة هلك فيها خلق كثير من الناس، هذا كان بالكوفة في سنة تسع وتسعين ومائتين، وكان بمصر في هذه السنة زلزلة عظيمة، وفيها طلع نجم الذنب.

وفيها غزا دمنانة صاحب الغزو بالبحر الرومي في مراكب المسلمين جزيرة قبرص، وقد كانوا تَقَضُّوا العهد الذي كان في صدر الإسلام: أن لا يعينوا الروم على المسلمين ولا المسلمين على الروم، وأن خراجة نصفه للمسلمين ونصفه للروم، وأقام دمنانة في هذه الجزيرة أربعة أشهر يَسْبِي ويحرق ويفتح مواضع قد تحصن فيها، وقد أتينا على خبر هذه الجزيرة فيما سلف من هذا الكتاب عند إخبارنا عن جمل البحار وَمَبَادِي الأنهار ومطارحها؛ فمنع ذلك من إعادة وصفها.

موت ابن ناجية

وفي سنة إحدى وثلاثمائة مات عبد الله بن ناجية المحدث بمدينة السلام، وكان مولده في سنة اثنتي عشرة ومائتين.

ابن الجصاص

وكان القبض على ابن الجصاص الجوهري بمدينة السلام في سنة اثنتين وثلاثمائة، والذي صح مما قبض من ماله من العين والوَرِقِ والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار.

وفاة القاسم بن الحسن بن الأشيب

وفيها مات القاسم بن الحسن بن الأشيب. ويكنى أبا محمد. يوم الاثنين لليلتين بَقِيَّتَا من جمادى الأولى، وكان من كبار العلماء والمحدثين، ودُفِنَ في الجانب الغربي في الشارع المعروف بشارع الحماليين، وحضر جنازته محمد بن يوسف القاضي، وأبو

جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول القاضي، وغيرهما من الفقهاء والعدول والكتاب وأهل الدولة، وهو أبو أبي عمران موسى بن القاسم بن الحسن المعروف بابن الأشيب، وهو كبير من فقهاء الشافعيين في هذا الوقت.

غارة البربر على مصر

وفي هذه السنة . وهي سنة اثنتين وثلاثمائة . ورد الجيش من الغرب ؛ فكان لأهل مصر من أصحاب السلطان معهم [بمصر] حروب عظيمة ، وقتل فيها خلق كثير ، واستأمن رجل من وجوه البرابرة يعرف بأبي جرة إلى السلطان ، وسار إلى مدينة السلام ، فخلع عليه .

ابن أبي الساج

وفي سنة سبع وثلاثمائة أدخل يوسف بن أبي الساج إلى مدينة السلام ، وقد شهر على الجمل الفالج وعليه دُرَاعَة الدياج التي لبسها عمرو بن الليث ووصيف الخادم ، وعلى رأسه برنس طويل بشقائق وجلجل ، وحوله الجيوش ومؤنس الخادم ورائه مع [سائر] أرباب الدولة من أصحاب السيوف ، وقد أتينا على خبر هذه الواقعة التي أَسَرَ فيها مؤنس الخادم ابنَ أبي الساج بناحية أردبيل ، ومن حضرها من الأمراء مثل ابن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان ، وعلي بن حسان ، وأبي الفضل المروي ، وأحمد بن علي أخي صعلوك ، وغيرهم من الأمراء والقواد ، وذكرنا تخلية المقتدر لابن أبي الساج ، وخروجه من ديار ريبة ومضر [ومسيره إلى أعماله من] بلاد أذربيجان وأرمينية ، وما كان من غلامه سبك واستيلائه على عمل مولاه ومفارقه الفارقي ، وما كان من سائر أخبار ابن أبي الساج ومسيره إلى واسط ، ثم مسيره إلى الكوفة ، وما كان من خبره في حربه لأبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي وأسره إياه وقتله له نحو الأنبار وهيت حين أشرف على سواده بليق ونظيف غلام ابن أبي الساج ، وما كان في هذه الواقعة وَهَزَمَهُ لبليق ونظيف ، ومسير القرمطي ونزوله على هيت ، وغير ذلك ، وذلك في سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، فيما سلف من كتبنا ، وكذلك ذكرنا ما كان من مؤنس الخادم ، ومن كان [معه] من أولياء السلطان من القتال لجيش صاحب المغرب بمصر ، وذلك في سنة تسع وثلاثمائة .

ذِكْرُ خِلاَفَةِ الْقَاهِرِ بِاللّٰهِ

مَوْجِزٌ

وبويع القاهر محمد بن أحمد المعتضد بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة
عشرين وثلاثمائة، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين
وعشرين وثلاثمائة، وسُـمِلَتْ عيناه، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام، ويكنى
بأبي منصور، وأمه أم ولد.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع ما كان في أيامه

وزراؤه

واستوزر القاهر أبا علي محمد بن علي بن مُقَلَّة في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة
ثم عزله، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان [ثم عزله،
واستوزر أبا العباس أحمد بن عبيد الله الخصيبي].

أخلاقه

وكانت أخلاقه لا تكاد تحصل، لتقلبه وتلونه، وكان شهماً شديداً البطش بأعدائه،
وأباًد جماعة من أهل الدولة، منهم مؤنس الخادم، وبلق، وعلي بن بليق، فهابه الناس
وَحَشُوا صَوْلته، واتخذ حربة عظيمة يحملها في يده إذا سعى في داره ويطرحها بين يديه
في حال جلوسه، ويباشر الضرب بتلك الحربة لمن يريد قتلَه، فسكن من كان يستعمل
على مَنْ قبله من الخلفاء التشعب والتوثب عليهم، وكان قليل الثبوت في أمره، مَخُوف
السطوة، فأدَّاه ما وصفنا من فعله إلى أن احتيل عليه في داره فقبض عليه، وسملت كلتا
عينيه وهو حي في هذا الوقت في الجانب الغربي في دار ابن طاهر، على ما نُمِّيَ إلينا من
خبره واتصل بنا من أمره، وذلك أن الراضي بالله عَيَّب خبره وقطع ذكره، فلما بويع
إبراهيم المتقي بالله أصيب القاهر معتقلاً في بعض المقاصير، فأمر به إلى دار ابن طاهر،
فاعتقل بها إلى هذه الغاية على ما وصفنا.

الخراساني الأخباري يصف الخلفاء العباسيين للقاهر بالله

وذكر محمد بن علي العبد الخراساني الأخباري، وكان القاهر به آنساً، قال:
خلا بي القاهر فقال: اصدقني أو هذه. وإشار إلي بالحربة. فرأيت والله الموت عياناً بيني
وبينه، فقلت: أصدقك يا أمير المؤمنين، فقال لي: انظر، يقولها ثلاثاً، فقلت: نعم يا
أمير المؤمنين، قال: عما أسألك عنه، ولا تُعَيِّب عني شيئاً، ولا تحسن القصّة، ولا

تسجع فيها، ولا تسقط منها شيئاً، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أنت علامة بأخبار [خلفاء] بني العباس في أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس [السفاح] فمن دونه، فقلت: على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين، قال: ذلك لك.

وصف السفاح

قال: قلت: أما أبو العباس السفاح، فكان سريعاً إلى سفك الدماء، وأتبعه عماله في الشرق والغرب في فعله، واستنوا بسيرته، مثل محمد بن الأشعث بالمغرب، وصالح بن علي بمصر، وخازم بن خزيمة، وحמיד بن قحطبة، وكان مع ذلك بحراً سَمَحاً وَصُولاً جواداً بالمال، وسلك من ذكرنا [من عماله وغيرهم] ممن كان في عصره سبيله، وذهبوا مذهبه، مؤتمين به.

وصف المنصور

قال: وأخبرني عن المنصور، قلت: الصدق يا أمير المؤمنين؟ قال: الصدق.

قلت: كان والله أول من أوقع الفُرْقَةَ بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبي طالب، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً، وكان أول خليفة قَرَّبَ المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نُوبُخْتُ المجوسي المنجم، وأسلم على يديه، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزارى المنجم، صاحب القصيدة في النجوم، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الأسطرلابي المنجم، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها: كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «السندهند»، وترجمت له كُتُبُ أرسطاطاليس، من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب «المجسطي» لبطليموس، وكتاب «الأرتماطيقي»، وكتاب «إقليدس» وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأُخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلقوا إلى علمها، وفي أيامه وضع محمد بن إسحاق كتاب «المغازي»، والسير: وأخبار المبتدأ» ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مُصَنَّفَة، وكان أول خليفة استعمل مواله وغلمانَه [في أعماله] وصرفهم في مهماته، وقَدَّمهم على العرب، فامثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده، فسقطت وبادت العرب، وزال بأسها، وذهبت مراتبها، وأفضت الخلافة إليه، وقد نظر في العلم، وقرأ المذاهب، وارتاض في الآراء، ووقف على النَّحْلِ، وكتب الحديث، فكثرت في أيامه روايات الناس، واتسعت عليهم علومهم.

وصف المهدي

قال القاهرة: قد قلت فأحسنت، وعبرت فينت، فأخبرني عن المهدي كيف كانت أخلاقه؟

قلت: كان سَمَحاً سخياً كريماً جواداً، فسلك الناس في عصره سبيله، وذهبوا في أمرهم مذهباً، واتسعوا في مساعيهم، وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بِدَر الدنانير والدرهم، فلا يسأله أحد إلا أعطاه، وإن سكت ابتداءً المفرق بين يديه، وقد تقدم بذلك إليه، وأمعن في قتل الملحدين، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته؛ لما انتشر من كتب ماني وابن دِيصَان، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع، وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء، وحماة عَجَرْد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن إياس: من تأييد المذاهب المانية، والدِّيَصَانِيَّة، والمرقيونية، فكثُر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شُبُهَة الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين، وشرع في بناء المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ على ما هما عليه إلى هذه الغاية، وبُنِيَ بيت المقدس، وقد كان هدمته الزلازل.

وصف الهادي

قال: فأخبرني عن الهادي على قصر أيامه كيف كانت أخلاقه وشيمه؟ قلت: كان جَبَّاراً عظيماً، وأول من مشى الرجال بين يديه بالسيوف المُرَهَفَة، والأعمدة المشهورة، والقِسِي الموترية، فسلكت عماله طريقته، ويمموا منهجه، وكثُر السلاح في عصره.

قال: لقد أَجَدَّتْ في وصفك، وبالغت فيما ذَكَرْت من قولك، فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقته؟

وصف الرشيد

قلت: كَانَ مواظباً على الحج، متابعاً للغزو، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، وأظهر ذلك بها وبمُنَى وَعَرَفَات، ومدينة النبي ﷺ، فَعَمَّ النَّاسَ إِحْسَانُهُ، مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وَحَصَّن فيها الحصون،

مثل طرسوس وأذنة، وعمر المصيصة ومرعش، وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين، واتبعه عماله، وسلکوا طريقته، وقَفَّتْهُ رعيته مقتدية بعمله، مُسْتِنْدَةً بإمامته، فقمع الباطل، وأظهر الحق، وأثار الأعلام، وبرز على سائر الأمم، وكان أحسن الناس في أيامه فِعْلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة، وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف، وما ظهر في أيامه من فعل البرامكة وجُودِهِمْ وإفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم. وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ورمى بالنشاب في البرجاس، ولعب بالأثيرة والطبطاب. وقرب الحدائق في ذلك فعم الناس ذلك الفعل. وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس، وبالترد وقدم للعب، وأجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه. لنضارتها، وكثرة خيرها وخصبها. أيام العروس، وكثير مما يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف.

وصف أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور

قال القاهرة: فأراك قد قصرت في تفصيل [أفعال] أم جعفر، فلم ذلك؟

قلت: يا أمير المؤمنين ميلاً إلى الاختصار، وطلباً للإيجاز.

قال: فتناول الحربة وهزّها، فرأيت الموت الأحمر في طرفها، ثم برق عينيه مع ذلك فاستسلمت، وقلت: هذا ملك الموت، ولم أشك أنه يقبض روحي؛ فأهوى بها نحوي، فزَعْتُ منها، فاسترجع وقد أخطأتني، فقال: ويلك!! أبغضت ما فيه عينك، ومللت الحياة؟ قلت: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أخبار أم جعفر زدني منها، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان من فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ما بَرَزَتْ فيه على غيرها، فأما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها، مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها، ومهدت الطريق لمائها في كل خَفُض ورَفَع وسَهْل وجبل ووَعْر، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة، فكان جملة ما أنفقت عليها. مما ذكر وأحصي. ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وما قُدِّمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور، وإنفاقها الألوف على ذلك، دون ما كان من وقتها من البذل، وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب، وأما الوجه الثاني. مما تتباهى به الملوك في أعمالهم، وينعمون به في أيامهم، ويصنون به دُولَهُمْ، ويدون في أفعالهم وسيرهم. فهو أنها أوَّل من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلَّلة بالجواهر، وصنع لها الرفيع من الوُشْي، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف

دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب [من] الفضة والآنوس والصندل وكلاليها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر، وتَشَبَّه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر.

ولما أفضى الأمر إلى ولدها يا أمير المؤمنين قَدَّمَ الخدم، وآثرهم، ورفع منازلهم، ككوثر وغيره من خَدَمِهِ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعمت رؤوسهن، وجعلت لهن الطُّرُز والأضداع والأقفية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فماست قدودهن، وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إليه، فاختلفن في يديه، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المظمومات؛ وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسموهن الغلاميات.

وصف المأمون

فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور، ونادى بأعلى صوته: يا غلام، قَدَح على وصف الغلاميات، فبادر إليه جَوَارٍ كثيرة قُدَّهن واحد، توهمتهم غلماناً بالقَرَاطِ والأقبية والطرر والأقفية ومناطق الذهب والفضة، فأخذ الكأس بيده، فأقبلت أتامل صفاء جوهر الكأس ونورية الشراب، وشعاعه، وحسن أولئك الجواري، والحرية بين يديه، وأسرع في شربه، فقال: هيه.

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم أفضى الأمر إلى المأمون، فكان في بدء أمره. لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره. يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها، وينقاد إلى موجباتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك [وغيره]، واجتهد في قراءة الكتب القديمة، وأمعن في درسها، وواظب على قراءتها، فافتن في فهمها، وبلغ درايتها؛ فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين ما اشتهر وقَدِمَ العراق انصرف عن ذلك كله، وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد، وجالس المتكلمين، وقرب إليه كثيراً من الجدليين [المبرزين] والمناظرين كأبي الهذيل وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النِّظَام وغيرهم من وافقهم وخالفهم، وألزم مجلسه الفقهاء، وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق، فرغب الناس في صنعة النظر، وتعلموا البحث والجدل، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله، وكان أكثر الناس عفواً، وأشدهم احتمالاً، وأحسنهم مقدرة، وأجودهم

بالمال الرغيب، وأبدلهم للعطايا، وأبدعهم من التسافه وأتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله، وسلوكوا سبيله، وذهبوا مذهبه.

وصف المعتصم

ثم المعتصم، فإنه يا أمير المؤمنين سلك في النحلة رأي أخيه المأمون، وغلب عليه حب الفروسية، والتشبه بالملوك الأعاجم في الآلة، ولبس القلانس والشاشيات فليسها الناس اقتداءً بفعله، وإتماماً به، فسميت المعتصميات، وعم الناس إفضاله، وأمنت به السبل في أيامه، وشمل [الناس] إحسانه.

وصف الواثق

ثم هارون بن محمد الواثق، فإنه اتبع ديانة أبيه، وعمه، وعاقب المخالف، وامتنح الناس، وكثر معروفه، وأمر القضاة في سائر الأمصار أن لا يقبلوا شهادة من خلفه، وكان كثير الأكل، واسع العطاء، سهل الانقياد متحياً إلى رعيته.

وصف المتوكل

ثم المتوكل يا أمير المؤمنين، فإنه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه، وأمر بالتقليد، وأظهر الرواية للحديث، فحسنت أيامه، وانتظمت دولته، ودام ملكه، وغير ذلك يا أمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه.

قال القاهرة: قد سمعت كلامك وكأنني مشاهد للقوم على ما وصفت؛ معان لهم فيما ذكرت، ولقد سرتني ما سمعت منك، ولقد فتحت أبواب السياسة، وأخبرت عن طرق الرياسة، ثم أمر لي بجائزة عجل لي عطاءها في وقتها، ثم قال لي: إذا شئت فقم، فقام على أثري بحرته، فخیل والله لي أنه يرميني بها من ورائي، ثم عطف نحو دار الخدم، فما مضت إلا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر.

قال المسعودي: وهذا الرجل الذي أخبرت عنه بهذا الحديث له أخبار حسان، وهي حي يرزق إلى هذه الغاية، وهي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، مداحاً للملوك، معاشراً لأهل الرياسات، حسن الفهم، جيد الرأي.

وفاة ابن دريد

وفي خلافة القاهرة بالله - وهي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة - كانت وفاة أبي بكر

محمد بن الحسن بن دُرَيْدٍ ببغداد، وكان ممن قد بَرَعَ في زمننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم تُوجَد في كتب المتقدمين، وكان يذهب في الشعر كل مذهب، فطوراً يجزل، وطوراً يرق، وشعره أكثر من أن نحصيه أو يأتي عليه كتابنا هذا، فمن جيد شعره قصيدته المقصورة [التي مدح بها الشاه ابن ميكال، ويقال: إنه أحاط فيها بأكثر المقصور] وأولها:

إِذَا تَرَرْتُ رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى
وَاشْتَعَلَ الْمَبِیْضُ فِي مَسْوَدِهِ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْعَصَى

ومنها:

إِن الْجَدِيدِينَ إِذَا مَا اسْتَوَلَى عَلَى جَدِيدِ أَذْنِيَاهُ لِلْبَلَى

[وفيهما يقول]:

لَسْتُ إِذَا مَا أَبْهَظْتُ نِي غَمْرَةً مِمَّنْ يَقُولُ: بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى

ومنها:

وَإِنْ تَوَتَّ بَيْنَ ضُلُوعِي زُفْرَةً تَمَلَأُ مَا بَيْنَ الرَّجَا إِلَى الرَّجَا

وقد عارضه في هذه القصيدة المقصورة جماعة من الشعراء؛ منهم أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فَهْمِ التَّنُوخِي الأنطاكي، وهو في وقتنا هذا. وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، بالبصرة في جملة البريديين، وأول قصيدته المقصورة التي يمدح فيها تَنُوخَ وقومه من قُضَاعَةَ:

لَوْلَا انْتِهَائِي لَمْ أُطِغْ نَهْيِي النَّهْيَ أَيُّ مَدَى يَطْلُبُ مَنْ جَازَ الْمَدَى
إِنْ كُنْتُ أَقْصَرْتُ فَمَا أَقْصَرَ قَلْدِي بَدَامِيًّا تُدْمِيهِ الْحَاظُ الدُّمَى
وَمُقَلَّةً إِنْ مَقَلْتُ أَهْلَ الْغَضَا أَغْضَتْ وَفِي أَجْفَانِهَا جَمْرَ الْغَضَى

وفيهما يقول:

وَكَمْ ظَبَاءَ رَغِيْهَا أَلْحَاطَهَا أَسْرَعَ فِي الْأَنْفَسِ مِنْ حَدِّ الظَّبْيِ
أَسْرَعَ مِنْ حَرْفٍ إِلَى جَرٍّ، وَمِنْ حَبِّ إِلَى حَبَّةٍ قَلْبٍ وَخَشْيِ
قُضَاعَةَ بَنِ مَالِكِ بْنِ حَمِيرٍ مَا بَعْدَهُ لِلْمُرْتَقِينَ مُرْتَقَى

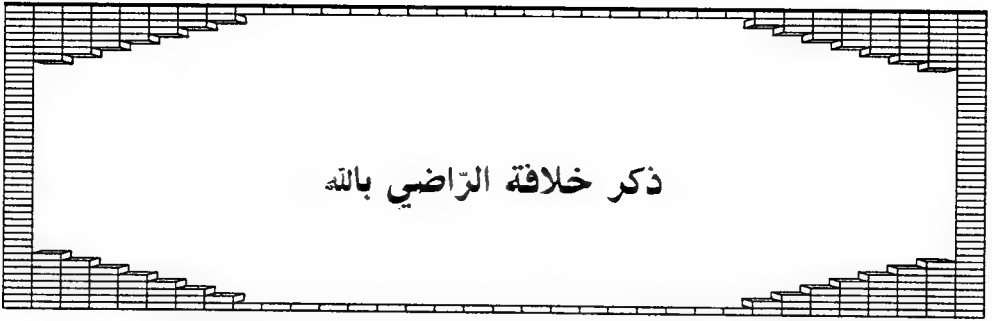
وقد سبق إلى المقصورة أبو المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد بن زيد

الداعي [الحسني] بطبرستان بقوله:

قفَا خَلِيلِي عَلَى تِلْكَ الرُّبَى وَسَائِلَهَا أَيْنَ هَاتِيكَ الدُّمَى؟
 أَيْنَ اللُّوَاتِي رُبِعْتَ رُبُوعَهَا عَلَيْكَ؟ بَاسْتَنْجَادَهَا تَشْفِي الْجَوَى!
 وَلَا بِنَ وَرَقَاءَ فِي الْمَقْصُورَةِ أَيْضاً:

مَا شِئْتَ قُلْ هِيَ الْمَهَا هِيَ الْقَنَا جَوَاهِرُ بَكِينٍ أَعْطَافَ الدَّمَى
 وَمِمَّنْ تَأَخَّرَ مَوْتُهُ بَعْدَ مَوْتِ ابْنِ دُرَيْدٍ الْعُمَانِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَفْجَعِ، وَكَانَ كَاتِباً
 شَاعِراً بِصِيراً بِالْغَرِيبِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْبَاهِلِيِّ الْمَصْرِيِّ الَّذِي كَانَ يَنَاقِضُ ابْنَ دُرَيْدٍ، فَمَا
 جَوَّدَ فِيهِ الْمَفْجَعُ قَوْلَهُ:

أَلَا طَرِبَ الْفُؤَادَ إِلَى رُدَيْنِ وَدُونَ مَزَارِهَا ذُو الْجِلْهَتَيْنِ
 أَلَمْ خَيَّالَهَا وَهْنًا بِرُحْلِي فَوَلَّى رَعِيَةَ الشَّرْطَيْنِ عَيْنِي
 وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى مَا كَانَ فِي أَيَّامِ الْقَاهِرِ . مَعَ قَصْرِ مَدَّتِهِ . مِنَ الْكَوَائِنِ فِي الْكِتَابِ
 الْأَوْسَطِ، فَمَنْعَ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ.



ذكر خلافة الرّاضي بالله

موجز

وبويع الرّاضي بالله محمدُ بنُ جعفرٍ، المقتدرُ، ويكنى أبا العباس، يوم الخميس
 لست خَلَوْنَ من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، فأقام في الخلافة إلى أن
 مضى من ربيع الأول عشرة أيام، سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ومات حَتَفَ أَنْفِهِ بمدينة
 السلام، وكانت خلافته ست سنين وأحدَ عَشَرَ شهراً وثلاثة أيام، وأمّه أم ولد يقال لها
 ظُلُوم.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

وَاسْتَوَزَرَ الرّاضِي أبا علي محمد بن علي بن مُقَلَّةَ، ثم استَوَزَرَ أبا علي عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الْجَرَّاحِ، ثم أبا جعفر محمد بن القاسم الْكَزْخِي، ثم أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مَخْلَدٍ، ثم أبا الفتح الفضل بن جعفر بن الْفُرَاتِ، ثم أبا عبد الرحمن بن محمد البريدي.

من شعر الراضي

وكان الراضي أديباً شاعراً ظريفاً، وله أشعار حَسَنَةٌ في معانٍ مختلفة، إن لم يكن ضَاهِي بها ابن المعتز فما نقص عنه، فمن ذلك قوله في وصف حاله وحال معشوقه إذا التقيا:

يصفُرُ وجهي إذا تَأَمَّلْهُ طرفي، ويحمرُّ وَجْهه خجلاً
حتى كأنَّ الذي بَوَجَّئْتَهُ من دم وجهي إليه قد نقلًا

ومن جيد شعره قوله:

يَا رَبِّ لَيْلٍ قَدْ دَنَا مَزَارُهُ يَسْتَرْنِي وَمَوْئِسِي أَرْزَارِهِ
سَاقِي مَلِيحُ الْقَدِّ كَدَجَارِهِ سَرَاجُهُ، وَوَجْهُهُ مَنَارُهُ
يَشْهَدُ لِي بِبَذْلِهِ زُنَّارُهُ نَآءَ بَخْدِ ظَهَرِ اخْمِرَارِهِ
مَاسٌ مَعَ الْحَمْرَةِ جُلُنَّارُهُ أَيُّ كَثِيبٍ قَدْ حَوَى إِزَارُهُ؟
وَأَيُّ غَصْنٍ ضُمِّنَتْ أَرْزَارُهُ طُوعَ الْكُؤُوسِ، غَرَّهُ عَذَارُهُ
[إخفاؤه تَعْتَادُهُ أَمْرَارُهُ لَا كَانَ لَهُ وَلَمْ يَثْرَ غِبَارُهُ]

وقد كان أبو بكر الصُّولِي يروي كثيراً من أشعار الراضي، ويذكر حسن أخلاقه

وجميل أخباره، وارتياضه بالعلم وفنون الأدب، وإشرافه على علوم المتقدمين، وخَوْضه في بحار الجدلين من أهل الدراية والمتفلسفين.

من محاسن الصولي أبي بكر

وذكر أن الراضي رأى في بعض متزهاته بالثريا بستاناً مُوَيَّعاً، وزهراً رائقاً، فقال لمن حضر [من ندمائه]: هل رأيتم أحسن من هذا؟ فكل قال أشياء ذهب فيها إلى مدحه ووصف محاسنه، وأنها لا يفي بها شيء من زهرات الدنيا، فقال: لعبُ الصولي الشطرنج والله أحسن من هذا [الزهر] ومن كل ما تصفون.

وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي، وقد كان ذكر له بجودة لعبة الشطرنج، وكان الماوردي اللاعب [مقدماً عنده، متمكناً من قلبه] معجباً بلعبه، فلعبا جميعاً بحضرة المكتفي، فحمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي وتقدم الحرمة والألفة على نُضْرَتِهِ وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وَهْلَةٍ، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته [وقصد قصده، غلبه] غلباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين حسن لعبه للمكتفي، فعدل عن هواه ونصره للماوردي، وقال له: صار ماء وردك بؤلاً.

قال المسعودي: وقد تناهى بنا الكلام وتغلغل بنا التصنيف إلى جمل من أخبار الشطرنج، وما قيل فيها، مع ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الأخبار الهند ومبادئ اللعب بالشطرنج والنرد، واتصال ذلك بالأجسام العلوية والأجرام السماوية، فلنذكر جملاً مما ذكر في ذلك، مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من هذا الكتاب.

الخليل بن أحمد

[وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام، وهي الرسالة المعروفة بالهاشمية، أن الخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات، وهو لم يعالج وتراً قط، ولا مَسَّ يده قضيباً قط، ولا كثرت مشاهدته للمغنين، وكتب كتاباً في الكلام، ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يعتمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع لها، ولو أن مروراً استغرق قُوًى مرته في الهذيان لَمَا تهياً له مثل ذلك منه، ولا يتأتى مثل ذلك لأحد إلا بخذلان الذي لا يقي منه شيء، قال الجاحظ: ولولا أن أسخف الكتاب وأهجر الرسالة وأخرجها من حد الجد إلى الهزل حكيت صدر كتابه في التوحيد وبعض ما وصفه في العدل، قال: ولم يرض بذلك حتى عمد إلى الشطرنج فزاده في الدولاب حملاً، فلعبت به أناسٌ من حاشية الشطرنجيين، ثم رموا به].

أنواع آلات الشطرنج

وقد ذكر الناس ممن سلف وخلف أن جميع آلات الشطرنج على اختلاف هياتها ستُ صَوِّرَ لم يظهر في اللعب غيرها؛ فأولها الآلة المربعة المشهورة، وهي ثمانية أبيات في مثلها، ونسبت إلى قدماء الهند، ثم الآلة المستطيلة، وأبياتها أربعة في ستة عشر، والأمثلة تنصب فيها في أول وهلة في أربعة صفوف من كلا الوجهين، حتى تكون الدواب منها في صفين، والبيادق أيضاً أمامها صفين، ومسيرها كمسير أمثلة الصورة الأولى، والآلة المربعة. وهي عشرة في مثلها. والزيادة في أمثلتها قطعتان تسميان الدبابتين، ومسيرهما كمسير الشاه إلا أنهما يأخذان ويُؤخَذَانِ، ثم الآلة المدورة المنسوبة إلى الروم، ثم الآلة [المدورة] النجومية التي تسمى الفلكية، وأبياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك، مقسومة نصفين، وينقل فيها سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانهما.

وقد بينا فيما سلف من أخبار الهند كيفية اتصالها بالأجسام السماوية، وما قيل في عشقها للأشخاص العلوية، وأن تحرك الفلك لعشقه لما فوقه، وقولهم في النفس ونزولها عن عالم العقل إلى عالم الحس حتى نسيت بعد الذكر وجهلت بعد العلم، وغير ذلك من تخاليلهم مما يتصل علمه عندهم بمنصوبات الشطرنج.

ثم آلة أخرى تسمى الجوارحية، استحدثت في زماننا هذا، وهي سبعة أبيات في ثمانية، وأمثلتها اثنا عشر في كل جهة منها ستة، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التي بها يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطش ويسعى، وهي سائر الحواس، والحاس المشترك، وهو الذي من القلب.

وقد ذكرت الهند وغيرها من اليونانيين والفرس والروم وغيرهم ممن لعب بها كيفية صورها ونُصُبها ومبادئها ووجوه عللها والغرائب فيها وتصنيف القوائم والمفردات وأنواع ظرائف المنصوبات.

وقد استعمل لُعب الشطرنج عليها فنون الهزل والنوادر المدهشة؛ فزعم كثير منهم أن ذلك مما يبعث على لعبها وانصباب المواد وصحيح الأفكار إليها، وأن ذلك بمنزلة الارتجاز الذي يستعمله أهل القتال عند اللقاء والحادي عند الإعياء والمائح للغرب عند الاستقاء، وأن ذلك عُدَّة لللاعب كما أن الشعر والارتجاز من عدة المحارب.

وقد قيل فيما وصفنا أشعار كثيرة مما قاله بعض اللُعب؛ فمن ذلك:

نوادِر الشطرنج في وقتها أحرُّ من ملتهب الجمر

كم من ضعيف اللعب كانت له عوناً على مستحسن القمّر
ومما قيل فيها فأحسن قائلها وبالع في وصف اللعب بها:

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَهَا من غير أن يسعيا فيها يسفك دم
هذا يُغَيِّرُ على هذا، وذاك على هذا يغير، وعين الحرب لم تنم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعرفة في عسكريين بلا طبل ولا علم

ومما قيل فيها فبولغ في وصفها، واستوعب النظر لأكثر معانيها، ما قاله أبو
الحسن بن أبي البغل الكاتب، وكان من جلة الكتاب وكبار العمال وممن اشتهر بمعرفتها
واللعب بها، وهو:

فتى نَصَبَ الشطرنج كيما يرى بها عواقب لا تَسْمُو لها عينُ جاهل
وأبصر أعقابَ الأحاديث في غد بعيني مُجَدِّ في مَخِيلَة هازل
فأجْدَى على السلطان في ذاك أنه أراه بها كيف اتقاء الغوائل
وتصريف ما فيها إذا ما اعتبرته شبيه بتصريف القنا والقنابل

كلمات في النرد

قال المسعودي: فأما ما قيل في النرد وأوصافها فقد قدمنا فيها سلف من هذا
الكتاب كيفية نصبها والمحدث للعبها، على ما حكى من التنازع في ذلك عند ذكرنا أخبار
الهند، وفيها عند ذوي المعرفة بها ضروب من اللعب وفنون من الترتيب، ووجوه من
النصب، إلا أن عدد البيوت واحد لا زيادة فيها ولا نقصان، على ما تقدم في ذلك من
علمها والمعهود في أصولها، وأن الفصين فيه مُحَكَّمان، واللاعب بهما وإن لم يكن
مختاراً ولا خارجاً عن حكم الفصين فيها وقضائهما محتاج إلى أن يكون صحيح النقل
وسابقه صحيح الحساب حسن الترتيب جيده.

وقد قيل في لعبها ووصفها وإحكام الفصين فيها وقضائهما على لُغابها أشعار كثيرة
بالغوا بالقول فيها، وأغرقوا في استيعاب معانيها، من ذلك قول بعضهم:

لا خير في النرد لا يغني ممارسها حُسْنُ الذكاء، إذا ما كان محروما
تريك أفعال فُصِّيَّهَا بحكمهما ضدين في الحال ميمونا ومشروما
فما تكاد ترى فيها أخا أدب يفوته القمّر إلا كان مظلوما

وأخبرني أبو الفتح محمود بن الحسين السندي بن شاهك الكاتب المعروف

بكشاجم، وكان من أهل العلم والرواية والمعرفة والأدب، أنه كتب إلى صديق له يذم النرد، وكان بها مشتهراً، أبياتاً، وهي:

أيها المعجب المفخر بالثر د ليُزهي بها على الإخوان
قد لعمرى حرصت جهداً على قَم رك لو لم تواتك الفصان
غير أن الأريب يكذبه الظ ن ويَبكي لشدة الحرمان
وإذا ما القضاء جاءت بحكم لم يَجِدْ عن قضائها الخصمان
ولعمرى ما كنت أول إنسا ن تمئى فأخلفته الأمانى

وأنشدني أبو الفتح أيضاً لأبي نُوَاس:

ومأمورة بالأمر تأتي بغيره ولم تتبع في ذاك غيًّا ولا رشدا
إذا قلت لم تفعل، وليست مطيعة وأفعل ما قالت، فَصِرْتُ لها عبدا

وقد قدمنا في باب أخبار ملوك الهند فيما سلف من هذا الكتاب قول من قال في النرد والفصين: إنها جعلت مثلاً للمكاسب، وإنها لا تنال بالكَيْس ولا بالحيل، وما ذكر عن أردشير بن بابك في ذلك أنه أول من لعب بها، وأرى تقلب الدنيا بأهلها، وجعل بيوتها اثني عشر على ترتيب عدد الشهور، وإن كلابها ثلاثون كلباً بعدد أيام الشهور، وإن الفصين مثال للقدر وتَلْعَبُ بأهل هذا العالم، وغير ذلك مما وصفنا من أحوالها، وما قدمنا من ذكرها في هذا الكتاب وغيره مما سلف من كتبنا.

وذكر بعض أهل النظر من الإسلاميين أن واضع الشطرنج كان عذلياً مستطيعاً فيما يفعل، وأن واضع النرد كان مجبراً، فتبين باللعب بها أنه لا صُنْعُ له فيها، بل تصرفه فيها على ما يوجهه القَدَرُ عليه بها.

العروضي يحكي عن الرازي وسعة اطلاعه

وذكر العروضي . وهو ممن كان أدب الرازي وغيره من الخلفاء وأبنائهم . قال : حدثت الرازي ذات يوم خبراً لقتيبة بن مسلم الباهلي في الكبر وغيره من الخصال التي توجد في أهل الرياسات مما يحمد فيهم وما يكره منهم من الأخلاق ، فكتب ذلك في حال صباه وعنفوان حدائثه ولقد رأيت مواعظاً على درسه إلى أن استكمل إتقانه في مجلسه ، فداخله عند ذلك طرب وفرح وأريحية لم أعهد لها منه ، ثم قال لي وقد أقبل عليّ : لعل الزمان أن يبلغ بي أن أتأدب بهذه الخصال ، وأكون في مرتبة من يرتاض بهذه الآداب ، وهو أنه قيل لقتيبة بن مسلم وهو والٍ على خراسان للحجاج [و]محارب

لترك: لو وجهت فلاناً. لرجل من أصحابه. إني حرب بعض الملوك على الجيش، فقال قتيبة: إنه رجل عظيم الكبر، ومنَّ عظم كبره اشتدَّ عجبه، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيّاً، ولم يؤامر نصيحاً ومنَّ تَبَجَّحَ بالإعجاب وفخر بالاستبداد، كان من الصنع بعيداً، ومن الخذلان قريباً، والخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، ومن تكبر على عدوه حَقَرَهُ، وإذا حَقَرَهُ تهاون بأمره، ومن تهاون بأمر عدوه ووثق بأمر قوته وسكن إلى جميع عُدَّتِهِ قَلَّ احتراسه، ومن قَلَّ احتراسه كثر عِثَارُهُ، وما رأيت عظيماً تكبر على صاحب حرب قَطُّ إلا كان منكوباً ومهزوماً ومخدولاً، لا والله حتى يكون أسمع من فرس، وأبصر من عُقَابٍ وأهدى من قَطَاةٍ، وأحذر من عَفْعَقٍ، وأشدَّ إقداماً من أسد، وأوثب من فهد، وأحقد من جمل، وأروغ من ثعلب، وأسخى من ديك، وأشح من ظبي، وأحرس من كركي، وأحفظ من كلب، وأصبر من ضب، وأجمع من النمل، وإن النفس إنما تسمح بالعناية على قَدَرِ الحاجة، وتحفظ على قدر الخوف، وتطمع على قدر السبب؛ وقد قيل على وجه الدهر: ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق، ومن أحب أن يُحِبَّ تحبب.

بين معاوية وقيس بن سعد

قال العروضي: وتذاكرنا يوماً بحضرة الرازي بالله في حال صباه. وقد حضر جماعة من ذوي العلم والمعرفة بأخبار الناس ممن غَبَرَ. فأنهى بنا الأمر إلى خبر معاوية بن أبي سفيان حين ورد عليه كتاب من ملك الروم أن يرسل إليه سراويل أجسم رجل عنده، فقال معاوية: لا أعلمه إلا قيس بن سعد، فقال لقيس: إذا انصرفت فابعث إلي بسراويلك، فخلعها ورمى بها، فقال معاوية: هلا بعثت بها من منزلك، فقال قيس:

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس، والوفود شهود
وأن لا يقولوا: غاب قيس، وهذه سراويل عادٍ قد نمته ثمود

فقال قائل ممن حضر: قد كان جبلة بن الأيهم أحد ملوك بني غسان طوله اثنا عشر شبراً، فإذا ركب مسحت قدماه الأرض، فقال له الرازي بالله: قد كان قيس بن سعد هذا المذكور [إذا ركب] تخط قدماه الأرض، وإذا مشى بين الناس يتوهمون أنه راكب، وقد كان جدِّي علي بن عبد الله بن العباس طويلاً جميلاً يتعجب الناس من طوله، وكان يقول: كنت إلى منكب عبد الله بن عباس، وكان عبد الله إلى منكب جدِّي العباس، وكان العباس بن عبد المطلب إذا طاف بالبيت يرى كأنه فُسْطَاط أبيض، قال: فتعجب والله منَّ حضر من إيراد هذا الخبر [ومن كلامه] مع صغر سنه.

طير الكيكم

ثم تذاكرنا عجائب البلدان، وما خَصَّ به كل صقع من الأرض من أنواع النبات والحيوان والجماد من أنواع الجواهر وغيرها، فقال لي قائل ممن حضر: إن أعجب ما في الدنيا [طير] يكون بأرض طبرستان على شاطئ الأنهار شبيه بالباشق، وأهل طبرستان يسمونه بالكيكم، وهو صياحه الذي يصيح به، ولا يصيح في السنة إلا في هذا الفصل [يعني الربيع] فإذا صاح اجتمعت عليه العصافير وصغار الطيور مما يكون في المياه وغيرها؛ فتزقه من أول النهار، حتى إذا كان في آخره أخذ واحداً مما قرب من الطير فأكله، وكذلك يفعل في كل يوم إلى أن ينقضي هذا الفصل الربيعي فإذا انقضى ذلك انعكست عليه الطيور فلا تزال تجتمع عليه وتضربه وتطرده، وهو يهزّب منها ولا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعي، وهو طير حسن موشى حسن العينين، قال: وذكر علي بن زيد الطبيب الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة أن هذا الطائر ليس يكاد يُرى، ولم تُر قط قدماء على الأرض معاً، بل يطأ على الأرض بإحدى قدميه على البدل لا يطأ الأرض بهما [معاً] في حالة واحدة، قال: وقد ذكر الجاحظ أن هذا الطير من إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنه لا يطأ الأرض بقدميه، بل بإحدهما، خوفاً على الأرض أن تنخسف به من تحته.

قال: والعجب الثاني دودة تكون من الميثقال إلى الثلاثة تضيء بالليل كضوء الشمع، وتطير بالنهار، ويرى لها أجنحة خضراء ملساء، ولا جناحين لها، غذاؤها التراب لا تشبع منه قط، خوفاً أن يفنى تراب الأرض فهلك جوعاً، وفيها خواص كثيرة ومنافع واسعة.

قال: والعجب الثالث أعجب من الطير والدودة، من يكري نفسه للقتل، يعني المرتزة من الجند.

فاستحسن هذا الخبر مَنْ حضر، فقال أبو العباس الرازي معارضاً لهذا الخبر الذي أخبر بالخبر الأول: قد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ أن أعجب ما في الدنيا ثلاث: البوم لا يظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها، ولما قد تصور في نفسها أنها أحسن الحيوان؛ فتظهر بالليل، والعجب الثاني الكركي، لا يطأ بقدميه الأرض، بل بإحدهما، فإذا وطئ بإحدهما لا يعتمد عليها اعتماداً قوياً، ومشى بالتأني، خوفاً من أن تنخسف الأرض من تحته، لثقله، والعجب الثالث الطائر الذي يقعد على بُتوق الماء من الأنهار إذا انخرقت، الذي يعرف بمالك الحزين على شبه الكركي خوفاً من الماء أن يفنى من الأرض فيموت عطشاً.

قال العروضي: فافترق مَنْ حضره وكلُّ متعجب من الراضي مع صباه وصغر سنه كيف تتأتى منه هذه المذاكرات، مع أن من حضره من أهل الرأي والسن والمعرفة.

قال المسعودي: وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على عجائب الأرض والبحار وما فيها من عجائب البنيان والحيوان والجماد والمائع والرجراج؛ فأغني ذلك عن إيرادها في هذا الموضع.

وإنما نذكر أخبار الراضي وما كان من أمره في صباه وما أخبر عنه مؤدبه، ونظمتنا من أخباره ما تأتى لنا ذكره في هذا الكتاب.

الراضي يعد العروضي بمنحه إذا أضحكه

وأخبرنا العروضي قال: سمريت عند الراضي في ليلة شاتية ضُهاية؛ فرأيت قلفاً متململاً؛ فقلت له: يا أمير المؤمنين، أرى منك خصلاً لم أعهدا، وضيق صدر لم أعرفه؛ فقال له: دع عنك هذا، وحدثنني بحديث فإن أنت أزلت بحديثك ما أجده من الهم فلك ما عليّ وما تحتي، على أن أشرط عليك إزالة الهم بالضحك، قلت: يا أمير المؤمنين، رَحَلَ رجل من بني هاشم إلى ابن عمه بالمدينة؛ فأقام عنده حولاً لم يدخل مُسْتَرَاْحاً؛ فلما كان بعد الحول أراد الرجوع إلى الكوفة، فحلف عليه [ابن عمه] أن يقيم عنده أياماً آخر، فأقام، وكان للرجل قَيْنَتَانِ، فقال لهما: أما رأيتما ابن عمي وظَرْفَه؟ أقام عندنا حولاً لم يدخل الخلاء، فقالتا له: فعلينا أن نصنع له شيئاً لا يجد معه بدا من الخلاء، قال: شأنكما وذلك، فعمدنا إلى خشب العُشْر، فدقناه، وهو مسهل، وطرحناه في شرابه، فلما حضر وقت شربهما قَدَمَتاه إليه، وسَقَتَا مولاها من غيره، فلما أخذ الشراب مأخذه منه تناوم المولى، وتمغص الفتى [من جوفه] فقال للتي تليه: يا سيدتي، أين الخلاء؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:

خَلَا مِنْ آلِ فَاطِمَةَ الدِّيارِ فَمَنْزَلُ أَهْلِهَا مِنْهَا قِفَارُ
فغنته، فقال الفتى: أظنهما كوفيتين وما فهمتا عني، ثم التفت إلى الأخرى، فقال لها: يا سيدتي، أين الحُشْ؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:

أَوْحَشَ الدَّقْرَاتِ فَالْدِيرِ مِنْهَا فَعْنَاهَا بِالْمَنْزِلِ الْمَعْمُورِ
فغنته، فقال الفتى: أظنهما عراقيتين وما فهمتا عني، ثم التفت إلى الأخرى فقال لها: أعزك الله أين المتوضأ؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:

تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَصَلَّ خَمْساً وَأَذَنَ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ
فغنته، فقال: أظنهما حجازيتين وما فهمتا عني، ثم التفت إلى الأخرى فقال لها:

يا سيدتي أين الكنيف؟ قالت لها صاحبته: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:
 تَكْنُفَنِي الْوَاشُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَلَوْ كَانَ وَاشٌ وَاحِدٌ لَكَفَانِيَا
 فغتنه، فقال: أظنهما يمانيتين وما فهمتا عني، ثم التفت إلى الأخرى، فقال لها: يا
 هذه أين المستراح؟ فقالت لها صاحبته: ما قال لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:
 تَرَكُ الْفَكَاهَةَ وَالْمَزَاحَا وَقَلَّ الصَّبَابَةُ وَاسْتَرَاخَا
 فغتنه، والمولى يسمع ذلك وهو متناوم، فلما اشتد به الأمر أنشأ يقول:
 تَكْنُفَنِي السَّلَاحُ وَأُضْجِرُونِي عَلَى مَا بِي بِتَكْرِيرِ الْأَغَانِي
 فَلَمَّا ضَاقَ عَنْ ذَاكَ اصْطَبَارِي ذَرَقْتُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الزَّوَانِي
 ثم إنه حلّ سراويله وسلّح عليهما، فتركهما آية للناظرين، وانتهى المولى في أثر
 ذلك، فلما رأى ما نزل بجواريه قال: يا أخي، ما حملك على هذا الفعل؟ قال: يا ابن
 الفاعلة لك جَوَارِي يَرَيْنَ الْمَخْرَجَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا لا يدللني عليه، فلم أجد جزاء غير هذا.
 ثم رحل عنه، قال: فذهب بالراضي الضحك كلّ مذهب، وسلم إليّ كل ما كان عليه
 وتحتته من لباس وفرش، فكان مبلغ ثمن ذلك نحواً من ألف دينار.

لبس المأمون الخضره ثم السواد

وذكر الصولي قال: قال لي الراضي: ما كان السبب في لبس المأمون الخضره
 ورفعة السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك؟ قلت: هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا الغلابي
 قال: حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال: لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون
 إلى زينب بنت سليمان بن علي، وكانت أقعد ولد العباس نسباً، وأكبرهم سناً، فسألوها
 أن تكلم أمير المؤمنين المأمون، في تغييره الخضره، فضمنت لهم ذلك، وجاءت إلى
 المأمون فقالت: يا أمير المؤمنين، إنك على برّ أهلِكَ من ولد علي بن أبي طالب أَقْدَرُ
 منك على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك، فدع لباسك الخضره، ولا
 تُظْمِنَ أَحَدًا فيما كان منك، قال لها: يا عمة ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع
 من كلامك، ولا أقصد منه لما أردت، لكن رسول الله ﷺ توفي فولى الإمرة أبو بكر،
 فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت، ثم وليها عمر فلم يتعدّ فيها فعل من تقدمه، ثم
 وليها عثمان فأقبل على بني أمية وأعرض عن غيرهم، ثم آل الأمر إلى علي بن أبي طالب
 من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار، فولى مع ذلك عبد الله بن العباس

البصرة، وولى عبيد الله بن العباس اليمن، وولى قُثمَ البحرين، وما ترك منهم أحداً إلا ولاه، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت، ولا يكون بعد هذا إلا ما تحبون، ثم رجع إلى لبس السواد، وللمأمون يا أمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله:

أَلَامُ عَلَى شُكْرِ الْوَصِيِّ أَبِي الْحَسَنِ	وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس، والأوَّل الذي	أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عُذَّتْ لهائِشُ امرأة	وكانت على الأيام تقضي وتُمْتَهُنُ
فولى بني العباس ما اختصَّ غيرهم	ومن مسه أولى بالكرم والمنن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى	وفاض عبيد الله جوداً على اليمن
وقَسَمَ أعمال الخلافة بينهم	فلا زلتَ مربوطاً بهذا الشكر مرتهن

بين القاهر والراضي

وكان القاهر قد عمد إلى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس وبلق وابنه علي وغيرهم فغيَّبها، فلما قبض عليه وسُملت عيناه وأفضت الخلافة إلى الراضي طولب القاهر بالأموال، فأنكر أن يكون عنده شيء من ذلك، فأوذى وعذَّب بأنواع من العذاب، وكل ذلك لا يزيده إلا إنكاراً، فأخذ الراضي وقربه وأداناه، وطالت مجالسته إياه، وإكرامه له، وأعطاه حق العمومية والسن والتقدم في الخلافة، ولاطفه وأحسن إليه غاية الإحسان، وكان للقاهر في بعض الحصون بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارنج وقد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الطيار من القمَّاري والدباسي والشحارير والبيغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان ذلك في غاية الحسن، وكان القاهر كثير الشرب عليه، والجلوس في تلك المجالس، فلما أفضت الخلافة إلى الراضي اشتد شغفه بذلك الموضوع، فكان يداوم الجلوس والشرب فيه، ثم إن الراضي رَفَقَ بالقاهر، وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجة إليها، ولا شيء قبَّله منها، وسأله أن يُسَعِّفه بما عنده منها إذ كانت الدولة له، وأن يدبر تدبيره، ويرجع في كل الأمور إلى قوله، وحلف له بالإيمان الوكيدة أن لا يسعى في قتله ولا الإضرار به ولا بأحد من ولده، فأنعم له القاهر بذلك، وقال: ليس لي مال إلا في بستان النارنج؛ فصار الراضي إلى البستان وسأله عن الموضوع، فقال له القاهر: قد حجب بصري فلست أعرف موضعه، ولكن مر بحفره فإنك تظهر على الموضوع ولا يخفى عليك مكان ذلك، فحفر البستان،

وقلع تلك الأشجار والغروس والأزهار حتى لم يبق منه موضع إلا حفرة، وبولغ في حفرة فلم يجد شيئاً، فقال له الراضي: فما ههنا شيء مما ذكرت، فما الذي حملك على ما صنعت؟ فقال له القاهر: وهل عندي من المال شيء؟ إنما كانت حَسْرَتِي [على] جلوسك في هذا الموضع وتمتعك به، وكان لذني من الدنيا، فتأسفت على أن يمتع به بعدي غيري، فتأسف الراضي على ما توجَّه عليه من الحيلة في أمر ذلك البستان، وندم على قبوله منه، وأبعد القاهر، فلم يكن يدنو منه خوفاً على نفسه أن يتناول بعض أطراف.

خلق الراضي وعاداته

وكان الراضي كثير الاستعمال للطيب، حسن الهيئة، سخيّاً، جواداً، حسن المذاكرة بأخبار الناس وأيامهم، مقرباً لأهل العلم والأدب والمعرفة، كثير الدنو منهم، فائضاً بجوده عليهم، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في كل يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب، وكانوا عدة ندماء: منهم محمد بن يحيى الصولي، وابن حمدون النديم، وغيرهما، فعوتب على كثرة إفضاله على مَنْ يحضره من الجلساء، فقال: أنا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبي العباس [السفاح]؛ لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع في أحد، لا يحضره نديم ولا مغنٍ مُلِّهُ ولا قَيْنَةٌ فينصرف إلا بصلة أو كسوة قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد، ويقول: العجب من إنسان يفرح إنساناً فيتعجل السرور ويؤخر ثواب مَنْ سره تسويقاً وعدّة، فكان أبو العباس في كل ليلة أو يوم يقعد لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسروراً، ونحن إن لم تتأت لنا الأمور كتأتيتها لمن سلف فإننا نواسي جلساءنا، بل إخواننا، ببعض ما حضرنا، وكان سخيّاً على سائر الأشياء لا يستكثر لأحد من ندمائه كثرة ما يصل إليه على طول الأيام، حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله، وكان الغالب عليه من الخدم راغب الخادم وزيرك، ومن الغلمان ذكي وغيره.

الراضي بالله وبجكم التركي

وحدث أبو الحسن العروضي مؤدب الراضي قال: اجتزت في يوم مهرجان بدجلة بدار بَجْكم التركي؛ فرأيت من الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله، ثم دخلت إلى الراضي بالله فوجدته خالياً بنفسه قد اعتراه همٌّ؛ فوقفت بين يديه، فقال لي: اذنْ، فدنوت؛ فإذا بيده دينار ودرهم، في الدينار نحو من مئائيل، وفي الدرهم كذلك، عليهما صورة بَجْكم شاك في سلاحه وحوله مكتوب:

إِنَّمَا الْعَزْ قَاغَلَمْ لِلْأَمِيرِ الْمُعْظَمِ

سيد الناس بَجْكُمْ

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها، وهو جالس في مجلسه كالمفكر المطرق فقال الرضا: أما ترى صنع هذا الإنسان، وما تسمو إليه همته، وما تحدثه به نفسه؟ فلم أجبه بشيء، وأخذت به في أخبار مَنْ مضى من [الخلفاء وسيرهم في أتباعهم، ثم نقلته إلى أخبار] ملوك الفرس وغيرها، وما كانت تَلْقَاهُ من أتباعها، وصبرهم عليهم، وحسن سياستهم لذلك، حتى تصلح أمورهم، وتستقيم أحوالهم؛ فسلا عما عرض لنفسه، ثم قلت: ما يمنع أمير المؤمنين أن يكون كالمؤمنون في هذا الوقت حيث يقول:

صِلِ النَّدَمَانِ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ بَصَافٍ مِنْ مُعَتَّقَةِ الدُّنَانِ
بِكَأْسِ خُسْرُوَانِي عَتِيقِ فَإِنْ الْعِيدَ عِيدَ خُسْرُوَانِي
وَجُنُبْنِي الزَّبِيبِينَ طُرًّا فَشَأْنُ ذَوِي الزَّبِيبِ خِلَافَ شَأْنِي
فَأَشْرِبْهَا وَأَزْعَمْهَا حَرَامًا وَأَرْجُو عَفْوَ رَبِّ ذِي امْتِنَانِ
وَيَشْرِبْهَا وَيَزْعَمْهَا حَلَالًا وَتِلْكَ عَلَى الشَّقِيِّ خَطِئَتَانِ

قال: فطرت وأخذته أَرْحَيْتُهُ، فقال لي: صدقت، تَرَكُ الفرح في مثل هذا اليوم عجز، وأمر بإحضار الجلساء، وقعد في مجلس التاج على دجلة، فلم أرى يوماً كان أحسن منه في الفرح والسرور، وأجاز في ذلك اليوم [من حَضَرَهُ] من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير والدراهم والخلع وأنواع الطيب، وأتته هدايا بَجْكُمْ وألطفه من أرض العجم، فسرَّ في ذلك اليوم وجميع من حضره.

قال المسعودي: وقد أتينا على ما كان في أيام الرضا من الكوائن والحوادث مجملًا ومفصلاً في كتابنا «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثنان، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة» وما كان من أمره في حال خروجه مع بَجْكُمْ إلى بلاد الموصل وديار ربيعة، وما كان بين بَجْكُمْ وأبي محمد الحسن بن عبد الله بن حَمْدَانَ المسمى بعد ذلك بناصر الدولة، وَقَصْدُنَا فيما ذكرنا في هذا الكتاب إلى الاختصار، دون الشرح والإكثار، إذ كان في الإكثار من الأخبار ثقل على القلوب، ومَلَلٌ للسامع، وقليل الأخبار، يغني عن كثير الاقتدار.

ذكر خلافة المتقي بالله

موجز

وبويع المتقي لله، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، لعشر خَلَوْنَ من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وخلع وُسِمِلَتْ عيناه يوم السبت لثلاث خَلَوْنَ من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وكانت خلافته ثلاث سنين وأحدَ عَشَرَ شهراً وثلاثة وعشرين يوماً، وأمه أم ولد.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

ولما أفضت الخلافة إلى المتقي لله أقرَّ على الوزارة سليمان بن الحسن بن مَخْلَد، ثم استوزر أبا الحسن أحمد بن محمد بن ميمون، وكان كاتبه قبل الخلافة، ثم استوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد القَرَارِيْطِي، ثم استوزر أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ثم استوزر أبا الحسن علي بن [محمد بن] مُقْلَة، وَعَلَبَ على الأمر أبو الوفاء توزون التركي.

انتقاض الأمر عليه

واشتد أمر البريديين بالبصرة، ومنعوا السفن أن تصعد، وعظم جيشهم، وكثرت رجالهم، وصار لهم جيشان: جيش في الماء في الشدوات والطيارات والسميريات والزبازب، وهذه أنواع من المراكب يُقَاتَلُ فيها صغار وكبار، وجيش في البر عظيم، واصطنعوا الرجال، وبذلوا الرغائب، فانضاف إليهم حجرية السلطان وغلماؤه، وصار جيش السلطان الأتراك والديلم والجبل ونفراً من القرامطة، وكلُّ ذلك مع توزون، وكان توزون من رفقاء بَجَكَم والخواص من أصحابه، فانحدر توزون إلى واسط لحرب البريديين، وكانوا ملكوا واسط وتغلبوا عليها، فكانت بينهم سِجَالاً، والمتقي لله لا أمر له ولا نهي، فكتب المتقي أبا محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة، وأخاه أبا الحسن علي بن عبد الله سيف الدولة أن يُنْجِدُوهُ ويستنقذوه مما هو فيه، ويفوض إليهما الملك والتدبير، وقد كان قبل ذلك خرج إليهم وتوزون في جملتهم منضاف وغيره من الأتراك والدَّيْلَم، وذلك عند قتلهم محمد بن رائق في سنة ثلاثين وثلاثمائة، وانحدرهم إلى مدينة السلام، واستيلائهم على الملك والقيام به وحربهم البريديين، وما كان بينهم من الوقائع إلى أن توجهَ عليه ما ذكرنا في كتابنا «أخبار الزمان» من خروج أبي محمد الحسن بن عبد الله من الحضرة إلى الموصل، ولحق أخيه أبي الحسن [علي] بن عبد الله، وخَلَّاصَه مما دَبَّرَه عليه توزون وجعجع التركي، وخرج المتقي إلى

الموصل، فلما بلغ توزون ذلك رجع إلى بغداد وقصد بني حَمْدَان، فكان التقاؤهم بعكبرا، فكانت بينهم سِجَالاً، ثم كانت لتوزون عليهم، فرجع إلى بغداد، ثم أجمعوا له أيضاً، ورجعوا إليه، فتركهم حتى قربوا إلى بغداد، فخرج عليهم فلقبهم فهزمهم بعد موافعات كانت بينهم، وسار وراءهم حتى دخل الموصل، وخرج عنها إلى مدينة بلد، فصالحوه على مالٍ حملوه إليه؛ فرجع إلى بغداد وهو مُسْتَظْهَر بمن معه من الأتراك والجبل والديلم وكمال العدة والكرّاع، وسار المتقي إلى نصيبين، ورجع عنها إلى الرقة فنزلها، وذلك لأيام بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وكتب [الإخشيد] محمد بن طغج [صاحب مصر] فسار إلى الرقة وحمل إليه مالا كثيراً، وأهدى إليه غلماناً وأثاثاً، وضم إليه قائداً من قواده، وجَمَّل أمره، وزاد في حاله، وبرَّ جميع من معه من وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلّة، وقاضي القضاة أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقى، وسلام الحاجب المعروف بأخي نجح الطولوني، وجماعة الوجوه والغلمان، ثم لم يعبر الإخشيد محمد بن طغج إلى الرقة ولا إلى شيء من جانب الجزيرة وديار مُضَرَّ، وعبر المتقي، وسار إلى معسكره من الجانب الشامي؛ فكانت بينهم خطوب وأيمان وعهود، وأبو الحسن علي بن عبد الله بن حَمْدَان مقيم بحران على طول مُقَام المتقي بالرقة، وقد كان أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حَمْدَان سار عن حلب وبلاد حمص عند مسير الإخشيد إلى بلاد قنسرين والعواصم؛ فانْقَضَ جمعه، وتفرق جنده عنه، وانضافوا إلى أبي الحسن علي بن عبد الله، واتصلت كُتُب توزون بالمتقي، وتواترت رسله يسأله الرجوع إلى الحضرة، وأشهد توزون مَنْ حضره من القضاة والفقهاء والشهود، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقي، والتصرف له بين أمره ونهيه، وترك الخلاف عليه، وأنفذ إليه كتب القضاة والشهود بما بذل من الأيمان وأعطى من العهود، وأشار بنو حمدان على المتقي أن لا ينحدر، وخَوَّفوه من توزون، وحَدَّروه أمره، فإنه لا يأمنه على نفسه؛ فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من توزون، وقد كان بنو حمدان أنفقوا على المتقي نفقةً واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتيازه بهم، يكثر وصفها ويعسر علينا في التحصيل إيرادها بإكثار المخبرين لنا بتحديددها، وانصرف الإخشيد عن الفُرات متوجهاً نحو مصر، وانحدر المتقي في الفرات؛ فتلقيه أبو جعفر بن شيرزاد كاتب توزون بأحسن لقاء، وأقام له الأتراك، ومضى في انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندية على شاطئ هذا النهر؛ فتلقيه توزون هنالك، وتَرَجَّل له ومشى بين يديه؛ فأقسم عليه أن يركب ففعل، حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضَرْبَه له على الشط من نهر عيسى، وذلك على شَوَاطِيف من مدينة السلام؛ فأقام هنالك، وأنفذ رسلاً إلى دار طاهر ليحضر المستكفي، فلما حصل

المستكفي في المضرب قبض على المتقي، ونهب جميع ما كان معه، وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مُقَلَّة، وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن إسحاق، ونهب جميع العسكر، وانصرف القائد الذي كان الإخشيد ضمه إلى المتقي ومن معه إلى أصحابهم، وأحضر المستكفي فبيع له، وكُجِّلَ المتقي، فصاح وصاح النساء والخدم لصياحه، فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب، فخفي صُراخُ الخدم، وأدخل إلى الحضرة، مسمول العينين وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم، وسُلِّمَ إلى المستكفي بالله، وبلغ ذلك القاهر فقال: قد صرنا اثنين تحتاج إلى ثالث، يُعْرَضُ بالمستكفي بالله.

المتقي يطلب رجلاً أخبارياً يأنس به

وحدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال: لما نزل المتقي الرقة كنت فيمن يتصرف بين يديه، وأقرب منه في الخدمة، لطول صحبته، فقال لي في بعض الأيام في الرقة وهو جالس في داره مُشْرِفاً على الفرات: اطلب لي رجلاً أخبارياً يحفظ أيام الناس أتفرج إليه في خلواتي وأستريح به في الأوقات، قال: فسألت بالركة عن رجل بهذا الوصف، فأرشدت إلى رجل بالركة كهل لازم لمنزله، فصرت إليه، ورَعَبْتَه في الدخول إلى المتقي بالله، فقام معي كالمكره، وصرنا إلى المتقي فأعلمته إحضاري للرجل الذي طلبه، فلما خلا وجهه دعا به واستدناه، فوجد عنده ما أراد، فكان معه أيام مُقَامِهِ بالركة، فلما انحدرَ كان معه في الزورق، فلما صار إلى فم نهر سعيد وذلك بين الرقة والرحبة. أرقَ المتقي ذات ليلة، فقال للرجل: ما تحفظ من أشعار المبيضة وأخبارها؟ فمر الرجل في أخبار آل أبي طالب إلى أن صار إلى أخبار الحسن بن زيد وأخيه محمد بن زيد [بن الحسن] وما كان من أمرهما ببلاد طبرستان، وذكر كثيراً من محاسنهما، وقَصِدَ أهل العلم والأدب إياهما، وما قالت الشعراء فيهما، فقال له المتقي: أتُحفظ شعر أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد بن زيد الحسن بن الداعي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكن معي غلام لي قد حفظ بحدائث سنه وحده مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والأدب عليه ما لم أحفظ من أخبار الناس وأيامهم وأشعارهم، قال: أحضره، ولم أخفيت عني خبر مثل هذا فيكون حضوره زيادة في أنسنا؟ فأحضر الغلام من زورق آخر، فوقف بين يديه، فقال له صاحبه: أتُحفظ قصيدة أبي المقاتل في ابن زيد؟ قال: نعم، قال المتقي: أنشدنيها، فابتدأ ينشده إياها:

قصيدة أبي المقاتل في الداعي العلوي

لا تفل بُشْرَى وقل لي بُشْرِيان غُرَّةُ الداعي ويوم المهرجان

خَلَقْتُ كَفَّاهُ مَوْتاً وَحَيَاةَ
فَهُوَ فَصَلْ فِي زَمَانِ بَدَوِي
فَهُوَ لِلْكَلِّ بِكُلِّ مُسْتَقِلِّ
أَوْحَدٌ قَامَ بِتَشْيِيدِ الْمَبَانِي
مُسْرِفٌ فِي الْجُودِ مِنْ غَيْرِ اعْتِذَارٍ
وَهُوَ مَنْ أَرْسَى رَسُولَ اللَّهِ فِيهِ
سَيْدَ عَرَقٍ فِيهِ السَّيْدَانِ
مُخْتَفٍ فِكْرَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ
يَعْرِفُ الدَّهْرَ عَلَى مَا غَابَ عَنْهُ
يَتَنَاءَى لَفْظُنَا عَنْهُ، وَلَكِنْ
أَخْرَجْتَ أَلْفَاظَهُ مَا فِي الْخَفَايَا
كَافِرٌ بِاللَّهِ جَهْرًا وَالْمِثْلَانِي
وَإِذَا مَا أَسْبَغَ الدَّرْعَ عَلَيْهِ
بَعَثْتُ سَطَوَتَهُ فِي الْمَوْتِ رُغْبًا
يَحْدُقُ الْأَبْطَالَ بِالْأُلْحَازِ حَتَّى
مَلَكَ الْمَوْتَ يَنَادِيهِ أَجْرُنِي
لَا تَكْلِفْنِي فَوْقَ الْوُسْعِ وَارْفُقْ
يَا شَقِيقَ الْقَدَرِ الْمُحْتَوَمِ كَمْ قَدْ
[لَكَ يَوْمَانِ فَيَوْمٌ مِنْ لِيَانِ
أَنْجَزْتَ كِفَاكَ وَعَدًا وَوَعِيدًا
فَإِذَا مَا أَرَوْتَ الْيَمْنَى حِبَاءَ
جَدَّتْنَا فِي النِّفْعِ وَالضَّرِّ بَدَارًا
أَرْحَتْ كِفَاكَ فِي الْآفَاقِ حَتَّى
قَدَمْتُكَ الْمِدْحَ الْغُرَّ وَصَالَتْ
أَنْتَ لَا تَخْوِي بِمَعْقُولٍ كِتَابَ
لَكَ أَثْقَالُ أَيْدٍ مَثْقَلَاتِ
إِنَّمَا مَدَحُكَ وَخَيِّ وَزُبُورُ
هَآكِهِا جَوْهَرَةٌ تَبْرِيرَةٌ تَو]

وَحَوَتْ أَخْلَاقَهُ كُنْهَ الْجَنَانِ
وَإِبْنُ زَيْدٍ مَالِكُ رِقِّ الزَّمَانِ
بِالْعَطَايَا وَالْمَنَايَا وَالْأَمَانِ
فَبِهِ اسْتُنْبِطَ أَجْنَاسُ الْمَعَانِ
وِعَظِيمُ الْبِرِّ مِنْ غَيْرِ امْتِنَانِ
وَعَلِيَاهُ الْمَعْلَى وَالْحَسَنَانِ
وَالَّذِي يَكْبُرُ عَنْ ذِكْرِ الْحَصَانِ
فَهُوَ فِي كُلِّ مَحَلٍّ وَمَكَانٍ
فَيَرَى الْمَضْمَرَ فِي شَخْصِ الْعِيَانِ
هُوَ بِالْأَوْصَافِ فِي الْأَذْهَانِ دَانٍ
وَكَفَّاهُ الدَّهْرَ نَطَقَ التَّرْجِمَانِ
كُلُّ مَنْ قَالَ: لَهُ فِي الْخَلْقِ ثَانٍ
وَانْكَفَتْ يَمْنَاهُ بِالسَّيْفِ الْيَمَانِ
أَيَقُنُ الْمَوْتَ بِأَنَّ الْمَوْتَ فَنَانٍ
يَتْرِكُ الْمَقْدَامَ فِي شَخْصِ الْجَبَانِ
مَنْكَ، كَمْ تَغْزُو بِضَرْبِ وَطْعَانٍ؟
فَلَقَدْ مَلَكَكَ اللَّهُ عِنَانٍ
رُضْتُ بِالصَّيْلَمِ عَمْدًا ذَا جِرَانٍ
يَقْتَنِي يَوْمَ أَرُونَ أَرُونَانِ]
وَأَحَاطَتْ لَكَ بِالدُّنْيَا الْيَدَانِ
هَمَّتِ الْيَسْرَى بِإِرْوَاءِ السِّنَانِ
فَهَمَّا فِي كُلِّ حَالٍ ضَرَّتَانِ
مَا تَلَاقِي بِسِوَاكَ الشَّفَتَانِ
لَكَ أَيْضًا فِي أَعَادِيكَ الْهَجَانِ
لَكَ شَأْنٌ خَارِجٌ عَنْ كُلِّ شَأْنٍ
عَجَزْتَ عَنْ حَمَلِهِنَّ الثَّقَلَانِ
وَالَّذِي ضَمَّتْ عَلَيْهِ الدَّفَتَانِ
لِي وَجْوهُ الْمَوْتَ تَكْفِينُ الْحَنَانِ

يا إمام الدين خُذْهَا مِنْ إِمَامٍ ملكَتْ أَشْعَارُهُ سَبَقَ الرِّهَانِ
 واستمع للرمْلِ الأولِ مِمَّنْ كشف المحنة من غير امتحان
 فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن ستة أجزاءها عند الوزان
 كرة الآفاق لا تَطْلُعُ إِلَّا صارت الريح لها كالصَّوْلُجَانِ
 جلّيت في صنعة الألفاظ مما يرتجيه كل ذي عفو وجان
 أنت تحكي جَنَّةَ الخلد طباعاً والقوافي فيك كالبحور الحسان
 فابُقْ للشعر بقاء الشعر والشك ر مع الدهر فنعم الباقيان
 عُمُرُ رُضْوَى بل تُبِيرُ وَشَامَ وأزَامَ وشمَارِيخَ أَبَانِ
 شهد الله على ما في ضميري فاستمع لفظي ترجيع أذان
 حسناتٍ ليس فيها سيآت مدحة الداعي، اكتبا يا كاتبان

فلم يزل المتقي كلما مر به بيت استعاده، ثم أمر الغلام بالجلوس، فلما كان في اليوم الذي لقيه فيه ابن شيرزاد الكاتب سمعه ينشد هذا البيت:

لا تقل بشري وقل لي بشريان

فقال له الغلام، وقد كان أنس به: يا أمير المؤمنين:

دَامَتِ الْبَشْرَى فَقُلْ لِي بُشْرِيَانُ

وقد كان أنشده أولاً القصيدة «لا تقل بشري» وأنشده ثانياً هذا الوجه «دامت البشري فقل لي بشريان» وذكر له خبر أبي المقاتل مع الداعي، فوالله ما زال المتقي يقول «لا تقل لبشري» ولا يختار في ذلك الوجه غير ذلك، فقال له الرقي والغلام: والله لتطيرنا لأمر المؤمنين من اختياره إنشاد هذا البيت على هذا الوجه، فكان من أمره ما ذكرنا.

ومن صفات الخيل

وحدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال: لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا إلى مدينة عانة دعا بالرقي وغلامه فحادثاه، وتسلسل بهم القول إلى فنون من الأخبار، إلى أن صاروا إلى ذكر الخيل، فقال المتقي: أيكم يحفظ خبر سليمان بن ربيعة الباهلي [مع عمر بن الخطاب] فقال الغلام: ذكر [أبو] عمرو بن العلاء يا أمير المؤمنين أن سليمان بن ربيعة الباهلي كان يُهَجَّنُ الخيل ويعربها في زمن عمر بن الخطاب، فجاءه عمرو بن معد يكرب بفرس كميث [فكتبه] هَجِيناً، فاستعدى عليه عمر وشكاه إليه، فقال سليمان: ادع بإناء رَجْرَاجٍ قصير الجُدُر، فدعا به، فصبَّ فيها ماء، ثم أتى بفرس عتيق لا

شك في عنقه، فأسرع وبرك وشرب، ثم أتى بفرس عمرو الذي كان هجن فأسرع فصب سنبكه ومد عنقه كما فعل العتيق، ثم ثنى أحد السنبكين قليلاً فشرب، فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب وكان ذلك بمحضره قال: أنت سليمان الخيل، فقال المتقي: فما عندكم من الأصمعي وغيره من علماء العرب في صفاتها؟ قال الرقي: ذكر الرياشي عن الأصمعي قال: إذا كان الفرس طويل أو ظَفَّةَ اليدين قصير أو ظَفَّةَ الرجلين طويل الذراعين قصير الساقين طويل الفخذين طويل العضدين مفرع الكتفين لم يكْدُ يُسَبِّقُ، وقال: إذا سلم من الفرس شيان لم يضره عيب سواهما: مغروز عنقه في كاهله، ومغروز عجزه في صلبه، وإذا جادت حوافره فهو هو، وأنشدنا المبرد:

ولقد شهدت الخيل تحمل شِكَّتِي عَتَدَ كسرحان القصيمة منهب
فرس إذا استقبلته فكأنه في العين جزع من أوال مشرب
وإذا اعترضت له استوت أقطاره فكأنه مستدبر متصوب

وسأل يا أمير المؤمنين معاوية مطر بن دراج: أي الخيل أفضل وأوجز؟ فقال: الذي إذا استقبلته قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاهر، وإذا استعرضته قلت زافر، سوطه عنانه، وهواه أمامه، قال: فأبي البراذين شر؟ قال: الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال: أمسكني، وإذا أمسكته قال: أرسلني، قال الغلام: أحسن ما قيل في الفرس ووصفه قول بعضهم:

خير ما يركب الشجاع إذا ما قيل يوماً ألا اركبوا للغوار
كلُّ نَهْدٍ أَقْبَّ معتدل الخلد ق متين الشطى عتيق النجار
سلجم اللخى واسع السخر حد الـ مَأْذَنُ وافى الدماغ والوجه عار
ما حَمَّته الحرار واشتدَّ عليا ه فأكدى مُخْدَوْدِباً بالعوار
محضر القصر مكرب الرسغ دامي الـ بِإِطْ ساعي الجفون والأشفار
مُشْرِفٌ مُقْبِلٌ يخب إذا أد بَرَّ مُسْتَدْبِرٌ ككر مغار
فَهْوٌ في خلقه طوال ورحب وعراض إلى سداد قصار
طال هاديه والذراعان والأضـ لاع منه فقيم في جفار
ثم طالت وأبدت فخذاه فهو كفت الوثوب ثبت الخيار
والرحيب الفروج والجلد والمشـ فر قَدَامُ منخر كالوجار
والعريض الوظيف والجنب والأو راك والجهة العريض الفقار
والحديد الفؤاد والسمع العر قوب والطرف حدة في وقار

فهو صافي الأديم والعين والحا
والقصير الكُراع والظهر والرسد
لم تخن متنه القطاة ولم يسد
مطمئن النسور بين حزام
يكفت المشي كالذي يتخطى
وإذا ما استمر من غير ما بدأ
لأن فاهتز مقبلاً فإذا أد
في تعاقيب كالتماثيل أو كالج
فإذا ما طحا به الجري فالعقد

فر غمر بديهة الإحضار
غ القصير العسيب والصلب وار
لمه تركيبها إلى استنخار
كل لأم أحَمَّ كالمنقار
طُنباً أو يشق كالمسمار
س به مانع من استمرار
بر أهوى متابع الإدبار
ن أو كالظباء أو كالحوار
بان تهوى كواسر الأعسار

من أخبار حلبة الخيل

فلما كان في الليلة الثانية دعا بهما، فقال: عُوداً إلى ما كنتما عليه البارحة، واشرعا
في أخبار الحلائب ومراتب الخيل فيها، قال الغلام: يا أمير المؤمنين، أذكر قولاً جامعاً
أخبرني به كلاب بن حمزة العقيلي، قال: كانت العرب ترسل خيلها عشرة عشرة أو
أسفل، والقصب تسعة ولا يدخل الحجرة المحجرة من الخيل إلا ثمانية، وهذه
أسمائها: الأول السابق، وهو المجلي، قال أبو الهندام كلاب: إنما سمي المجلي لأنه
جَلِّي عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشدة، وقال الفراء: إنما سمي المجلي لأنه
يُجَلِّي عن وجه صاحبه، والثاني المصلي؛ لأنه وضع جَحْفَلته على قِطاة المجلي، وهي
صَلَاة، والصلَا: عَجِب الذنب بعينه، والثالث المسلي؛ لأنه كان شريكاً في السبق،
وكانت العرب تعد من كل ما تختار ثلاثة، أو لأنه سَلِّي عن صاحبه بعض همه بالسبق،
والرابع التالي، سمي بذلك لأنه تلا هذه المسلي في حال دون غيره، والخامس المرتاح،
وهو المفتعل من الراحة؛ لأن في الراحة خمس أصابع لا يعد منها غيره، وإذا أومأت
العرب من العدد إلى خمس فتح الذي يوميء بها يَدَه وُفرق أصابعه الخمس، وذلك أيضاً
ما يؤمنون به من غير عقد الحساب، ثم يكون بعدها إلى أن تكون عشرة فيفتح الذي
يوميء بها يديه جميعاً، ويقابل الخمس أصابع الخمس، فلما كان الخامس مثل خامسة
الأصابع وهي الخنصر سمي مرتاحاً، وسمي السادس حظياً؛ لأن له حظاً، وقيل: لأن
رسول الله ﷺ أعطى السادس قضيه، وهي آخر حظوظ خيل الحلبة، غير أنه له حظ،
وسمي بالسابيع العاطف؛ لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشيء وإن قل، وحسن إذ كان
قد دخل الحجرة المحجورة، وسمي الثامن المؤمل على القلب والتفاؤل كما سموا الفلأة
مَفَازة واللديغ سليماً، وكنوا الحبشي أبا البيضاء، ونحو ذلك، فكَذلك سموا الخائب

المؤمل، أي أنه يؤمل وإن كان خائباً؛ لأنه قرب من بعض ذوات الحفظ بعد، والتاسع اللطيم؛ لأنه لو رام الحجرة للطم دونها لأنه أعظم جرمًا من السابع والثامن، والعاشر السكيت لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة وَيَسْكُتُ حزناً وغماً، فكانوا يجعلون في عنق السكيت حبلاً ويحملون عليه قرداً، ويدفعون للقرد سوطاً؛ فيركضه القرد ليعير بذلك صاحبه، وأنشد في ذلك الوليد بن حصن الكلبي:

إذا أنت لم تَسِيْقْ وكنت مُخَلِّفًا سِيَقْتُ إذا لم تدع بالقرد والحبل
وإن تك حقًا بالسكيت مخلفًا فتورث مولاك المذلة بالنبل

أما ذكره النبل فإن بعضهم كان يفعل ذلك: ينصب فرسه ثم يرميه بالنبل حتى يتعجف، وقد فعل ذلك النعمان بفرسه النهب، قال كلاب بن حمزة ولم نعلم أحداً من العرب في الجاهلية والإسلام وَصَفَ خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها وذكرها على مراتبها غير محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وكان بالجزيرة بالقرية المعروفة بحصن مسلمة من إقليم بلسخ من كورة الرقة من ديار مضر فإنه قال في ذلك:

شهدنا الرهان غداة الرهان
نقود إليها مقاد الجميع
غدونا بمقوودة كالقداح
مقابلة نسبة في الصريح
كُمِيتُ إذا ما تباطى يبل
فمنهنَّ أحوى ممر أغر
تلأؤاً في وجهه فرجة
فقيدت لمدخور ما عندها
عليهن سحم صغار الشخوص
كأنهم فوق أشباحها
فصفت على الحبل في محضر
تراضوا به حكماً بينهم
وربك بالسبق عن ساعة
فقلت ونحن على جدة
لقد فرغ الله مما يكون
فأقبل في أمرنا نافر
بمَجْمَعَةٍ ضَمَّهَا الموسِمُ
ونحن بصنعتها أقومُ
غدت بالسعود لها الأتجمُ
نماهُنَّ للأكرم الأكرمُ
يفوت الخطوط إذا يُلْجَمُ
وأجود ذو غرة أرثم
كان تلألؤها المرزم
لمنتظري أنها تنجم
نماهم لحام أتى أسحم
زراير في سُقُفِ حُومُ
بلى أمره ثقة مسلم
فبالحق بينهم يحكم
من الناس كلهم أعلمُ
من الأرض نيرها مظلم
ومهما يكن فهو لا يُكْتَمُ
كما يُقْبَل الوابل المثجم

وأتبع فَوْضَى ومرفضة
 أو السرب سرب القطا راعه
 فواصل من كل قسطالة
 وللمرء من فرج ما تستثير
 فجلى الأغر، وصلى الكميت،
 وأردفها رابع تالياً
 وما ذم مرتاحها خامساً
 وجاء الحَظِيُّ لها سادساً
 وسابعها العاطف المستحير
 وجاء المؤمل فيها يخيب
 وجاء اللطيم لها تاسعاً
 يخبُّ السكيت على إثره
 كأن جوانبه بين ذي
 إذا قيل مَنْ رَبُّ ذَا لَمْ يُجِرْ
 ومن لا يعد للحلاب الجياد
 وما ذو اقتضاب لمجهولها
 فَرُحْنَا بسبق شهزنا به
 وأحرزن عن قَضَبَاتِ الرهان
 بُرُودٌ من القصب مَوْشِيَّة
 فراحت عليهن منشورة
 ومن وَرَق صامت بادرة
 فُقُضَتْ لِتُهَبِ خواتيمها
 نوزعها بين خُدَامِها
 وإننا لنرنبط المعربا
 يعدُّ لها المحض بعد الحليب
 ويخلطها بصميم العيال
 مشاربها الصافيات العذاب
 فهنَّ بأكناف أبياتنا

كما ارفَضَ من سلكه المنظم
 من الجوشودانتق مظلّم
 كأن عَثَانِينِهَا الْعُنْدَمُ
 سنابكهنَّ سنا مضرّم
 وسَلَى فلم يُذَمِّمِ الأدهم
 وأين من المنجد المتهِم؟
 وقد جاء يقدم ما يقدم
 فأسهمه حَظُّه المسهم
 يكاد لحيرته يُخَرِّم
 وعَنَّ له الطائر الأشام
 فمن كل ناحية يُلَطِّم
 وذِفْرَاهُ من قبة أعظم
 جمانة نِيْطُ بها قمقم
 من الخزي بالصمت يستعصم
 وشيك لعمرك ما يندم
 كمن ينتميها ويستلزم
 ونيل به الفخر والمغنم
 رغائب أثقالها تقسم
 وأكسية الخز والملحم
 كأن حَوَاشِيَهُنَّ الدَّمُ
 ينوء بها الأغلب الأعصم
 وبدرتنا الدُّهْرَ لا تختم
 ونحن لها منهم أخدم
 ت في اللُّزْبَاتِ فما ترزم
 كما يصلح الصبية المفظم
 بمن له حب هو المحرم
 ومطعمها فَهُوَ المَطْعَمُ
 صَوَافِنُ يصهلن أو حُوم

ومال محمد بن يزيد في كلمته هذه إلى أنه لا حَظَّ للثامن، وجعل للسابع حظاً في السبق، والهندسة إجراء الخيل وتجربتها فيما دون الغاية، وإنما سميت الحَلْبَة حلبة لأن العرب تحلب إليها خيولها من كل مكان.

قال المتقي: أثبتاً ما يجري في هذه الأوقات ودَوْنَاهُ، فلم يزالا معه في ذلك يحدّد لهما البر إلى أن كان من أمره ما قد اشتهر.

وقد تناهى بنا الكلام إلى هذا الموضع من خلافة المتقي؛ فلنذكر الآن بعض من اشتهر شعره في هذا الوقت واستفاض في الناس وظهر.

أبو نصر الخبزارزي

فمنهم أبو القاسم نصر بن أحمد الخبزارزي، وهو أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل؛ فمن جيد شعره قوله:

أنضى الهوى جسدي وبدّلني به جَسَداً تَكُونُ من هوى متجسد
ما زال إيجاد الهوى عدمي إلى أن صرت لو أعدمته لم أوجد
ومن جيد شعره ما عاتب به ابن لنكك الشاعر، وهو:

لم لا تَرَى لصداقتي تصديقاً فينا، ولم تَدْعُ الصديق صديقاً؟
ذو العقل لا يرضى بوسم صداقة حتى يرى لحقوقها تحقيقاً
فلمن يرجى الحق أن يدعى أخا وعلى الرفيق بأن يكون رفيقاً
إن غاب غاب محافظاً، أو حلّ كما ن مداعباً، أو قال كان صدوقاً
وفي هذا الشعر يقول:

ويكاد مَنْ عَلِقَ الهوى بفؤاده مما تفكر أن يُرَى زنديقاً
وقوله:

أعليك أغتِبُ أم على الأيام؟ بدأت، وكنت مؤكداً بتمام
قطع التواصل قربنا بتواعد وقَطَعْتَ أنت تواصل الأقسام
هلا ألفت إذ الزمان مُشْتَّت والإلف للأرواح لا الأجسام
وفي هذا الشعر يقول:

عذراً أبا عيسى عسى لك في القِلا عُذْرٌ، وذا علم بلا إعلام

من غابت الأخبارُ عنه وَدِينُهُ دِينَ الإمامَةِ قال بالأوهام
خذ من فَرَأَيْدِكَ الذي أعطيتني فالدُرُّ درك والنظام نظامي
حِكْمُ معانيها معانيك التي فَصَّلْتُهَا لي، والكلام كلامي

وشعره في الغزل وغيره أكثر من أن نأتي عليه، وأكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا
من شعره، وقد أشيع بموته وأن البريدي عَرَفَهُ لَأَنَّهُ كان هجاء، وقيل: بل هرب من
البصرة ولحق بِهَجَرَ وَالْأَخْصَاءِ بِأبي طاهر بن سليمان بن الحسن صاحب البحرين.

مقتل بجكم

قال المسعودي: وقد أتينا على أخبار المتقي وما كان في أيامه من الكوائن
والأحداث على الشرح والإيضاح في الكتاب الأوسط الذي كتبنا هذا تَالِي له، وإنما نذكر
من أخبارهم في هذا الكتاب لمعاً لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز، وكذلك
أتينا على خبر مقتل بَجْكَم التركي، وكان مقتله في رجب سنة تسع وعشرين وثلاثمائة،
وما كان من أمره مع الأكراد بناحية واسط، وما كان من كورتكين الديلمي واستيلائه على
جيش بَجْكَم، وانحذار محمد بن رائق من الشام ومحاربتة كورتكين بعكبرا، ومخاتلته
إياه، ودخوله الحضرة، وما كان بينهم من الوقعة بالحضرة إلى أن انهزام كورتكين،
واستولى محمد بن رائق على الأمر، وما كان من البريديين وموافاتهم الحضرة، وخروج
المتقي عنها مع محمد بن رائق الموصلي، في كتابنا المترجم «بأخبار الزمان» فأغنى ذلك
عن إعادته في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

ذكر خلافة المستكفي بالله

موجز

وبويع المستكفي بالله، وهو أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي، يوم السبت
لثلاث خَلَوْنَ من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وَخُلِعَ في شعبان سنة أربع وثلاثين
وثلاثمائة، لسبع بَقِيْنَ من هذا الشهر، فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر إلا أياماً، وأمه أم
ولد.

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

ذكر أول أمره

قد قدّمنا عندما ذكرنا خَلَعَ المتقي لله أن المستكفي ببيع له بالسبق على نهز عيسى من أعمال بادوريا بإزاء القرية المعروفة بالسندية في الوقت الذي سُمِلَتْ فيه عينا المتقي، بايع له أبو الوفاء توزون وسائر مَنْ حضره من القُوّاد وأهل الدولة، وأهل عصره من القضاة منهم القاضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن أبي الشوارب وجماعة من الهاشميين، فصلّى بهم في يومهم ذلك المغرب والعشاء، وسار حتى نزل في يوم الأحد بالشَّامِاسية، فلما كان في يوم الاثنين انحدر في الماء راكباً في الطيار الذي يسمى الغزل، وعليه قلنسوة طويلة محدودة، ذُكِرَ أنها كانت لأبيه المكتفي بالله، وعلى رأسه توزون التركي ومحمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد وجماعة من غلمانه، وسُلم إليه المتقي ضريراً، وأحمد بن عبد الله القاضي مقبوضاً عليه، وحضر بعد ذلك سائر القضاة والهاشميين، فبايعوا له، واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامريّ مدة، ثم غضب عليه، وغلب على أمره محمد بن شيرزاد، وجلس للناس، وسأل عن القضاة، وكشَفَ عن أمر شهود الحضرة، فأمر بإسقاط بعضهم، وأمر باستتابه بعضهم من الكذب وقبول بعضهم لأشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة، فامثل القضاة ما أمر به من ذلك، واستقضى على الجانب الشرقي محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي، وعلى الجانب الغربي محمد بن الحسين بن أبي الشوارب الأموي الحنفي، فقالت العامة: إلى ههنا انتهى سلطانه، وانتهى في الخلافة أمره ونَهْيُهُ، وقد كان بينه وبين الفضل بن المقتدر الذي يسمى بالمطيع قبل ذلك مجاورة في دار ابن طاهر، وعداوة في اللعب بالحمام وتطيرها، واللعب بالكِبَاشِ والديوك والسمان، وهو الذي يسمى بالشام النفخ، فلما حُمل المستكفي إلى نهر عيسى ليباع له هرب المطيع من داره، وعلم أن سيأتي عليه، فلما استقرت للمستكفي طلب المطيع، فلم يقف له على خبر، فهدم داره، وأتى على جميع ما قدر عليه من بستان وغيره.

المستكفي و غلام ضمه له توزون

وذكر أبو الحسن علي بن أحمد الكاتب البغدادي، قال: لما استخلف المستكفي ضم إليه توزون غلاماً تركياً من غلمانة يقف بين يديه، وكان للمستكفي غلام قد وقف على أخلاقه ونشأ في خدمته؛ فكان المستكفي يميل إلى غلامه، وكان توزون يريد من المستكفي أن يقدم المضمون إليه على غلامه الأول؛ فكان المستكفي يبعث بالغلام التركي في حوائجه، اتباعاً لمرضاة توزون، فلا يبلغ له ما يبلغ غلامه.

من أخبار الحجاج مع أهل الشام

قال: وأقبل المستكفي يوماً على محمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد الكاتب، فقال له: أتعرف خبر الحجاج بن يوسف مع أهل الشام؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: ذكروا أن الحجاج بن يوسف كان قد اجتبى قوماً من أهل العراق وجدّ عندهم من الكفاية ما لم يجد عند مختصيه من الشاميين؛ فشق ذلك على الشاميين وتكلموا فيه، فبلغ إليه كلامهم؛ فركب في جماعة من الفريقين، وأوغل بهم في الصحراء؛ فلاح لهم من بُعد قطار إبل؛ فدعا برجل من أهل الشام، فقال له: امض فاعرف ما هذه الأشباح، واستقص أمرها، فلم يلبث أن جاء وأخبره أنها إبل، فقال: أمحلة هي؟ أم غير محملة؟ قال: لا أدري، ولكني أعود وأتعرف ذلك، وقد كان الحجاج أتبعه برجل آخر من أهل العراق وأمره بمثل ما كان أمر الشامي، فلما رجع العراقي أقبل عليه الحجاج وأهل الشام يسمعون، ما هي؟ قال: إبل، قال: وكم عددها؟ قال: ثلاثون، قال: وما تحمل؟ قال: زيتاً، قال: ومن أين صدرت؟ قال: من موضع كذا، قال: [وأين قصدت؟ قال: موضع كذا، قال:] ومن ربها؟ قال: فلان، فالتفت إلى أهل الشام، فقال:

ألام على عمرو، ولو مات أو نأى لقل الذي يُغني غنائك يا عمرو

فقال ابن شيرزاد: فقد قال: يا أمير المؤمنين بعض أهل الأدب في هذا المعنى:

شر الرسولين من يحتاج مرسله منه إلى العود، والأمران سيان
كذاك ما قال أهل العلم في مثل طريق كل أخي جهل طريقان

قال المستكفي: ما أحسن ما وصف البحتري الرسول بالذكاء بقوله:

وكأن الذكاء يبعث منه في سواد الأمور شغلة نار

وعلم ابن شيرزاد استئصال المستكفي لغلام توزون؛ فأخبر توزون بذلك فأعفاه منه، وأزاله عن خدمته.

مسامرة في وصف الخمر

وَحَدَّثَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ إِسْحَاقَ الْمَعْرُوفَ بَابِنَ الْوَكِيلِ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ: كَانَ أَبِي قَدِيمًا فِي خِدْمَةِ الْمَكْتَفِيِّ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اشْتَهَرَ، صَرَتْ فِي خِدْمَةِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَكْتَفِيِّ، فَلَمَّا أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَيْهِ كُنْتُ أَحْصُ النَّاسَ بِهِ؛ فَرَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ نَدَمَائِهِ مِمَّنْ كَانَ يِعَاشِرُهُمْ قَبْلَ الْخِلَافَةِ مِنْ جِيرَانِهِ بِنَاحِيَةِ دَارِ ابْنِ طَاهِرٍ، وَقَدْ تَذَاكَرُوا الْخَمْرَ وَأَفْعَالَهَا، وَمَا قَالَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ، وَمَا وَصَفَتْ بِهِ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا وَصَفَ الْخَمْرَةَ بِأَحْسَنَ مِنْ وَصْفِ بَعْضٍ مِنْ تَأَخَّرَ؛ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ فِي الشَّرَابِ وَوَصَفَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ وَاحِدٌ أَخَذَ مِنْ أَمَهَاتِهِ الْأَرْبَعِ فَضِيلَتَهَا وَابْتَزَّهَا أَكْرَمَ خَوَاصِهَا إِلَّا الْخَمْرَةَ؛ فَلَهَا لَوْنُ النَّارِ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْأَلْوَانِ، وَلَذَوْنَةُ الْهَوَاءِ، وَهِيَ أَلْيَنُ الْمَجَسَّاتِ، وَعَذُوبَةُ الْمَاءِ، وَهِيَ أَطْيَبُ الْمَذَاقَاتِ، وَبَزْدُ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَلَذُّ الْمَشْرُوبَاتِ، قَالَ: وَهَذِهِ الْأَرْبَعُ وَإِنْ كُنَّ فِي جَمِيعِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ مَتْرَكَةً فَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا وَصَفْنَا مِنَ الْغَالِبِ عَلَى الْخَمْرِ، قَالَ وَاصْفَهَا: قَدْ قُلْتَ فِي اجْتِمَاعِ الصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا فِيهَا:

لَسْتُ أَرَى كَالرَّاحِ فِي جَمْعِهَا لِأَرْبَعِ هُنَّ قَوَامُ الْوَرَى
عَذُوبَةُ الْمَاءِ، وَلَيِّنُ الْهَوَاءِ وَسَخْنَةُ النَّارِ، وَبَرْدُ الثَّرَى

ولما كانت الراح بالموضع الذي وصفناها به، من الفضل على سائر ما ينال [من هذه الدنيا، كانت الأوصاف أحسن لها من سائر ما ينال] ويوصف من صنوف اللذات والمدح بها بما تبعث من فنون الشهوات.

قال: فأما [شعاع] الخمر فإنه يشبه بكل شيء نوري، من شمس وقمر ونجم ونار، وغير ذلك من الأشياء النورية، فأما لونها فيحتمل أن يشبه بكل أحمر في العالم وأصفر، من ياقوت وعقيق وذهب، وغير ذلك من الجواهر النفيسة والحلي الفاخرة. قال: وقد شبهها الأولون بدم الذبيح، ودم الجوف، وشبهها غيرهم بالزيت والرازقي وغيرهما، وتشبيهها بالجواهر الأكرام أفضل لها، وأحسن في مدحها.

قال: فأما صفاؤها فيحتمل أن يشبه بكل ما يقع عليه اسم الصفاء، وقد قال بعض الشعراء المتقدمين في صفائها:

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ

وهذا أحسن ما قاله الشعراء في وصف الخمر، قال: وقد أتى أبو نؤاسٍ في وصفها
ووصف طعمها وريحها وحسنها ولونها وشعاعها وفعلها في النفس وصفة آلاتها وظروفها
وأذنانها، وحال المناديات عليها، والاصطباج، والاعتباق، وغير ذلك من أحوالها، بما
يكاد يغلق به باب وصفها، لولا اتساع الأوصاف لها، واحتمالها إياها، وأنها لا تكاد
تحصر، ولا يبلغ إلى غاياتها، قال: وقد وصف أبو نؤاسٍ نورها فقال:

فكأنها في كفه شمس، وراحته قمر
وقال:

فعلت في البيت إذ مُزِجَتْ مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السَّفرِ بالعلم
وقال أيضاً:

بنت عشر صَفَتْ ورَقَّتْ؛ فلو صبَّ ث على الليل راح كل ظلام
وقال أيضاً:

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلَّتْهُ يُقْبَلُ في داجٍ من الليل كَوُكْبَا
ترى حيثما كانت من البيت مشرقاً وما لم تكن فيه من البيت مغرباً
وقال أيضاً:

وكان شاربها لَفَرَطٍ شعاعها في الكأس يكرع في ضياء مقباس
وقال أيضاً:

فقلت له: ترفق بي؛ فإنني رأيت الصبح من خلل الديار
فقال تعجباً مني: أَصْبَحُ ولا صبح سوى ضوء العُقَارِ
وقام إلى الدنان فَسَدَّ فاهها فعاد الليل مصبوغ الإزار
وقال أيضاً:

وحمرء قبل المزج صفراء دونه كأن شعاع الشمس يلقاك دونه
وقال:

كان ناراً بها مُحَرَّشَةٌ تهابها تارة وتخشاها
وقال أيضاً:

حمرء لولا انكسار الماء لاختطفت نور النواظر من بين الحماليق

وقال أيضاً:

ينقُضُ منها شعاع كلما مزجت كالشَّهْبِ تنقُضُ في إثر العفاريت

وقال:

عُتِّقْتُ في الدنان حتى استفادت نور شمس الضحى وبرَدَ الظلام

وقال:

فجورَها عني عُقَّاراً ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعاً مطنبا

وقال:

قال: ابْنِني المصباح، قلتَ له: اتد، حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُها مصباحا

فسكبت منها في الزجاج شربة كانت لنا حتى الصباح صباحا

قال: وله في هذا الفن أشياء كثيرة قد وصفها في مشابهة النار ومجانسة الأنوار والرفع للظلام، وتصيير الليل نهاراً والظلم أنواراً، مما هو إغراق الواصف واشتطاط المادح، قال: وليس إلى صفة لونها ونورها ما هو أحسن مما وصفها، إذ ليس بعد الأنوار شيء في الحسن، قال: فداخل المستكفي سرور وفرح وابتهاج بما وصف، فقال: ويحك!! فرج عني من هذا الوصف، قال: نعم يا سيدي.

قال عبد الله بن محمد الناشي: وقد كان المستكفي تَرَكَ النُبُذ حين أَفْضَتِ الخلافة إليه، فدعا بها من وقته، ودعا إلى شربها، وقد كان المستكفي حين أَفْضَتِ الخلافة إليه. طَلَبَ الفضل بن المقتدر، على حسب ما قدمنا، لما كان بينهما من العداوة فيما ذكرنا، وغير ذلك مما عنه أعرضنا، فهرب الفضل، وقيل: إنه هرب إلى أحمد بن بُؤْيَه الديلمي متكرراً، وأحسن إليه أحمد ولم يظهره، فلما مات توزون ودخل الديلمي إلى بغداد وخرج الأتراك عنها صار إلى ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حَمْدَانَ، وانحدر معه هو وابن عمه أبو عبد الله بن أبي العلاء، فكان بينه وبين ابن بُؤْيَه الديلمي من الحرب ما قد اشتهر، وانحاز الديلمي إلى الجانب الغربي ومعه المستكفي والمطيع مُخْتَفٍ ببغداد، والمستكفي يطلبه أشدُّ الطلب، وأنزل المستكفي في بيعة النصاري المعروفة بِدُرْنَأ من الجانب الغربي.

فذكر أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق المعروف بابن الوكيل، ومنزلته من خدمة المستكفي ما قدمنا، قال: كان المستكفي في سائر أوقاته فازعاً وَجِلًّا من المطيع أن يلي

الخلافة، وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ فَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَرِيدُ، فَكَانَ صَدْرُهُ يَضِيقُ لَذَلِكَ، فَيَشْكُو ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ إِلَى مَنْ ذَكَرْنَا مِنْ كَانَ يَأْلَفُهُ مِنْ نَدَمَائِهِ فَيَشْجَعُونَهُ وَيَهْوَنُونَ عَلَيْهِ أَمْرَ الْمَطْبِيعِ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ: قَدْ اشْتَهَيْتُ أَنْ نَجْتَمِعَ فِي يَوْمٍ كَذَا كَذَا فَتَتَذَكَّرُ أَنْوَاعَ الْأَطْعِمَةِ وَمَا قَالَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ مَنْظُومًا، فَاتَّفَقَ مَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي حَضَرُوا أَقْبَلَ الْمُسْتَكْفِي فَقَالَ: هَاتُوا مَا الَّذِي أَعَدَّه كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؟ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: قَدْ حَضَرَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَاتُ لَابْنِ الْمُعْتَزِّ يَصِفُ سَلَةَ فِيهَا سَكَارِجُ كَوَامِخٍ، فَقَالَ: [هَاتَهَا، قَالَ]:

لَابْنُ الْمُعْتَزِّ فِي وَصْفِ سَلَةِ كَوَامِخٍ

أَمْتَعُ بِسَلَةِ قَضْبَانٍ أَتَتْكَ وَقَدْ	حَفَّتْ جَوَانِبُهَا الْجَامَاتُ أَسْطَارُ
فِيهَا سَكَارِجُ أَنْوَاعٍ مَصْفُوفَةٌ	حَمْرٌ وَصَفْرٌ، وَمَا فِيهِنَّ إِنْكَارُ
فِيهِنَّ كَامِخٌ طَرَخُونُ مَبُوهَرَةٌ	وَكَامِخٌ أَحْمَرٌ فِيهَا وَكِبَارُ
أَعْطَتْهُ شَمْسُ الضُّحَى لَوْنًا فَجَاءَ بِهِ	كَأَنَّهُ مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ عِطَارُ
فِيهِنَّ كَامِخٌ مَرَزَنْجُوشٌ قَابِلُهُ	مِنْ الْقَرْنَفْلِ نَوْعٌ مِنْهُ مَخْتَارُ
وَكَامِخٌ الدَّارِصِينِي فَلَيْسَ لَهُ	فِي الطَّعْمِ شِبْهُهُ، وَلَا فِي لَوْنِهِ عَارُ
كَأَنَّهُ الْمَسْكُ رِيحًا فِي تَنْسَمِهِ	حَرِيفٌ فِي طَعْمِهِ وَالرِّيحُ مِعْطَارُ
وَكَامِخٌ الزُّعْتَرِ الْبَرِّيُّ إِنْ لَهُ	لَوْنًا حَكَاهُ لَدَيْنَا الْمَسْكُ وَالْقَارُ
وَكَامِخٌ الثُّرْمُ لَمَّا أَنْ بَصُرْتَ بِهِ	أَبْصُرْتَ عِطْرًا لَهُ بِالْأَكْلِ أَمَّارُ
كَأَنَّ زَيْتُونَهَا فِيهَا ظِلَامٌ دُجِّي	فِي الْجَنْبِ مِنْهُ مِنَ الْمَمْقُورِ أَسْفَارُ
إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا فِيهِنَّ مِنْ بَصَلٍ	كَأَنَّهُنَّ لَجِينٌ حَشْوُهُ نَارُ
وَسَلْجَمٌ مُسْتَدِيرٌ وَالْقَدْ خَالَطَهُ	طَعْمٌ مِنَ الْخَلِّ قَدْ حَازَتْهُ أَسْطَارُ
كَأَنَّ أَبْيَضَهُ فِيهِ وَأَحْمَرُهُ	دِرَاهِمٌ صَفْفَتْ فِيهِنَّ دِينَارُ
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَلُوحُ لَهَا	نَجْمٌ إِلَيْنَا بِضُوءِ الْفَجْرِ نَظَّارُ
كَأَنَّهَا زَهْرَةُ الْبِسْتَانِ قَابِلَهَا	بَدْرٌ وَشَمْسٌ وَإِظْلَامٌ وَأَنْوَارُ

قال المستكفي: تحضر هذه الجودة بعينها على هذا الوصف، وهاتوا، فلسنا نأكل اليوم إلا ما تصفون، فقال آخر من الجلساء: يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم في صفة سلة نوارد:

في وصف سلة نوادر

متى تَنَشَّطُ لِلأَكْلِ وقد زَيَّنْهَا الطَاهِي
 وفجاءت وَهْيَ مِنْ أَطْيَبِ فمن جَذِي شَوَيْئَاهُ
 ونَضَدْنَا عَلَيْهِ نَعْمَ وفرخ وافسر الزور
 وطيهوج وفروج وسنبوسجة مقلو
 وحمراء من البيض وأوساط شَطِيرَاتِ
 يولدن لذي التخم ترنج بكسور النـ
 وحريف من الجبن وطبع كالآلى في
 وخل ترعف الآنـ وباذنجان بوران
 وهليون وعهدي بـ ولوزينجة في الدهـ
 [وعندي لك رستيـ وساق وَعَدَتْ بِالْوَصـ
 له شدة الحاظ رُفْمُرِّي يَغْنِيكَ
 ألا يا من لمحزون فسا عذرك في أن لا

فقد أَصْلَحْتَ الْجَوْنَه
 لنا أَحْسَنَ مَا زَيْنَه
 ب ما يُوَكِّلْ مَشْحُونَه
 وعصبنا مَصَارِينَه
 نع البقل وطرخونه
 أَجَدُّنَا لَكَ تَسْمِينَه
 أَجَدُّنَا لَكَ تَطْجِينَه
 ة في إثر طردينه
 إلى جانب زيتونه
 بزيت الماء مدهونه
 ة جوعاً وَيُشْهِيْنَه
 دُّ بالعنبر معجونه
 به الأوساط مقرونه
 سموط الغيد مكنونه
 ف منه وهي مختونه
 به نَفْسُكَ مَفْتُونَه
 لك تستعذب هليونه
 ن والسكر مَذْفُونَه
 ة مطبوخ وقنينه
 ل منه عطفة النونه
 وفي ألفاظه لينه
 لحوناً غير ملحونه
 نأى عن دار محزونـ
 ترى من سكره طينه

لابن الرومي في وصف وسط

فقال المستكفي: أحسنت وأحسن القائل فيما وصف، ثم أمر بإحضار كل ما يجري في وصفه مما يمكن إحضاره، ثم قال: هاتوا، مَنْ معه شيء في هذا المعنى؟ فقال آخر: في هذا المعنى لابن الرومي في صفة وسط:

يا سائلي عن مجمع اللذات	سألت عنه أُنَعَتِ النُّعَاتِ
فهاك ما أنشأته من قصه	مسلماً من شوبه ونقصه
خذ يا مريد المأكَل اللذيذ	جَرَدَقَتْنِي خبز من السميذ
لم تر عينا ناظِرٍ مثليهما	فقشر الحرفين عن وجهيهما
حتى إذا ما صارتا طفاففا	فاضفُ على إحداهما تفايفاً
من لحم فروج ولحم فَرْخ	تذوب جوذاباهما بالنفخ
واجعل عليها أسطراً من لوز	معارضات أسطراً من جوز
إعجامها الجبن مع الزيتون	وشكلها النعنع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن	مقسومة كأنه وشيُ اليمن
واعمد إلى البيض السليق الأحمر	فَدَرْهِمِ الوُسْطَ به ودَّئِر
وتَرَبِّ الأسطر بالملح، ولا	تكثر، ولكن قدراً معتدلاً
وَرَدِّدِ العينين فيه لحظاً	فإن للعينين منه حظاً
وَمَتَّعِ العين به مَلِيّاً	وأطبق الخبز وكل هنيئاً
وامسك بنابيك وأكدم كدماً	تسرع فيما قد بنيت هَدْماً
[طوراً ترى كحلقة الدولاب	حسروفه ودوره كاللداب]
[وتارة مثل الرحي بلا سَعْبُ	قد شذبت عنها بنابيك الشذب]
[لهفي عليها وأنا الزعيم	بمعدة شيطانها رجيم]

في وصف سنْبوسج

وقال آخر: يا أمير المؤمنين، لإسحاق بن إبراهيم الموصلي في صفة سنْبوسج:

يا سائلي عن أطيّب الطعام	سألت عنه أَبْصَرَ الأنام
اعمد إلى اللحم اللطيف الأحمر	فَدَقُّهُ بالشحم غير مُكْثِر
واطرح عليه بصلاً مدوراً	وكرنباً رطباً جنيّاً أخضراً

والق السذاب بعده موفراً
وبعده شيء من القرنفل
وكف كمون وشيء من مري
فدقه يا سيدي شديداً
واجعله في القدر وضب الماء
حتى إذا الماء فني وقلاً.
فلفه إن شئت في رُقاق
أو شئت خذ جزءاً من العجين
فابسطه بالسويق مستديراً
وضب في الطابق زيتاً طيباً
وضعه في جام له لطيف
وكله أكلاً طيباً بخردل

ودارصيني وكف كزبرا
وزنجبيل صالح وفلفل
وملء كفتين بمالح تدمر
ثم أوقد النار له وقوداً
من فوقه واجعل له غطاء
ونشفته النار عنه كلا
ثم احكم الأطراف بالإلحاق
معتدل التفريك مستلين
ثم اطفرن أطرافه تطفيراً
ثم أقله بالزيت قليلاً عجباً
ووسطه من خردل حريف
فهو ألد المأكول المعجل

في وصف هليون

فقال آخر: يا أمير المؤمنين، لمحمود بن الحسين بن السندي كشاجم الكاتب في

وصف هليون:

لنا رماح في أعاليها أود
مستحسنات ليس فيها من عقد
سكسوة من صنعة الفرد الصمد
ثوب من السندس من فوق برّد
كأنه ممزوجة حمرة خد
[فخالطته حمرة خد ويد
منضّذات كتناضيد الزرد
كأنها مطرف خز قد مهد
كانت فصوصاً لخواتيم الخرد
يجول في جانبها جزر ومد
كأنه من فوقه حين لبد
فلو رآها عابد أو مجتهد

مفتلات الجسم فتلاً كالمسد
لها رؤوس طالعات في جسد
منتصبات كالقداح في العمود
قد أشربت حمرة لون يتقد
قد قرصت حمرة كف حرد
كأنها في صحن جام أو برّد
نسائج العسجد حسناً منتضد
لو أنها تبقى على طول الأبد
من فوقها مري عليها يطرد
مكسوة من زيتها ثوب زبد
شراك تبر أو لجين قد مسد
أفطر مما يشتهيها وسجد

فلما فرغ منها قال له المستكفي: هذا مما يتعذر وجوده في هذا الوقت بهذا الوصف في هذا البلد، إلا أن نكتب إلى الإخشيد محمد بن طنج يحمل إلينا من ذلك البر من دمشق، فأنشدونا فيما يمكن وجوده.

في وصف أرزية

قال آخر: يا أمير المؤمنين، لمحمد ابن الوزير المعروف بالحافظ الدمشقي في صفة أرزية:

طاه كحسن البدر وسط سماء	لله در أرزّة وافى بها
من صنعة الأهواء والأنداء	أنقى من الثلج المضاعف نسجه
بيضاء مثل الدرة البيضاء	وكانها في صحفة مقدودة
وتريك ضوء البدر قبل مساء	بهزت عيون الناظرين بضوئها
نور تجسّد فوقها بضياء	وكان سكرها على أكفافها

في وصف هريسة

فقال آخر: يا أمير المؤمنين، أنشدت لبعض المتأخرين في هريسة:

إذا أتى من صيفه نيسان	ألذ ما يأكله الإنسان
هريسة يصنعها النسوان	وطالت الجديان والخرفان
يجمع فيها الطير والحملان	لهن طيب الكف والإتقان
واللحم والألية والشحمان	وتلتقي في قدرها الأدهان
والحنطة البيضاء والجلبان	وبعده إوزة سمان
جودها بطحنه الطحان	وبعد هذا اللوز والإبان
قد تعبت لعقدها الأبدان	وبعده الملح وخولنجان
إذا بدت يحملها الغلمان	تخجل من رؤيتها الألوان
وفوقها كالقُبُو خيزران	تضمها الصحيفة والخوان
مقبّب وماله أركان	يمسك سقف له حيطان
[تفتر من لهيبها العينان]	أبرزها للأكيل الولدان
يؤثرها الجائع والشبعان	[والمرء فيها فله مكان]
لها على أضرابها السلطان	ويشتهيها الأهل والضيفان
وانتفعت بأكلها الأبدان	نصفوها بالعقول والأذهان

أبدعها في عصره ساسان وأعجبت كسرى أنو شروان
إذا رآها الجائع الغرثان لم يُعطَ صبراً معها الجيعان

في وصف المضيرة

وقال آخر: يا أمير المؤمنين، لبعض المتأخرين في صفة المَـضِـيرَة:

إنَّ المَـضِـيرَة في الطعام كالبدن في ليل التمام
إشراقها فوق المموائد كالضياء على الظلام
مثل الهلال إذا بدا للناس في خلل الغمام
في صحفة مملوءة للناس من جزع التَّهَام
قد أعجبت لأبي هريـرة إذ أتت بين الطعام
حتى لقد مال الهوى بهواه عن طلب الصيام
ولقد رأى في أكلها حظاً فبادر بالقيام
ولقد تنكَّب أن يكو ن مؤاكلاً عند الإمام
إذ ليس ثَمَّ مَـضِـيرَة تشفي السقيم من السَّقام
لا غرؤ في إتيانها من غير إتيان الحرام
فهـي اللذيذة والغريـبة والعجيبة في الأنام

في وصف جودابة

وقال آخر: يا أمير المؤمنين، لمحمود بن الحسين في صفة جودابة:

جودابة من أرز فائق مصفرة في اللون كالعاشق
عجيبة مشرقة لونها من كَفِّ طاهٍ محكم حاذق
نسيجة كالتبر في حُمرة ورؤية من صنعة الخالق
بسكر الأهواز مصبوغة فطعمها أحلى من الرائق
غريقة في الدهن رَجْرَاجَة تدور بالتَّفُخ من الذائق
لينة ملمسها زبدة وريحها كالعنبر الفائق
كأنها في جامها إذ بدت تزهو كالكوكب في الغاسق
عقيقة صفرتها فاقع في جيد خودٍ بَضَّة عاتق
أحلى من الأمن أتى مؤمناً إلى فؤاد قلبي خافق

في وصف جودابة

وقال آخر: يا أمير المؤمنين، معي لبعض المحدثين في صفة جودابة:

وجودابة مثل لون العقيق
وفي الطعم عندي كطعم الرحيق
من الكر المحض معمولة
ومن خالص الزعفران السحيق
مُعْرَقَة بشحوم الدجاج
وبالشحم، أَكْرَمُ بها من غريق
لذيذة طعم إذا استعملت
وفي اللون منها كلون الخلق
[عليها اللآلئ من فوقها
تضم جوانبها ضم ضيق]
يُرَدِّدها في الإناء نفخة
وما في حلاوتها من مُطِيق

في وصف قطائف

وقال آخر: يا أمير المؤمنين، لمحمود بن الحسين كشاجم في صفة قطائف:

عندي لأصحابي إذا اشتدَّ السَّعْبُ
قطائف مثل أضاير الكتب
كأنه إذا ابتدى من الكشب
كَوَافِر النحل بياضاً قد ثقب
قد مَجَّ دهن اللوز مما قد شرب
وَابْتَلَّ مما عام فيه وَرَسَبُ
وجاء ماء الورد فيه وذهب
فهي عليه حَبَبٌ فوق حَبَبُ
إذا رآه واله القلب طرب
مدرج تدريج أبناء الكتب
أطيب منه أن تراه ينتهب
كل امرئ لَذَّتُهُ فيما أحب

لأبي نواس في وصف باطرنجا

فأقبل المستكفي على معلم كان يعلمه في صباه طيب النفس، وكان يضحك منه ويستطرفه، فقال له: [قد] أنشدنا ما سمعت، فأنشدنا أنت، قال: لا أدري ما قال هؤلاء، وما أنشدوا، غير أنني مضيت في أمس يومنا هذا أدور حتى أتيت باطرنجا، فرأيت رياضها، فذكرت [قول أبي نواس فيها، فوالله لقد شجاني، وذهب بي كل مذهب، فقال له المستكفي: وما الذي قال أبو نواس، ووصف] من أمرها؟ قال:

نومُ عينيك يا ابن وهب غَرَارُ
ولنار الهوى بقلبك نار
[باطرنجا بها ثَوَائِي، ولي فيـه
ها إذا دارت الكؤوس اعتبار]
من حديثي أنني مررت بها يَوْ
مأ وقلبي من الهوى مُسْتَطَار
وبها نَرْجِسُ ينادي غلامي
قف فقد أذَرَكْتُ لدينا العقار
وتغنَّى الدَّرَاج واستمطر الله
ووجدات بِئُورَهَا الأزهار

فانشيننا إلى رياض عيون
ومكان الجفون منها ابيضاض
بينما نحن عندها صرّخ الوز
عندنا قهوة تغافل عنها
وانشيننا للورد من غير أن تن
فرأى الترّجس الذي صنع الوز
ورأى الورد عسكريين من الص
واستجاشا ثفّاح بُنّان لَمّا
واستجاش البّهّار جيشاً من الأث
فرايت الربيع في عسكر الصف
ليس إلا لَحْمرة من خُدود

ناظرات ما إن بهنّ اخورار
ومكان الأحداق منها اصفرار
ذ: إلينا يا أيّها السّمّار
دهرها فالوجود منها خمار
بو عن الترّجس المضاعف دار
د، فنادى مستصرخاً: يا بهّار
فر فنادى فجاءه الجُلّتار
حَمِيّت من وطيسها الأوتار
رُجّ فيه صَعّاره والكبار
ر وقلبي يشفه الاحمراز
من أناس بَغَوْا علينا وَجَارُوا

فلم أر المستكفي منذ ولى الخلافة أشد سروراً منه في ذلك اليوم، وأجاز جميع من حضر من الجلساء والمغنين والملهين، ثم أحضر ما حضره في وقته من عَيْنٍ وَوَرِقٍ مع ضيق الأمر إليه، فوالله ما رأيت له بعد ذلك يوماً مثله، حتى قَبِضَ عليه أحمد بن بُؤَيّه الديلمي، وسَمَلَ عينيه، وذلك أن الحرب لما طالت بين أبي محمد الحسين بن عبد الله بن حمدان. وكان في الجانب الشرقي ومعه الأتراك. وابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، وبين أحمد بن بُؤَيّه الديلمي في الجانب الغربي، والمستكفي معه، اتهم الديلمي المستكفي بمسألة بني حَمْدان ومكاتبهم بأخباره، وإطلاعهم على أسرارهم، [مع] ما كان تقدم له في نفسه؛ فَسَمَلَ عينيه، وولّى المطيع، وأعمل الديلمي الحيلة في البيات بالديلم؛ فحملهم في السفن مع بوقات ودبابات في الليل، وألقاهم في مواضع كثيرة من الشارح إلى الجانب الشرقي؛ فَتَوَجَّهَتْ له على بني حَمْدان الحيلة فخرجوا نحو الموصل من بعد أحداث كثيرة بين الأتراك وبينهم بيلاد تكرت، واستوثق الأمر لأحمد بن بُؤَيّه الديلمي، وشرع في عمارة البلد، وسد البُثُوق، على حسب ما ينمو إلينا من أخباره، واتصل بنا من أفعاله، على بعد الدار، وفساد السبل، وانقطاع الأخبار، وكوننا ببلاد مصر والشام.

قال المسعودي: ولم يتأت لنا من أخبار المستكفي. مع قِصَرِ أيامه. غير ما ذكرنا، والله الموفق للصواب.

ذكر خلافة المطيع لله

موجز مبدئه

وبويع المطيع لله . وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر . لسبع بَقِيْن من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقيل : إنه بويع في جمادى الأولى من هذه السنة، وَعَلَبَ على الأمر ابن بُؤْيَه [الدلمي]، والمطيع في يده لا أمر له ولا نَهْي، ولا خلافة تعرف، ولا وزارة تذكر، وقد كان أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد يدبر الأمر بحضرة الديلمي، قيماً بأمر الوزارة برسم الكتابة، ولم يُخَاطَب بالوزارة إلى أن استأمن الحسين بن عبد الله بن حَمْدان إلى الجانب الغربي، وخرج معه عند خروجه إلى ناحية الموصل، إلى أن اتَّهَمَهُ بتغريته الأتراك عليه؛ فسمِل عينيه، وقد قيل : إن أبا الحسن [علي بن] محمد بن علي بن مُقَلَّة يعرض الكتب على الديلمي والمطيع، ويتصرف برسم الكتابة، لا برسم الوزارة في هذا الوقت، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ولم نفرد بجوامع تاريخ المطيع باباً مفصلاً عن أخباره كإفرادنا لغيره مما سلف ذكره في هذا الكتاب لأننا في خلافته بَعُدُ.

قال المسعودي : وقد كُنَّا شرطنا [على أنفسنا] في صَدْر كتابنا هذا أن نذكر مَقَاتِل آل أبي طالب، ومن ظهر منهم في أيام بني أمية وبني العباس، وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو ضرب، ثم ذكرنا ما تَأْتَى لنا ذكره من أخبارهم، من قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقي علينا من ذلك ما لم نورد، وقد ذكرناه في هذا الموضع، وَقَاء بما تقدم من شرطنا في هذا الكتاب .

طالبني يظهر بصعيد مصر أيام ابن طولون

فمن ذلك أنه ظهر بصعيد مصر أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقتله

أحمد بن طولون، يعد أقاصيص قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا، وذلك نحو سنة سبعين ومائتين.

وكان خروج أبي عبد الرحمن العجمي على أحمد بن طولون بصعيد مصر وما كان من أمره إلى أن قتل.

ظهور محسن بن الرضا بدمشق

ومن ذلك ظهور ابن الرضا، وهو محسن بن جعفر بن [محمد بن] علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، في أعمال دمشق سنة ثلاثمائة، فكان له مع أميرها أحمد بن كيغلق [أحداث] فقتل صبراً، وقيل: قتل في المعركة، وحمّر رأسه إلى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي.

ظهور الأطروش بطبرستان

وظهر ببلاد طبرستان والديلم الأطروش، وهو الحسن بن علي بن محمد بن علي [بن الحسن بن علي] بن أبي طالب رضي الله عنهم، وأخرج عنها المسودة، وذلك في سنة إحدى وثلاثمائة، وقد كان أقام في الديلم والجبل سنين، وهم جاهلية ومنهم مجوس؛ فدعاهم إلى الله تعالى فاستجابوا وأسلموا إلا قليلاً منهم في مواضع من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواقع خشنة على الشرك إلى هذه الغاية، وبني في بلادهم مساجد، وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوین وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان، وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنیان عظيم بنته ملوك فارس، يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم، ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدمه الأطروش وقد كان بين الأطروش والحسن بن القاسم الحسني الداعي حروب على بلاد طبرستان، فكانت بينهم سجالات، وكان الحسن بن القاسم الحسني الداعي وأفي الري، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة في جيوش كثيرة من الجبل والديلم ومعه ما كان بن كاكي الديلمي أحد فتاك الديلم ووجوهها فأخرج عساكر نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها، واستولى عليها وعلى قزوین وزنجان وقم وأبهر وغير ذلك، مما اتصل بالري، فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان يُنكر عليه ذلك ويقول: إني ضمنتك المال والدم، فأهملت أمر الرعية، وأضعفتها، وأهملت البلد، حتى دخلته المبيضة، وألزمه إخراجهم عنه، فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على إنفاذ رجل من أصحابه من الجبل، يقال له أسفار بن شيرويه، وأخرج معه

ابن المحتاج، وهو أمير من أمراء خراسان، في جيش كثير ليحارب مَنْ مع الداعي وماكان بن كاكي من الديلم لماكان بين الجبل والديلم من الضغائن والتنافر، فسار أسفار بن شيرويه البجلي فيمن معه من الجيوش إلى حدود الري، فكانت الوقعة بين أسفار بن شيرويه البجلي وبين ماكان بن كاكي الديلمي، فاستأمن أكثر أصحاب ماكان بن كاكي الديلمي وقواده، مثل مشير وتالّجين وسليمان بن شركة الأشكري ومرد الأشكري وهشونة بن أومكر في آخرين من قواد الجبل، فحمل عليهم ماكان في نفر يسير من غلمانهِ سبع عشرة حملة، وصبرت له عساكر خراسان ومن معه من الأتراك، فولّى ماكان ودخل بلاد طبرستان، وانهزم الداعي بين يديه، وما كان على حاميته؛ فلحقته خيول خراسان والجبل والديلم والأتراك، فيهم أسفار بن شيرويه، ومضى ماكان لكثرة الخيول وانحاز الداعي وقد لحق بقرب أمل قصبة بلاد طبرستان إلى طاحونة هنالك وقد تخلى عنه من كان معه من الأنصار، فقتل هنالك، ولحق ماكان بالديلم، واستولى أسفار ابن شيرويه على بلاد طبرستان، والري، وجرجان، وقزوین، وزنجان، وأبهر، وقم، وهمدان، والكرخ، ودعا لصاحب خراسان واستوثقت له الأمور، وعظمت جيوشه وكثرت عُدّته، فتجبر وطغى، وكان لا يدين بملة الإسلام، وعصى صاحب خراسان وخالف عليه، وأراد أن يعقد التاج على رأسه، وينصب بالري سريراً من ذهب للملك، ويتملك على ما في يديه مما قد ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان، فسير المقتدر هارون بن غريب في الحال نحو قزوین فكانت له معه حروب، فانكشف هارون وقتل من أصحابه خلق كثير، وذلك بباب قزوین، وقد كان أهل قزوین عاونوا أصحاب السلطان، فقتلوا منهم عدّة، فكانت لهم بعد هزيمة هارون بن غريب مع الديلم حروب، وسار إليهم أسفار بن شيرويه؛ فأتى على خَلْقٍ عظيم بها، وملك القلعة التي في وسط قزوین، وتدعى بالفارسية: كشوين وهو الحصن الذي كان للمدينة أولاً في نهاية المَنّة، مما كانت الفرس جعلته ثغراً بإزاء الديلم وشحنته بالرجال، لأن الديلم والجبل مذ كانوا. لم يتقادوا إلى ملة، ولا استحبوا شريعاً ثم جاء الإسلام، وفتح الله على المسلمين البلاد، فجعلت قزوین للديلم ثغراً هي وغيرها، مما أطاف ببلاد الديلم والجبل وقصدها المطوعة والغزاة؛ فرابطوا وغزوا ونفروا منها، إلى أن كان من أمر الحسن بن علي العلويّ الداعي الأطروش؛ وإسلام من ذكرنا من ملوك الجبل والديلم على يديه ما تقدم ذكره في صدر هذا الباب من خبره، والآن قد فسدت مذاهبهم وتغيرت آراؤهم وألحد أكثرهم، وقد كان قبل ذلك جماعة من ملوك الديلم يدخلون في الإسلام، وينصرون مَنْ ظهر ببلاد طبرستان من آل أبي طالب، مثل الحسن ومحمد ابني زيد الحسيني؛ وخَرَّب أسفار بن شيرويه قزوین لماكان من فعل أهلها ومعاونتهم أصحاب

السلطان على رجاله، وقلع أبوابها، وسبى، وأباح الفروج، وسمع المؤذن يؤذن على صومعة الجامع، فأمر أن ينكس منها على أم رأسه، وخرب المساجد، ومنع الصلوات، فاستغاث الناس في المساجد في أمصار المشرق، واستفحل أمره، وسار صاحب خراسان يريد الريّ لحرب أسفار بن شيرويه في عساكره وانفصل عن مدينة بخارى، وهي دار مملكة صاحب خراسان في هذا الوقت، وعبر نهر بلخ فنزل مدينة نيسابور، وسار أسفار بن شيرويه إلى الري، وجمع عساكره، وضم إليه رجاله من الأطراف، وعزم على محاربة صاحب خراسان فأشار عليه وزيره. وهو مطرف الجرجاني، وكان يخاطب بالرئيس أن يلاطف صاحب خراسان، ويراسله ويطمعه في المال وإقامة الدعوة؛ فإن الحرب تارات، وأوقاتها سجال، والإنفاق عليها من رأس المال، فإن جَنَحَ إلى ما دعوته [إليه] وراسلته به، وإلا فالحرب بين يديك، لأن من معك من الأتراك وأكثر فرسان خراسان إنما هم رجاله، وإنما قد تملكتم بالإحسان إليهم، ولا تدري لعله إذا قرب منك صاروا مع صاحبهم، فقبل قوله، وأمر بمكاتبته، فلما وردت الكتب على صاحب خراسان أبى أن يقبل شيئاً من ذلك، وعزم على المسير إليه، فأشار عليه وزيره أن يقبل منه ما بذل، وأن يرضى منه بما تحمل من الأموال وإقامة الدعوة، فإن الحرب عَثَرَتْهَا لا تُقَال، ولا يدري إلى ما تؤول، لأن الرجل قوي بالمال والرجال، فإن هزم لم يكن في ذلك كبير فتح، إذ كان رجلاً من رجالك انتدبته لحرب عدوك وضمنت إليه عساكرك وغلمانك، فخالف عليك، وإن كانت وعائد بالله عليك لم تستقل من ذلك، فشاور صاحب خراسان ذوي الرأي من قواده وأصحابه فيما قال وزيره فسددوا رأيه، وضوّبوا قوله، فجنح إلى قولهم، وما أشير عليه، فأجاب أسفار ابن شيرويه إلى ما سأل، وأعطاه ما طلب، من بعد شروط اشترطها عليه من حمل أموال وغير ذلك، فلما ورد الكتاب على أسفار بن شيرويه قال لوزيره: هذه أموال عظيمة قد اشترط علينا حملها، ولا سبيل إلى إخراجها من بيت المال، فالواجب أن نستفتح خراج هذه البلاد، فقال له وزيره: إن في استفتاح الخراج في غير وقته مضرة على أرباب الضياع، وخراب البلاد، وجلاء لكثير من أهل الضياع قبل إدراك غلاتهم، قال له أسفار: فما الوجه؟ قال الوزير: الخراج إنما يخص بعض الناس من أرباب الضياع خاصة، وههنا وجه يعم سائر الناس من أرباب الضياع وغيرهم من المسلمين، وسائر أهل الملل من أهل هذه البلاد وغيرهم من الغرباء، من غير ضرر عليهم ولا كثير مؤنة، بل إعطاء شيء يسير، وهو أن تجعل على كل رأس ديناراً، فيكون في ذلك ما اشترط علينا حمله من المال وزيادة عليه كثيرة، فأمره أسفار بذلك، فكتب أهل الأسواق والمحال من المسلمين وأهل الذمة حتى وصل في الإحصاء إلى مَنْ في الفنادق والخانات من الغرباء من التجار وغيرهم، وحشَرَ الناس إلى دار

الخراج بالري وسائر أعمالها، فطولبوا بهذه الجزية، فمن أدى كتب له براءة بالأداء مختومة على حسب ما تكتب براءة أهل الذمة عند أدائهم الجزية في سائر الأمصار، فأخبرني جماعة من أهل الري وغيرهم ممن طرأ عليهم من الغرباء من التجار وغيرهم - وأنا يومئذ بالأهواز وفارس - أنهم أدوا هذه الجزية وأخذوا هذه البراءة بأدائها، فاجتمع من ذلك أموال عظيمة حمل منها ما اشترط عليه، وكان الباقي من ذلك ألف ألف دينار ونيفاً، وقيل: أضعاف ما ذكرنا على حسب الخلائق الذين بالري وأعمالها، ورجع صاحب خراسان إلى بخارى، وعظم أمر أسفار على خلاف ما عهد، وبعث برجل من أصحابه كان صاحب جيش من الجبل يقال له مرداويج بن زيار إلى ملك من ملوك الديلم مما يلي قزوین، وهو صاحب الطرم من أرض الديلم، وهو ابن أسوار المعروف بسار الذي ولده في هذا الوقت صاحب أذربيجان وغيرها، ليأخذ عليه البيعة لأسفار بن شيرويه، والعهد والدخول في طاعته، فسار مرداويج إلى سار فتشاكياً ما نزل بالإسلام من أسفار بن شيرويه، وإخراجه البلاد، وقتله الرعية، وتركه العمارة والنظر في عواقب الأمور، فتحالفا وتعاقدا على التظاهر على أسفار والتعاون على حربه، وقد كان أسفار سار في عساكره إلى قزوین، وقرب من تخوم الديلم من أرض الطرم من مملكة ابن أسوار منتظراً لصاحبه مرداويج بن زيار وأنه إن لم يتقد ابن أسوار إلى طاعته ورجع إليه رسوله بما لا يحب وطىء بلاده، وسار هذا هو خال علي بن وهذان المعروف بابن حسان ملك آخر من ملوك الديلم، وهو الذي قتل بالري، قتله ابن أسوار هذا في خبر يطول ذكره، فلما هرب مرداويج من عساكر أسفار راسل قواده وكاتبهم في معاونته على الفتك بأسفار، وأعملهم مظاهرة سار عليه، وقد كان القواد وسائر أصحابه سثموا أيامه، وملأوا دولته، وكرهوا سيرته، فأجابوا مرداويج إلى ذلك، فلما دنا من الجيش استشعر أسفار بن شيرويه البلاء، وعلم توجه الحيلة عليه، وأن لا ناصر له من أصحابه ولا غيرهم لما تقدم من سوء سيرته، فهرب في نفر من غلمانه، فوافى مرداويج وقد فاته أسفار، فاستولى على الجيش وحاز الخزائن والأموال، وأحضر وزير أسفار المعروف بمطرف الجرجاني، فاستخرج منه الأموال، وأخذ البيعة على القواد والرجال، وفرق فيهم الأموال من الأرزاق والجوائز، وزاد في إنزالهم، وأحسن إليهم بما لم يكونوا يعرفونه من أسفار، ومضى أسفار إلى نحو مدينة السارية من بلاد طبرستان فلم يجد له ملجأ يقصده، وحار في أمره، فرجع يريد قلعة من قلاع الديلم منيعة تعرف بقلعة الموت، وكان فيها شيخ من شيوخ الديلم يعرف بأبي موسى مع عدّة من الرجال قبلة ذخائر أسفار بن شيرويه وكثير من خزائنه وأمواله، وكان مرداويج لما توجه له ذلك وملك الجيش والأموال خرج يتصيد على أميال من قزوین نحو الطريق الذي سلكه أسفار ليستعلم أمره، وأي البلاد سلك، وإلى أي القلاع لجأ، فمال

إلى القلعة فنظر إلى خيل يسيرة في بعض الأودية؛ فأسرع أصحابه نحوها [ليأخذوا خبرها] فوجدوا أسفار بن شيرويه في عِدَّة يسيرة من غلمانهِ يؤمُّ القلعة ليأخذ ماله فيها من الأموال ويجمع الرجال من الديلم والجبل ويعود إلى حرب مرداويج بن زيار فأتى عليه مرداويج. فلما وقعت عينه عليه نزل فذبحه من ساعته، وأقبل رجال الديلم والجبل نحو مرداويج؛ لما ظهر من بَذله وإحسانه إلى جنده، وتسامع الناس بإذّاره الأرزاق على جنده، فقصدوه من سائر الأمصار، فعظمت عساكره، وكثرت جيوشه، واشتد أمره، ولم يَسْغُه ما في يديه من الأمصار، ولا كفى رجاله ما فيها من الأموال، ففرق قواده إلى بلاد قم وكرخ ابن أبي دلف والبرج وهمذان وأبهر وزنجان، فكان ممن أنفذ إلى همذان ابن أخت له في جيش كثيف مع جماعة من قواده ورجاله، وكان بها جيش للسلطان مع أبي عبد الله محمد بن خلف الدينوري السرماني، ومعه خفيف غلام أبي الهيجاء عبد الله بن حَمْدَان في جماعة من قواد السلطان؛ فكانت لهم مع الديلم حروب متصلة ووقائع كثيرة، وعاون أهل همذان أصحاب السلطان، فقتل من رجال مرداويج خلق كثير من الديلم والجبل [نحو] أربعة آلاف، وقتل ابن أخت مرداويج صاحب الجيش والمعروف بأبي الكراديس بن علي بن عيسى الطلحي، وكان من وجوه قواد مرداويج، وولت الديلم نحو مرداويج أَوْحَشَ هزيمة، فلما أتاه الخبر وَضَجَّتْ أخته ورأى ما نزل بها من أمر ولدها سار عن الري في جيوشه حتى نزل مدين همذان على الباب المعروف بباب الأسد، وإنما سمي هذا الباب بباب الأسد لأن أسداً من حجارة كان على رِزْوَةٍ من الأرض على الطريق المؤدية إلى الريّ وَجَادَّة خراسان أعظم ما يكون من الأسد كالثور العظيم أو كالجبل المبارك كأنه أسد حي حتى يدنو الإنسان منه فيعلم أنه حجر قد صور أحسن صورة ومثل أقرب ما يكون من تمثيل الأسد، فكان أهل همذان يتوارثون أخبارهم عن أسلافهم مستفيضاً فيهم أن الإسكندر بن فيلبس بنى همذان حين انصرف من بلاد خراسان ورجوعه من مطافه من الهند والصين وغيرهما، وأن ذلك الأسد جعل طِلْسَماً للمدينة وسورها، وأن خراب البلد وفناء أهله وهدم سورها والقتل الذريع يكون عند كسر ذلك الأسد وَقْلَعه من موضعه، وأن ذلك من وجهة الديلم والجبل، وكان أهل همذان يمنعون من يجتاز بهم من العساكر والسابلة والمتولعة من أحداثهم أن يقلبوا ذلك الأسد أو يكسروا شيئاً منه، ولم يكن ينقلب لعظمه وصلابة حجره إلا بالخلق الكثير من الناس، وقد كان عسكر مرداويج الذي سيره مع ابن أخته [إلى همذان] نزلوا على هذا الباب وانبسطوا في تلك الصحراء قبل الوقعة بينهم وبين أصحاب السلطان، فقلب على ما ذكر هذا الأسد فكسر، فكان من أمر الواقعة ما ذكرنا، وذلك على طريق الولع من الديلم، فلما سار مرداويج ونزل على هذا الباب، ونظر إلى مصارع أصحابه، وقتل أهل همذان

لابن أخته واشتد غضبه لذلك، فكانت بينه وبين أهل همدان ثورة، ثم ولى القوم وقد أسلمهم قبل ذلك أصحاب السلطان، ورحلوا عنهم، فقتلوا في اليوم الأول في قول المقلل من الناس على ما ذكر لنا ممن أدركه الإحصاء ممن حمل السلاح في المعركة، نحواً من أربعين ألفاً، وأقام السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام والنار والسبي، ثم نادى برفع السيف في اليوم الثالث، وأمن بقيتهم، ونادى أن تخرج البلد ومستوروه إليه، فلما سمعوا النداء أمّلوا الفرج، فخرج من وثق بنفسه، من الشيوخ وأهل الستر، ومن لحق بهم، فخرجوا إلى المصلى، فدخل إليه صاحب عذابه، وكان يقال له: السقطي، فسأله عن أمره فيهم، فأمره أن يطوف بهم الديلم والجبل بحرابهم وخنابجرهم فيؤتى عليهم، فأطافت بهم الرجال من الديلم، فأتى على القوم جميعاً، وألحقوا بمن مضى منهم، وبعث منها بقائد من قواده، يعرف بابن علان القزويني وكان يقلب بخواجه، وذلك أن أهل خراسان إذا عظموا الشيخ فيهم سمّوه خواجه، في عسكر من عساكره إلى مدينة الدينور، ومن همدان إليها ثلاثة أيام، فدخلها بالسيف، وقتل من أهلها في اليوم الأول سبعة عشر ألفاً في قول المقلل، والمكثر يقول: خمسة وعشرين ألفاً، فخرج إليه في مستوري أهل الدينور وصوفيتها وزهادها رجل يقال له ابن مشاد ويده مصحف قد نشره فقال لابن علان المعروف بخواجه أيها الشيخ، اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين، فلا ذنب لهم ولا جناية يستحقون بها ما قد نزل بهم، فأمر بأخذ المصحف من يده، فضرب به وجهه، ثم أمر به فذبح، وسبى وأباح الأموال والدماء والفروج، وبلغت عساكر مرداويج وجنوده إلى الموضع المعروف بالشجرتين، وهو فرز بين بلاد الجبل وأعمال حلوان مما يلي العراق، وذلك بين بلاد طرر والمطامير ومرج القلعة، قتلا وسبياً، وغنم الأموال ثم ولت جيوشه راجعة وقد غنمت الأموال، وقتلت الرجال، وملكت الأولاد، وأخذوا الغلمان وتملكوهم، وسبوا من بلاد الدينور وقرماسين والزبيدية إلى حيث ما بلغوا مما وصفنا من البلاد مما أدركه الإحصاء من الجواري العواتق والغلمان في قول المقلل خمسين ألفاً، وفي قول المكثر مائة ألف، فلما تم لمرداويج ما وصفنا وحملت إليه الأموال والغنائم بعث بها إلى أصبهان بجماعة من قواده في قطعة من عساكره، فملكوها، وأقيمت لهم الأنزال والعلوفات، وعمرت لهم قصور أحمد بن [عبد العزيز بن] أبي دُلَف العَجَلِي، وهيئ له البساتين والرياض، وزرع له فيها أنواع الرياحين على حسب ما كان في آل عبد العزيز، فسار مرداويج إلى أصبهان، فنزلها وهو في نحو خمسين ألفاً، وقيل: أربعين، سوى ماله بالري وقم وهمدان، وسائر أعماله من العساكر، وقد كان أنفذ جماعة من قواده وعساكره مع أبي الحسن محمد بن وهبان الفضيلي، وهو الذي استأمن بعد ذلك إلى السلطان، ثم قصد بعد ذلك إلى محمد بن

رائق، وهو بالركة من بلاد ديار مضر، قبل دخول الشام ومحاربتة الإخشيد محمد بن طنج، فاحتال عليه رافع القرمطي، وكان من قواد ابن رائق، حتى فرق بينه وبين عسكره وغرقه في الفرات، وذلك نحو رحبة مالك بن طوق، وقد أتينا على خبره، وما كان من الحيلة في أمره، ومدة بقائه في الماء مقيداً إلى أن خرج، ثم قتل بعد ذلك، في الكتاب الأوسط في أخبار محمد رائق، وسار ابن وهبان فيمن معه من العساكر إلى صقع كور الأهواز، وذلك على طريق مناذر وتستر وأيذج، واحتوى على هذه البلاد وجبى أموالها، وحمل ذلك إلى مرداويج، فطعنى مرداويج وتكبر، وعظمت جيوشه وأمواله وعساكره، وضرب سريراً من الذهب، رُصّع له بالجواهر، وعملت له بدلة وتاج من الذهب، وجمع في ذلك أنواع الجواهر، وقد كان سأل عن تيجان الفرس وهياتها، فصورت له ومثلت فاختر منها تاج أنوشروان بن قباد.

وكان نمي إليه من كتابه ومن أطاف به من أتباعه، من دُعاة العالم وشياطينه، أن الكواكب ترمي بشعاعها إلى بلاد أصبهان، فيظهر أنها ديانة، وينصب بها سرير ملك، ويُجبي له كنوز الأرض، وأن الملك الذي يليها يكون مصفر الرجلين ويكون من صفته كيت وكيت، وأن مدة عمره في الملك كذا وكذا، ثم يتلوه من ولده من بعده في هذه المملكة أربعون ملكاً، وقربوا له الزمان في ذلك وحددوه وتقربوا إليه بأشياء من هذه المعاني مما مال إليه هواه واستدعاه منهم واستهواه وأظهر أنه المصفر الرجلين الذي يملك الأرض، وكان معه من الأتراك نحو أربعة آلاف ممالك له في خاصته، دون من في عسكره من الأتراك مع ما عنده من الأمراء والأتراك، وكان سيء الصحبة لهم، كثير القتل فيهم، فعملوا على قتله، وتحالفوا وقد كان على المسير إلى مدينة السلام، والقبض على الملك، وتولية أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق البلاد وغربها مما في يد ولد العباس، وغيرهم، فأقطع الدور ببغداد لأهله، ولم يشك أن الأمر في يده والملك له، فخرج ذات يوم إلى الصيد وهو فرح مسرور، وانصرف وهو كذلك لما قد تم له من الأمر وتأتى له من الملك، فدخل الحمام بعد رجوعه في قصر أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف العجلي بأصبهان، فدخل إليه غلام من وجوه الأتراك، وهو بجكم، وكان من خواص الغلمان، ومعه ثلاثة نفر من وجوه الأتراك أرى أحدهم توزون مدبر الدولة بعد بجكم، فقتلوه، فخرج بجكم ومن معه، وقد كان أعلم الأتراك بذلك فكانوا له متأهبين دون سائر من في العسكر، فركبوا من قورهم. وذلك في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في خلافة الرازي. وتفرق الجيش عند وقوع الضجة وانتهب بعض الناس بعضاً، وأخذت الخزائن وانتهب الأموال، ثم إن الجبل والديلم ثابوا واجتمعوا وتشاوروا، وقالوا: إن

بقينا على ما نحن عليه من التحزب بغير رئيس نقاد إليه هلكنا، فاجتمع أمرهم على مبايعة وشمكير أخى مرداويج، وتفسير وشمكير بالعربية الآخذ وتفسير مرداويج معلق الرجال، وقد يكتب مرداويج بالزاي فبايعوا وشمكير بعد أن تفرق كثير من الجيش، ففرق فيهم كثيراً مما بقي من الأموال، وأحسن إليهم، وتَوَجَّهَ فيمن معه من العساكر إلى الري فنزلها، وسار بجكم التركي فيمن معه من الأتراك وقد جمعوا أنفسهم إلى أن يخلصوا من الديلم، وسار إلى بلاد الديتور فجبى منها الخراج وأخذ كثيراً من الأموال، وسار إلى النهروان على أقل من يومين من مدينة السلام، فراسل الراضي، وكان الغالب على أمره الساجية وعدة من الغلمان الحجرية، فأبوا أن يتركوه يصل إلى الحضرة خوفاً أن يغلب على الدولة، فمضى بجكم لما منع من الحضرة إلى واسط إلى محمد بن رائق، وكان مقيماً بها، فأدناه، وحَيَّاه، وغلب عليه، وقوى أمر بجكم واصطنع الرجال، وضعف أمر ابن رائق عنه، فكان من أمره ما قد اشتهر، وقد قدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا: من اختفائه وخروج بجكم مع الراضي إلى الموصل ومعهم علي بن خلف بن طباب إلى ديار بني حَمْدَانَ من بلاد الموصل وديار ربيعة، وظهور محمد بن رائق ببغداد، ومعاونة الغوغاء له، ومسيره إلى دار السلطان وقته لابن بدر السيرافي، وخروجه عن الحضرة ومن تبعه من الجبل والقرامطة، مثل رافع وعمارة وغيرهما، وكانوا أنصاره، ومسيره إلى ديار مضر، ونزوله الرقة وما كان بينه وبين نميرة، ودخول يأنس المؤنسي في جملته، ومسيره إلى جند قنسرين والعواصم، وإخراجه طريفا السكري عنها وتوليته الثغر الشامي.

وقد أتينا في الكتاب الأوسط الذي كتبنا هذا تالٍ له، والأوسط تالٍ لكتابنا «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة» على ما كان منه، ومحاربته الإخشيد محمد بن طغج بالعريش من بلاد مصر، وانكشافه، ورجوعه إلى دمشق، وما كان من قتله لأخي الإخشيد محمد بن طغج باللجون من بلاد الأردن، وما كان قبل وقعة العريش بينه وبين عبد الله بن طغج، وما كان معه من القواد، وانكشافهم عنه، واستئمان من استأمن منهم إليه مثل محمد بن تكين الخاصة وتكين الخاقاني غلام خاقان المفلحي وغيرهما، وغير ذلك من أخباره وأخبار غيره، وذكرنا مقتل طريف السكري في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة على باب طرسوس، وما كان من وقته مع الثميلية، وهم غلمان ثميل الخادم، فأعني ذلك عن إعادته مبسوطاً في هذا الكتاب.

وإنما تغلغل بنا الكلام في التصنيف فيما ذكرنا من أخبار الديلم والجبل وما كان من أمر أسفار بن شيرويه ومرداويج عند ذكرنا لآل أبي طالب وأمر الداعي الحسن بن القاسم

الحسني صاحب طبرستان ومقتله، وخبر الأطروش الحسن بن علي الحسني.

قال المسعودي: وقد أتينا على ذكر سائر الأحداث والكوائن في أيام مَنْ ذكرنا من الخلفاء والملوك في كتابينا «أخبار الزمان» والأوسط، وذكرنا في هذا الكتاب ما يكفي به الناظر فيه، وانتهى بنا التصنيف فيه إلى هذا الوقت، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ونحن بفسطاط مصر، والغالب على أمر الدولة والحضرة أبو الحسن أحمد بن بُؤَيِّه الديلمي المسمَّى مُعِزُّ الدولة، وأخوه الحسن بن بُؤَيِّه صاحب بلاد أصبهان وكُورِ الأهواز وغيرها المسمى ركن الدولة، وأخوهما الأكبر، والرئيس فيهم المعظم عليُّ بن بُؤَيِّه الملقب بعميد الدولة المقيم بأرض فارس، والمدير منهم لأمر المطيع أحمدُ بن بُؤَيِّه مُعِزُّ الدولة، وهو المحارب للبريديين بأرض البصرة، والمطيع معه على حسب ما ينمو إلينا من أخبارهم، ودللنا في كتابنا هذا بالقليل على الكثير، وبالخبر اليسير على الجليل الخثير، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره في الآخر إلا ما لا يسع تركه، ولم يجد بداً من إيراده لما دعت الضرورة إلى وصفه، وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حَدَّث فيه من الأحداث، وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا، مع ما أسلفناه في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر، والعامر منهما والغامر، والملوك وسيرها، والأمم وأخبارها.

المؤلف يعد بتأليف كتاب في الأخبار

وأرجو أن يَفْسَحَ الله تعالى لنا في البقاء، ويمد لنا في العمر، ويسعدنا بطول الأيام؛ فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمه فنوناً من الأخبار، وأنواعاً من طرائف الآثار، على غير نَظْم من التأليف، ولا ترتيب من التصنيف، على حسب ما يَسْتَحُ من فوائد الأخبار، ويوجد من نواذر الآثار، ونترجمه بكتاب «وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار» تالياً لما سلف من كتبنا، ولا حقاً بما تقدم من تصنيفنا.

وجميع ما أوردناه في هذا الكتاب لا يَسَعُ ذوي الدراية جهله، ولا يُعَذِّرُ في تركه والتغافل عنه؛ فمن عَدَّ أبواب كتابي هذا ولم يمعن النظر في قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا، ولا عرف للعلم مقداره؛ فلقد جمعنا ما فيه في عِدَّة السنين باجتهاد وتعب عظيم، وجَوَّلان في الأسفار، وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام.

فمن قرأ كتابنا هذا فليتبدره بعين المحبة، وليتفضل بهمته بإصلاح ما أنكر منه مما غَيَّرَ الناسخ وصَحَّفَه الكاتب، وليرع لي نسبة العلم، وحرمة الأدب، وموجبات الرواية،

وما تجشمت من التعب فيها، فإن منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وجدَ جوهراً منشوراً ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنَّظَمَ منها سلكاً، واتخذ عقداً نفيساً، ثميناً باقياً لطلابه.

وليعلم من نظر فيه أنني لم أنتصر فيه لمذهب، ولا تحيزت إلى قول، ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم، ولم أعرض فيه لغير ذلك.

فلنذكر الآن الباب الثاني من جامع التاريخ على حسب ما قدمنا الوعد بإيراده في صدر هذا الكتاب [وبالله أستعين، وعليه أتوكل].

ذكر جامع التاريخ الثاني من الهجرة إلى هذا الوقت

تقدمة

وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة الذي فيه انتهينا من الفراغ من هذا الكتاب .

قد أفردنا فيما سلف من هذا الكتاب باباً في تاريخ العالم والأنبياء والملوك إلى مولد نبينا محمد ﷺ ومبعثه إلى هجرته، ثم ذكرنا هجرته إلى وفاته، وأيام الخلفاء والملوك إلى هذا الوقت، على حسب ما يوجه الحساب وما في كتب السير وأصحاب التواريخ ممن عني بأخبار الخلفاء والملوك، ولم نعرض فيما ذكرنا من ذلك لما في كتب الزيجات مما ذكره أصحاب النجوم، على حسب ما يوجه تاريخهم، فلنذكر في هذا الباب جميع ما أثبتوه في كتب زيجات النجوم من الهجرة إلى هذه الوقت المؤرخ، ليكون ذلك أكثر لفائدة الكتاب، وأجمع لمعرفة تباين أصحاب التواريخ من الأخباريين والمنجمين وما اتفقوا عليه من ذلك .

المبدأ ومقابله من تاريخ الإسكندر

فالذي وجدناه من ذلك في كتاب الزيجات أن الابتداء في يوم الجمعة مستهلّ المحرم سنة إحدى للثروية، وذلك يوم ستة عشر من تموز سنة تسعمائة وثلاثة وثلاثين لذي القرنين، وكانت هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة سنة إحدى بعد أن مضى منها شهران وثمانية أيام، فمكث بها حتى قبض ﷺ تسع سنين وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً؛ فذلك عشر سنتين وشهران .

زمن أبي بكر

أبو بكر الصديق رضي الله عنه : سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام، فذلك اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام .

زمن عمر

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عشر سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً ، فذلك اثنتان وعشرون سنة [وأحد عشر شهراً وخمسة وعشرون يوماً].
[وكانت الشورى بعد عمر ثلاثة أيام ، فذلك اثنتان وعشرون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية وعشرون يوماً].

عثمان

عثمان بن عفان رضي الله عنه : إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وتسعة عشر يوماً [فذلك أربع وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً].

علي

علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أربع سنين وسبعة أشهر ، فذلك تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً .
[وإلىبيعة معاوية بن أبي سفيان ستة أشهر وثلاثة أيام ، فذلك أربعون سنة وشهران وعشرون يوماً].

معاوية

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوماً ، فذلك تسع وخمسون سنة وستة أشهر وخمسة وعشرون يوماً .

يزيد بن معاوية

يزيد بن معاوية : ثلاث سنين وثمانية أشهر ، [فذلك ثلاث وستون سنة وشهران وخمسة عشر يوماً].

معاوية بن يزيد

معاوية بن يزيد بن معاوية : ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، [فذلك ثلاث وستون سنة وستة أشهر وسبعة أيام].

مروان

مروان بن الحكم: أربعة أشهر، [فذلك ثلاث وستون سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام].

عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير: ثمان سنين وخمسة أشهر، [فذلك اثنتان وسبعون سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام].

عبد الملك بن مروان

عبد الملك بن مروان حتى قتل ابن الزبير: سنة وشهرين وستة أيام، [فذلك ثلاث وسبعون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام].

ذكر أيام بني مروان بن الحكم

- عبد الملك بن مروان بن الحكم: اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام.
 الوليد بن عبد الملك: تسع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوماً.
 سليمان بن عبد الملك: ستين وسبعة أشهر وعشرين يوماً.
 عمر بن عبد العزيز بن مروان: ستين وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً.
 يزيد بن عبد الملك: أربع سنين ويوماً واحداً.
 هشام بن عبد الملك: تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، فذلك مائة سنة وأربعة وعشرون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام.
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك حتى قتل: سنة وشهرين وعشرين يوماً، فذلك مائة سنة وخمس وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرون يوماً، وكانت الفتنة بعد مقتله شهرين وخمسة وعشرين يوماً، فذلك مائة سنة وخمس وعشرون سنة وثمانية أشهر واثنان وعشرون يوماً.
 يزيد بن الوليد بن عبد الملك: شهرين وسبعة أيام، فذلك مائة وخمس وعشرون سنة وأحد عشر شهراً ويوماً واحداً.
 إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك حتى خلع: شهرين وأحد عشر يوماً، فذلك مائة سنة وست وعشرون سنة وشهر واثنان عشر يوماً.
 مروان بن محمد حتى قتل: خمس سنين وشهرين، فذلك مائة سنة وإحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر واثنان عشر يوماً.

ذكر الخلفاء من بني هاشم

أبو العباس عبد الله بن محمد : أربع سنين وثمانية أشهر ويومين ؛ فذلك مائة [سنة] وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً، وحتى انتهت البيعة إلى المنصور أربعة عشر يوماً ؛ فذلك مائة سنة وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية وعشرون يوماً.

أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور : إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثمانية أيام [فذلك مائة وسبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وستة أيام] وحتى انتهى الخبر إلى المهدي اثني عشر يوماً ؛ فذلك مائة وسبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً.

المهدي : عشر سنين وشهراً واحداً وخمسة أيام، فذلك مائة [سنة] وثمان وستون سنة وثلاثة عشر يوماً، وحتى انتهى الخبر إلى الهادي ثمانية أيام، فذلك مائة [سنة] وثمان وستون سنة وشهر واحد ويوم واحد.

الهادي : سنة واحدة وشهراً واحداً وخمسة عشر يوماً، فذلك مائة [سنة] وتسع وستون سنة وشهران وستة عشر يوماً.

الرشيد : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوماً، فذلك مائة واثنان وتسعون سنة وخمسة أشهر [وثلاثة أيام]، وحتى انتهى الخبر إلى الأمين ابنه اثنا عشر يوماً، فذلك مائة سنة واثنان وتسعون سنة وخمسة أشهر [وخمسة عشر يوماً].

الأمين حتى خلع وحبس : ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوماً، فذلك مائة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر [وعشرة أيام]، ومكث محبوساً يومين، فذلك مائة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر [واثنا عشر يوماً]، وأخرج وبويع له وحارب وحوصر حتى قتل سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

المأمون : عشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، فذلك مائتان وسبع عشرة سنة وستة أشهر وتسعة عشر يوماً.

المعتصم: ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين؛ فذلك مائتان وستة وعشرون سنة وشهران وتسعة عشر يوماً.

الواثق: خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام؛ فذلك مائتان وإحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة وعشرون يوماً.

المتوكل: أربعة عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة أيام؛ فذلك مائتان وست وأربعون سنة وتسعة أشهر ويوم واحد.

المنتصر: ستة أشهر، فذلك مائتان وسبع وأربعون سنة وثلاثة أشهر ويوم واحد، وإلى أن أُنْخَذَرَ المستعين إلى مدينة السلام ستين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، فذلك مائتان وخمسون سنة وأربعة أيام [وإلى أن بويع للمعتز بسامرا عشرة أيام، فذلك مائتان وخمسون سنة وأربعة عشر يوماً] وإلى أن خطب للمعتز بمدينة السلام أَدَّعَ عشر شهراً وعشرين يوماً، فذلك مائتان وإحدى وخمسون سنة وأربعة أيام، وإلى أن خلع المعتز ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، فذلك مائتان وأربع وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة وعشرون يوماً، وإلى بيعة المهدي يومين، فذلك مائتان وأربع وخمسون سنة وسبعة أشهر.

المهدي: أحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً، فذلك مائتان وخمس وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوماً.

المعتمد: ثلاثاً وعشرين سنة وثلاثة أيام، فذلك مائتان وثمان وسبعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً.

المعتضد: تسع سنين وتسعة أشهر ويومين، فذلك مائتان وثمان وثمانون سنة وثلاثة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

المكتفي: ست سنين وستة أشهر وعشرين يوماً، فذلك مائتان وأربع وتسعون سنة وعشرة أشهر واثنان عشر يوماً.

المقتدر حتى خلع: إحدى وعشرين سنة وشهرين وخمسة أيام، فذلك ثلاثمائة سنة وست عشرة سنة وتسعة عشر يوماً.

ابن المعتز حتى خلع: يومين، فذلك ثلاثمائة سنة وست عشرة سنة وأحد وعشرون يوماً.

المقتدر حتى قتل: ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام، فذلك ثلاثمائة وتسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

القاهر حتى خلع : سنة وستة أشهر وعشرة أيام، فذلك ثلاثمائة سنة وإحدى وعشرون سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام.

الراضي : ست سنين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام، فذلك ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً.

المتقي : ثلاث سنين وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً، فذلك ثلاثمائة واثنان وثلاثون سنة وشهر واحد وثلاثة أيام.

المستكفي : سنة وثلاثة أشهر، فذلك ثلاثمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام.

المطيع لله إلى غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة : ستين وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً، فذلك ثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة وأربعة أشهر إلا ثلاث ليال.

قال المسعودي : وسئو الهجرة قمرية، وبين هذا التاريخ وتاريخ أصحاب الأخبار والسير تفاوت من زيادات الشهور والأيام، ومُعَوَّلنا. فيما ذكرنا من التاريخ من الهجرة إلى هذا الوقت. على ما وجدنا في كتب الزيجات، إذ كان أهل هذه الصناعة يراعون هذه الأوقات، ويحصلون علمها على التحديد، والذي نقلناه من التاريخ فمن زيح أبي عبد الله محمد بن جابر البناني وغيره من الزيجات إلى هذا الوقت، فأما ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب. من الهجرة إلى هذا الوقت. فإننا نعيد ذكره مفصلاً في هذا الباب، لكي يقرب تناوله على الطالب له، ولا يبعد عما ذكرناه من الزيجات.

من مبعث الرسول

فالذي صح من تاريخ أصحاب السير والأخبار من أهل النقل والآثار، أنه بعث ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر عشرين، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة، ﷺ.

أبو بكر : ستين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

عمر بن الخطاب : عشر سنين وستة أشهر وأربع ليالٍ.

عثمان بن عفان : اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام.

علي بن أبي طالب : أربع سنين وتسعة أشهر وثمان ليالٍ.

الحسن بن علي : ستة أشهر وعشرة أيام.

معاوية بن أبي سفيان : تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

- يزيد بن معاوية: ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليالٍ .
- معاوية بن يزيد: شهراً واحداً وأحد عشر يوماً .
- مروان بن الحكم: ثمانية أشهر وخمسة أيام .
- عبد الملك بن مروان: إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً .
- الوليد بن عبد الملك: تسع سنين وثمانية أشهر ويومين .
- سليمان بن عبد الملك: ستين وثمانية أشهر وخمسة أيام .
- عمر بن عبد العزيز: ستين وخمسة أشهر وخمسة أيام .
- يزيد بن عبد الملك: أربع سنين وشهراً ويومين .
- هشام بن عبد الملك: تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة .
- الوليد بن يزيد: سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً .
- يزيد بن الوليد: خمسة أشهر وليلتين .
- مروان بن محمد: خمس سنين وعشرة أيام .
- عبد الله بن محمد السفاح: أربع سنين وتسعة أشهر .
- المنصور: اثنتين وعشرين سنة إلا تسع ليالٍ .
- المهدي: عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً .
- الهادي: سنة وثلاثة أشهر .
- الرشيدي: ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر .
- الأمين: أربع سنين وستة أشهر .
- المأمون: إحدى وعشرين سنة سَوَاء .
- المعتصم: ثمان سنين وثمانية أشهر .
- الواثق: خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً .
- المتوكل: أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسع ليالٍ .
- المتنصر: ستة أشهر .
- المستعين: ثلاث سنين وثمانية أشهر .
- المعز: أربع سنين وستة أشهر .
- المهتدي: أحد عشر شهراً .

المعتمد: ثلاثاً وعشرين سنة.

المعتضد: تسع سنين وتسعة أشهر ويومين.

المكتفي: ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

المقتدر: أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً.

القاهر: سنة وستة أشهر وستة أيام.

الراضي: ست سنين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام.

المقتي: ثلاث سنين وأحد عشر شهراً وثلاثاً وعشرين يوماً.

المستكفي: سنة وثلاثة أشهر.

المطيع: إلى غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة: سنة وثمانية أشهر

وخمسة عشر يوماً.

ونحن نؤمل من الله تعالى البقاء والزيادة في العمر، لنزيد في هذا الكتاب ما يحدث

في أيامهم، وما يكون في المستقبل من دولتهم.

فهذا جمل التاريخ من الهجرة إلى هذا الوقت، وهو جمادى الأولى سنة ست

وثلاثين وثلاثمائة، وقد أوردنا في الكتاب ما ذكر الفريقان جميعاً، لكي لا يبعد فهم ذلك

على مريده والطالب له، إن شاء الله تعالى.

مبدأ الأخذ بتاريخ الهجرة

والتاريخ من المولد إلى هذا الوقت معلوم، ومن المبعث إلى الوفاة معروف غير

مجهول، ولا يتعدّر تناوله على ذي الدراية من هذا الكتاب، إلا أن مُعَوَّل الناس أن بدء

التاريخ من الهجرة، على حسب ما بينا فيما سلف من كتبنا من مشاورة عمر الناس في

التاريخ عند حدوث أمورٍ وجب تدوينها، وما قاله الناس من كل فريق منهم، وأخذه بقول

علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يؤرخ بهجرة النبي ﷺ، وتركه أرض الشرك، وأن

ذلك كان من عمر رضي الله عنه في سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة، على حسب التنازع

في ذلك، والله أعلم.

ذكر تسمية من حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

أول من حج بالناس نيابة عن الرسول

قال المسعودي: فتح رسول الله ﷺ مكة في شهر رمضان، سنة ثمان من الهجرة، ورجع إلى المدينة، واستعمل عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية على مكة، فحج بالناس سنة ثمان، وقيل: بل حج الناس أوزاعاً ليس عليهم أحد.

ثم حج أبو بكر

ثم كانت سنة تسع، فحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حين خرج من المدينة مع ثلاثمائة، وبعث رسول الله ﷺ معه عشرين بدنةً، ثم أرسل على أثره علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأدركه بالعُزج ومعه سورة براءة، فأذن بها يوم النحر عند العقبة، فأقام أبو بكر الحج، وخطب أبو بكر بمكة قبل التزوية بيوم، ويوم عرفة بعرفة، ويوم النحر بمنى.

حجة الوداع

ثم كانت سنة عشر، فحج بالناس سيد المرسلين، رسول الله ﷺ [وفي هذه السنة توفي].

أيام الخلفاء الراشدين

ثم كانت سنة إحدى عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
ثم كانت سنة اثنتي عشرة، فحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
ثم كانت سنة ثلاث عشرة، فحج بالناس عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.
ثم كانت سنة أربع عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
ثم كانت سنة خمس عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم كانت ست عشرة

فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم كانت سنة سبع عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب، [ثم كانت سنة ثمان عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة تسع عشرة، فحج بالناس عمر بن الخطاب]، ثم كانت سنة عشرين، فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم كانت سنة إحدى وعشرين، فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم كانت سنة اثنتين وعشرين، فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم كانت سنة ثلاث وعشرين، فحج بالناس عمر بن الخطاب، ثم قتل رضي الله عنه آخر ذي الحجة.

ثم كانت سنة أربع وعشرين فحج بالناس عبد الرحمن بن عوف.

ثم كانت سنة خمس وعشرين، فحج بالناس عثمان بن عفان، إلى ستة أربع وثلاثين.

ثم كانت سنة خمس وثلاثين، فحج بالناس عبد الله بن عباس بأمر عثمان، وهو محصور.

ثم كانت سنة ست وثلاثين، فحج بالناس عبد الله بن عباس.

ثم كانت سنة سبع وثلاثين، بعث علي بن أبي طالب على الموسم عبد الله بن العباس، وبعث معاوية بن أبي سفيان يزيد بن شجرة الرهاوي، فاجتمعاً بمكة، وتنازعا الإمارة ولم يُسَلِّم أحدهما لصاحبه، فاصطلحا على أن يصلي بالناس شيبة بن عثمان [بن أبي طلحة بن عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار حاجب البيت] الجمحي، ففعل ذلك.

ثم كانت سنة ثمان وثلاثين فحج بالناس قُثم بن عباس نائب مكة.

ثم كانت سنة تسع وثلاثين فحج بالناس شيبة بن عثمان.

ثم كانت سنة أربعين والتنازع بين معاوية والحسن بن علي في الخلافة، فحج بالناس المغيرة بن شعبة عن كتاب، يقال: إنه افتعله عن معاوية.

في زمن بني أمية

ثم كانت [سنة] إحدى وأربعين فحج بالناس عُبَيْدُ بن أبي سفيان، ثم كانت سنة اثنتين وأربعين، فحج بالناس عُبَيْدُ بن أبي سفيان، ثم كانت سنة ثلاث وأربعين فحج بالناس مروان بن الحكم، ثم كانت سنة أربع وأربعين حج معاوية بن أبي سفيان، ثم كانت سنة خمس وأربعين حج بالناس مروان بن الحكم، ثم كانت سنة ست وأربعين حج بالناس عتبة بن أبي سفيان، ثم كانت سنة سبع وأربعين حج بالناس عتبة بن أبي

سفيان ثم كانت سنة ثمان وأربعين حج بالناس مروان بن الحكم، ثم كانت سنة تسع وأربعين حج بالناس سعيد بن العاص، ثم كانت سنة خمسين حج بالناس يزيد بن معاوية، ثم كانت سنة إحدى وخمسين فحج بالناس معاوية بن أبي سفيان، ثم كانت سنة اثنتين وخمسين، حج بالناس سعيد بن العاص عامين، ثم كانت سنة أربع وخمسين، حج بالناس مروان بن الحكم، ثم كانت [سنة] خمس وخمسين، حج بالناس مروان بن الحكم، ثم كانت سنة ست وخمسين فحج بالناس عتبة بن أبي سفيان، ثم كانت سبع وخمسين حج بالناس الوليد بن عتبة عامين، ثم كانت سنة تسع وخمسين، حج بالناس عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ثم كانت سنة ستين حج بالناس عمرو بن سعيد بن العاص، ثم كانت سنة إحدى وستين، حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم كانت سنة اثنتين وستين، حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم كانت سنة ثلاث وستين، حج بالناس عبد الله بن الزبير، إلى سنة إحدى وسبعين، ثم كانت سنة اثنتين وسبعين فحج بالناس الحجاج بن يوسف فأتوا منى ولم يطوفوا بالبيت العتيق، ثم كانت سنة ثلاث وسبعين فحج بالناس الحجاج أيضاً، وقتل عبد الله بن الزبير، ثم كانت سنة أربع وسبعين فحج بالناس الحجاج بن يوسف، ثم كانت سنة خمس وسبعين حج بالناس عبد الملك بن مروان، ثم كانت سنة ست وسبعين حج بالناس إلى سنة ثمانين أبان بن عثمان بن عفان، ثم كانت سنة إحدى وثمانين حج بالناس سليمان بن عبد الملك بن مروان، ثم كانت سنة اثنتين وثمانين حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان، ثم كانت سنة ثلاث وثمانين حج بالناس إلى سنة خمس وثمانين هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، ثم كانت سنة ست وثمانين حج بالناس العباس بن الوليد بن عبد الملك، ثم كانت سنة سبع وثمانين حج بالناس عمر بن عبد العزيز بن مروان، ثم كانت سنة ثمان وثمانين حج بالناس الوليد بن عبد الملك، ثم كانت سنة تسع وثمانين حج بالناس عمر بن عبد العزيز، ثم كانت سنة تسعين حج بالناس عمر بن عبد العزيز، ثم كانت سنة إحدى وتسعين حج بالناس الوليد بن عبد الملك، ثم كانت سنة اثنتين وتسعين حج بالناس عمر بن عبد العزيز، ثم كانت سنة ثلاث وتسعين حج بالناس عثمان بن الوليد بن عبد الملك [وقيل: بل عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك]، ثم كانت سنة أربع وتسعين حج بالناس مسلمة بن عبد الملك، ثم كانت سنة خمس وتسعين حج بالناس [بشر بن] الوليد بن عبد الملك، ثم كانت سنة ست وتسعين حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، ثم كانت سنة سبع وتسعين حج بالناس سليمان بن عبد الملك، ثم كانت سنة ثمان وتسعين حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ثم كانت سنة تسع وتسعين حج

بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حَزْم، ثم كانت سنة مائة حج بالناس أبو بكر أيضاً، ثم كانت سنة إحدى ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة، ثم كانت سنة اثنتين ومائة حج بالناس عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، ثم كانت سنة ثلاث ومائة حج بالناس عبد الله بن كعب بن عمير بن سبيع بن عوف بن نصر بن معاوية النَّصْرِيُّ، ثم كانت سنة أربع ومائة حج فيها أيضاً، ثم كانت سنة خمس ومائة حج بالناس إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، ثم كانت سنة ست ومائة حج بالناس هشام بن عبد الملك، ثم كانت سنة سبع ومائة حج بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي، إلى سنة اثنتي عشرة ومائة. ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائة حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك. ثم كانت سنة أربع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن العاص بن أمية، ثم كانت سنة خمس عشرة ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة، ثم كانت سنة ست عشرة ومائة حج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو ولي عهد، ثم كانت سنة سبع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، وقيل: مَسْلَمَة بن عبد الملك، ثم كانت سنة ثمان عشرة ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل، ثم كانت سنة تسع عشرة ومائة حج بالناس مَسْلَمَة بن هشام بن عبد الملك أبو شاكِر، وقيل: بل مسلمة بن عبد الملك، ثم كانت سنة عشرين ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل، ثم كانت سنة إحدى وعشرين ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل، إلى سنة أربع وعشرين ومائة، ثم كانت سنة خمسة وعشرين ومائة حج بالناس يوسف ابن أخي الحجاج بن يوسف، ثم كانت سنة ست وعشرين ومائة حج بالناس عمر بن عبد الله بن عبد الملك، ثم كانت سنة سبع وعشرين ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، ثم كانت سنة ثمان وعشرين ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة حج بالناس عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان أبو حمزة المختار بن عوف الخارجي من الأزد داعية المعروف بطالب الحق قد وقف وخرج تلك السنة، فكلّمه الناس حتى نزل عبد الواحد يصلي بالناس ويخرج إلى منزله، ثم كانت سنة ثلاثين ومائة حج بالناس محمد بن عبد الملك بن مروان، ثم كانت سنة إحدى وثلاثين ومائة حج بالناس [الوليد بن] عروة بن محمد بن عطية السعدي بكتاب افتعله على لسان عمه عبد الملك بن محمد وهو والي الحجاز واليمن لمروان بن محمد.

في عهد بني العباس

قال المسعودي: فهذا آخر ما حج بنو أمية، ثم كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة فحج بالناس داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن [عبد] المطلب، ثم كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائة حج بالناس زياد بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدَّان الحارثي، ثم كانت سنة أربع وثلاثين ومائة حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم كانت سنة خمس وثلاثين ومائة حج بالناس سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم كانت سنة ست وثلاثين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور، وفيها بويج لأبي جعفر المنصور، ثم كانت سنة سبع وثلاثين ومائة حج بالناس إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس، ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ومائة حج بالناس الفضل بن صالح بن علي، ثم كانت سنة تسع وثلاثين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة أربعين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور، ثم كانت سنة إحدى وأربعين ومائة حج بالناس صالح بن علي، ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ومائة حج بالناس إسماعيل بن علي، ثم كانت سنة ثلاث وأربعين ومائة حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة أربع وأربعين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور ثم كانت سنة خمس وأربعين ومائة فحج بالناس السَّرِيُّ بن عبد الله بن الحارث [بن العباس بن عبد المطلب]، ثم كانت سنة ست وأربعين ومائة حج بالناس عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ثم كانت سنة سبع وأربعين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور [ثم كانت سنة ثمان وأربعين ومائة فحج بالناس جعفر بن أبي جعفر المنصور] وقيل: محمد بن إبراهيم الإمام، وقيل: بل المنصور، ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائة حج بالناس عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، ثم كانت سنة خمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن علي، ثم كانت سنة إحدى وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور، ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائة حج بالناس المهدي محمد بن عبد الله [المنصور] بن محمد بن علي، ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، ثم كانت سنة خمس وخمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن علي، ثم كانت سنة ست وخمسين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائة حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حج بالناس إبراهيم بن يحيى أيضاً،

ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائة حج بالناس يزيد بن منصور بن عبد الله بن شهير ابن يزيد بن مثوب الحميري، ثم كانت سنة ستين ومائة حج بالناس [المهدي محمد بن المنصور، ثم كانت سنة إحدى وستين ومائة فحج بالناس] الهادي موسى بن المهدي، وهو ولي عهد، ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائة حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر، ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائة حج بالناس علي بن [محمد بن] ^(١) المهدي، ثم كانت سنة أربع وستين ومائة حج بالناس صالح بن أبي جعفر، ثم كانت سنة خمس وستين ومائة حج بالناس صالح أيضاً، ثم كانت سنة ست وستين ومائة حج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، ثم كانت سنة سبع وستين ومائة حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة ثمان وستين ومائة حج بالناس علي بن محمد المهدي، ثم كانت سنة تسع وستين ومائة حج بالناس سليمان بن أبي جعفر المنصور، ثم كانت سنة سبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد، ثم كانت سنة إحدى وسبعين ومائة حج بالناس [يعقوب بن المنصور، ثم كانت سنة اثنتين وسبعين ومائة فحج بالناس] عبد الصمد بن علي، ثم كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد: خرج محرماً من عسكره إلى مكة، ثم كانت سنة أربع وسبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد إلى سنة تسع وسبعين ومائة، ثم كانت سنة ثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة إحدى وثمانين ومائة حج بالناس هارون الرشيد، ثم كانت سنة اثنتين وثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى، ثم كانت سنة ثلاث وثمانين ومائة، حج بالناس العباس بن موسى المهدي، ثم كانت سنة أربع وثمانين ومائة حج بالناس إبراهيم بن المهدي، ثم كانت سنة خمس وثمانين ومائة حج بالناس المنصور بن المهدي، ثم كانت سنة ست وثمانين ومائة حج بالناس هارون الرشيد، ثم كانت سنة سبع وثمانين ومائة حج بالناس عبد الله بن العباس بن محمد بن علي، وقيل: منصور بن المهدي، ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائة حج بالناس هارون الرشيد، ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائة حج بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة تسعين ومائة حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد، ثم كانت سنة إحدى وتسعين ومائة حج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، ثم كانت سنة اثنتين وتسعين حج بالناس العباس بن عبد الله أيضاً، ثم كانت سنة ثلاث وتسعين ومائة حج بالناس داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة أربع وتسعين ومائة حج بالناس علي بن الرشيد، ثم كانت سنة خمس وتسعين ومائة حج بالناس داود بن عيسى بن موسى، ثم كانت سنة ست وتسعين ومائة حج بالناس العباس بن موسى، إلى ثمان وتسعين، ثم كانت سنة تسع وتسعين ومائة حج

بالناس محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ووثب ابن الأقطس العلوي بمكة فقبض عليها ففتحى محمد بن داود، وخرج الناس، فوقفوا بغير إمام، فلما كانوا بالمزدلفة طلع عليهم [ابن] الأقطس فأقام لهم باقي حجتهم، ثم كانت سنة مائتين حج بالناس أبو إسحاق المعتصم، ثم كانت سنة إحدى ومائتين حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي، ثم كانت سنة اثنتين ومائتين حج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام، على أنه أقامه متغلباً عليه، لا مؤلفاً من قبل خليفة، وكان ممن سعى في الأرض بالفساد، وقتل أصحاب إبراهيم بن عبيد الله الحنظلي وغيره في المسجد الحرام، ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي وغيره من أهل العبادة، ثم كانت سنة ثلاث ومائتين حج بالناس عبد الله بن جعفر بن سليمان بن علي، ثم كانت سنة أربع ومائتين حج بالناس عبيد الله بن الحسن بن عبد الله، [بن العباس بن علي بن أبي طالب، من قبل المأمون، وهو واليه على الحرمين]، ثم كانت سنة خمس ومائتين حج بالناس عبيد الله بن الحسن أيضاً، ثم كانت سنة ست وسبع ومائتين حج بالناس أبو عيسى بن الرشيد، ثم كانت سنة ثمان ومائتين حج بالناس صالح بن الرشيد، ومعه زبيدة، إلى سنة عشر ومائتين، ثم كانت سنة إحدى عشرة ومائتين حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة اثني عشرة ومائتين حج بالناس المأمون، ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائتين حج بالناس أحمد بن العباس، ثم كانت سنة أربع عشرة ومائتين حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة خمس عشرة ومائتين حج بالناس عبد الله بن عبيد الله أيضاً، ثم كانت سنة ست عشرة ومائتين حج بالناس عبد الله بن عبيد الله أيضاً، ثم كانت سنة سبع عشرة ومائتين حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي، ثم كانت سنة ثمان عشرة ومائتين حج بالناس سليمان أيضاً، ثم كانت سنة تسع عشرة ومائتين حج بالناس صالح بن العباس بن محمد، ثم كانت سنة عشرين ومائتين حج بالناس صالح بن العباس أيضاً، ثم كانت سنة إحدى وعشرين ومائتين حج بالناس أيضاً صالح بن العباس بن محمد، ثم كانت سنة اثنتين وعشرين ومائتين حج بالناس محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ثم كذلك إلى سنة ست وعشرين ومائتين، ثم كانت سنة سبع وعشرين ومائتين حج بالناس جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ثم كانت سنة ثمان وعشرين ومائتين حج بالناس إلى سنة خمس وثلاثين ومائتين محمد بن داود بن عيسى، ثم كانت سنة ست وثلاثين ومائتين حج بالناس محمد المتوكل [بن المتوكل]، ومعه جدته شجاع، ثم كانت سنة

سبع وثلاثين ومائتين حج بالناس علي بن موسى بن جعفر بن المنصور، ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ومائتين إلى سنة إحدى وأربعين ومائتين حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ومائتين حج بالناس إلى سنة أربع وأربعين ومائتين عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم كانت سنة خمس وأربعين ومائتين حج بالناس إلى سنة ثمان وأربعين ومائتين محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام، ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائتين حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله، ثم كانت سنة خمسين ومائتين حج بالناس جعفر بن الفضل بن موسى بن عيسى بن موسى، ويلقب بشاشات، ثم كانت سنة إحدى وخمسين ومائتين، فوقف بالناس إسماعيل بن يوسف العلويّ المقدم ذكره فيما مضى من هذا الكتاب، وبَطَلَ الحج إلا يسيراً؟ لأن إسماعيل هذا طلع على الحاج وهم بعرفة في جموعه، فقتل من المسلمين خلقاً عظيماً حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى، وكان شأنه في الفساد عظيماً، ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائتين حج بالناس كعب البقر محمد [بن أحمد] بن عيسى بن جعفر بن المنصور، ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين حج بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان [بن عبد الله] ^(١) الرسيّ، ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائتين حج بالناس علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة خمس وخمسين ومائتين حج بالناس علي بن الحسن أيضاً، ثم كانت سنة ست وخمسين ومائتين حج بالناس كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور، ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائتين حج بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين حج بالناس الفضل بن العباس أيضاً، ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائتين حج بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن بزية، ثم كانت سنة ستين ومائتين حج بالناس ابن بزية أيضاً، ثم كانت سنة إحدى وستين حج بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي، ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائتين حج بالناس الفضل بن العباس أيضاً، ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائتين حج بالناس الفضل بن العباس أيضاً، ثم كانت سنة أربع وستين ومائتين حج بالناس إلى سنة ثمان وسبعين ومائتين خمس عشرة حجة متوالية هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم كانت سنة تسع وسبعين ومائتين حج بالناس إلى سنة سبع وثمانين ومائتين

تسع حجج متوالية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى، ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائتين حج بالناس محمد بن هارون بن العباس بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائتين حج بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد بن علي، ولم يزل يحج بالناس كل سنة إلى سنة خمس وثلاثمائة، ثم كانت سنة ست وثلاثمائة حج بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام، وهو المعروف بأخي أم موسى الهاشمية قهرمانة شغب أم المقتدر بالله، ثم كانت سنة سبع وثلاثمائة حج بالناس أحمد بن العباس أيضاً، ثم كانت سنة ثمان وثلاثمائة حج بالناس إلى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة إسحاق بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد، ثم كانت سنة اثني عشرة وثلاثمائة حج بالناس الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ثم كانت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة حج بالناس أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد خليفة لعمه الحسن، وكذلك سنة أربع عشر وثلاثمائة، ثم كانت سنة خمس عشرة وثلاثمائة حج بالناس عبد الله بن سليمان بن محمد الأكبر عبد الله بن عبيد الله بن محمد المعروف بأبي أحمد الأزرق خليفة للحسن بن عبد العزيز العباسي، ثم كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة حج بالناس أبو أحمد الأزرق أيضاً، ثم كانت سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فدخل سليمان بن الحسن صاحب البحرين مكة، وقد حضر عمر بن الحسن بن عبد العزيز المقدم نسب أبيه لإقامة الحج خليفة لأبيه، فكان من أمر الناس ما كان فيما قَدَّمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب، ولم يتم حج في موسم سنة سبع عشرة وثلاثمائة هذه من أجل حادثة القَرَامِطَةِ لعنهم الله إلا لقوم يسير غزواً، وأقيم حجهم دون إمام، وكانوا رَجَّالَةً، ثم كانت سنة ثمان عشرة وثلاثمائة فحج بالناس عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي خليفة لأبيه الحسن بن عبد العزيز، ثم كانت سنة تسع عشرة وثلاثمائة حج بالناس فيها جعفر بن علي بن سليمان خليفة للحسن بن عبد العزيز، ثم كانت سنة عشرين وثلاثمائة حج بالناس فيها عمر بن الحسن بن عبد العزيز خليفة لأبيه أيضاً، ولم يزل يحج بالناس إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وهو على قضاء مكة في هذا الوقت، وهو جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وإليه قضاء مصر وغيرها.

المؤلف يختم كتابه بذكر صنيعه

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي رحمه الله: قد ذكرنا فيما

سلف من هذا الكتاب أنواعاً من الأخبار، وفنوناً من العلم من أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملوك وسيرها، والأمم وأخبارها، وأخبار الأرض والبحار، وما فيها من العجائب والآثار، وما اتصل بذلك، ليستدل به على ما سلف من كتبنا، ومدخلاً إلى ما تقدم من تصنيفنا في أنواع العلوم مما قدّمنا ذكره، ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فنّاً من الأخبار، ولا طريفاً من الآثار، إلا أوردناه في هذا الكتاب مُفَصَّلاً، أو ذكرناه مجملاً، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات، أو لَوَحْنَا إِلَيْهِ بِفَحْوَى من العبارات، من أخبار العجم والعرب والكوائن والأحداث في سائر الأمم، فمن حَرَّفَ شيئاً من معنى هذا الكتاب، أو أزال ركناً من مَبْنَاهُ، أو طَمَسَ واضحة من معانيه، أو لَبَسَ شاهرة من تراجمه، أو غَيَّرَهُ، أو بَدَّلَهُ، أو انتحلّه، أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافه إلى سوانا، أو أسقط منه ذكرنا، فوفاه من غضب الله وسرعة نقمته وفَوَادِحِ بلاياه ما يعجز عنه صَبْرُهُ، وَيَحَارُ لَهُ فكره، وجعله الله مُثَلَّةً للعالمين، وعبرة للمعتبرين، وآية للمتوسمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة مُبْدِعِ السموات والأرض، من أيّ الملل كان أو الآراء، إنه على كل شيء قدير.

تخويف المؤلف لمن يغير في كتابه

وقد جعلنا هذا التخويف في أول كتابنا هذا وآخره، وكذلك نقول في سائر ما تقدم من تصنيفنا، ونظمناه من تأليفنا، فليراقب امرؤ ربه، وليحاذر منقلبه؛ فالمدة يسيرة، والمسافة قصيرة، وإلى الله المصير.

معذرة المؤلف

وقد قدّمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سَهْوٍ إِنْ عَرَضَ، أو تصحيف أو تغيير من الكاتب إِنْ وَقَعَ، ولما قد دُفِعْنَا إِلَيْهِ، من الأسفار المتواترة، والحركة المتصلة: تارة مُشْرِقِينَ، وتارة مغربين، وطوراً متيامنين، وطوراً متشائمين، وما يلحقنا من سهو الإنسانية، ويصحبنا من عجز البشرية، عن بلوغ الغاية، وتَقْصِيِ النهاية، ولو كان لا يؤلف كتاباً إلا مَنْ حَوَى جميع العلوم إذا ما أَلَفَ أحد كتاباً، ولا تأتي له تصنيف؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَقَوْفَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] جعلنا الله ممن يُؤَثِّرُ طاعته، وَيُوقِفُ لِرَشْدِهِ، ونسأله أن يمحو بخير شراً، ويجد هزلاً، ثم يعود علينا بعد ذلك بعفوه، ويتغمدنا بفضله، إنه جَوَادٌ مَثَانٌ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم [وصلّى الله على سيد الأنام محمد وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً].

قال أبو أحمد، وهو محمد محيي الدين: قد انتهيتُ بحمد الله تعالى من مراجعة

أصول هذا الكتاب، وترقيمه، وضبط غريبه، والتعليق عليه. وقد بالغت في تجويده وتيسيره. بحسب طاقتي، وما وسعه جهدي ومعرفتي. فإن كنت قد بلغت الغاية التي يرجوها المحقق فذلك توفيق الله وهدايته، وإن تكن الأخرى فبحسبي أنني اجتهدت، وإني لأثني هنا على عمال مطبعة السعادة، وعلى رأسهم الشاب النابه علي أفندي بن محمد إسماعيل مديرها، الذين أسهموا في تجويد هذا الكتاب واحتملوا في سبيله من الجهد والمصاعب ما يستحقون عليه جزيل الشكر.

والله تعالى المسؤول أن يجعل أحسن أعمالنا خواتمها، وأن يحشرنا وآباءنا وذريتنا وإخواننا في الله يوم القيامة مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً آمين.

الفهرس

- ٥..... ذكر خلافة المأمون
- ٥..... موجز
- ٦..... ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ٦..... المأمون والفضل بن سهل
- ٦..... عمرو بن مسعدة
- ٦..... علي بن موسى الرضا
- ٦..... المأمون وعمه إبراهيم
- ٧..... المأمون وأبو دلف
- ٨..... من كلمات المأمون
- ٩..... بين ثمانية ويحيى بن أكنم عند المأمون
- ٩..... وفد الكوفة والمأمون
- ٩..... المأمون والزنادقة ومعهم طفيلي
- ١١..... إبراهيم بن المهدي يتطفل
- ١٣..... إسحاق الموصلي وكلثوم العتابي عند المأمون
- ١٤..... العتابي
- ١٥..... بين كاتب ونديم
- ١٥..... رجل يرفع قصة للمأمون
- ١٥..... المأمون وأبو العتاهية
- ١٦..... المأمون ورجل عامي
- ١٦..... عي المأمون عن جواب ثلاثة
- ١٧..... مناظرة المأمون للفقهاء
- ١٩..... يحيى بن أكنم قاضي البصرة
- ٢٠..... وفاة الإمام الشافعي
- ٢١..... وفاة أبي داود الطيالسي وابن الكلبي
- ٢١..... المأمون ورجل يدعي النبوة
- ٢٢..... المأمون ورجل يدعي أنه إبراهيم الخليل

- ٢٢ خروج أبي السرايا وابن طباطبا وقوم من العلويين
- ٢٣ ظهور ابن الأفتس
- ٢٣ الظفر بأبي السرايا
- ٢٤ المأمون وعلي بن موسى الرضا
- ٢٤ مقتل الفضل بن سهل
- ٢٤ موت علي بن موسى الرضا
- ٢٥ إبراهيم بن المهدي يخرج على المأمون
- ٢٥ خروج بابك الخرمي
- ٢٥ الظفر بإبراهيم
- ٢٦ زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل
- ٢٦ أهل المأمون يحملونه على قتل إبراهيم بن المهدي
- ٢٧ من أخبار إبراهيم بن المهدي
- ٢٨ يزيد بن هارون
- ٢٨ موت جماعة من أهل العلم
- ٢٨ قصة وفاء وإيثار
- ٢٩ بين أزهر وأبي جعفر المنصور
- ٣٠ مقتل ابن عائشة
- ٣١ موت أبي عبيدة معمر بن المثنى
- ٣١ موت أبي العتاهية وشيء من أخباره
- ٣٣ الزيادة في العروض على الخليل
- ٣٤ أبو العباس الناشئ
- ٣٤ نداء المأمون في أمر معاوية وسبيه
- ٣٥ وفاة أبي عاصم النبيل وجماعة من أهل العلم
- ٣٥ غزو الروم
- ٣٦ علة المأمون وموته
- ٣٩ ذكر خلافة المعتصم
- ٣٩ موجز
- ٤٠ ذكر جل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ٤٠ ابن الزيات وزير المعتصم وأحمد بن أبي دؤاد
- ٤٠ حب المعتصم للعمارة

٤٠	بأس المعتصم وقوته
٤١	المعتصم وعلي بن الجنيد
٤٣	المعتصم وشيخ زلق حمارة في الطين
٤٣	وفاة جماعة من العلماء
٤٣	محمد بن علي بن موسى بن جعفر
٤٤	محمد بن القاسم، العلوي
٤٤	جمع المعتصم للأتراك
٤٥	تخطيط سامرا
٤٦	خروج بابك الخرمي
٤٩	غزو الروم زبطرة
٤٩	هزيمة الروم
٥٠	خروج المازيار صاحب طبرستان وموته
٥١	موت أبي دلف العجلي
٥٢	عداوة أبي دلف وابنه
٥٢	موت جماعة من العلماء
٥٤	ذكر خلافة الواثق بالله
٥٤	موجز
٥٥	ذكر لمع من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
٥٥	صفات الواثق
٥٥	غلب عليه اثنان
٥٥	أعرابي يصف الواثق وأعوانه
٥٧	أبو تمام الطائي
٦٣	علي بن الجعد
٦٣	قتيل في المحنة
٦٣	نديم
٦٤	محمد بن علي بن موسى
٦٤	عبد الله بن طاهر
٦٤	مجلس للواثق في الفلسفة والطب
٦٧	الواثق وحنين بن إسحاق أيضاً
٦٧	أوقات السنة

- الكواكب ٦٧
- الرياح ٦٧
- البلدان ٦٨
- تأثير البحار في البلدان ٦٨
- نطق الحكماء على جدث الإسكندر ٦٨
- ذكر خلافة المتوكل على الله ٧٠
- موجز ٧٠
- ذكر جمل من أخباره وسيره، ولع مما كان في أيامه ٧١
- أمره بترك الجدل وإظهار السنة ٧١
- أحدث اللعب والمضاحك ٧١
- علب عليه الفتح بن خاقان ٧١
- أحدث البناء الحيري ٧٢
- أخذه البيعة لأولاده الثلاثة ٧٢
- سخطة على ابن الزيات ٧٢
- وزراؤه ٧٣
- المبرد ومجنون بدير هرقل ٧٤
- البحثري ينشد المتوكل ٧٥
- حمار أبي العنيس ٧٦
- المتوكل وعلي بن محمد العلوي ٧٧
- وفاة ابن سماعة القاضي الحنفي ٧٨
- موت يحيى بن معين وجماعة من الأنبا ٧٨
- قصة سجين ٧٨
- رضاه عن يحيى بن أكنم ٧٩
- وفاة ابن أبي دؤاد ٨٠
- منزلة ابن أبي دؤاد عند المعتصم ٨٠
- المتوكل يشتهي قدرأ طبخها ملاحون ٨١
- الجاحظ يصحب محمد بن إبراهيم في حراقة ٨٢
- سخط المتوكل على الرخجي ٨٤
- وفاة الإمام أحمد بن حنبل ٨٤
- انقضاض الكواكب ٨٤

- ٨٥ وفاة جماعة من أهل العلم
- ٨٥ بين هشام وأبي الهذيل
- ٨٥ وفاة جماعة من المعتزلة
- ٨٦ بين هشام وعمرو بن عبيد
- ٨٧ ابن الراوندي
- ٨٧ وفاة الصولي الكاتب
- ٨٩ العباس بن الأحنف
- ٩٠ وفاة العباس بن الأحنف
- ٩١ نفى المتوكل علي بن الجهم
- ٩٤ المتوكل في دمشق
- ٩٥ الأتراك يدبرون وقعة
- ٩٦ تدبير المؤامرة ضد المتوكل
- ٩٧ وفاة شجاع أم المتوكل
- ٩٧ مقتل المتوكل
- ٩٩ وصف أيام المتوكل
- ١٠٠ الحسين الخليفة بين يدي المتوكل
- ١٠١ من رثاء المتوكل
- ١٠١ محبوبة جارية المتوكل
- ١٠٣ وفاة جماعة من أهل العلم
- ١٠٥ ذكر خلافة المنتصر بالله
- ١٠٥ موجز
- ١٠٦ ذكر جل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ١٠٦ الموضع الذي قتل فيه المتوكل
- ١٠٧ وزير المنتصر ابن الخصيب
- ١٠٨ وزير المقتدر
- ١٠٨ مرض المنتصر وموته
- ١٠٩ الخلاف في سبب موت المنتصر
- ١٠٩ من صفات المنتصر
- ١١٠ صنع المنتصر بآل أبي طالب
- ١١٠ خلع أخويه من ولاية العهد

- ١١١ خروج الشاري باليمن
- ١١٢ حديث عن العشق
- ١١٤ صنيعه مع عاشق
- ١١٥ شهادة الحمير
- ١١٧ ذكر خلافة المستعين بالله
- ١١٧ موجز
- ١١٨ ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ١١٨ وزراؤه وكتابه
- ١١٨ سعيد بن حميد
- ١١٩ أبو علي البصير
- ١٢٠ ظهور يحيى بن عمر الطالبي
- ١٢٣ بين الموفق وعلي بن محمد العلوي
- ١٢٤ ظهور الحسن بن زيد العلوي
- ١٢٥ ظهور محمد بن جعفر
- ١٢٥ ظهور أحمد بن عيسى العلوي
- ١٢٥ ظهور الكوكي بقزوين
- ١٢٥ ظهور الحسين بن محمد العلوي
- ١٢٦ عزم على أخذ البيعة لابنه
- ١٢٦ بين محمد بن طاهر وأبي العباس المكي
- ١٢٧ معرفة المستعين بالأخبار
- ١٢٧ عروة بن حزام
- ١٢٨ حديث عن مجنون بني عامر
- ١٣٠ وفاة بغا الكبير
- ١٣٠ بغا يرى رسول الله في الحلم
- ١٣١ قصة له مع طالبي
- ١٣١ بين المستعين والأتراك
- ١٣١ الموالي يجمعون على بيعة المعتز
- ١٣٣ موت المستعين
- ١٣٤ ذكر خلافة المعتز بالله
- ١٣٤ موجز

- ذكر جبل من أخباره، وسيره، ولع مما كان في أيامه ١٣٥
 قول الناس في خلعه نفسه ١٣٥
 وفاة جماعة من أهل العلم ١٣٥
 فص من الياقوت الأحمر ١٣٦
 بعض ما قيل في المعتز ١٣٦
 وزراء المعتز ١٣٧
 علي بن محمد الطالبي ١٣٧
 موت محمد بن عبد الله بن طاهر ١٣٨
 ماني الموسوس ١٣٩
 المعتز وولاية العهد ١٤٢
 حوادث ١٤٢
 موت بغا الصغير ١٤٣
 الأتراك والمعتز ١٤٣
 المعتز أول من ركب بحيلة الذهب ١٤٤
 المستعين أول من وسع الأكمام ١٤٥
 علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلويان ١٤٥
 بعض الطالبين الذين نالهم مكروه ١٤٥
 ذكر خلافة المهدي بالله ١٤٧
 موجز ١٤٧
 ذكر جبل من أخباره وسيره، ولع مما كان في أيامه ١٤٨
 قبة المظالم وشيء من سيرته ١٤٨
 وزرائه ١٤٨
 الخلاف في مقتل المعتز ١٤٨
 بين المهدي وموسى بن بغا ١٤٩
 مقتل المهدي ١٥٠
 سبب حنق الأتراك ١٥١
 قتله لكاتين ١٥١
 ابن المدبر ١٥١
 مع طفيلي ١٥١
 سيرة المهدي ١٥٣

- ١٥٣ طرف من القول بخلق القرآن
- ١٥٥ خبر نوف عن علي بن أبي طالب
- ١٥٦ علة حب الدنيا
- ١٥٦ خروج صاحب الزنج بالبصرة
- ١٥٧ عمرو بن بحر الجاحظ
- ١٥٨ يموت بن المزرع
- ١٥٩ ذكر خلافة المعتمد على الله
- ١٥٩ موجز
- ١٦٠ ذكر جمل من أخباره وسيره، ولع مما كان في أيامه
- ١٦٠ وزراؤه
- ١٦٠ حرب صاحب الزنج
- ١٦٠ الإمام الثاني عشر
- ١٦١ يعقوب الصفار
- ١٦٢ سياسة الصفار
- ١٦٢ طاعة أتباعه له
- ١٦٥ وفاة موسى بن بغا
- ١٦٥ موت المزني
- ١٦٥ موت جماعة من أهل العلم
- ١٦٦ من أعمال المهلب بالبصرة
- ١٦٧ صاعد بن مخلد
- ١٦٨ وفاة جماعة من الأعيان
- ١٦٨ أحمد بن طولون وابنه
- ١٦٨ وقعة الطواحين
- ١٦٩ الربيع المرادي
- ١٦٩ المعتمد والموفق
- ١٦٩ خروج أحمد بن طولون
- ١٧١ يازمان غلام الفتح بن خاقان
- ١٧١ عمرو بن عبيد الله الأقطع
- ١٧١ علي بن يحيى الأرمني
- ١٧٢ من حمية معاوية

١٧٥	محبة المعتمد للهو
١٧٥	أول من اتخذ العود ونحوه
١٧٦	ملاهي الروم
١٧٧	الهند
١٧٧	حداء العرب
١٧٧	أول الغناء في العرب
١٧٧	أثر الغناء
١٧٨	المغني الحاذق
١٧٨	أنواع الطرب
١٧٨	منزلة الإيقاع وألقابه
١٧٩	الرقص وأنواعه
١٨١	ثورة تنتهي بموت الموفق وقيام المعتضد
١٨٢	غداة المعتضد الذي مات عقيبه
١٨٤	ذكر خلافة المعتضد بالله
١٨٤	موجز
١٨٥	ذكر جل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
١٨٥	حال الرعية في أيامه
١٨٥	مالية الدولة في عهده
١٨٥	تقديره
١٨٦	أنواع من قسوته
١٨٦	وزراؤه
١٨٦	صلاته العيد
١٨٦	زواجه بنت خارويه
١٨٧	ابن الجصاص
١٨٧	أبو العيناء
١٨٩	هدايا الصفار للمعتضد
١٩٠	قدوم أهل البصرة على المعتضد
١٩١	أبو خليفة الجمحي
١٩١	ابن الشيخ في آمد
١٩٣	حرب مع رافع بن ليث

- ١٩٤ محمد بن الحسن بن سهل يدعو لرجل طالبي
 ١٩٤ محاربة بني شيان
 ١٩٤ فتح عمان
 ١٩٥ ابنة ابن أبي الساج
 ١٩٥ مسير إسماعيل بن أحمد إلى أرض الترك
 ١٩٥ بين وصيف وعمرو بن عبد العزيز
 ١٩٥ أحداث
 ١٩٦ مقتل أبي الجيش خمارويه
 ١٩٦ الحصيان
 ١٩٧ نقل جثة خمارويه إلى مصر
 ١٩٧ من حزم المعتضد
 ٢٠٠ ابن المغازلي المضحك
 ٢٠٢ وفاة جماعة
 ٢٠٢ حرب هارون الشاري
 ٢٠٤ الكيمياء
 ٢٠٥ جيش ابن خمارويه وأصحابه
 ٢٠٥ وفاة مقدم الرعيني
 ٢٠٥ مصادرة ابن الطيب السرخسي ومقتله
 ٢٠٦ رافع بن هرثمة
 ٢٠٦ ثورة
 ٢٠٦ شبح يتشكل للمعتضد
 ٢٠٧ يوم الأجر
 ٢٠٧ وفاة إبراهيم بن محمد الحربي الفقيه
 ٢٠٨ إبراهيم بن جابر القاضي
 ٢٠٩ وفاة المبرد
 ٢٠٩ محمد بن يونس
 ٢٠٩ أبو سعيد الجنابي
 ٢١٠ أبو الأغر والأعراب
 ٢١٠ أحداث
 ٢١١ الداعي العلوي

- ٢١١ المعتضد ووصيف الخادم
 ٢١٢ وفاة ابن أبي الساج
 ٢١٣ بشر بن موسى المحدث
 ٢١٣ عمرو بن الليث
 ٢١٣ وفاة وصيف الخادم
 ٢١٤ أبو الفوارس القرمطي
 ٢١٤ المعتضد والطالبيون
 ٢١٥ وصول قطر الندى للمعتضد
 ٢١٦ وفاة جماعة من الأعيان
 ٢١٧ وفاة المعتضد
 ٢١٨ ذكر خلافة المكتفي بالله
 ٢١٨ موجز
 ٢١٩ ذكر جبل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
 ٢١٩ اسم علي في الخلفاء
 ٢١٩ رد المظالم إلى أهلها
 ٢١٩ غلب عليه جماعة
 ٢١٩ إيقاعه بيدر
 ٢٢١ منزلة بدر
 ٢٢٢ ظهور القرمطي بالشام
 ٢٢٢ فداء الغدر وفداء التمام
 ٢٢٣ مالية الدولة
 ٢٢٣ وظيفته من الطعام
 ٢٢٣ نهب ضياعاً من أهلها
 ٢٢٣ قسوة وزيره
 ٢٢٣ وفاة الوزير
 ٢٢٤ مقتل عبد الواحد بن الموفق
 ٢٢٥ مقتل ابن الرومي
 ٢٢٦ وفاة جماعة من الأعيان
 ٢٢٦ من أخبار ثعلب
 ٢٢٧ وفاة جماعة من العلماء

٢٢٧	أحداث
٢٢٧	وفيات
٢٢٨	وصف القطائف
٢٢٩	وصف اللوزنج
٢٣٠	من شعر المكتفي
٢٣٠	شراب الدوشاب
٢٣٠	قصة هريسة
٢٣١	هدية من أبي مضر بن الأغلب
٢٣١	آل الأغلب بإفريقية
٢٣١	علة المكتفي
٢٣٢	ذكر خلافة المقتدر بالله
٢٣٢	موجز
٢٣٣	ذكر جل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
٢٣٣	مقتل وزيره
٢٣٣	مصنفات في سيرة المقتدر
٢٣٣	عبد الله بن المعتز
٢٣٥	وفاة محمد بن داود الأصفهاني
٢٣٦	وفاة علي بن بسام
٢٤١	طعام محمد بن نصر
٢٤٢	وزراء المقتدر
٢٤٣	مقتل المقتدر
٢٤٣	السادس من بني العباس
٢٤٣	وفاة موسى بن إسحاق الأنصاري
٢٤٤	غرق البيت الحرام
٢٤٤	وفيات
٢٤٤	ظهور طالبي في مصر
٢٤٤	وفاة الرسي
٢٤٥	ظهور ابن الرضا
٢٤٥	ظهور الأطروش العلوي
٢٤٥	وفيات

٢٤٦	أحداث
٢٤٦	موت ابن ناجية
٢٤٦	ابن الجصاص
٢٤٦	وفاة القاسم بن الحسن بن الأشيب
٢٤٧	غارة البربر على مصر
٢٤٧	ابن أبي الساج
٢٤٨	ذكر خلافة القاهرة بالله
٢٤٨	موجز
٢٤٩	ذكر جبل من أخباره وسيره، ولمع ما كان في أيامه
٢٤٩	وزراؤه
٢٤٩	أخلاقه
٢٤٩	الخراساني الأخباري يصف الخلفاء العباسيين للقاهر بالله
٢٥٠	وصف السفاح
٢٥٠	وصف المنصور
٢٥١	وصف المهدي
٢٥١	وصف الهادي
٢٥١	وصف الرشيد
٢٥٢	وصف أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور
٢٥٣	وصف المأمون
٢٥٤	وصف المعتصم
٢٥٤	وصف الواثق
٢٥٤	وصف المتوكل
٢٥٤	وفاة ابن دريد
٢٥٧	ذكر خلافة الراضي بالله
٢٥٧	موجز
٢٥٨	ذكر جبل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
٢٥٨	وزراؤه
٢٥٨	من شعر الراضي
٢٥٩	من محاسن الصولي أبي بكر
٢٥٩	الخليل بن أحمد

- ٢٦٠ أنواع آلات الشطرنج
- ٢٦١ كلمات في الرد
- ٢٦٢ العروضي يحكي عن الراضي وسعة اطلاعه
- ٢٦٣ بين معاوية وقيس بن سعد
- ٢٦٤ طير الكيكم
- ٢٦٥ الراضي يعد العروضي بمنحه إذا أضحكه
- ٢٦٦ لبس المأمون الخضرة ثم السواد
- ٢٦٧ بين القاهر والراضي
- ٢٦٨ خلق الراضي وعاداته
- ٢٦٨ الراضي بالله وبجكم التركي
- ٢٧٠ ذكر خلافة المتقي بالله
- ٢٧٠ موجز
- ٢٧١ ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ٢٧١ وزراؤه
- ٢٧١ انتقاض الأمر عليه
- ٢٧٣ المتقي يطلب رجلاً أخبارياً يأنس به
- ٢٧٣ قصيدة أبي المقاتل في الداعي العلوي
- ٢٧٥ ومن صفات الخيل
- ٢٧٧ من أخبار حلبة الخيل
- ٢٨٠ أبو نصر الخبزأرزي
- ٢٨١ مقتل بجكم
- ٢٨٢ ذكر خلافة المستكفي بالله
- ٢٨٢ موجز
- ٢٨٣ ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في أيامه
- ٢٨٣ ذكر أول أمره
- ٢٨٤ المستكفي وغلाम ضمه له توزون
- ٢٨٤ من أخبار الحجاج مع أهل الشام
- ٢٨٥ مسامرة في وصف الخمر
- ٢٨٨ لابن المعتز في وصف سلة كوامخ
- ٢٨٩ في وصف سلة نوادر

- ٢٩٠ لابن الرومي في وصف وسط
 ٢٩٠ في وصف سنوسج
 ٢٩١ في وصف هليون
 ٢٩٢ في وصف أرزية
 ٢٩٢ في وصف هريسة
 ٢٩٣ في وصف المضيرة
 ٢٩٣ في وصف جوذابة
 ٢٩٤ في وصف جوذابة
 ٢٩٤ في وصف قطائف
 ٢٩٤ لأبي نواس في وصف ياطرنجا
 ٢٩٦ ذكر خلافة المطيع لله
 ٢٩٦ موجز مبدئه
 ٢٩٦ طالبي يظهر بصعيد مصر أيام ابن طولون
 ٢٩٧ ظهور محسن بن الرضا بدمشق
 ٢٩٧ ظهور الأطروش بطبرستان
 ٣٠٥ المؤلف يعد بتأليف كتاب في الأخبار
 ٣٠٧ ذكر جامع التاريخ الثاني من الهجرة إلى هذا الوقت
 ٣٠٧ مقدمة
 ٣٠٧ المبدأ ومقابله من تاريخ الإسكندر
 ٣٠٧ زمن أبي بكر
 ٣٠٨ زمن عمر
 ٣٠٨ عثمان
 ٣٠٨ علي
 ٣٠٨ معاوية
 ٣٠٨ يزيد بن معاوية
 ٣٠٨ معاوية بن يزيد
 ٣٠٩ مروان
 ٣٠٩ عبد الله بن الزبير
 ٣٠٩ عبد الملك بن مروان
 ٣١٠ ذكر أيام بني مروان بن الحكم